روايه
NOVEL

M. I. Quandour

السُّلطَان

الكتاب الثالث من ثلاثية بيبرس

أول السلاطين الشراكسة في مصر

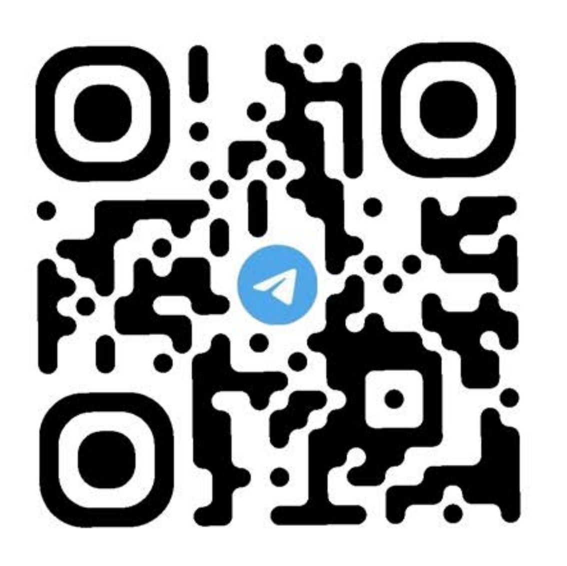
ثلاثية بيبرس III



محي الدين قندور




السُّلطَان
الكتاب الثالث من ثلاثية بيبرس
أول السلاطين الشراكسة في مصر



السُّلطَان... الكتاب الثالث من ثلاثية بيبرس/ رواية
محي الدين قندور / مؤلّف مقيم في بريطانيا
الطبعة الأولى، 2018



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 00961 1 707892 - 00961 1 707891
بيروت - لبنان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 00962 6 5605432، هاتفاكس: 00962 6 4631229
E-mail : info@airpbooks.com

ترجمة: **محمد أزوقة**
تصميم الغلاف: **محمود وزني** / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ: **المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس** / بيروت، لبنان



الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-419-847-6

رواية
NOVEL

محي الدين قندور

▼

السُّلطَان

الكتاب الثالث من ثلاثية بيبرس

أول السلاطين الشراكسة في مصر



محي الدين عزت قندور أصبح كاتباً متفرغاً عام ١٩٩٢ بعد الانتشار الناجح لثلاثيته التاريخية الأولى «الشراكسة» ، وقد كتب أكثر من عشرين رواية تاريخيه منذ ذلك الحين ، جميعها موثقة بعناية . هو مؤرخ (دكتوراه في التاريخ) ولكنه مثل معلمه جيمس ميتشنر ، اختار منصة القصة ليروي تواريخ مواضيعه . تمت ترجمة كتبه إلى لغات عديدة وتحظى بانتشار واسع ، خاصة في الوسط الرقمي . يمكن العثور على قائمة بآخر أعماله في مكتبات بارنز آند نوبل (الولايات المتحدة) والأمازون ومخازن الكتب والروابط العنكبوتية الأخرى عبر العالم .



إدوارد

تونس ، ٢٥ آب سنة ١٢٧٠

كان الملك العجوز في حالة احتضار . في أيام شبابه واكتمال رجولته كان أجمل الرجال في العالم المسيحي ، لكن الصعوبات التي اضطر إلى تحملها برغبته ، لما يزيد على ستين سنة ، جعلت وجهه ينكمش ويتعقد - يهترئ - وقد ملأ المرض الذي فتك بجسمه الجناح الملكي بنتانة لم تستطع الشموع المئة التي أضيئت في ثنايا الجناح أن تخترقها . حتى أطباؤه تراجعوا عندما ألقت النتانة بنفسها على خياشيمهم لحظة دخولهم . فيما عدا الأمير الشاب .

«أمسك بيدي ، يا پلانتاجيني الفتي» .

جاء صوت الملك ضعيفاً إلى درجة أنه لم يكد يرتفع فوق هسيس الشموع .

شاهد إدوارد الجلد على العظم ، المعاصم الشبيهة بالعصي . ركع ، أزاح درع صدره الحديدي إلى ناحية وتناول يد الملك . تعلق لواء زهرة اللوتس فوق الفراش مثل كفن . أحسَّ إدوارد بشيء أشبه بملمس التراب تحت اليد التي استخدمها لحفظ توازنه ، ثم نظر إلى أصابعه ورأى السواد .

رماد

لقد اختار لويس ، الملك التاسع لفرنسا الذي يحمل ذلك الاسم ،

أن يموت على فراش من الجذوات المتعفنة . كان هذا قراراً غريباً لكنه قرار اعتقد الملك أن الفكرة تعزز تواضعه حينما يواجه ربه . فكر إدوارد بأن ذلك مطابق لشخصيته . فقد وجد الكثير مما يجب على الملك أن يستغفر ويتوب عنه قبل حلول أجله .

كان قد توقف قبل أن يدخل الخيمة الملكية ليقدم احترامه وتعزيته لجثمان ابن الملك ، جون تريستان ، الذي وقع ضحية سابقة للرعب المدمر الذي تسببه المياه الآسنة الموجودة في هذا المكان لأجهزة الجسم . لقد قدم لويس الكثير للرب ، ولكن عطاياه لم تكن قد انتهت ، لأن الرب يقوم الآن بأخذ جوهر جسمه بعد أن انتهى من أخذ أغلى ما لديه . فقد كان تريستان ابنه الأصغر ، المولود في دمياط بمصر ، أثناء زحف لويس وجيشه جنوباً في محاولتهم الفاشلة لاحتلال القاهرة ، وإعادة مصر والأراضي المقدسة إلى الإيمان الصحيح الوحيد مرة أخرى .

رغم أن إدوارد لم يكن قد بلغ العشرين بعد ، إلا أنه أصبح خبيراً بالمعارك والحروب الكثيرة التي عانت منها إنجلترا أثناء حكم والده والبارونات الذين سعوا إلى الاستيلاء على ملكه . والآن ، فإن إنجلترا تنعم بالسلام وأصبح عرش والده بأمان ، لذلك فقد أبحر إلى أقصى أنحاء العالم المعروف لينضم إلى لويس أثناء سعيه مرة أخرى لتحرير بلاد مولد المسيح من المفسدين . ماذا تعني الرمال الحارقة والشمس المشتعلة بالنسبة للشخص الذي شرب الدماء والوحل منذ اللحظة التي غادر فيها صدر حاضنته؟

«قل لي أيها الأمير ، ما الذي تفعله في هذا المكان؟»

«لقد جئت لأمنح سيفي لخدمة الرب . كفارة عن الرجال الذين

صادرت حيواتهم أثناء حروب والدي» .
«وهل لديك قلب مؤمن؟»
«هذا صحيح»
بدا أن مجرد هذا الجهد في الكلام يرهق الملك ، فرقد يحدق في الأعلى لوهلة قبل أن يتكلم مرة أخرى :
«هل أنت تؤمن بقدسية قضيتنا؟»
«أنا أؤمن بأن أية قضية عادلة هي مقدسة» .
لامست ابتسامة واهنة شفتي الملك المتشققتين .
قال «أنا سأموت في هذا المكان» .
لم يخالفه إدوارد . أدار عينه الصالحة لينظر في عيني الملك لويس وشدد قبضته على اليد الناحلة . قال «سوف أقوم على حراستك ، يا صاحب الجلالة . وسوف نواجه الموت سوية» .
جاء نفس طويل ، أشبه بقرقرة وكأنه إشارة على أن ذلك الكلام يريح لويس .
لم يزعجهما أحد في جلستهما . لم يتمكن نور النهار من الدخول عير الثنايا السميكة لخيمة الملك ، لكن الحرارة كانت شديدة لدرجة أن إدوارد استطاع أن يشعر بحركة الشمس على مدى ظهره ، وإلى مقدمة وجهه الغارق في التعرق أثناء مرورها ، وهو مطأطئ الرأس .
«هناك شخص آخر مثلك» كان الصوت قد استرد قوته .
رفع إدوارد رأسه
«مولاي؟»
«إنه أسد العرب المسلمين»
«هل أنت تتكلم عن ملك هذه المدينة؟»

«كلا ، أنا أتكلم عن ذلك الرجل الذي يقود جيش مصر . إن اسمه هو بيبرس» .

«وهل هو يشبهني؟»

«لقد ميزه الرب بنقص في الإبصار هو الآخر» .

عند ذكر إعاقته ، رفع إدوارد يده ليفرك عينه في حركة تشكل صدى لطفولة مستمرة في رجل دفن مثل تلك العادات منذ زمن طويل ، ولمس الجفن المتدلي - الحالة التي سماها طبيبه ، الذي يتحدث اللغة الغالية بطلاقة پتوسيس ، من اللغة الإغريقية .

منحت الحالة الأمير طريقة نظر حولاء منحرفة ، وكأن الشخص الذي يخاطبه يخضع لنوع من الاستجواب حتى في أكثر الظروف بساطة . وقد ذكره راعي كنيسته منذ بواكير صباه أن الرب قد قرر أن يبقيه متواضعاً بإضافة هذا العيب الوحيد إلى جسمه المثالي . كان حملة ألقاب البارون والدوق قد أطلقوا على إدوارد تسمية «السيقان الطويلة-Longshanks» ، اعترافاً منهم بأنه على الرغم من هزاله في مراهقته ، إلا أنه أصبح الآن يشرف بقامته على الرجال أنفسهم الذين تجرأوا سابقاً على رفع راياتهم ضد تاج والده .

استطاع أعظمهم شأناً ، سيمون دي مونتفورت ، في إحدى المرات حتى أن يأسر الأمير الفتي إدوارد نفسه ويحتفظ به كرهينة . لكن إدوارد تمكن من الهرب ، من خلال عبقريته وجرأته ، وكانت قوات إدوارد هي التي انتصرت على قوات مونتفورت في معركة ايفيشام (Evesham) في العام التالي ، حيث قامت بتمزيق جسد ذلك الطامع وبعثرت أشلاءه في زوايا المملكة الأربع . كان صديق إدوارد ، روجر مورتيمر هو الذي سدد الضربة القاتلة ، حين اخترق رقبة مونتفورت

بخنجره ، ثم أرسل رأس الثائر إلى بيته كهدية لزوجته .

ذلك كان مصير أولئك الذين يتجرأون على التعرض لكرامة عائلة پلانتاجيني .

لم يكن عبثاً أن شعارهم يتشكل من ثلاثة أسود ، واحدهم فوق الآخر ، وكلهم يزأرون في وجه جميع الذين ينظرون إلى أسلحتهم .

وجهه وسيم ، بعظام قوية تتماشى مع أطرافه وجذعه ، وعندما يتم خادمه تثبيت آخر قطعة من درعه في مكانها ، فقد كان يمتلك مقداراً من العرض في كتفيه ونحولاً في خصره ، بحيث أن نساء البلاط كن ينجذبن إليه وكأنهن مسحورات .

استطرد لويس قائلاً «في الوقت الذي تظهر إعاقتك الخضوع للرب بمنعك من النظر إلى ألوهيته ، فإن المسلم العربي ينظر إلى الدنيا من خلال عينه المصابة وكأنها عين الشيطان نفسه ، بحيث لا تجلب سوى الشر - جرم سماوي أبيض للموت ، يلمس كل شيء يراه»

«هل قابلته أنت يا مولاي؟»

«لقد قابلته . كنت سجيناً لديه . لقد تفوق على إخوتي في القتال المفتوح ، مستغلاً غرورهم كسلاح له ، ثم طاردني عبر رمال مصر اللاهبة مثلما طاردت شياطين هيرود المسيح الطفل . لقد قالوا إنه لا يتناول الطعام ولا الشراب ، رغم أنه قبل الضيافة عندما كان في حضرتي . لم أفاجأ عندما وصلتنا الأخبار بأنه قد كسر ظهر الحشود المغولية ، في تمام اللحظة التي بدا فيها أن انتصارهم على المسلمين ، واقع لا يمكن إنكاره» .

«هو مقاتل»

«وهو حضر إلى مصر عبداً . لقد تم اختطافه من أعماق الشمال

حينما كان صبياً وتم تدريبه لحياة الفارس العسكرية» .

قال إدوارد «لكنه ليس فارساً - ليس بدون الرب . أو أي دماء نبيلة . لا يمكن للفرسان أن يكونوا عبيداً أبداً» .

«وهل هذا الرجل يحكم في مصر يا صاحب الجلالة؟»

«ربما يفعل ذلك ، بحلول هذا الوقت . فقد كان أعظم مقاتليهم عندما انتهت رحلة حجي ، وامتلك عقلاً يفتقر إليه حتى الكثير من العلماء . ولكن أيضاً ، يحتمل أنه قد مات ، فالحياة ليست مقدسة في تلك الأمكنة التي يسيطر عليها الكفار . كما يمكنك أن ترى هنا» .

«إن رحلة حجك لم تنتهي يا مولاي» .

«لكنها ستنتهي . سرعان ما سأشاهد وجه الرب نفسه وسوف يعاقبني على خطاياي» .

«أنت بلا خطايا يا صاحب الجلالة . سوف يتم الترحيب بك من قبل القديسين عندما يحين ذلك الوقت» .

ابتسم لويس مرة أخرى «إن الحديث عن موت الملك خيانة عظمى» .

«إذاً قدني إلى المشنقة» .

«كلا ، أيها البلانتاجينيي الفتي . إن حجتك قد بدأت لتوها .»

انفتح فم الملك على اتساعه وارتمى إلى الخلف فوق الفراش وقد أصابته نوبة سعال ، أثارت الغبار الأسود إلى الأعلى . تلوى جسده الهيكلي داخل ثوبه القذر وانفتل من شدة الألم .

حاول إدوارد أن يضمه ، وأخذ يصرخ «ماء! أحضروا الماء!»

اندفع الخدم والطبيب داخلين فتراجع واقفاً ليسمح لهم بالعمل . أسندوا الملك إلى وضعية الجلوس ثم وضعوا القدح إلى شفتيه . توقف

التشنج . شرب بنهم ممسكاً القدح بيديه بقوة . بعد أن استعاد لويس السيطرة على نفسه ، رفع رأسه .

«لقد بدأت رحلة حجك لتوها ، أيها الأمير الفتي . ستقوم بأكثر الأعمال قداسة للرب ، وستشدو ملائكته بمدائحك» . تلا ذلك المزيد من السعال ، ولكن أقل حدة من ذي قبل .

«سوف أتركك لتستريح ، يا صاحب الجلالة . نحن سنكسب هذه المعركة لاحقاً» .

«هذه المعركة والحرب ، أيها البلانتاجيني الشاب . لكنك تتركني لأموت . أرسل ابني إلى هنا إذا كان قد أتم الصلاة على جثمان أخيه واجعله يحضر الختم الملكي . هناك عمل ينبغي أداؤه قبل أن أعقد سلامي مع الرب الذي سيخبرني بما يجب علي أن أفعله قبل أن أجلس إلى جانبه» .

طرف إدوارد بعينيه في الضياء لدى خروجه من العتمة ، المختلفة كلياً عن إنجلترا ، حتى أثناء الصيف ، وعثر على الابن البكر - المسمى فيليب - جالساً على صهوة حصانه ، إلى جانب شقيق الملك ، الفونس . كانا بين عظماء الرجال في فرنسا ، وكلهم راكبون ومصطفون ، ينتظرون مصير مليكهم . فيليب أكبر سناً من إدوارد بخمس سنوات ، لكنه كان يفتقر إلى شجاعة وعنف وريث العرش الانجليزي ، رغم أن مهاراته في ألعاب الفروسية وفي المعركة كانت في قوة ابن عمه البلانتاجيني نفسها .

قال إدوارد «إنه يسأل عنك يا صاحب السمو .» وراقب بينما تبادل فيليب نظرة منزعجة مع عمه قبل أن يترجل ويتخذ طريقه إلى المدخل . وضع إدوارد يده على ذراع الرجل أثناء مروره . «إنه أيضاً

يطلب أن تحضر الختم الملكي» . سحب فيليب نفساً وخفض رأسه لدى سماعه هذه العبارة .

قال إدوارد «هو ليس خائفاً . وذلك هو ما يجب أن يكون الأمر عليه مع الملوك» .

اقترب فيليب وهو يكبت الغضب الذي استطاع إدوارد أن يرى أنه يهدد بالتغلب عليه ، وقدم شكره بإعادة بادرة الامتنان إلى ذراعه . أشار إلى موظف ديوان البلاط ، وهو رجل بسوالف بيضاء طويلة تتنزل على خديه ، وبدا منظره على أشد ما يكون الانزعاج في الطقس التونسي ، وأمره بالإقتراب . اختفيا في الظلمة النتنة التي تشكل غرفة معسكر الملك .

وقف ألفونس أمير پواتييه إلى جانب إدوارد «إنه شاب طيب» قال عن فيليب «شجاع وجريء ، لكنه خجول مثل فأر حينما يتعلق الأمر بإظهار شخصيته في أي مكان آخر غير ميدان المعركة» .

استمر إدوارد في النظر خلفهما «سوف تشعر جميع الأسر المالكة في العالم المسيحي وما وراءه بفارق غياب والده» .

ابتسم پواتييه «إنه أمر جيد أن يعرف الإنسان أن إنجلترا تحمل كل هذا التقدير للملك» .

«إنجلترا تقدر وستفعل ذلك على الدوام . لقد كان الملك لويس وسيطاً شريفاً أثناء حرب البارونات ، وصديقاً لعرشنا» . استدار ليحدق في عيني پواتييه ، وقد تحول تعبير الشفقة إلى تعبير وحش مفترس يعاين فريسته «لن تمنحنا أي إحساس بالراحة معرفة أن أقرب الناس إليه يعتبرون خليفته لا شيء أكثر من صبي» .

اختفت ابتسامة پواتييه وحدق في الأمير بدرجة البرود نفسها

التي قد ينظر فيها الشخص إلى أفعى . «إن إيماننا بسيادة النجل الأكبر وسلطته أمر غير قابل للكسر» .

هزَّ إدوارد رأسه «لا يعني الإيمان شيئاً إذا لم يكن غير قابل للكسر ، أيها الكونت ، أليس الأمر هكذا؟»

«هو كذلك يا صاحب السمو . لقد كان لويس يؤمن بأنه سوف يسترد أراضي انجو وماين وپواتو من والدك ولم يتزعزع إيمانه ، وانظر - ألم يوقع والدك على معاهدة بالاعتراف به كسيد إقطاعي عليه ، ويعيد تلك الأراضي إلى فرنسا؟»

للحظة ، بقي أسلوب إدوارد كما هو ، ثم عاد ليتغير ، بحيث أصبح ودوداً مرة أخرى .

«يتحدث الملك عن مسلم عربي قابله في المعركة في إحدى المرات ، ومرة أخرى في بيته» .

«هنالك العديد من المسلمين العرب يا صاحب السمو ، وهذا أمر مؤسف» .

«لقد قال بأن لدى الشخص عاهة في إحدى عينيه» .

طأطأ پواتييه «ذلك هو بيبرس البندقدار . الفائز البطل في المنصورة ، حيث لقي شقيقي آرتوا حتفه» .

«لقد كنت هناك أنت بدورك ، ألم تكن هناك؟»

«لقد طاوعت أوامر الملك وانسحبت لانتظر قدوم المشاة . لم ينتظر ارتوا ورئيس المعبديين ، وماتا على يد ذلك الكافر» .

«إن الملك يحتفظ بالكثير من الاحترام والتقدير إلى ذلك الرجل . يبدو أنه يستحقهما ، رغم كونه عبداً» .

«تلك هي طريقة الكفار يا صاحب السمو . في الأمكنة الملعونة

مثل هذا –» أشار پواتييه باتجاه المدينة ، حيث يمكن سماع أصوات المعركة الخافتة . «يحكم العبيد المؤمنين ، ويتم إجبار المؤمنين على ثني ركبهم أمام الشيطان نفسه» .

قال إدوارد «إنني أحب أن ألتقي بهذا الشيطان . لأرى نوع الهمة التي هو مصنوع منها» .

التفت پواتييه إلى مورتيمر ، وسط رجال إدوارد برؤوسهم المغطاة بدروع الزرد وسيوفهم المثلومة والمبقعة من دماء وعظام أعدائهم .

«إنه يقود فصيلة من الشياطين يا صاحب السمو ، معروفين باسم الفرسان ، وهم ينقضون على أعدائهم مثل مقدمة الجحيم نفسه» .

شاهد نظرة إدوارد المغطاة ، وقد انخفضت عينه السليمة لتوافق الأخرى . قائلاً :

«لكنني أراهن أنك ورجالك سوف تعادلونهم ضربة بالأخرى . وسوف يعني إيمانكم الصحيح بأن الرب سوف يقاتل إلى جانبكم ، ويرشدكم إلى المجد والنصر» .

طأطأ إدوارد ذو الساقين الطويلتين ، راضياً بهذا الكلام ، واستدار لينتظر الأحداث الدائرة فيما أصبح الآن غرفة موت الملك .

«ولأنك ترعبني أكثر حتماً مما فعل هو» فكر پواتييه ، لكنه لم يجهر بهذه الأفكار ، بل طلب النبيذ للرجال العطاش ، الإنجليز والفرنسيين على السواء .



صفيَّة

بلدة بيسان - فلسطين

لقد انتظر النهار بطوله لأجل هذه اللحظة ، مصغياً لساعات لا تنتهي للالتماسات ، وموزعاً المؤن ، مصدراً الأحكام ومستمعاً للكتبة يقرأون التقارير العسكرية ، منظماً الاستقبالات ، أسلحة المدينة وأساليب التخلص من القمامة ومكافحة النيران . تحولت فكرة وجودها نائمة في فراشه داخل رأسه ، ما جعله يتوتر ويسهو ثم يتصرف بطيش وتهور . لم يكن قد أحسَّ بهذه المشاعر منذ أن حصل على امرأته الأولى في سن الثانية عشرة . كانت تلك فتاة خادمة ، أكبر سناً منه بكثير ، لكنه دماءه النبيلة والافتراض بأنه سوف يطاع بدون سؤال جعلا العملية مسألة في غاية السهولة . تلك الفتاة ، لم يتمكن من تذكر اسمها ، على افتراض أنه قد عرفه ، فتحت له عالماً جديداً كاملاً من الاحتمالات ، ولكن على مدى الأربعين سنة التالية ، أصبحت النساء مسألة ذات عوائد متناقضة على الدوام . ليس لأنها أصبحت مسألة أداء متناقص من قبله - الأمر بعيد عن ذلك - ولكن لأن أي بئر ، مهما كان عمقها ، لديها قعر وقرار .

ما زال أمير الدين بكتوت قابلاً للإثارة بين الحين والآخر ، من قبل فتاة نوبية ذات بشرة أبنوسية ، أو افرنجية ذات عينين زرقاوين . حتى إنه كان لديه وكلاء جلبوا له فتيات ذوات عيون لوزية من الصين ، بعد أن

تم أسرهن ونقلهن آلاف الأميال من موطنهن من قبل التجار الذين يتبعون المغول . على أية حال ، فهاته لم يكنّ شيئاً يذكر بالقياس إلى صدمة الشهوة التي شعر بها لدى رؤيته ميلا . كانت ترتدي النقاب حينما تم تقديمها له في البيت الذي كان قد صادره في بيسان ، لكن طبيعة المواد التي ارتدتها ووقفتها وقد باعدت بين ساقيها قليلاً ، أمام موقد فحم مشتعل ، قد جعل لباسها كله يبدو شفافاً ، وتسرَّب المنظر مثل رجل قد نهض لتوه من بين الأموات .

صرف الرجل الذي جاء بها بإشارة مقتضبة من يده ، ولكن ليس قبل أن يشير إلى أنه يجب أن يترك القيود الفارغة التي تم إحضارها لها ، على الأرض .

«من أنت؟» كان حلقه قد جف .

أجابت «لقد جيء بي إلى هنا لأفعل ما أؤمر به» . الصوت الذي أتى من خلف الخمار عربي بدون أدنى شك ، لكن غطاء الوجه كان الجزء الوحيد الذي يغطي أي شيء مما ترتديه ، لذلك فإن كل ما استطاع رؤيته هو عينيها السوداوين مثل الدخان ، تلتمعان ببريق أشبه بحبات الفحم المحترقة خلفها . فوجئ لدى رؤيته أنها ظهرت له غير خائفة مطلقاً بالنسبة لفتاة صغيرة السن إلى تلك الدرجة - ما كان لسنها أن يزيد على العشرين بأي حال - تكاد تكون عابثة لعوباً .

يحتمل أنها ترى مدى تأثيرها عليَّ . انقبض صدره وهو يفكر بالطرق التي يستطيع أن يعاقبها بها على مثل ذلك الافتراض - بدون أن يلغيه منها كلياً .

«وهل ستفعلين ذلك؟»

قالت «سأفعل كل ما يأمر به مولاي» .

بدأ يتحرك باتجاهها «دائماً؟»

أجابته «دائماً» . وقد جاء القسم الأخير من كلمتها مثل شهقة حينما احتضنها بقوة وجذبها نحوه ليقبلها .

حدث ذلك في الليلة الفائتة ، وقد تركها كارهاً حتى يتفرغ لتصريف واجباته في مبنى البلدة الرئيس لذلك الصباح ، بينما هي تتمطى تحت الغطاء مع تنهيدة ناعسة راضية . نظر إليها لحظتها وصرَّف أسنانه ثم غادرها .

وها هو عائد الآن وقد صمم كلياً على تعويض الوقت الفائت . كان قد أبلغ النادل أن يحضر لها كل الطعام الذي تريده عبر النهار ، وأن يجهز لها الحمام إذا رغبت فيه - مع أن جزءاً منه كان يأمل في أن لا تستحم .

كانت مستلقية بالوضعية نفسها التي تركها عليها لدى دخوله إلى غرفة النوم ، وقد ملأت الشموع والموقدة الغرفة ببخور عطري شبيه بعطرها . اندفع نحوها راكضاً واستمتع بإعادة التعرف على كل مسامة في بشرتها ، وعندما سقط على ظهره منهكاً ، ضحكت ونهضت واقفة ، مستغلة فستانها مثل روب حمام وهي تتخذ طريقها نحو حوض الغسيل .

سألته «ما الذي فعلته اليوم بحيث أبقاك بعيداً كل هذا الوقت؟»

أجابها «أقوم بتنفيذ شؤون الدولة ، يا حبيبتي» . وقد وضع ذراعه فوق رأسه .

«هناك الكثير مما ينبغي عمله خاصة بعد أن تم التفوق على المتوحشين وإعادتهم من حيث جاءوا» .

«هل تقصد رجال المغول؟ لقد رأيتهم . وسمعت ما فعلوه بالناس - بالمدن والمزارع» .

نهض جالساً «بهذه المدينة ، والآن نحن مضطرون لإعادة البناء» .

«لا أعرف سوى القليل عن هذه الأمور» . قالت وهي تمسح عينيها «إنها ترعبني . هل واجبك هو إعادة بناء هذه المدينة؟»

أجابها بكتوت «هو كذلك . لقد تم تعييني من قبل السلطان نفسه» .

«بيبرس؟»

عبس مكشراً وجحر بها غاضباً .

«بل قطز . بيبرس ليس هو السلطان . ولن يصبح سلطاناً أبداً» .

«لكن ذلك هو ما همست به الفتيات الأخريات عند أول وصولي . لقد استرقت السمع إلى بعض من الصغيرات يقلن إن السلطان بيبرس في طريقه لزيارة المدينة بعد أن يهزم الخونة . لقد كان في طريق عودته إلى القاهرة» .

قال وقد نهض واقفاً «إذاً فأنت أو هنَّ على خطأ» . استدارت لتنظر إليه

«يحتمل أنك سمعت أن السلطان وبيبرس قادمان إلى المدينة» .

«يبدو أنني قد أغضبتك» .

قال «كلا . إنني جائع . سوف أرسل في طلب الطعام» .

«هو يغضبك»

«أنت تنسين مقامك أيتها الفتاة . لن يعني لي شيئاً أن أعيد تقييدك بتلك السلاسل الموجودة هناك وأتركك في القبو طيلة الليل . هل تعرفين ما يفعله الفتية للبنات المقيدات بتلك الطريقة؟»

وقفت خلفه وقد نزعت ثوبها ، ضغطت بجسمها على ظهره ، وقد دفنت رأسها في مؤخرة رقبته . تدرجت أظافرها زحفاً على صدره ثم نزولاً .

همست له «سامحني يا مولاي» . استدار ليواجهها ، ركعت على ركبتيها «أرجوك أن لا تبعدني . إني أتوسل إليك . . . .»

وضع يده على جانب رأسها حيث الشعر الناعم وقال «سوف أسمح لك بالبقاء . لكن إياك أن تعودي إلى ذكر ذلك الاسم أمامي ، هل تفهمين؟»

«لن أفعل يا مولاي ، لن أفعل!» كانت تنتحب «إنني قليلة الخبرة بعالم الرجال إلى درجة أنني نسيت نفسي» .

«لقد فعلت ذلك . لكنك سوف تتعلمين يا حلوتي . أحضري لي شراباً» .

نهضت ومشت باتجاه النضد . عندما عادت ، أشار إليها بأن تجلس على الفراش .

سألته «ماذا يمكنني أن أحضر لمولاي غير هذا؟»

«لا شيء . فقط إبقي حيث أنت» . تناول جرعة طويلة «من كانت الفتيات اللاتي سمعتهن يتحدثن عن مثل هذه الأمور؟»

«لا أدري يا مولاي . لقد كنَّ من فتيات المطبخ . لديهن لهجة غريبة . لكنني استطعت أن أفهم كلامهن بدرجة كافية» .

«وهل تجرأن على ذكر اسم السلطان بالاسم؟»

«ليس بالاسم يا مولاي . ليس السلطان الحقيقي . فقط الرجل الذي أمرتني بأن لا أذكر اسمه» .

«لن يعود أي شخص إلى ذكر اسمه عما قريب – خاصة الفتيات الخادمات . يا له من كريه . سوف تقومين بالإشارة إليهن أمام نادلي حتى يمكن معاقبتهن» .

«سأفعل ذلك يا مولاي» .

كان قد وصل إلى نصف كوبه ، وهو يهز رأسه .

«هل يسمح لي بالسؤال ، أيها السيد ، لماذا لن يتكلم أحد باسمه؟»

رفع رأسه إليها شارداً . حك جانب رقبته «ما الذي قلته؟»

«لقد سألت مولاي لماذا لن يعود أحد إلى التكلم باسمه في المستقبل؟»

سحب نفساً ، نظر إليها بحدة . تحول وجهها إلى كل شيء تخيله عندما رآه في النهاية ، ونظرت إليه ببراءة كذبت شهوانية جسدها العاري . لم يشبع من منظرها . **نعم ، *لقد تعلمت درسها*** .

«لن يعود أحد إلى التكلم عن بيبرس لأنه يفترض فيه أن يمضي بدون أن يحقق أحلامه . إنه يرغب في حلب - ليحكم هناك مثل ملك . لكن السلطان الطيب قطز لن يمنحها له . يعتقد بيبرس أنه بقوة السلطان نفسه . سوف يتم إخضاعه . على الأرجح أنه سيتم إرساله لحراسة الأراضي الحدودية مع ماكوريا . دعه يقضي سنواته هناك في البراري ، يطارد رجال العصابات وملوك القردة الخونة . ذلك هو ما قلته للسلطان» .

اتسعت عيناها دهشة «هل تحدثت إلى السلطان؟ وهل تحدث هو إليك؟»

تجرع بقية محتويات قدحه وتمايل قليلاً «أراهن أنني فعلت ذلك مرات أكثر مما تكلمت أنت مع والدك» . زمّ عينيه باتجاهها مرة أخرى . بدأت شهوته تحوله إلى الطيش مرة أخرى .

«يا مولاي . . .» جاء صوتها خشناً . بعيداً . «وهل وافق السلطان على ما قلته أنت؟ أرجوك قل لي يا مولاي!»

«أنا –» نفض رأسه . أسقط القدح «بالطبع هو وافق» . حاول أن يذهب اليها ، لكنه لم يتمكن من ذلك . فقد توقفت ساقاه عن الحركة ، بل انهارتا . كانت راكعة على الفراش في هذه اللحظة ، تراقبه . بدت مثل محظية أو لوحة فارسية جدارية . لوحة جدارية للأنثى . الآلهة .

«سيتم نفي بيبرس . وسوف يؤخذ رجاله منه . إذا عاد إلى الركوب هنا فسوف يفقد رأسه . وعينيه وأذنيه» شخر ، حاول أن يمسك بها ، تعثر «تعالي هنا» .

«كلا يا مولاي» .

بات راكعاً على ركبتيه الآن . على الأرض «ماذا؟» جاء صوته مخنوقاً . وبدأ حلقه يتصلب .

«ما الذي قلته؟»

حاول أن يرفع نفسه ، لكنه عبثاً حاول . رفع رأسه مرة أخرى ورأى ظهرها يختفي عبر الجهة الأخرى من الفراش .

«لقد قلت كلا ، يا مولاي»

عادت إلى ارتداء الثوب ، بينما أخذ هو يتغرغر ويتقيأ على الأرضية .

«ما الذي فعلته لي؟» بات في هذه اللحظة يكافح ليتنفس . في كل مرة يسحب فيها نفساً ، يجيء مثل نوع من الشهيق الهادر .

«مجرد قليل من الذرور في قدحك» .

شاهد قدميها تعودان إليه من حول السرير . كان رأسه قد وصل إلى الأرضية الآن . تأرجحت القيود نازلة تحت ركبتيها .

«ميلا؟ ميلا» .

«اسمي ليس ميلا . إنني صفية» .

نظرت إليه تحتها ، بينما كانت السلسلة تدور في يدها ببطء .

أشار إليها بإصبع شبيه بالمخلب ، مستعيناً بآخر قطرة من الطاقة لديه «سوف تعانين جراء عملك هذا!»

ابتسمت «لا أظن ذلك يا مولاي» . مالت وانحنت نحوه «هل تعرف ما تفعله الديدان للرجال المدفونين تحت الأرض؟»

فتح فمه لكنها ضربته بالكفة الثقيلة للقيد على رأسه قبل أن تتاح له فرصة ليصدر أي صوت . جاءت الضربة الثانية عبر وجهه ، وفتحت جرحاً على مدى خده ، وبعدها لم يعد يعي شيئاً .

عبد

جبل الشيخ ، المعروف أيضاً بجبل حرمون - الجولان

لقد مضت ثلاثة أيام وهم يقتفون آثار هذه الفصيلة من فرسان المغول .

علموا من الأعضاء الذين تم أسرهم من قوة الجنرال كتبغا المحطمة أن مجموعة من حوالي عشرين رجلاً قد استولت على حمولة عربتين من النفائس المنهوبة عند الاستيلاء الجشع على سورية ومدن دمشق وحمص وحلب العظيمة ، وحاولت أن تتخذ طريقها شمالاً ، بعيداً عن جيوش السلطان قطز التي تتقدم هادرة في هذه الآونة ، وعلى رأسها أكثر جنرالاته أهمية ، بيبرس . لقد وقع شرف العثور على هذه العصابة والحمولة المسروقة التي تحملها ، على كاهل عبد وتيكا ، وهما اثنان من أكثر مساعدي بيبرس الموثوقين ، أصبح لزاماً على سرية عبد والتي تعرف اليوم بـ«سرايا المدفعية» على مدى الجيش كله ، نسبة إلى الدور الذي لعبته في النصر العظيم على المغول في عين جالوت ، أن ترافقهما .

جاء لقبهم الجديد في ضوء حقيقة أن سرايا المدفعية تحمل الأسلحة المعروفة بالمدفع . البراميل الطويلة الثقيلة القادرة على إطلاق ألسنة اللهيب والرصاص الثقيل على العدو ، مدفوعاً بذرور أسود غامض ، اعتبر معظم الرجال أن السحر يأتي به كأمر مسلم . طبيعي أن عبد ، الذي أتى من خلفية وتدريب علميين من بغداد ، كان يعرف أن

الخصائص الكامنة في الذرور هي التي تجعله حساساً بدرجة خاصة للهب والاشتعال ، لكنه لم يكلف نفسه أبداً عناء تنوير صفوف الرجال بوجود تفسير عقلاني لهجمات رجاله المدمرة . أثناء قمة تأجيج المعركة ، تمت رؤيتها وهي تسقط الرجال والجياد صرعى من مسافة مئات الياردات ، هكذا قيل ، بدون حتى الاستعانة بالقوس والسهم . منحت هالة القوة الخارقة للطبيعة عبد ورجاله نوعاً من الاحترام ، أو على الأقل التقدير ، من قبل الضباط الآخرين من الفرسان ، كانوا محرومين منه سابقاً ، وهكذا فإن رجلاً من خلفية كتبية بدلاً من التعليم العسكري مثل عبد ، ظل بحاجة إلى كل صفة مميزة يمكنه الحصول عليها .

بحلول هذا الوقت ، كان تيكا قد تغيب لفترة ، لكن المغول المتواجدين أمام مدخل الكهف لم يكونوا قد بدأوا في إقامة معسكرهم ، سواء كان في الفسحة أو مدخل النفق خلفه . حسب منظور عبد فقد استمروا في التجول بالمكان ، بعضهم واقف والبعض الآخر جالس ، وكلهم يعتنون بأقسام مختلفة من تجهيزاتهم ، عند أول فرصة تسنح لهم بالنزول عن سروجهم في اليوم . بدا الممر طويلاً بدرجة كافية - كانت الفتحة عند قاع الصفحة الصخرية واسعة بما يكفي لمرور حصان ، وجاءت الغيوم الداكنة عند الأفق لتعد بالمطر مع هبوط الليل . أعاد النظر إلى العربتين وخيول الجر المربوطة حولهما . خيول الجنود مصطفة إلى مسافة أبعد ، وقد وضعت سروجها المغولية المميزة على العشب الطري على مسافة قريبة .

همس أنصار «يحتمل أنهم ليست لديهم مشاعل لتنير طريقهم إلى الداخل ، صح؟»

«أو ربما أنهم ينتظرون شخصاً ما» تجرأ عبد على رفع عينيه قليلاً ، لكن ذلك لم يمنحه بصيرة أكثر حول النشاط القائم . «ولكن لماذا إذاً يضعون الذهب في الكهف؟ ويبقون على العربتين قربهم؟ أي شخص يمر من عندهم سيعرف أن يبحث في الداخل عن أي شيء قد تم تفريغه للتو» .

كان كلاهما راقداً وسط الأعشاب والشجيرات على بعد حوالي خمسين ياردة إلى الجنوب من المعسكر ، على مسافة من يمين المغول . سيسمح لهما الموقع برؤية تيكا ورجاله أثناء اقترابهم ، بالإضافة إلى قطع الطريق على أية إمدادات يحتمل أن يكون المجرمون يتوقعونها .

قال أنصار «أسهل للدفاع عنها . رغم أنهم لا يبذلون أية محاولة لحفر الخنادق أو منح أنفسهم أي ملاذ . لابد وأن الكهف أصغر بكثير من أن يحتويهم كلهم» .

أظهر عبد الاحترام والقبول بخبرة الرجل الأكبر سناً في مسائل نصب الكمائن «لن يشكل الأمر فارقاً حينما يقفل تيكا عائداً» .

«ذلك صحيح أيها النقيب . سواء كانوا في داخل الكهف أو خارجه ، فهم لن يخرجوا من هذه الزاوية التي حشروا أنفسهم فيها» .

قال عبد «سرعان ما سيحل الظلام . راقب الإشارة بانتباه شديد» . أراح وجهه على يديه «كم يستغرق الوضع؟»

سحب أنصار نفساً ، أزاح بعضاً من الأعشاب اللبنانية عن وجهه «سوف يختار تيكا اللحظة المناسبة» .

«هل نحن واثقون من خلو المنطقة المحيطة؟»

«بقدر ما يمكننا أن نتأكد» . تحلى أنصار الصبر «لكن ذلك لا يعني عدم وصول أحد ما في هذه الأثناء . ليست لدينا الأعداد الكافية

لوضع خفارات ، أو لإتمام حصار كامل» .

قال عبد «أعرف ذلك» . استطاع أنصار بمنطقه المعهود ، أن يضع إصبعه على جذور انزعاج عبد . من ضمن الرجال الخمسين الأصليين الذين استطاعوا تجنيدهم بعد الخسائر في عين جالوت ، فقد اختار تيكا خمسة عشر في رحلة طويلة حول الكهف لاستكشاف المنطقة وحشر المغول . بينما تم وضع أربعة آخرين على بعد حوالي ميل في المؤخرة عند جياد السرية . استمر اثنان أو ثلاثة آخرون في التحرك في أرجاء المنطقة الواقعة خلفهم مباشرة على شكل خفراء ، وهكذا فقد ترك ذلك الوضع عبد مع عدد أقل من الرجال حالياً ، يراقب الذهب المسروق . كانت هذه أوضاعاً غير محببة له . لكن في الأثناء ، لم يبد على أنصار أي انزعاج .

قال «لن نتحرك حتى يعود الرجل الضخم أيها النقيب ، وإذا تحركوا مرة أخرى ، فسوف نكتفي بملاحقتهم والعثور على بقعة أخرى نقفز منها عليهم» . ثم أراد أن يغير الموضوع ويجعل عبد يحول أفكاره عن القتال القادم ، فمال نحوه سائلاً «هذا الرجل الضخم ، ألا يتكلم؟»

نظر إليه عبد «تيكا؟ يقول بيبرس إنه كان يتكلم فيما مضى ، لكنه لم يعد الآن . يقول إنه لا حاجة للكلام» .

«هل بيبرس هو الذي يقول ذلك؟»

«ألا تعتقد أن رجلاً يتمتع بسمعة تيكا ومظهره لا يمتلك سوى حاجة قليلة ليشرح ما يريده؟»

«هناك قلة من الناس المستعدين لمطاردته إذا لم يدفع ثمن وجباته ، ذلك أمر مؤكد» .

سأل عبد «هل هما مترافقان منذ مدة طويلة؟»

أجابه أنصار «منذ أبعد زمن أستطيع أن أتذكره . أقصد أنهما تخرجا من أكاديمية طباق للفرسان في حلب بعد تخرجي بزمن طويل ، وبعد ذلك تم تعييني في الجزيرة بالقاهرة بعدهما ، ولكن حسب ما يذكره أي شخص ، فقد رافق تيكا بيبرس مثل ظله منذ تخرجهما . لقد حضرا مثل طقم . في الماضي ، كان هناك كلاهما ، قطز وقلاوون ، وكانا الشابان اللذان يتحدث الجميع عنهما . كان هذا في زمن السلطان الكامل ، أو ربما في السنوات الأولى لحكم ابنه ، الصالح . عندما هزم الفرسان الفرنجة في لافوربي ، تواجد أربعتهم هناك . قاموا بأسر ملك الفرنجة عندما غزا مصر . لكنهم افترقوا بعد ذلك . ولم يعد الوضع إلى سابق عهده» .

«لقد أخبرني بيبرس بعضاً من هذا ، ولكن ليس الكثير» .

«لقد ساند قطز أحد الفرقاء ، وساند بيبرس وقلاوون الآخر . طبعاً قام تيكا بمتابعة بيبرس مثل كلب الهجوم الذي يشبهه . كانت أزمنة مضطربة . لقد كان السلطان توران شاه (همس أنصار بهدوء أكثر حينما نطق بالاسم) كان سكيراً وطاغية . لقد فعلوا خيراً بالتخلص منه في حينها – مع أن الله لن يغفر لي لقول ذلك . كان سيدمر كل شيء وكان الفرنجة سيعودون للإغارة مرة أخرى –على طول الشاطئ كله وداخل دلتا النيل . بات السؤال من الذي ينبغي دعمه فيما بعد– واتخذا مسارين مختلفين . انتهى المطاف بيبرس عائداً إلى حلب –حيث قابلته أنت– وطبعاً أصبح قطز هو السلطان» .

قال عبد «وقد عادا صديقين مرة أخرى» .

حدجه أنصار بنظرة خبيثة «هل تصدق ذاك – أيها النقيب؟»

حاول عبد أن يفكر في إجابة ما ، لكنه قوطع بدق على كاحله .

نظر خلفه ورأى أحد الرجال ، منبطحاً على بطنه كما فعل كلاهما ، ويشير بعصبية إلى الأمام . استدار عبد وشاهد الشعلة الحمراء .

همس بما يشبه الفحيح «الإشارة! إلى الأمام!»

شاهد المغول المتواجدون في الفسحة الشعلة بدورهم خارجة من السماء الرمادية وراقبوها وهي تعبر فوق رؤوسهم وتبتعد في المدى بشيء من التعجب والإعجاب . جاءت اللحظة طويلة قبل أن يبدأ أحد الضباط ، أو على الأقل رجل كان ضابطاً قبل أن يفروا من الخدمة ، بالصراخ قائلاً إنهم يجب أن يسلحوا أنفسهم ويتخذوا مواقع دفاعية . لكنهم تأخروا كثيراً .

خرج تيكا ورجاله المدفعيون الخمسة عشر من العتمة على الحافة الصخرية الكائنة فوق الكهف وأطلقوا نيرانهم ، عثرت كل قذيفة على هدفها وأضاء اللهب البرتقالي الخارج من فوهات مدافعهم الوجوه وكأنهم شياطين يمطرونهم بحجارة من سجيل .

تفرق الرجال وبدأت الجياد تزعق ، وتسحب أربطتها وأعنتها محاولة الهروب مبتعدة عن الضجيج ورائحة الدخان العابق .

كما توقع أنصار ، أخذ الرجال المرتعبون يهربون إلى يمينهم ، وقد وجدوا بالغريزة السبيل الأكثر انحداراً ، للخروج من أرض القتل إلى ما اعتقدوا أنه الأمان . همس أنصار أثناء قدومهم «انتظروه» شكلت المجموعة كتلة متراصة أثناء ركضها ، بصرف النظر عن أي اعتبار للتنظيم أو الرتب . «انتظروا – الآن!»

قفز الرجال المختبئون خلفهم وسط العشب الطويل ، واقفين على أرجلهم وسددوا . مرَّ نصف ثانية استطاع فيها المغول أن يتبينوا الرؤيا الماثلة أمامهم ، لكن لم يتوفر لهم الوقت لأي رد فعل بينما بدأ رجال

المدفعية يطلقون عليهم بكل حرية .

لم يكن هناك مجال للخطأ من ذلك المدى القريب ، فأصيب عدد آخر من المتراجعين وتمزقوا مرتدين إلى الخلف أو سقطوا إلى الأرض . أبقى عبد رأسه منخفضاً بينما الرجال يطلقون قذائفهم ، ثم قفز واقفاً ، بينما أذناه ما زالتا تطنان وبخار الدخان يهف حول رأسه من كل النواحي . رفع سيفه وهدر بصرخة حرب مبحوحة عنيفة رددها رجاله المتحمسون فوراً ، ثم هجم وسط البقية ، يطعن ويجرح ويقطع بينما يتبعه رجاله ، بعضهم يستخدم مدفعه مثل عصا ثقيلة ، وبعضهم الآخر يشهرون سيوفهم وخناجرهم ويضربون العدو بلا رحمة .

انتهى الأمر في أقل من دقيقة . وقت أقل مما استغرقه الدخان حتى انقشع .

نزل تيكا ورجاله عن الجرف الصخري بواسطة حبال تسلق مبتدعة وأغصان ، مشى أنصار عبر كتلة الجثث وقد ارتسمت على محياه ابتسامة عريضة .

قال «عمل يوم جيد أيها النقيب! عمل يوم جيد!»

كان الرجال قد انهمكوا في تشليح المغول الميتين من أي شيء يمكن أن يكون ذا قيمة ، بما فيه أسلحتهم وأحذية الركوب الشرقية الغريبة ، وأي ذهب أو مجوهرات حملوها على أشخاصهم . كانت إحدى التعازي المتبقية لدى المدافعين عن الخلافة هي أن المغولي القتيل يميل إلى كونه غنياً جداً ، بعد أن قام بنهب بغداد ، موطن عبد ومدن الشرق الأوسط العظيمة .

قال أنصار لعبد وتيكا «اتركهم لحليهم الرخصة» وهم يستعرضون المشهد من وسط الفسحة . «دعونا نرى ما الذي وضعوه في الكهف» .

أضيئت المشاعل ووضع حارس عند فتحة الكهف بينما دخل ثلاثتهم من برودة المساء إلى البرودة الرطبة للعالم السفلي . هكذا بدا الأمر لعبد على الأقل . ضم رداءه وشده على جسمه ثم خفض شعلته وقربها من بدنه حتى يمكنه أن يستقي بعضاً من حرارتها أثناء دخوله .

«لا يمكن أن يكون بعيداً جداً» قال أنصار عندما خطوا خطوات أخرى بحيث غلفتهم العتمة بدرجة كاملة .

سأل «عبد هل أنت واثق من عدم وجود ضرورة لأن نصطحب معنا بعض الرجال؟»

كما هي عادته ، لم يقل تيكا أي شيء .

توقف أنصار واستدار ، وقد أنارت الشعلة وجهه «يمكننا ذلك أيها الرقيب ، لكنني أظن أن الأفضل هو أن يعرفوا أي شيء ممكن عما سيقومون بنقله .

إنهم فتية طيبون - لا يخامرنك أي شك في ذلك - لكنه ليس من غير المسموع عنه أن يتم أسرهم ، ولن يستطيع كل واحد منهم أن يصمد في وجه الأشياء التي سيفعلها المغول لهم حتى يحصلوا على المعلومات» .

نظر عبد إلى تيكا الذي نفض كتفيه ليظهر أنه غير مهتم بالأمر بكل الأحوال .

أصبح المجال أضيق مما اعتقدوه في الداخل . لم يعد السقف يبعد عن رأسي عبد وأنصار أكثر من شعرة ، بينما اضطر تيكا إلى الانحناء حتى يتمكن من الاستمرار في التقدم . الأرض تحت أقدامهم رملية ، بحيث أصبحت أحذية الركوب التي ينتعلونها تغوص في رخاوة وانفلات عندما تغوص . . قاد تيكا المسيرة ، ولم يبق حوله من مساحة

سوى ما يكفي لمرور رجل واحد من كل ناحية . ساد الصمت . أخذت أصوات الرجال في الخارج تتخافت تدريجياً مع كل خطوة يخطونها .

توقف تيكا وأنزل شعلته باتجاه صندوق ، وصل ارتفاعه إلى ما يقارب خصره .

قال عبد «هذا كبير»

اتكأ أنصار لينظر من فوق كتف عبد «هو كذلك» .

طرق تيكا طرف شعلته على غطاء الصندوق ، فجاء الصوت المكبوت الذي رجع إليهم ليخبرهم أن الصندوق مليء .

انتظر عبد حتى تفرقت الشرارات ثم تقدم «هل هو ثقيل؟»

رفع تيكا اليد المصنوعة من الحبال على جانب الصندوق فارتفع بمقدار عرض إصبع واحد عن الأرضية . طأطأ برأسه موافقاً .

«كم عددها؟»

حاول تيكا أن يحشر نفسه ليدخل من جانب الصندوق ، لكن لم تكن هناك فسحة .

لذلك تعربش أنصار فوق الصندوق الأول ثم زحف نازلاً .

قال «اثنان ، مثلما اعتقدنا» .

«إذاً ، هيا بنا نخرجهما» .

انفتل أنصار ثم أمسك بحبل قائلاً «أربط هذا إلى الممسك ودعنا نخبر الشباب بأن يسحبوه . أو الأفضل هو أن نربطه بأحد خيول الجر» .

«ألا يفترض فينا أن نلقي نظرة على الداخل؟» جاء صوت عبد مرتجفاً لشدة إثارته .

أجابه أنصار «لا توجد مساحة أيها النقيب . نحن مضطرون للانتظار حتى نعود إلى القائد . لكن هذه حمولة هائلة . هذان

الصندوقان محشوان . سيحصل كل منا على علاوة . ما الذي تعتقده ، أيها الرجل الضخم؟» طرق انصار على كتف تيكا ، وأصيب عبد بصدمة حقيقية ليرى الابتسامة ارتسمت على وجه تيكا للمرة الأولى .

بيبرس

بيسان ، فلسطين

«هذا أمر باعث على الضحك» .

نظر قلاوون إلى تحت باتجاه الخريطة عاقداً ذراعيه على صدره وأدار برأسه من ناحية إلى الأخرى .

طرق بيبرس العصا التي كان يستعملها كمؤشر على جانب الطاولة وأطلق ضحكة «إن نزاهتك أمر مريح يا قلاوون . خاصة في معسكر تتغلب فيه اللباقة على الأصول» .

جعل هذا الكلام قلاوون ينقل وزنه من قدم إلى الأخرى «مثل هذا الكلام خطير ، أيها القائد . خذ حذرك» .

تلفت بيبرس باتجاه الضباط الواقفين خلفه . «هؤلاء هم رجالي يا قلاوون . قفقاسيون حتى أخمص أقدامهم . لماذا أحاذر في كلامي؟»

أدرك قلاوون من خبرته الطويلة أنه لا فائدة في الجدال ، فأنزل ذراعيه إلى جانبيه وتراجع . «أنت تعرف لماذا ، يا صديقي» . خفض صوته إلى حد الهمس «لدى السلطان آذان ، ولديه حتى عيون في معظم الأحيان . هنا وفي أرجاء الامبراطورية كافة . ليكن هناك مقدار من اللياقة على الأقل ، إذا لم تكن قادراً على تحمل المجاملة» .

دوَّر بيبرس العصا «لكنني أفضِّل الصدق والصراحة – وذلك هو كل ما لديك من أجلي ، أليس كذلك؟»

«نعم . إن خطتك باعثة على الضحك ، لن أخبرك بشيء مختلف» .

بدأ بيبرس يحوم حول الطاولة ، بينما تقفز عيناه من نقطة إلى الأخرى على الرسم الموجود أمامه . كانا واقفين في القاعة الرئيسة للبيت الثاني في بيسان - لأن الأول قد أعطي طبعاً إلى السلطان وحاشيته .

غامر بيبرس بالقول «لقد كان هناك كثيرون ممن اعتقدوا أن خطتي في المعركة التي خضناها لتونا ضد المغول كانت باعثة على الضحك» .

«لا عليك يا بيبرس ، لقد كانت معركة شديدة المخاطرة برغم كل ما حدث» .

انطلقت بضع ضحكات بين الحضور ، لأن قلاوون كان الشخص الوحيد القادر على تبادل مثل تلك القفشات مع بيبرس بدون أن يثير غضبه في الأثناء . أضافت العبارة قليلاً من المرح إلى لقاءات القمة الاستراتيجية الجدية في العادة .

قال الموت ، الرجل الثالث من حيث المنصب المتواجد في المجموعة «لم تكن حتماً خطيرة في قطاعي . أنت في هذه اللحظة إنما تتحدث عن نفسك ، يا قلاوون الطيب» .

قال الزعيم البدوي مهنا «لقد كان الوضع خطيراً في قطاعي بكل تأكيد» . فقد شكل رجاله الطعم الذي استدرج جيش المغول إلى الكمين في وادي جزريل ، وقد اضطروا إلى التفرق عبر التلال وما خلفها للإفلات من فك الحشد لدى قدومه .

«لقد كان بعض الرجال الصفر قريبين منا إلى درجة أن سياط خيولهم كانت تقع على مؤخرتي بدلاً من أن تصيب جيادهم» .

قال قلاوون «ومع ذلك فأنت تمشي بخطوات رجل في نصف سنوات عمرك» .

انتظر بيبرس حتى هدأ الضحك قبل أن يكمل «وهكذا يا قلاوون ، إذا وضعنا الطراد القريب لنصرنا الأعظم جانباً . لم لا نجرب هذه الاستراتيجية عندما يحين الوقت؟»

عاود قلاوون النظر إلى الخريطة مرة أخرى ورأى مخطط الحصن ، أكبر من كل الآخرين ، مرسوماً بالفحم النباتي . حاول أن يتخيل التحصينات الهائلة ، حافلة الجبل المنتصبة بحدة ، الأبراج ، ثقوب القتل التي تستخدمها الحصون الفرنجية ، حيث يركض المقاتل تحت ما تبدو أنها قوس عادية ، وبدلاً من ذلك يخترقه سهم أو يطمسه الزيت المغلي : عدو غير مرئي ، مختف راقد فوقك ينتظرك ، ينتظر فرصته حتى تسنح . لقد رأى التأثيرات التي تسببها هذه التكتيكات على الرجال الذين ينجون بأرواحهم ، والذين يحكم عليهم بأن يقضوا أعمارهم بالألم والعذاب والاحتقار من قبل أصدقائهم ، وذلك مصير رهيب بحق لا يمكنه أن يتمناه لأي أحد .

جعل بيبرس مسألة الاستيلاء على مثل ذلك المكان سهلة ، لكنها لا يمكن أن تكون على تلك الدرجة من السهولة .

اعترف «ليس هناك سبب لعدم محاولة مثل ذلك - الأسلوب . لأنه لم يفقد شيئاً إذا كان جيش ما قادر على إتمام المهمة موجوداً في الموقع مسبقاً . لكنك ستضطر إلى العثور على رجل راغب في المخاطرة بكل شيء من أجل تنفيذ مثل هذه الخطة ؛ لأنه إذا تم القاء القبض عليه ، وأنا أظن أنه من شبه المحتم أنه سيقبض عليه ، فإن موته سيكون مؤلماً» .

عاد إلى التفكير بالرجال المحترقين مرة أخرى .

«لكنك لا تفكر في المسألة في مراحلها الكاملة ،» ناقش بيبرس «صحيح لو أننا غامرنا بالخروج من هنا وجربنا هذه الخطة على أنها العمل الأول لحملة ما ، فإنها ستكون محكومة بالفشل . أنا أتفق معك في ذلك . بدلاً عن ذلك ، فإن هذه الخطة يجب أن تنفذ إما بعد نصر هائل ، أو عند نهاية حملة في منتهى النجاح . وإلا فإن كلفة خوض معركة من أجل كراك الفرسان سوف تتسبب في دمار هذا الجيش» .

هزَّ الموت رأسه موافقاً وقال «سوف يكسرنا هذا الأمر . سنحتاج إلى سنوات لتنفيذه ثم سنوات أخرى لإعادة بناء ما خسرناه» .

وضع مهنا ، البدوي ، يده على الطاولة «لقد تسببت مثل هذه الأماكن في هزيمة الملوك . إنها مبنية لكسر الملوك - لجعلهم يخافون - وتذكرهم بأنه يستحيل إزاحة العدو» .

صاح بيبرس «ولكن هذا هو الوضع بالذات! الفرنجة ليسوا غير قابلين للإزاحة!»

قاطعه قلاوون «يا بيبرس . لقد انقضى على وجودهم هنا مئة عام . . .»

صححه بيبرس «بل مئة وخمسين سنة . هي ستة أجيال» .

كرر قلاوون «ستة أجيال» .

«وكان قد مضى على القوات المسلمة التي هزموها ثلاثة أضعاف ذلك العدد هناك» .

قال بيبرس «كذلك حكم الرومان هذه البلاد لمثل ذلك الزمن ونصفه قبل أن يوحد النبي عليه صلوات الله قبائل الجزيرة العربية» .

«ما الذي تحاول قوله؟»

«إنني أقول بأن الله سبحانه وتعالى والمؤمنين الذين يخدمونه ثابتون . وكل شيء عدا ذلك متحول» . أشار بطرف العصا إلى قلعة كراك الفرسان الهائلة «هذه متحولة . مثلما بنوها ، فسوف نحطمها» .

نظر قلاوون إلى الرسم على الطاولة «إذا نجحت خطتك ، فسوف تبقى سليمة» .

رفع بيبرس قامته قائلاً «وذلك أفضل لنا» .

انهمك الموت بدوره في تفحص الخريطة ، والتي بينت بلاد مصر ، صعوداً إلى فلسطين وسورية والقسم الجنوبي من الأناضول . «سيكون هناك الكثير مما يجب عمله عبر المراحل المئتين من هنا إلى هناك» . لاحق الطريق بإصبعه «مثل هنا ، على سبيل المثال» .

سأل بيبرس «هل تقصد أنطاكية؟»

«أنطاكية» رفع الموت رأسه «ماذا تعتقد أن بوهيمند سيقول عندما يسمع أن بيبرس والفرسان زاحفون باتجاه أفضل حصون الهوسبيتاليين ، والمفتاح الذي يربط مملكته مع مملكة الفرنجة الجنوبيين؟»

«لن يقول أي شيء ولكن –» حدَّق بيبرس من الجهة الأخرى للطاولة «أتمنى أن يخرج راكباً ليتصدى لي ، لأنه ساعتها –» نزلت العصا فوق حلب «سوف نهاجمه في مؤخرته من قاعدتنا» .

مال قلاوون إلى الأمام «إذاً فالأمر قد تم إقراره . إنك ستتولى حكم حلب؟»

قال بيبرس «لقد تم اتخاذ القرار دائماً . لقد كنت حاكماً قبل أن آتي لنجدة قطز عندما احتاج إليَّ – على الأقل ، كنت أمسك بزمام السلطة الحقيقية في المدينة . والآن وبعد أن خدمته وأمنت النصر لقطز ، لم لا يمنحني رغبتي؟»

لم ينبس أي منهم ببنت شفة ، لكنه استطاع أن يشاهد النظرات غير المتاحة والإزعاج الذي سببته لهم كلماته . عاود الكلام ، ولكن قبل أن يتمكن من قول أي شيء ، أعلن رب البيت عن دخول ضابط صغير السن من الجيش الملكي . على الرغم من الدرع الراقي والزي الفاخر اللذين يرتديهما ، كان الفتى مرتبكاً . دخل مسرعاً واضعاً إحدى يديه على مقبض سيفه بينما تحمل الأخرى مخطوطة صغيرة ملفوفة ، ومهورة بالختم الملكي .

قال «أيها الأمير بيبرس ، أنت وكبار ضباطك مدعوون لمقابلة السلطان . على الفور» .

تقبل بيبرس الملاحظة «وما معنى هذا الاستدعاء؟»

«لا أستطيع الإفصاح» .

قاطعه الموت «لا عليك من هذا - انطق بالسبب أيها الفتى» .

نظر الشاب إلى بيبرس بدون أن ترمش عيناه وسحب نفساً عميقاً «إنه الأمير بكتوت . لقد توفي!»

ألقى بيبرس بنظرة باتجاه قلاوون ثم قرأ الملاحظة «حسناً إذاً ، الأفضل لنا أن نفعل ما يقوله السلطان ، أليس كذلك؟»

إدوارد

تونس

تفادى الضربة المعقوفة للسيف ثم قفز إلى الوراء وصد الضربة المرتدة .

توترت جميع عضلات ذراعيه وكتفيه وهو يدفع خصمه إلى الوراء ، بينما يبذل الآخر قصارى جهده ليجعله يفقد توازنه . جاء جسم الخصم ملتوياً ، ورغم أن قدميه كانتا مستقرتين ، إلا أنه لم يستطع أن يضع كامل قواه في المباراة .

ألصق مورتيمر ربلة قدمه اليمنى خلف اليسرى ودفع ، وكأنه يحاول أن يدفع عربة ليخرجها من طريق موحل . ارتد الخصم إلى الخلف ، وقد فقد هو توازنه ، استغل مورتيمر بأن ركل بقدمه ولفها حول الجزء الخلفي من ركبة الخصم التي تحمل ثقله .

سقط حامل السيف على الأرض ، وبعد لحظة كانت مقدمة سيف مورتيمر تحت حافة خوذته ، تلامس حلقه .

ضحك مورتيمر من داخل خوذته الثقيلة الضيقة ، ضحك إدوارد ورفع يده ليعلن عن استسلامه . تناول مورتيمر اليد ورفعه ليقف على قدميه .

«أنت توقع نفسك في المتاعب دائماً عندما تقوم بالتطويحة الزائدة» قال مورتيمر .

رفع إدوارد الخوذة عن وجهه وأشار إلى الصبي الذي يحمل قربة النبيذ بالاقتراب .

تناول جرعة هائلة وأعادها إلى الصبي .

قال «لا أريد أن يتم اقتناصي بدون أن أضرب خصمي بدرجة كافية» .

«لكن إذا كان خصمك حاذقاً ، فسوف يوقف ضرباتك ويرد عليها بضدها ، تماماً كما فعلت أنا» .

فتل مورتيمر سيف التدريب غير المسنون في يده . «لو كان هذا قتالاً حقيقياً ، لكنت تسبح في دمائك بحلول هذا الوقت» .

كان إدوارد قد استرد أنفاسه «أسوأ أنواع رجال السيف هم أولئك الذين يوجهون ضربة ثم يتوقفون للاستمتاع بعملهم ، صحيح؟ لن أكون واحداً منهم» .

«في هذه الحالة قم بتبديل مستوياتك . إذا كانت الضربة الأولى موجهة نحو الرأس ، طوِّح بالتالية نحو الجسد . أو العكس بالعكس . لا يستطيع الرجل أن يحمي نفسه في كل مكان بكل الأوقات ، لذلك قم بتوجيه دفاعه إلى مكان ما ثم هاجم في الآخر» .

قال إدوارد «تلك نصيحة جيدة» وهو يمسح حبات العرق عن وجهه «من هو ذاك؟»

كانوا مع صحبهم ، آدم أمير جيزموند ، باين أمير تشاوورث ، وروبرت تيبتوت من بينهم ، يتدربون تحت أفياء مظلة كبيرة ، مدعومة بأربعة أعمدة في كل زاوية ، بما يكفي لإعطائهم بعضاً من التخفيف من شمس الشمال الأفريقي التي لم يكن أحد منهم معتاداً عليها . أثناء نظره عبر الرجال الذين يمارسون اللعب بالسيف ، وقعت عينا

إدوارد على شاب أبيض الوجه يرتدي ثوب قسيس ، وقد ضم يديه عند خصره ، يراقبهم بشيء من الصبر .

«ذلك هو الكاهن الذي أرسلت في طلبه» قال مورتيمر .

«هل أرسلت أنا في طلب كاهن؟»

«الكاتب» كان مورتيمر يمد يده طالباً شراباً في هذه اللحظة «من جوانڤيل» .

«آه نعم . حافظ سجلات الملك» .

«ذلك هو الشخص . لقد كان يصلي على الجثمان» .

«الأفضل له أن يصلي حتى تعود القوارب وتأخذنا بعيداً عن هذا المكان الرهيب» .

«مجرد ليلة إضافية أخرى وبعدها نبحر مع أول حركة للمد» .

«لن يكون ذلك مستعجلاً» . أشار إدوارد إلى الصبي حامل قربة النبيذ ليتبعهما «دعنا نرى ما لديه ليقوله» .

مشيا باتجاه جوانڤيل .

بادرا إدوارد بالكلام «التحيات ، أيها الأخ جوانڤيل . أشكرك على منحنا ميزة صحبتك بينما لا يزال لويس المبارك يرقد مسجى . هذا هو صديقي ، روجر ، البارون الأول لمورتيمر» .

قدَّم جوانڤيل انحناءة . بدا أنه غير متأثر بالحرارة اللاهبة «يحصل الشرف لي ، يا صاحب السمو . التحيات يا بارون مورتيمر . يقوم وزراء الملك بتهيئة جثمانه لنقله عائدين به إلى فرنسا ، مستخدمين العادة الجرمانية» .

«وما هي تلك العادة ، إذا تسنى لي أن أسأل؟» ظلل مورتيمر عينيه بيديه حتى ينظر اليه .

ازدرد جوانڤيل ريقه «سيتم سلق جثته طيلة الليل حتى ينفصل الجلد والمصارين عن العظام . إنها الطريقة الأكثر تكريماً لنقله وإعادته إلى أمكنه رقاد أجداده» .

قال مورتيمر متفكراً «سلق الجلد حتى ينقشر . يا لها من طريقة» .

قال إدوارد «هي طريقة ملكية . أيها الأخ جوانڤيل ، هنالك الكثير مما أرغب في سماع نصيحتك حوله . إذا لم تكن متأثراً أكثر مما يحتمل من مأساة الملك ، هل يمكنك أن تنضم إليَّ في جناحي؟» .

«سيكون ذلك من دواعي سروري» .

استدار إدوارد ليقود الطريق .

«أليست لديكم مشاكل أو موانع في تدريب أنفسكم في منتصف النهار؟» استمر جوانڤيل في النظر إلى الرجال الإنجليز وهم يتبارزون «هنالك أشخاص في المجموعة الملكية يعتقدون أن هذا مضر» .

«ألن يكون أكثر إيذاء إذا قام العدو بمهاجمتنا في منتصف النهار ونحن غير متأقلمين على القتال تحت شمس منتصف النهار؟» سأل مورتيمر . «نحن في إنجلترا نصطاد ونركب الخيل في كل أنواع الطقس ، سواء كان سيئاً أو جيداً ، حتى نحصل على إحساس أفضل بكل الأحوال التي يرسلنا الرب لنعمل ضمنها» .

«الجواب لدى مورتيمر» قال إدوارد . «خيمته على مسافة مشي قصيرة» . سحب اثنان من الحرس الباب إلى ناحية . «لن نكون فرساناً إذا اكتفينا بالتدريب فقط عندما يكون الطقس جيداً . سيهاجمنا العدو دائماً عندما تكون في أسوأ أوضاعك . ذلك يعني في بهيم الليل ، أو الجزء الأكثر حرارة من النهار» .

لم يكن في الداخل إلا تخفيف قليل من القدر التي تغلي . طلب

إدوارد من جوانفيل أن يجلس ، ثم طلب من الخادم أن يجلب مروحة أماليد كبيرة بدأ يحركها إلى الأعلى والأسفل ليمنحهم إحساساً قليلاً بما يشابه نسيم مبرد .

«لقد طلبت حضورك إلى هنا ، أيها الأخ جوانفيل ، لأنني سمعت أنك أنت الذي قمت بدور المترجم بين المرحوم الملك لويس والعربي المسلم بيبرس البندقدار» .

«ذلك صحيح» عاد جوانفيل إلى ضم يديه ، فوق ركبتيه هذه المرة ، وكأنه مازال يصلي .

نظر إلى الرجلين الإنجليزيين ، لكنه بات واضحاً أنهما يتوقعان المزيد منه . «كان الرجل المدعو بيبرس هو الذي وضعنا تحت رعاية السلطان عندما كنا هاربين من المنصورة عائدين إلى دمياط . ذلك في شمال بلاد مصر . لحق بنا في وسط المعركة ، في قرية - لم أعد أذكر اسمها . ثم قضينا بعض الوقت في مسجد القرية ، وبعد ذلك تم إحضارنا إلى بيت رجل يدعى لقمان - كان على ما أعتقد ، تاجراً يهودياً . لقد دعا الملك بيبرس إلى زيارتنا هناك أيضاً» .

«وهل زاركم هناك؟»

«نعم يا صاحب السمو . لقد استقبلناه هناك لما يزيد على قسم كبير من النهار» .

«لقد أخبرني الملك أنه رجل في منتهى الصلابة . وأنه أعمى في احدى عينيه . لكنه لم يمتلك القوة ليخبرني أكثر من ذلك بكثير» .

تقدم جوانفيل في جلسته «الأمر كما قال الملك . هو رجل عملاق . لكن الإعاقة في عينه لا تؤثر على العين السليمة . كذلك لديه شعر أشقر» .

سأل مورتيمر «وهل لدى العرب شعر أشقر؟»

«هو ليس عربياً . لقد فهمت أنه ينحدر من الشمال ، بلاد تسمى شركيسيا» .

رد جوانفيل «لقد تم بيعه كرقيق حينما كان أصغر سناً ، وقد أدت قوته الفائقة إلى تسريع تقدمه ونجاحه . إن الكتيبة التي يقاتل معها تضم أعظم الرجال المقاتلين في المملكة . أشبه شيء بفرسان والدك الخاصين ، يا صاحب السمو» .

هزَّ إدوارد رأسه «وما الذي تحدث فيه الملك والرجل؟»

رفع جوانفيل رأسه ، محاولاً التذكر «لقد تحدثا عن أرض مصر والقدس - كيف مشى السيد المسيح نفسه هناك ، وكيف يعتقد الملك لويس أن تلك البلاد ستظل مسيحية دائماً لذلك السبب . لم يوافق بيبرس ، وقال إن دينه هو الأعظم والرسالة الأخيرة . وإن مصر والقدس ستظلان جزءاً من أملاكهم» .

قال مورتيمر «يا له من كلب وقح»

«عندما تتم إعادة كلماته من قبلي ، فقد تبدو كذلك . لكنه ليس متوحشاً بلا عقل . لقد تحادث هو والملك - من خلال ترجمتي - حول الفروقات القائمة بين دينه وديننا» .

توقف جوانفيل ، خفض رأسه للحظة ثم استطرد بعد أن رفع رأسه مرة أخرى . «لقد تحدثا عن الفارق بين معتقدينا . يعتقد المسلمون أن المسيح هو نبي ، رجل عادي تحدث الرب إليه ، بينما نحن نعتقد بأنه ابن الرب وليس شخصاً عادياً على الإطلاق» .

استند إدوارد في كرسيه وفكر في الأمر أثناء دخول خادم آخر حاملاً صينية «بعض الطعام ، أيها الأخ جوانفيل؟»

رفع الصبي غطاء الطبق الفضي ليكشف عن فروج مشوي كامل ، تقطر منه العصائر ومغطى بالأعشاب . لعق جوانڤيل شفتيه .

استمر إدوارد في الكلام «لا تقلق على عطشك أيها الأخ . هنالك الكثير من النبيذ المخفف بالماء الكفيل بإرواء ظمئك» . ألقى بالقربة إلى جوانڤيل .

اقترب مورتيمر واقتطع ساقاً ، غرز أسنانه بقوة وعمق في الفخذ بحيث جعل العصير ينقط على لحيته ، قائلاً «يتحتم علينا أن نحتفظ بحيويتنا في جلب نور الرب إلى هذه البلاد المهجورة» .

تناول إدوارد الساق الأخرى وأشار إلى الخادم ليقدم البقية إلى جوانڤيل .

قال الفرنسي «أنت لديك تموين جيد يا صاحب السمو ، هل هو تموين الملك . . . أقصد من مخازن الابن البكر؟»

قال إدوارد «بل هو من ملكي» وفمه ممتلئ «لقد أحضرت أموالاً ومؤناً تكفي لإطعام جيشي وتموله لمدة سنة ، وبعد ذلك سيحضر أخي إدموند مع المزيد من المؤن واللوازم» .

«لقد دس رجال إنجلترا العظام أيديهم عميقاً في جيوبهم لكي يمولوا حملة حجنا ، أيها الأخ الراهب» . قال مورتيمر «نحن ننوي لهذه الحملة أن تصنع فارقاً» .

«فهمت» . قال جوانڤيل . عض على جناح ، بينما قص له الخادم بعض اللحم .

«وليس هناك من فارق يمكن تحقيقه هنا» مسح إدوارد أصابعه «سوى الموت والقذارة» . أشار باتجاه المدينة وهو مستمر في المضغ . «لقد قمت باستكشاف هذه المدينة . إنها كبيرة ، لكنها ليست عظيمة . إذا

استطاع الملك الجديد لفرنسا ، أو شقيقه الذي يحكم صقلية ، أن يضعفوا قوتها على الطرق البحرية ويجبروها على دفع الجزية ، فهو يجب أن يفعل ذلك ويترك هذا المكان . إنه لا يستحق وجود حامية . في الحقيقة ، وحسب الطريقة التي استمر فيها رجال الجيش الفرنسي بالموت ، لا أعتقد أن قوة دائمة هنا سوف تكتب لها النجاة . دعونا نأخذ المال ونغادر باتجاه مدن الشرق العظيمة . دعونا نسترد القدس» .

«لقد أتيت على ذكر الطرق البحرية ، يا صاحب السمو . ذلك هو السبب الذي من أجله ذهب ملكنا المبارك لويس إلى مصر في المقام الأول . لا يمكن الاستيلاء على القدس إلا إذا تم إخضاع مصر أيضاً كما تقول . بدون حياد مصر ، ليس هنا من سلام للقدس» .

«ومع ذلك فقد استطاعت جيوشنا اللاتينية أن تحتفظ بها لمدة مئة وخمسين سنة ، أيها الراهب . ماذا تقول في ذلك؟» تناول مورتيمر المزيد من لحم الدجاج من الطبق بينما هو يحدق في جوانڤيل ، منتظراً جوابه .

«أقول إن قرناً ونصف لا يعتبر شيئاً في عيني الرب» . قال جوانڤيل ، بصوت قوي . «ينبغي على القدس أن تكون تحت سيطرة الدين الصادق عندما يحين يوم الحساب ، ولا يأتي ذلك اليوم إلا بأمر الرب . لذلك أقول مرة أخرى ، يجب أن نكون قادرين ليس فقط على أسر القدس ، بل الاحتفاظ بها . لقد فهم ريتشارد سلفكم ذلك يا صاحب السمو» . قال موجهاً كلامه إلى إدوارد «لقد رفض أن يقود جيشه في قتال غير مجد حيث كان يمكن أن تتم محاصرتهم في أي وقت» .

فكر إدوارد في هذا الكلام ثم هزَّ رأسه «هذا صحيح . أفهم مما

تقوله عن هذا الرجل، بيبرس، أنه متعلم في عدة نواح. أشياء كثيرة لا يمكن أن أتوقعها من عبد أو همجي. لقد تحادث مع الملك - ومعك أنت - حول الديانة والتاريخ. لقد أظهر أنه يفهم في الاستراتيجية، أولاً بالتفوق على جيش الملك ثم بعد ذلك بالعثور على الملك نفسه فيما بعد. ذلك أيضاً يقتضي توفر الصلابة». نظر إلى مورتيمر «هذا خصم ذو قيمة عالية فعلاً».

ألقى مورتيمر بالعظام الناتجة عن وجبته على الطاولة «إذاً سوف نبحر».

نهض إدوارد واقفاً «في الغد؟»

«في الغد».

***

نهض جوانفيل مبكراً صباح اليوم التالي وانطلق باتجاه المعسكر، متجهاً شمالاً قبل أن يستيقظ أحد آخر غير الحراس. مشى حتى شاهد الخرائب تعلو فوق الأرض العالية أمامه، مثل تماثيل بشعة خارجة من الفجر لتقاتل أي شخص يعبر المنطقة بدون إذن. توقف عند القوس القديم وتلا صلاة واضعاً يده على الحواف المنحوتة، الحروف الهيروغليفية التي لا يفهمها وهي تبرز تحت أنامله. طلب من الأرواح التي تسكن ذلك المكان أن تسامحه على تطفله - وأن زيارته ستكون قصيرة، وأنه سيتركهم بحالهم أثناء وجوده هناك. في النهاية، طلب الحماية من الرب في ذلك المكان الذي شهد قدراً كبيراً من إراقة الدماء والبؤس الجهنمي، قبل أن يتم التخلي عنه قبل مولده بقرون طويلة.

كان قد قرأ عن قرطاجة القديمة في مكتبة كلوني، وكيف كانت

جوهرة البحر قبل أن يتم تدميرها من قبل جيوش روما ، حين التحمت القوتان العظيمتان في صراع مميت امتد على قرون قبل أن يتمكن فريق من السيطرة على الآخر . والآن ، بينما هو يمشي بين الخرائب وبقايا أبنيتها ومعابدها الفخمة ، فكر في الناس الذين وقفوا هنا قبله ، العظماء مثل ديدو وهنيبال ، ولكن أيضاً العامة من الناس وحتى النبلاء الذين نسيت أسماؤهم وضاعت من التاريخ .

الأرواح المنسية

ولكنها لم تكن منسية من قبل الرب

وضع يده على كيسه أثناء مسيره . طالما أن الرب يهدي ريشته ، فسوف يسجل أكثر ما يمكنه من الأسماء ، حتى إنه بعد ألف سنة أو ما يقاربها ، ربما ، سيتمكن الناس من السير بين خرائب فرنسا ويعرف من هم الذين خطوا هناك من قبلهم .

بعد صعود مرتفع طويل وممر كان حتماً شارعاً راقياً ، بوجود أصول الأعمدة المكسورة تخطط مساره ، اتخذ سبيله إلى أعلى نقطة مرئية وجلس هناك على بقايا حجر أساس .

معبد آخر ، خمن في عقله وهو يسترد أنفاسه ، هذه المرة لإله البحر الذي كان القدماء سيصلون له قبل أن ينشروا أشرعتهم للإبحار للمتاجرة على الأمواج البعيدة .

استرد جوانفيل أنفاسه ، وهو يتشرب المنظر والهواء المشبع بالملح ، يستمتع ويفرح بأنعم الرب ، التي أظهرها بأن منحه رؤية المنظر الماثل أمامه الآن - كامل البحر الأبيض المتوسط ممتداً أمامه ، أمواجه الزرقاء تضرب على الصخور الناتئة تحته . جاء النسيم هنا منعشاً أكثر منه حاداً قاطعاً ، كما كان سيكون أثره لو تواجد في بيته بشمال فرنسا ،

فأغمض عينيه وترك الشمس تدفؤه ، وهو يردد صلواته المرة تلو الأخرى ، طالباً خلاص أرواح الرجال وقدوم مملكة السماء .

لحظة أن فتح عينيه ، كانت السفن تعبر من أمامه . أسطول إدوارد بأشرعتها البيضاء المزدانة بالصلبان البيضاء ، قوة بحرية من السفن ثلاثية المجاذيف تعانق الساحل ، تمر مباشرة من تحت المكان الذي جلس فيه جوانفيل .

نظر إلى الأسفل فشاهد صفوفاً من الرجال المقاتلين واقفين على السطوح ، معظمهم يصل شعره إلى كتفيه ، حسب الطراز الفرنسي – العديد منهم راكعون أمام راهب يقودهم في الصلاة عند مقدمة السفينة ، وبعضهم الآخر يراقب الساحل الأفريقي يمر أمامهم ، بينما استند عدد آخر منهم إلى الحواجز ويقوم بالتقيؤ في البحر .

بحث جوانفيل بعينيه عن إدوارد ، لكنه لم يعثر عليه في أي من السفن التي قارب عددها العشرين . وضع في ذهنه أمير إنجلترا الشاب إلى جانب الرؤيا التي لديه عن الفرسان وبيبرس ، وتساءل ما هي الأعمال الشيطانية التي ستتبع الآن بما أن مساريهما أصبحا على الممر نفسه بطريقة لا مندوحة عنها . لن يخضع الرجلان ، ولن يتنازلا عن أي شيء – بات جوانفيل مقتنعاً بذلك - ولن يتوصل أي منهما إلى أي تفاهم كما فعل السلطان صلاح الدين والكامل مع الملك ريتشارد والامبراطور فريديريك . لذلك فإن الأرض المقدسة التي تعاني مسبقاً من اضطراب شديد نتيجة الحروب والفوضى ، سوف تهتز الآن تحت تأثير قوة جديدة – حملة انتقامية جديدة .

كان جوانفيل قد التقى بإدوارد مرات عديدة سابقة ، رغم أن الشاب البلانتاجينيه ما كان ليعرف . التقى أثناء سنواته مع حرس

الملك بشباب متشوقين لإظهار إخلاصهم وخبرتهم في القتل أكثر مما يمكنه أن يسجله على الأوراق التي تملأ جرابه . كان إدوارد واحداً من هؤلاء - وقد قرر أن يحقق انتقاماً من بيبرس ، الذي عرف جوانڤيل أنه سيكون أكثر من سعيد في تقبل الصراع الدموي بدوره ، إن كان لا يزال حياً .

سأل جوانڤيل نفسه بينما هو يراقب السفن تدور حول النتوء الأرضي وتبدأ بالاختفاء عن البصر واحدة إثر الأخرى : ما هو الظرف الذي يجبر رجلاً أو آخر أن يستسلم أو يتراجع في القتال القادم .

الموت ، همس لنفسه ، **الموت وحده** - وارتفعت أشباح القدماء خلفه وسخرت من جوابه بمجموعة أجوبة خاصة بها ، بينما يتردد صدى الكلمات مع الريح التي تهب نازلة لتدفع بالسفن الصغيرة أقرب إلى وجهتها على الجانب الآخر من البحر .

صفية

بيسان ، فلسطين

«ستصابين بالسمنة إذا استمررت في الأكل بتلك الطريقة» .

كان قلاوون قد وجدها في جناحه ، مستلقية على الوسائد والبسط ، محاطة بأطباق الفواكه والحلوى . القدح القابع بجانب ردفها تنقط منه قطرات التكثف ، ما يعكس درجة برودة الشراب في داخله .

هزَّ قلاوون رأسه .

قال «لقد تمكنت سلفاً من لف خدمي كلهم حول خنصرك» .

قطفت حبة عنب «لقد عرفت خدمك منذ مدة طويلة - يبدو على العجوز ماكاريوس أنه معجب بي بشدة» .

حل قلاوون حزام درعه ورفعه من فوق رأسه . كان على وشك أن يحل عقدة حزام سيفه حينما ألقى بنظرة باتجاهها ، فكر ، ثم احتفظ بالسيف على وسطه .

قال «هذا لأن بقية خدمي كلهن نساء كبيرات في السن» .

انحنى فوق طاولة الغسيل وبدأ يرشق الماء على ذراعيه ووجهه ورقبته .

«لطالما تعجبت من ذلك الأمر . رجل في مركزك قادر على الحصول على أرقى بنات الخدمة في البلاد» . غيرت موقعها وتناولت حبة عنب أخرى . «لماذا تصر على أن تخصص لنفسك هاته اللواتي هن أكبر سناً

بكثير من أن يقدرن على إحضار طعامك بينما هو ما زال ساخناً؟»

عثر على قطعة قماش وبدأ يجفف نفسه .

«أولاً ، لأنهن يمتلكن ولاءً مثبتاً إليَّ . ثانياً ، عندما كنا بيبرس وأنا هاربين من البلاط ونحيا مثل الخارجين على القانون في البراري ، فقدت مسألة وجوب كون الطعام ساخناً أهميتها» . ألقى بالقماشة من يده والتقف تفاحة ألقت بها إليه في اللحظة نفسها . «يقودني ذلك إلى سببي الثالث - أهم بكثير أن يكون لديك أناس يعملون لديك ولا تتم ملاحظتهم من أن يظهر عليهم أنهم يشكلون تهديداً» .

«ألست أبدو وكأنني أشكل تهديداً؟»

«كل زوجة في البلاد ترى فيك تهديداً يا عزيزتي . لكن مواهبك لها وقتها ومكانها . تماماً مثلما لمكاريوس العجوز وزوجته والنساء الأخريات لديهن فوائدهن أيضاً . أخبريني ، ما هو عدد المرات التي تنظرين فيها إلى النساء والعجائز فعلياً ؟»

فكرت في الموضوع ثم قالت «افترض أنني لا أنظر اليهن» .

«بالضبط» عض قضمة من التفاحة . «لا أحد ينظر . حتى على جداتهم أنفسهن . معظمهم . الناس سعداء في مساعدة سيدة مسنة ، لكنهم ينسونها ويرسلونها في سبيلها بأسرع ما يمكنهم . لسبب ما فإن النساء والعجائز يجعلون الناس يشعرون بالانزعاج أكثر من الرجال المسنين . وهم يخجلون من ذلك - لأنهم يدركون أن المرأة التي يحاولون التخلص منها يمكن أن تكون جدتهم . في مجال عملي ، فإن تلك موهبة امتلاكها مفيد . أن تكون مرئياً ورغم ذلك غير مرئي» .

«أنا أذكر هذا الأمر فقط لأن موظفي بكتوت كانوا كلهم أصغر مني سناً» .

اكفهر وجه قلاوون «أعرف طبيعة جهازه الخدمي . ولقد سمعت لتوي عما حل بالأمير بكتوت» .

لم يبد عليها أي رد فعل . بدلاً من ذلك ، بدأت تسحب حبة عنب أخرى .

قال «أنا لم آذن لك بأن تفعلي ما فعلت» .

«ولكنك لم تمنحني التعليمات بأن لا أفعل ذلك أيضاً . لقد اغتنمت الفرصة . لقد كان جاهزاً» .

«ما الذي تقصدينه - جاهز؟»

ألقت بحبة العنب في فمها بدفعة واحدة . «أقصد أنه أصيب بلوثة في تمام اللحظة التي ذكر فيها اسمك واسم بيبرس . فقد تلوى فمه واكتسى وجهه بلون قرمزي . لقد كان الأمر يتجاوز الخوف ، ويتجاوز الغضب . لقد كان كلباً مسعوراً ، وأنا لا يمكن أن أسمح لكلب مسعور أن يعقرك» .

«إنني أقدر اهتمامك عالياً يا بنية - أقسم بالله إنني متأثر - لكننا كنا قد حددنا موعداً لموت بكتوت» .

«والآن تقدم هذا الموعد . أنا لا أعرف ماذا يمكن أن يحدث لو أنه دخل الغرفة نفسها التي أنت متواجد فيها - لا يمكن الجزم بأنه لن يقدم على طعنك لمجرد رؤيتك . لقد كاد أن يرسلني إلى المعتقل لتلك الليلة» .

«ولكن الآن قد ذهب كل جهدك بلا طائل . أنا على وشك أن أذهب إلى لقاء مع السلطان حيث سيكون كل الحضور موضع شك» .

«لم يكن ذلك بلا طائل» .

«وكيف ذلك؟»

«لقد اعترف - لي»

«وما نفع أي اعتراف من رجل ميت؟ ترويه قاتلة؟»

«أنا لم أقل إنني سأرويه لأي شخص فيما عداك - أو بيبرس»

استغرقه الوضع لحظة حتى يهدئ من روعه . «أنت لا ينبغي أن تتواجدي بحضور بيبرس في هذه اللحظة . لقد كان بكتوت أقوى خصومه في البلاط . وهو الآن مشتبه به في مقتله - في تمام اللحظة التي يفترض فيها أن يعلو نجمه فوق كل الآخرين ، وهو يستحق ذلك - لكنه سيضطر بدلاً من ذلك إلى الدفاع عن نفسه ضد الاتهامات» .

نهضت جالسة «ومن هو الذي سيتهمه؟ لقد كان على بعد أميال عديدة» .

«ليست هذه هي المشكلة ، يا بنية . يكفي أن يلمح بهادر المعزِّي إلى علاقة بيبرس وستكون تلك هي النهاية لجميع خططنا» .

عقدت صفية ساقيها ووضعت يدها على ركبتها . وضعت الأخرى على الأرض إلى جانب المكان الذي يركع فيه قلاوون «هل ترغب في سماع ما قاله لي؟»

خلال ساعة ، انضم قلاوون إلى موكب بيبرس الداخل إلى القاعة الكبرى ووجد مكانه عند كتفيه .

همس له قائلاً «إن الوضع مثلما اعتقدنا» .

***

بلغ عدد الحضور القادمين ليشهدوا وصول الرجل العظيم حوالي ألف من الأمراء والنبلاء الذين سافروا مع السلطان من مصر ، والعديد منهم يركب قاصداً الشمال بعد أن هربوا من زحف المغول وتقدمهم قبل مجرد أشهر قليلة . الآن وقد تم التفوق على العدو وأصبحت

جيوش الخان في حالة تقهقر ، ساد هناك مناخ أكثر تراخياً للإجراءات ، بينما اتخذت المجموعات المختلفة أمكنتها ، لكن أنباء وفاة أحد أقرب مستشاري السلطان أضافت توترها المتعلق بها ، بحيث جاءت الحالة النفسية مختلطة بكل تأكيد . مرت حاشية مرافقي بيبرس أثناء عبورها المدخل ، بجماعات من المحادثات المتراصة .

كان المشاركون في بعضها يروون النكات ويرفعون رؤوسهم إلى الخلف أثناء ضحكهم ، بينما كانت الوضعية في البعض الآخر جدية مثل جنازة - تعابير قلقة وعيون تتقافز .

في كل الأحوال ، فقد اتجهت كل العيون إلى قادة الفرسان أثناء مرورهم .

أبقى بيبرس وقلاوون والموت ومهنا أنظارهم شاخصة إلى الأمام أثناء اتجاههم عبر الممر واتخذوا مكانهم إلى يمين العرش الفارغ مباشرة ، لصق العتبة . راقبهم كل الرجال لوهلة ، وبادلهم الفرسان التحديق ، حتى تراجع جميع الندماء لينظروا إلى بعضهم بعضاً ، وعاودت همهمة الأحاديث انطلاقها .

تجولت المرأة المسنة التي لم يكد طولها يصل إلى أكتاف معظم الرجال الذين حولها ، حاملة صينيتها ، داخلة بين المجموعات وخارجة ، تبحث فيما يبدو عن المتلقين الملائمين للأقداح المرصوفة في دائرة على صينيتها .

لم يكن من الممكن مشاهدة أي جزء منها لانحناء قامتها ولكونها مغطاة بالبرقع من رأسها حتى قدميها ، سوى عينيها الخامدتين المحاطتين بالخطوط ، وهي تحاول بتوتر أن تحدق أمامها لتعثر على القلة بين العديد .

«ماذا لديك هناك؟» امتدت يد ذات أصابع بكثافة مماسك القدور لتمسكها من كتفها .

«مرطبات لسيدي الأكثر نبالة ، القنديل» . ردت صفية . لم يتسن لها وقت كافٍ لتمرن صوتها ، لكن الأمير الشاب الذي كان ينظر إليها وكأنها قذارة لم يكن يعطيها انتباهه الكامل . بدلاً من ذلك ، تركزت عيناه على الأكواب التي تحملها .

ردد بعدها «قنديل؟ لم أسمع به أبداً . حسناً يا امرأة ، سوف أريحك من بعض الثقل الذي تحملينه» . تناول اثنين من الأكواب ومرر أحدهما إلى رفيقه ، شاب وسيم آخر لا يكبرها سناً .

تشكل لديها إحساس غريب لكون الرجال ينظرون من خلالها للمرة الأولى .

«إذا كان أميرك الذي لا اسم له يرغب في استرداد مشروباته ، أخبريه أننا سنكون سعداء بإعادة ملئها له بعد مجرد دقائق» . نظر إلى أصدقائه وانفجر جميعهم في ضحكات عالية ، وجاء صوت المتحدث أعلى من كل الآخرين .

استمرت صفية في المشي ، حريصة على الاحتفاظ بانحنائها وعرجها الخفيف . كانت قد عبرت معظم امتداد القاعة الرئيسة ، ورغم أنها كانت المرأة الوحيدة هناك ، إلا أن تأكيد قلاوون أثبت صحته . لم ينظر إليها أي من الرجال لأكثر من نصف ثانية قبل أن يعيد انتباهه إلى ما كان يفعله سابقاً ، بغض النظر . لو كانت ترتدي ملابسها العادية وتسير بمشيتها المعتادة ، لكانت أوقفت مرات عديدة قبل حتى أن تدخل إلى المكان المقدس . أما الآن ، فإن إضافة بضعة عقود إلى مظهرها ، فقد أصبحت قادرة على التجول حيث يعجبها .

وجدت بقعتها في مكان إلى يسار القاعة ، بين بعض الأعمدة على منصة مرفوعة لابد وأنها شكلت قاعدة لتمثال ما سابقاً . مكنها الارتفاع من رؤية قلاوون وبيبرس أمامها مباشرة ، ومنظراً غير محجوب للعرش نفسه .

بقيت واقفة هناك ، ساكنة مثل صخرة ، حاملة الصينية أمامها ، بينما استمر القادمون المتأخرون والسعداء بالحضور في المرور والتجول من حولها .

عبد

يا صفية الأغلى عندي :

أفكر فيك ليل نهار في هذه الرحلة الموحشة ، من قرية ناعسة مغبرة إلى الأخرى .

ليس هناك أي تخفيف من درجة يقظتنا ، لا يمكن أن يحصل هذا ، لأن التلال والطرقات ممتلئة ومبتلاة بعصابات الفرنجة والمغول ، وكلهم لصوص نهابون . الرجال شجعان ، وأفترض أنني لن أشعر بوحدة شديدة بصحبتهم لو لم يكن الأمر يتعلق بالتفكير فيك بكل لحظة .

لقد كان الوقت الذي قضيناه سوية يطير بسرعة ، منذ أن هربت من بغداد ، ولكنك جزء مني الآن ، جزء من روحي . لا أحب أن أفكر بما ستتركه لي الحياة لو قدر لي أن لا أراك مرة أخرى . . . الفكرة تسبب لي ألماً مع . .

«آه يا الله ، ذلك شيء رهيب» .

استعمل عبد ممحاة لإزالة الشمع عن لوحته وتنظيفها ، وبعد ذلك جلس حاملاً ريشته تحت ذقنه ، ينتظر . ركب أنصار إلى جانبه . نظر تحته إلى عبد جالساً إلى جانب السائق في مقدمة العربة .

«أفهم من تعبير وجهك أنك لست تقوم بكتابة حكاية بطولاتنا في هذه المهمة الجريئة؟»

رفع عبد رأسه ونفضه نفياً .

«هل هو شعر؟»

«من نوع ما»

«آه» قال أنصار متفهماً . «لماذا تكتب إلى فتاة سوف تراها عندما نعود إلى بيسان؟ لم لا تكتب شيئاً مثيراً ، مثل قصة كيفية تغلبنا على الطبيعة نفسها من أجل توفير ما يكفي من الذهب لتموين جيشنا لما يكفي لقتال عشر سنوات؟»

«لأنني لا أعرف ما إذا كنت سأراها لدى عودتي إلى بيسان» .

«سامحني يا سيدي ، ولكن أي نوع من الفتيات هي هذهِ؟ لم تذهب زوجتي إلى أبعد من السوق في قريتي ، مع شخص ما لمرافقتها ، وذلك ما يجب أن تكون عليه الأمور . تبدو هذه الفتاة من النوع الخطأ» .

أعاد عبد وضع الريشة إلى مكانها على اللوحة «هل قلت النوع الخطأ؟»

«حسناً ، لا تفهمني بالطريقة الخاطئة . القضية هي أنني أكبر منك سناً بعض الشيء ، ولو كنت ابني ، لقلت لك إنك لست بحاجة إلى الذهاب لمطاردة النساء السريعات بعد اليوم . أنت الآن رجل من الفرسان - وحتى من رجال البلاط . سيعثر لك بيبرس على زوجة في الوقت الملائم ، وسوف يصبح لديك العديد من الأطفال ، وهكذا سيكون وضعك بخير» .

ابتسم عبد . فهو يحب أنصار «وماذا سيكون ذلك الوضع؟»

«الحياة التي قدر الله للرجال والنساء أن يحيوها» . فكر الضابط لحظة ثم قرر أن يتكلم بطريقة لم يتكلم بها إلى شخص أعلى منه رتبة

أبداً . «إنني أرى كيف يصبح شكلك حينما تفكر بتلك المرأة . إنها لا تنفعك يا سيدي . خذها مني – لقد رأيت كل شيء . خذ المرأة التي يعطيها لك الفرسان – وكن سعيداً» .

ارتسمت على محيا عبد نظرة غريبة إلى درجة أن أنصار أخذ يفكر بأنه تجاوز حدود التآخي المسموح به ، لكنه عندما تكلم ، أدرك أنصار أن الشاب المنغمس في الكتب ، الغريب الأطوار ، لم يكن مغتاظاً على الإطلاق

«أتعلم يا أنصار ، إنك تتكلم تماماً مثل – رجل عظيم عرفته فيما مضى . في الواقع أنه قال لي الأشياء نفسها التي تخبرني بها تقريباً – وعن المرأة نفسها . ولكن في ذلك الوقت كان سيتم إعطائي زوجة رجل علم ، وليس زوجة جندي . إنني لأعجب كيف كانت الأمور ستختلف لو أنني سمعت كلامه» .

«ما تحتاج إليه زوجة الجندي وينقص لديها في الكمية ، فهو يعوض عنه بالنوعية يا سيدي . الأمر متعلق بالغيابات الطويلة كما ترى» .

«ماذا؟»

رفع أنصار رأسه «هممم؟ آه ، لا شيء . مجرد نكتة قديمة . ماذا حصل لهذا الرجل يا سيدي؟»

«لقد توفي عندما احتل المغول بغداد . صفية هي كل ما بقي لي من تلك الحياة حالياً» .

«ولكن يا سيدي ، وأرجو أن تسامحني إذا قلت أكثر مما يجب ، هل أنت تمتلكها؟ هل يمتلكها أي رجل آخر؟»

نظر عبد إلى لوحة الشمع الصغيرة في حجره ، وقد أحسَّ بقدر

من الحماقة فجأة . «سوف نرى عندما نعود إلى البلاط ، أليس كذلك يا أنصار؟»

انطبعت نظرة تعاطف وتطمين على وجه الضابط «صباح الغد يا سيدي ، إذا لم نتعرض لأية معيقات» .

***

كانت البلدة تغط في النوم لحظة دخولهم ، وقد خلت آلاف الخيام المنصوبة بين خرائب القدماء من جماعات الجنود الجائعين المعتادة ، يأكلون ويجهزون معداتهم لمسيرهم القادم على الطرق . اتخذوا طريقهم عبر الدخان المتصاعد من أحواض النيران ، مصطحبين العربتين المغطاتين ، عيونهم شاخصة إلى الأمام ، متجهين إلى البيت الثاني في بيسان .

اتسعت عينا عبد دهشة وهو يخطو عبر المدخل ، متبوعاً بأنصار وتيكا ، لأن القاعة الرئيسة والدرجات خلفها كانت مضاءة بما بدا مثل ألف شمعة ، معظمها يترقرق ويكاد ينتهي بحلول هذا الوقت ، ما يوضح أنها كانت تحترق على مدى ساعات متواصلة . طيلة الليل في الواقع .

مع اعتياد عينه على المنظر ، قفز ليكتشف الوجوم والظلال يملآن الجدران خلف الأعمدة حيث تواجد قرابة أربعين جندياً ، رجال تعرف على أنهم من حرس بيبرس الشخصي ، أكثر الرجال حيازة على ثقته ، الشراكسة بين الفرسان . مع أنهم ارتدوا معاطف لتقيهم برودة الليل ، إلا أنها انفتحت لتكشف عن الدروع الشخصية والأسلحة الكاملة ، كل رجل يرتدي خوذة ويحمل رمحاً .

«ماذا يحدث؟» قال هامساً وهو يوزع نظراته من أحد رفيقه إلى

الآخر . لا أنصار ولا تيكا استطاعا أن يجيباه . تقدم ضابط منهم وانحنى محيياً .

«أرجوكم أن تتبعوني» .

تم اصطحابهم من القاعة الكبرى خلف الدرجات خروجاً إلى الغرفة الخلفية ، وهي غرفة مربعة بدون أية مفروشات طرية ، لابد وأنها استخدمت كمقر رئيس لمكتب البيت الخاص . هناك وجدوا بيبرس وقلاوون والموت ومهنا واقفين ، عيونهم محاطة بحلقات ولحاهم غير مهذبة .

«**السلام عليكم**» قال بيبرس . مدَّ يده فتناولها تيكا بقوة .

أجاب عبد «**وعليكم السلام** . ما الذي يحدث؟ ما سبب وجود كل هذه التدابير الأمنية في البيت؟»

«يجري تسميم الأمراء أثناء الليل» . قال قلاوون «ليس بوسعنا أن نخاطر – ولا أحد منا» .

«هل قلت سم؟»

«بكتوت يا عبد . عدونا اللدود القديم . يبدو أنهم يعتقدون أنه انهار بعد أن قضى وطره مع آخر قيانه ، ولكن يبدو الآن أنها تمكنت من الاختفاء» .

قال قلاوون «لقد ثارت الشكوك» .

«خاصة عندما نفق الكلب الذي جعلوه يلعق الكوب هو الآخر» ظهر الوجوم على مهنا .

«آه يا الله . هل يعرفون إلى أين ذهبت هذه الفتاة؟ إلى الفرنجة؟ هذا أمر رهيب بالنسبة للسلطان» .

قال بيبرس «نعم ، فقد توصلا إلى تقارب كبير في السنوات الأخيرة» .

«إنهم لا يعرفون شيئاً بعد يا عبد ، سوى أن الرجل قد مات» .

قال قلاوون «رغم ذلك ، فقد كانت زيادة الحرس حول مكان إقامتنا أمراً ينطوي على الفطنة» .

«آه» هتف عبد ثم فهم «آه! أنت لا تعتقد؟»

استدار بيبرس وهو يكتم نصف ابتسامة «ما نعتقده ليس مهماً يا عبد ، ما يهم هو كيف تبدو الأمور . في هذه الآونة ، لا تبدو الأمور جيدة بالنسبة لنا . فقد كانت عداوة بكتوت لنا - لي أنا - معروفة بشكل جيد . هو لم يحتفظ بها سراً ، وأنا لم أجعل كراهيتي واحتقاري له أمراً سرياً . وهكذا نحن هنا» .

«لكن يجب أن تثبتوا براءتكم للسلطان!»

«وكيف تقترح أن تفعل ذلك يا عبد؟» قرَّب قلاوون وجهه «أعثر على الفتاة الوحيدة من بين الآلاف التي تتجول في الأرياف حالياً ، ثم اجعلها تعترف بأنها قتلت أحد أعظم رجالات البلاط لوحدها؟»

أخذ عبد يهز رأسه «ولكنها ما كانت ستتصرف لوحدها وبدون مساعدة ، هل ذلك ممكن؟ النساء لا يفعلن أشياء مثل هذه . لابد وأن شخصاً ما قد حرضها على العمل» .

سبَّب هذا القول ضحكة ، حتى من أنصار .

«من يعرف السبب الذي يجعل النساء تقوم بالأعمال التي تعملها يا عبد؟» فتح بيبرس ذراعيه على اتساعهما «أنا حتماً لا أعرف . والاحتمال الأكبر أنهن لا يعرفن أيضاً . كلا - نحن ينبغي أن نركز تفكيرنا على ما يجب عمله»

«وكذلك عما تم عمله» . صححه قلاوون «لم يصلنا خبر منكم على مدى أيام» .

«لم يكن بوسعنا أن نرسل خيالاً ويقع في الأسر - أو نسمح

بخروج كلمة عما يوجد لدينا» .

«ألا تثقون بالرجال الذين أرسلناهم معكم؟»

«لقد دعمت قرار القائد» تدخل أنصار «كما فعل تيكا» .

قدم تيكا إيماءة وحيدة تدل على موافقته .

«حسناً ، ماذا لديك؟» سأل قلاوون .

«نعم ، لقد كانت ليلة طويلة ، ونحن بحاجة إلى بعض الإلهاء» .

«هذا سوف يلهيكم ، يا أسيادي» . قال أنصار .

«عبد؟»

«أظن أنه سيفعل أكثر من إلهائكم . لكننا لا نستطيع أن نقوم به في الشارع . هل هناك طريقة لإحضار العربتين إلى مؤخرة البناية» .

«عربتان؟ أنا حتماً مهتم الآن» . بدأ بيبرس يمشي باتجاه الباب «هناك إسطبل في الجانب . قلاوون ، أحضر فئة . لدي شعور بأننا سنحتاج إليها» .

وقف الجميع فاغرين أفواههم عندما سحب عبد بطانيات الخيش الخشنة التي استخدمت لتغطية العربات ثم فتح الصندوق الأول .

«سبائك . . .» قال قلاوون «ذهب؟ هل كلها من الذهب؟»

«كل واحدة منها» قال عبد مبتسماً «لقد تفحصنا محتويات كل صندوق . هناك خمسة معبئة بالطالينات ، وسبعة بالسبائك» .

«ذلك –» ارتفعت عينا قلاوون وهو يجري حساباته «ذلك ذهب يكفي ليملأ خزائن الشرق – هنا تماماً في عربتي خيول» .

انهمك عبد في فتح الصندوق الثاني ، وعرض القطع النقدية والسبائك حتى يراها الجميع «لقد اقتنعنا بأنها مبالغ هائلة ، رغم أنه ليس بيننا رجال مال» .

جاء صوت بيبرس مكتوماً بحدة «هل شاهد رجالك هذه الأموال؟»

نظر عبد إلى أنصار «**كلا يا سيدي**» أخبر بيبرس «لقد خبأها رجال العصابات في كهف أثناء تخييمهم لليلة . أمر أنصار رجاله بالوقوف خافرين في الخارج بينما تفقد ثلاثتنا المحتويات . لم تغادر أنظارنا منذ ذلك الوقت ولم نفتحها» .

«لقد قلت إنهم شباب طيبون ، ولكن كان من الأفضل عدم تعريضهم للإغراء» . قال أنصار «كل ما رأوه هما عربتان مغطاتان» .

قال قلاوون «يحتمل أن يكونوا حاذقين بما يكفي لأن يجمعوا خطوط الوضع إلى بعضها» .

«على أية حال» قال بيبرس بصوت أكثر حزماً «إنها هنا الآن . ذلك هو الجزء الأكثر خطورة من المهمة . أحسنتم العمل ، أيها الرجال» . وزع نظرات الموافقة بين عبد وأنصار وتيكا .

«هناك أخطار أخرى» لم يكن قلاوون مقتنعاً .

«ليس عندما نحيل هذا البيت إلى حصن . لن يتمكن أحد من رفعه من هنا» .

قال مهنا «هذا سوف يشتري الكثير من الولاء . مجرد واحد من هذين الصندوقين سوف يأتيك بالقسم الأكبر من الحجاز» .

«وذلك هو ما نحتاج إليه في الوقت الحاضر ، يا صديقي مهنا» قال بيبرس «الولاء» .

«بإمكان الحجاز أن تنتظر» قال قلاوون .

«لقد أمر السلطان بعقد اجتماع آخر في قاعة الاستقبال هذا المساء» . قال بيبرس «ليعرف آراء النبلاء - يتعرف على ما يفكر فيه

الأمراء فيما بينهم . يجب أن نعرف أين نقف عندما يحين الوقت» .

سأل عبد «عندما يحين الوقت لماذا؟» هو مصدوم سلفاً لأنه لم يبد عليهم أنهم على وشك إعلان استرداد الأموال المنهوبة إلى البلاط . استقرت كل عين في الغرفة عليه ، وبعضها يحملق فيه بعدوانية مكشوفة .

«عندما يحين الوقت للمعركة التالية يا عبد» . قال بيبرس بصوت هادئ ولطيف . «ستكون هناك حروب يجب خوضها على الدوام» .

انفرط عقد المجموعة مع قول قلاوون والموت ومهنا إنهم سيتجولون بين الصفوف ويتعرفون على (ما يفكر فيه الأمراء) كما قال بيبرس . صدرت تعليمات لتيكا لكي يستريح بعد أن يعين أكثر الحراس الموثوقين في السريَّة عند الإسطبل حيث ستبقى العربتان ، للوقت الحالي .

«ويحتمل أنك سترغب في رؤية السيدة التي تحبها» قال بيبرس لعبد بعد أن مشى الآخرون مبتعدين . «إنها بانتظارك في الملحق الموجود خلف جناح الخدم . اذهب واسترح -أو لا تسترح- ثم عد لتتواجد في الاستقبال بالبلاط ، **بعد المغرب** . سيكون هناك الكثير مما أريدك أن تسلط عينيك عليه» .

هزَّ عبد رأسه واتخذ طريقه إلى الخارج ، متعباً من ركوبه الطويل وغير واثق مما قد سمعه في المحادثة التي انتهت لتوها .

جاء اللقاء شغوفاً ، محملاً بالقبلات والعناق الحميم ، ولكن حتى في ذلك الوقت ، طلب عبد من صفية أن تخبره عما يحدث مع بيبرس والبلاط . لم يستطع أن يمنع نفسه من تقبيلها والتحسيس عليها طيلة الوقت الذي كانت تشرح فيه وتحاول أن تتكلم . ضربته بغنج وهي

تتصنع الانزعاج ، واستمرت في الكلام - فزاد رد الفعل هذا في حماسته ولهيب عواطفه تجاهها أكثر فأكثر .

عندما ذكرت أنها تنكرت على شكل امرأة مسنة خادمة واندست في البلاط لتسمع ، انتفض رأسه إلى أعلى وطارت يداه عن أردافها .

«لا ، لا يمكن أن تكوني قد فعلت ذلك ، صح؟»

أغضبه أن يعرف بأنه يبدو قابلاً للإثارة بينما هي هادئة وعقلانية . لم يتمكن من إيقاف نفسه «هل شاهدكِ أحد ما؟ ماذا لو رآك أحدهم؟ ماذا عن قلاوون؟» بعد لحظة تفكير «هل هو الذي أمرك بفعل ذلك؟»

«كلا يا حبي» جاء صوتها مهدئاً . وضعت يدها خلف رقبته وأخذت تمسدها برفق .

«لقد أردت أن أسمع ما كان يقال . ولم ينتج عن ذلك أي ضرر» .

«ولكن لماذا؟ لماذا أردت أن تسمعي ما يقوله السلطان؟ هناك عقوبات على أولئك الذين يقبض عليهم فوق الأرض المقدسة . بالنسبة لامرأة ستكون العقوبة . . . لا أستطيع حتى أن أقولها» .

«لم يرني أحد . لن يكون هناك أي عقاب» .

لم يشعر بالاقتناع ، وبقي يحدق غاضباً في الأرضية ذات الزينة الماسية .

«هل تريد أن تعرف ما قيل؟»

سحب بضعة أنفاس قصيرة «تكلمي»

أحست بالإيذاء وتصالبت «ليس هناك الكثير مما يجب قوله . دخل السلطان مع جهازه الوظيفي وبضعة أئمة ، والأمراء ثم أعلن أن العرش يشعر بالصدمة لمعرفته بمقتل الأمير الأعظم بكتوت . بالطبع

عدد جميع ألقاب الرجل العجوز وأسماءه ، فاستغرق الأمر دهراً . ثم قال إنه على الرغم من عدم معرفة البلاط باليد التي أدارت السم ، فليس هناك شك في أن الله سبحانه وتعالى سيقودهم إلى الحقيقة ، سواء كان ذلك عاجلاً أم آجلاً . كان ينظر إلى بيبرس طيلة الوقت الذي تكلم فيه» .

«هل قال ذلك؟ ولكن من أين لك أن تعرفي أنه كان ينظر إلى بيبرس بشكل خاص؟ يتواجد في العادة عشرات الأشخاص عندما يخاطب السلطان النبلاء» .

أدى وجهها لمحة ضيق من بطء ذكائه «ألا تعرف أن بيبرس ورجاله لديهم مكان عند اليد اليمنى للسلطان؟ كان قطز ينظر إليهم بشكل جانبي عندما قال إنه سيتم العثور على القتلة . ما كان لأحد موجود هناك أن يفشل في رؤية المنظر» .

«في هذه الحالة ، فإن شيئاً ما سيحدث» . قال عبد وهو يحدق في المدى «هل سمعت أي تلميح عمن كان القاتل؟»

فتحت عينيها على اتساعهما ونفضت رأسها سلباً . «لم يكن هناك أي كلام . يقول البعض إن بكتوت قد اتخذ فتاة جديدة في الليلة السابقة لنهايته . لكن أحداً لم يرها . لقد تم تسليمها إلى جناحه بخمار يغطي وجهها كله ، ولم يسمح لها بالخروج حتى عثر عليه الخدم ميتاً» .

«ألم يرها أحد؟»

«عندما أحضروا لها الطعام أثناء النهار ، بقيت خلف ستائر غرفة النوم . في وقت من الليل ، عاودت التسلل خارجة» .

«من هو الذي قدمها؟»

«رجل ما» ذهبت لتحيطه بذراعيها مرة أخرى . «ما الذي تعتقد أنه سيحصل؟ أنت لم تخبرني شيئاً عن رحلتك» .

«لا أستطيع أن أبوح بأي شيء - فيما عدا أن بيبرس لا ينقصه المال في حالة حاجته إليه . رغم أنه من الصعوبة بمكان معرفة كيف سيفيده المال في حال اتخذ السلطان موقفاً قاسياً ضده» .

فكر في الخيوط المختلفة للأحداث الأخيرة للحظة أخرى قبل أن يشعر بدفء جسمها إلى جانب جسده . تراجع ونظر إليها - العينان الواسعتان تبادلانه النظر ، معدتها المستوية العارية ، صدرها العارم إلى فوق ، فسحبها نحوه بحركة عنيفة وقبلها بشغف لم ينتابه إلا في اللحظات التي تسبق المعركة .

عندما سألته ، بعد ساعات عن موعد عودته ، قال إنه لا يعرف «ولكنني لن أتركك لحظة أكثر مما أستطيع ، يا حبي» .

كان هناك الكثير مما ينبغي عمله . فقد طلب منه بيبرس سابقاً أن يعثر على فني ليرسم مخططاً لناعورة ماء على النبع الشرقي لبيسان ، وترتب عليه أن ينتظر تسليم مكبس للسكر .

غلب صفية الفضول والتساؤل «لكنه لم يكد يصل لتوه ، والآن يريد بيبرس أن يعيد بناء هذه البلدة؟»

«ذلك هو حاله دائماً» . ضبط عبد وضع **الكوفية** على رأسه ، وتأكد من أنها تلف حول كتفه بالشكل الصحيح . «- إنه يرى شيئاً ما يحتاج إلى أن يعمل ، فيقوم بعمله» .

بعد ذلك جاء وقت استقبال السلطان المسائي بعد الصلاة ، وافترض ، واجباته العادية كناسخ آخر الليل لجميع خطابات بيبرس التي يمليها عليه .

«هنالك طريقة سرية يختمها بها بحيث يكون المستلم هو الشخص الوحيد الذي يفتحها . ليست هناك إمكانية للعبث» .

قالت «أعرف ذلك» .

استدار «هل تعرفين؟»

«لقد أخبرني قلاوون عن مثل هذه الأشياء» .

«يا حبي ، يجب أن نتكلم عن عملك لدى قلاوون . إذا كنا سنتزوج فربما ينبغي أن يتوقف . كان يجب أن تخبريني عنه أثناء وجودنا في بغداد» .

«هل تقصد عندما كنت تعتقد أنني خادمتك التي تنظف لك في بغداد؟»

«لقد كنت أكثر من منظفة» .

ابتسمت ساخرة «يا لها من تعزية» .

لف أثوابه حول جسمه وصحح وضع خنجره . «سنتكلم عن هذا في وقت لاحق» .

توقف قبل أن يصل إلى الباب وسأل «هل ستتواجدين هنا عندما أعود؟»

أجابت «لا أدري . هناك الكثير مما يتحتم عمله» .

بيبرس

أصبحت أيام احتفالات القصر ذات الدلالات الفخمة والمواكب والمهرجانات ذكرى من الماضي البعيد . آخر سلطان ألزم نفسه بعادات أسلافه القدماء كان الصالح - السلطان العجوز الذي جلب موته ابنه سيء الحظ ، توران شاه ، إلى العرش ، وجلب الفرسان ، الطائفة العسكرية المنغلقة والتي دفع أفرادها بيبرس وقلاوون وتيكا إلى السلطان قطز نحو السلطة - بواسطة سيف بيبرس .

أصبح حكام العهد الجديد رجالاً عسكريين ، ورجال فرسان تحديداً ، لذلك ظلت الأزياء الرسمية التي يتم ارتداؤها للذهاب إلى البلاط زاهية وملونة كما كانت دوماً ، لكن الضباط الموصوفين بالعناد لم يكن لديهم وقت للإجراءات المبالغ فيها والاتيكيت والبروتوكولات إلا إذا تم أداؤها من قبل فتيات راقصات .

بدلاً من ذلك فقد أصبح الرجال يصطفون ثم يجري الإعلان عن حضور السلطان .

ينحنون أثناء مروره ثم يخاطبهم هو من منصة العرش . أولئك الذين كان يتعرف الحاكم عليهم يتم الاستماع إليهم ويقوم السلطان بالرد إذا كان مزاجه يسمح بالرد .

هكذا كان الوضع في هذه الأمسية ، بينما كان بيبرس يشق طريقه نحو مكانه المعهود إلى جانب العرش ، متبوعاً بضباطه المقربين الذين

تمتد معرفته بهم إلى أوائل أيام التدريب في مدرسة **الطباق** بسورية .
بعد أن اتخذا مكانيهما ، تبادل بيبرس وقلاوون نظرة ذات معنى وانتظرا دخول قطز . استعمل الإمام لقب قطز الجديد عندما استقرت كل الإجراءات «شاهدوا قطز ، الملك الظافر ، سيف العالم الدنيوي والإيمان!»

كان دخوله مصحوباً دائماً بانطلاق الأبواق وقرع الطبول ، الأمر الذي يثير جواً من الإثارة يجتاح الحضور ، على الرغم من أنهم شاهدوا السلطان في الأمسية السابقة . فهو في نهاية المطاف ، يجسد القوة الأعظم على الأرض -تجسيد الإسلام بدون أي منافس ، منذ أن قامت قوات الخان الأعظم تحت قيادة هولاكو وابنه أغابا بإعدام خليفة بغداد قبل مجرد سنتين .

لقد أثبت حكم السلطان قطز أنه محظوظ منذ ذلك الحين . فقد أثبت تحديه لمطالب الخان المغولي بالاستسلام والنصر في عين جالوت ، أثبت شجاعته وأحقيته كأرقى وأعقل ملك في الدنيا – والآن فإن كل ما تبقى هو العودة إلى القاهرة وتقوية نفوذه ومجده أكثر فأكثر . مع النفوذ والمجد جاء الثراء ، فبات قطز يخطط لتوسيع كل من الإيمان وملكه مستعيناً بتلك الثروة ، حتى تعود الخلافة القديمة بكاملها ، كما كانت في أيام الأمويين ، تحكم من القاهرة .

لم ينظر إلى اليمين أو اليسار أثناء عبوره الممر – بينما كانت الشموع المضاءة تلتمع وتنعكس أنوارها عن الأعمدة الرخامية والألواح الذهبية العاكسة المثبتة في الجدران والأسقف ، بحيث بدا وكأن الهواء نفسه يلتمع مع دخوله ، وكل ذلك يؤدي إلى إضافة جو إضافي من العظمة لما كان في نهاية الأمر غرفة عرش مستخدمة في بلدة غير ذات أهمية .

كان قطز أطول قامة بمقدار رأس كامل من كل رجل في الغرفة ، بسبب العمامة العريضة المستديرة التي يرتديها ، والمثبتة في مكانها برباط من الجواهر . برقت هذه مع الماسات الموجودة على قمة غطاء الرأس مع أنوار الشموع . ارتدى معطفاً أخضر اللون ، مزرراً عند الكتفين بدبوس زينة ذهبي ، تعلوه ياقوتة مطعمة ، لكن لباسه تحت معطفه لم يختلف عن لباس الفرسان الذين قدم من بين صفوفهم بدرجة ملحوظة . عندما حضر وقت خوض المعركة ، تخلى عن الملابس الفخمة التي ارتداها أثناء حكمه لمصر وارتدى لباس الجلد والزرد نفسه الذي كان يرتديه عندما كان هو وبيبرس ضباطاً صغار السن يخدمان في حصن الروضة على النيل . الآن وقد انحسر الخطر الأكثر مباشرة ، فقد خلع قطز الدرع المغبر مرة أخرى ، وارتدى بدلاً منه طقماً مفصلاً على طراز فرسانه ، ما عدا أن صباغه النفيس باللونين الأحمر والأخضر والقماش الذهب كان أغلى بكثير من أي شيء ارتداه الفرسان ذوو الرتب المتدنية . جاء كل هذا فوق سراويل ركوب بيضاء ناصعة وأحذية ركوب سوداء من اللباد ارتفعت حتى ركبتيه - اللون الأغلى لأي رجل على الإطلاق .

صعد الأميران أُنس والمعزِّي الدرجات واتخذا مكانيهما على جانبي ذراعي العرش وبعد ذلك تقدم قطز وجلس ، فوضع خادم كرسي قدم أمامه . تصفح وجوه النبلاء ورجال القصر بينما أنهى العازفون موسيقاهم الصاخبة ثم وقفوا وقادوا البلاط بكامله في الصلاة .

أحنى بيبرس رأسه مع الآخرين ، رافعاً كفيه باتجاه السماء . عندما انتهى الدعاء القصير ليبارك الله أعمالهم ويكللها بالنجاح ، اتخذ قطز خطوة أخرى إلى الأمام وتوقف عند حافة المنصة .

«رغم أن ذكرى أخينا العزيز بكتوت مازالت في أول مقدمة عقولنا جميعاً ، إلا أننا لسنا مفجوعين إلى درجة أننا لا نعرف أنه حالياً ينعم ببركات الحق سبحانه وتعالى . نحن نتذكره كلما خطر الحق ببالنا - كما ينبغي دائماً أن يكون - ولكن بدرجة خاصة حينما نصلي في الأوقات التي حددها لنا الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه» .

أجيب على هذا الدعاء بآيات ودعوات دينية من كل شخص في الغرفة ، وانتظر السلطان لحظة قبل أن ينضم إليهم في شهادة الله أكبر .

«أمر طيب أننا نحمل هذا الحزن في قلوبنا» . استمر مع خفوت الدعوات «لأنه يذكرنا بأن الموت ينتظرنا جميعاً ، والأفضل أن يموت الرجل دفاعاً عن قضية الفضيلة والحق في ريعان الشباب - حينما تبقى القوة كامنة في الروح والأطراف - كما فعل الصديق الطيب بكتوت - بدلاً من تقبل الموت البطيء الذي يأخذ الرجال العاديين ببطء» .

رفع قلاوون حاجبيه دهشة عند هذا الكلام ، ولأن رأسه مازال محنياً ، فقد كان يستحيل رؤيته من الأرضية . تذكر عبد كيف أخبرته صفية أن بكتوت «يتباهى» في لحظة نهايته ، بدلاً من القتال في سبيل قضية الخير ضد الشر ، لكنه حافظ على جدية تعابير وجهه .

استطرد قطز «لقد كان بكتوت أعظم الرجال -» رافعاً ذراعه اليمنى لتأكيد كلماته . «وقد حمدت الله وشكرته بكل العمق في هذه الأيام الماضية المؤلمة لأنني كنت قادراً على مشاركته في مقدار قليل جداً من حكمته» . رفع كلا ذراعيه الآن «لأن ذلك كان كل ما تمكنت من أخذه من عقله وتقواه - مجرد شرحة رقيقة من الحكمة

التي ظل يظهرها كل يوم» . أنزل ذراعيه إلى جانبيه وأحنى رأسه ، وبقي البياض البراق على عمامته في مكانه الأصلي .

«من المؤلم أشد الإيلام أن يلمسنا هذا الحزن في اللحظة التي نستمتع فيها بمذاق نصرنا الأعظم ، ولكن هذه هي إرادة الله حتى يذكرنا بأنه فوق كل ما عداه ، وأنه يعطي حتى يأخذ . تلك هي طبيعة الأشياء . وهكذا فأنا أعلن أننا نذكره بحزن مفعم بالحكمة - لأننا لن نشاهد أي شخص مثله بعد الآن» .

فكر قلاوون «آمين» .

قال قطز «وهكذا فنحن الآن ننظر في المسائل المطروحة . لقد كان لبكتوت الأعز دور لا يمكن الاستغناء عنه لعرشنا ، ولذلك فإنه يتحتم علينا ائتمان وصي آخر جديد على واجباته . لقد قررنا أن هذا الخادم يجب أن يكون نجله - زين الدين بكتوت» .

خرج الشاب من بين صف الأمراء الواقفين في مقدمة القاعة وألقى بنفسه على وجهه في وسط الممر أمام العرش . سمح له قطز بأن يقوم بعملية خضوعه وبعد ذلك نادى عليه لينهض . تقدم الأمير أُنس حاملاً سلسلة ذهبية سميكة ، تضم الميدالية المحتوية على ختم الفقيد بكتوت الأكبر وناولها إلى قطز ليقوم بوضعها حول رقبة الأمير الجديد .

أثناء عناقهما زرع قطز القبلات على خدي زين الدين ، قام كل من أُنس والمعزي بقيادة المناداة آخر الحكام في المملكة .

«كم تبلغ سنه؟» مال بيبرس باتجاه قلاوون أثناء استمرار الهتافات .

«لا أكثر من عشرين» أجابه قلاوون .

«وهل هو معارض لي بقدر ما كان والده؟»

زمَّ قلاوون شفتيه واصطنع تعبيراً مفكراً «هو حتماً لم يكن أبداً – كيف أقول؟– صريحاً بقدر ما كان والده في إظهار أفكاره حول أي شيء» .

«هل هناك احتمال في استمالته؟»

«يحتمل» . لم يكن قلاوون مقتنعاً «ربما يستحق الأمر المحاولة . لكن يجب أن يتم الأمر بتحفظ شديد . هناك احتمال بأن شخصاً غراً مثل هذا قد يركض نحو السلطان مباشرة ، ألا يوجد مثل ذلك الاحتمال؟»

شاهد بيبرس أن قطز ينظر باتجاههما أثناء ذهاب زين الدين ليقف إلى جانب المعزِّي . قال «لقد حان وقتنا» .

«إن شاء الله» ردَّ قلاوون .

تخافت التصفيق ورفع قطز ذراعيه وفردهما على اتساعهما «إلى المسألة التالية في الأهمية . يرغب الأمير بيبرس في مخاطبة العرش حول مسألة تتسم بالأهمية» .

انطلقت همهمات ونظرات قلقة متنقلة لحظة تم هذا الإعلان ، أصبح التوقع فيما اعتقده الكثيرون أنه كان المنتصر الحقيقي للمعركة الأعظم بين جميع المعارك ، ولديه ما يقوله للسلطان القائد الحقيقي للجيش ، حقيقة يشعر بها الجميع .

ترك بيبرس حاشيته إلى جانب المنصة ومشى خارجاً إلى مقدمة العرش وانحنى بحدة .

تقبل قطز هذه التحية بهزة من رأسه وانتصب بيبرس ، واضعاً يديه خلف ظهره .

«ما هو السبب في مخاطبتك لنا هذا اليوم ، يا أخي؟» سأل قطز .

«هل هناك ناحية أخرى من الثروة العظيمة ترغب في إعلامنا عنها؟ لقد كنت من أكثر الناس تنعماً من قبل المولى عز وجل خلال هذه الأيام الماضية» .

بدأ بيبرس «يا صاحب الجلالة الأسمى . في الحقيقة أنني كنت أنوي أن أخاطب شخصكم أثناء مقابلتكم الأخيرة . لكن الأنباء عن الوفاة المحزنة لعزيزنا بكتوت أوقفت يدي وألقت بالبلاط بين براثن الحزن» .

«حيث مازال مقيماً» اتسم صوت قطز بنبرة حادة قاطعة .

«حقاً يا صاحب الجلالة» قال بيبرس . رفع رأسه باتجاه زين الدين ولامس قلبه . «يجب أن تعرف أن الحزن الذي لديك على خسارتك لوالدك يشاركك فيه الكثيرون عبر كل البلاد ، يا صاحب السمو الشاب . هناك العديد ممن هم مستعدون لحمل أعبائك بكل سرور في ذكرى لتركة والدك الأعظم في طيبتها» .

«إن أعبائي تخصني وحدي ، يا صاحب السمو بيبرس» . أجاب زين الدين . لم تغب عن بيبرس الإشارة التي تكاد تكون غير متعمدة لحركة يده أقرب إلى السيف الفخم الذي يتمنطق به أثناء كلامه . «سوف أحرص على أن يتم تذكر والدي في هذه الدنيا وفي الفردوس بطريقة لا تعرف فيها روحه غير القناعة والرضى والراحة حتى الأبدية القادمة» .

«أحسنت في القول» عاود بيبرس إلى رفع قامته إلى أقصى حدودها المهيبة ، بينما بدأت عينه البيضاء تومض .

سأل قطز «هل هناك أي شيء آخر؟» هبطت يداه على حافتي معطفه ، وكأنه يتمنى أن يسحب الحافتين مثل ستارتين وينهي هذه المحادثة .

«لقد كان هناك شيء آخر يا صاحب الجلالة» . دفع بيبرس برأسه إلى الوراء واتخذ وضعية الخطابة حتى يمكن سماعه في كل أرجاء الغرفة . «كما تعلمون فإن قواتنا المشتركة قد نجحت في تحرير وتطهير مدينتي دمشق وحلب وستكونان بأيدينا خلال هذا الأسبوع - إنني أطلب الإذن للركوب شمالاً والانضمام إلى هذه الهجمات ضد قوات العدو المتراجعة ، وكذلك للقيام بهجمات جديدة على ممالك الفرنجة المتبقية على طول الساحل» .

سبَّب هذا الكلام توتراً وحركة .

«أنت تعرف أن بعض هذه الممالك الفرنجية قد ساعدتنا في حربنا الأخيرة ، ألا تعرف يا بيبرس؟» سأل قطز .

«أعرف يا مولاي ، لكن الأقوى بينهم - أنطاكية - هي في الوقت نفسه متحالفة مع الخان العظيم ، مع الجنرال هولاكو ، ومع وريثه ، أباغا» .

«إنهم يدفعون أتاوة للخان العظيم يا بيبرس . ذلك الوضع ليس تماماً مثل البحث عن حلفاء . هل تقبل أن تسمي رجلاً أجبرت على إعطائه جزءاً من ثروتك ، حليفاً؟»

«الرجل الوحيد الذي أقبل بإعطائه جزءاً من ثروتي هو أنت ، يا صاحب الجلالة» .

ندت عن الحضور شهقات سمعت في أرجاء البلاط .

انقلب وجه قطز إلى ما يشبه الرعد «احترس يا بيبرس البندقدار . لا تسمح لذكرى صداقتنا التي كانت بسيطة فيما مضى أن تغمم عقلك في هذه الأزمنة التي تبدلت كثيراً» .

انحنى بيبرس «إنني أرجو عفوك يا صاحب الجلالة . كان هذا

هراءً خالياً من المنطق» .

«خالٍ من المنطق وخطير عندما تتواجد حمولة عربات من الثراء غير معلنٍ عنها في إسطبلك» فكر قلاوون .

انتظر قطز حتى يستمر بيبرس في الكلام .

«كذلك هناك مسألة الكيليكيين - الذين رأوا في المد المغولي فرصة للتغلب على سيطرتنا التي لا مناص منها ، واكتساب المزيد من الأراضي لأنفسهم . إنني أرجو العرش بكل تواضع أن يمنحني الفرصة لأصحح هذه الأخطاء - لأنتقم لهذه الإهانات ، وأنهي هذا التهديد الذي يواجهه شعبنا في كل مرة تشرق فيها الشمس ويبزغ فيها القمر» .

«هؤلاء المتحالفون مع أعدائنا ستتم معاقبتهم» . قال قطز ذلك ثم رفع رأسه ليخاطب الحشد بصوت مرتفع . «ذلك هو كلام سلطانكم . ولكن ما تطلبه يخالف ما أمرنا به سابقاً . يجب على الجيش وقادته أن يمضوا عائدين إلى مصر وهناك ستتوحد قواتنا مرة أخرى» .

رفع بيبرس صوته «أرجو السماح من جلالتكم . إن أعداءنا الآن في حالة تبعثر وهروب . الآن هو الوقت الأنسب لمطاردتهم وإتمام النصر الذي أنعم به الله علينا في عين جالوت . يجب أن نطارد الكلاب إلى جحورهم ونحرقهم فيها - فذلك هو الأفضل للإسلام في كل مكان» .

«ومع ذلك أنت تقول إنهم مبعثرون؟» كان قطز يعرف الاستراتيجية مثل أي رجل وربما حتى بقدر معرفة بيبرس لها ، فقفز ليرد على هذه النقطة . «ثم ألا تخسر الوحدة قوتها عندما تنشر نفسها ، وهي تحاول أن تقضي على عدو أكثر عدداً من خلية نحل؟»

«لقد أعطيت هدفين واضحين لحملتي يا مولاي» .

«حملتك أنت؟» قالها قطز ساخراً وصرَّف بيبرس أسنانه غيظاً. أمكن سماع أصوات الطقطقة، رغم أنها ما زالت معزولة هنا وهناك.

«لقد أعطيتني اسم المدينة التي تشكل أقوى تحصين على الساحل ومملكة مكونة من مئة مدينة أخرى، وكلها موزعة على مدى جبال كيليكيا، وهي الجبال الأشد وعورة في كل الأناضول. هذه هي الأماكن التي تقترح أن تحتلها في الأشهر القادمة. هل تظن أنك ستقدر على تنفيذ كل هذه المهام خلال مجرد موسم حملة واحد؟ على الرغم من أن جيشك قد تم إنقاص أفراده عبر المعركة الأعظم التي خاضها على الإطلاق؟»

توقف بيبرس قبل أن يرد، ثم أطلق لأفكاره العنان «سنقوم بتجميع قواتنا في مدينة موطننا قبل أن نغامر بالتوجه إلى الشمال».

جاء صوت قطز قريباً من الهمسة «وأي مدينة هي هذه؟»

«عندما أقسمت بأن يتحالف سيفي مع سيفك كان التفاهم يقضي أن أحتفظ بما هو لي. إنني أطلب من السلطان السماح لي بالمغادرة إلى حلب».

بدا على قطز أن مزاجه يتحسن أثناء الصمت الذي ران لاحقاً بدرجة لا تحتمل. بدا أقرب إلى المرح. ظهر أن غضبه المتراكم قد أخذ يتبخر.

بدأ بقوله «يا بيبرس، هل تعلم أن أحداً لا يملك أي شيء في الدولة فيما عدا السلطان. تلك هي الأوضاع. لذلك فيما يتعلق بهذا الموضوع، فأنت مخطئ في نقطتين».

سحب بيبرس نفساً عميقاً وبقي واقفاً في حالة تأهب أثناء إصغائه.

«أولاً ، فإن حلب ليست ملكاً لك حتى تحتفظ بها ، كما تقول . إنها ملك لنا - لي أنا - وأنا أهبها لمن أشاء . ستفعل خيراً إذ تتذكر ذلك . ثانياً ، أنت لم تكن أميراً على حلب أبداً . ذلك كان الناصر يوسف . لقد كان دخولك أنت وكتيبتك وتخييمكم في حلب بدون الموافقة الملكية أو الإذن . لدي رسائل من الناصر يوسف تقول إنك دخلت المدينة بدون دعوة . وهكذا ، فإن وجودك هناك وعملياتك ملغاة كلها . أية أراض احتفظت بها ، وأي ضرائب جمعتها تعتبر مصادرة للسلطان» .

بدأ قطز يتمشى على طول المنصة ، بينما طرف معطفه لا يكاد يلامس الأرضية .

«لقد هرب الناصر يوسف من المدينة وجلب لنفسه العار في وجه الهجوم المعادي كما تعلم . كذلك فقد سمعنا قصصاً مفادها أنه بعد انصرافك فقد حاول أن يتعاهد مع العدو وبعث لهم الهدايا ، وكل ذلك ليحاول أن يجلب لنفسه المنافع وينقذ جلده . والآن فقد اختفى هو وأولاده ، ويسود اعتقاد إما بأنه ضيف أو رهينة لدى جيش الخان . الاحتمال الأكبر هو أنه ميت . سيكون ذلك هو الحل الأكثر عدالة» .

توقف قطز عن التمشي «وهكذا فإن مقعد حكم حلب فارغ» . نظر إلى بيبرس قائلاً «ولكننا قررنا أنك لن تعود إلى حلب . أنت يا بيبرس ، ستعود معنا إلى مصر وتستعيد مقعدك في قليوب . ستكون مسؤولاً من هناك عن الدفاع عن شواطئ النيل الجنوبية والسيطرة على قوات ملك ماكوريا» .

ما كان التأثير سيكون أسوأ وأعمق إلا لو أن قطز نزل فعلياً عن العرش وصفع بيبرس . على الرغم من أنه ورجاله ، باستثناء عبد ، قد

عرفوا ما سيحدث ، إلا أن سماع كلمات السلطان شكّل صدمة . بدأ الحضور يتماوجون بالتمتمات ، والمزيد من ضحكات الصدمة – نوع من القهقهة المبعثرة وكأن أصحابها منزعجون أكثر مما هم سعداء .

بقي بيبرس واقفاً للحظة أخرى ، يحدق هو وقطز أحدهما بالآخر في وقفة متجمدة ، وكأنهما كلبان على وشك التقاتل ، ثم اندفع خارجاً ، نزولاً في الممر ، متبوعاً برجاله الذين اضطروا إلى الجري للحاق به . اضطر كل شخص متواجد في طريقه إلى القفز جانباً ليبتعد عن طريقه ، بسبب سرعته الهائلة ، واستدارت كل الرؤوس لتراقبه أثناء خروجه عبر الأبواب المزدوجة الكبيرة . كان عبد الأخير من المجموعة في خروجه . بعد أن اختفى ظهره وانصفق الباب منغلقاً خلفه ، بدأت جميع الرؤوس تدور ببطء ووضع البلاط انتباهه الكامل على قطز . وقف في مكانه ، يعيد التحديق متحدياً .

صفية

استطاعت أن تشم رائحة الماء ودخان الحطب قبل أن تدخل الغرفة ، بقدميها الحافيتين تمشي محاذرة على الأرضية الناعمة الململمعة . كن عصيات على الرؤية في العتمة ، ولم تستطع أن ترى غير الضوء في نهاية الممر . حملت على ذراعها ملاءتين ناعمتين باللون الأبيض ، تفوح منهما رائحة الليمون النفاذة لتتماشى مع بخار الماء الذي يتصاعد من غرفة الغسيل مع وصولها إلى المدخل ، رأت أن الجدار مزين بأشكال ماسية وأغصان دوال مزهرة ، تتلوى داخل وخارج الأشكال الماسية ، لتصلها ببعضها . جلست امرأة مسنة على كرسي خفيض صلب عند الباب ورفعت رأسها نحوها ، تفحصتها من الرأس إلى القدم قبل أن تدخل . تذكرت صفية الأمير قلاوون أثناء مرورها ، حين لاحظت جلسة المرأة بكتفيها المكتنزتين والطريقة التي أمسكت بها يديها تمهيداً للأسئلة المستقبلية .

تواجدت أربع نساء واقفات داخل وعاء يصل عمقه إلى الخصر ، والماء في داخله يخرج فقاعات ويدور ، محملاً بالصابون ، والأربع منهمكات في مراحل مختلفة من أداء مراسم طهارتهن والوضوء . النار التي تحافظ على سخونة الماء تحتهن مزودة بدرجة جيدة . رفعن رؤوسهن أثناء دخولها وباشرن في حل منديل رأسها والحجاب .

لم يظهر التعرف على وجه أي منهن حين وضعت القماش على

رف ثم نزعت أول قماشة تلف كتفيها . لم تكن ترتدي غير ثوب قطني بسيط . اتخذت مكانها إلى جانب وعاء التغسيل وقد غطت عورتها بقطعة قماش وبدأت تغسل ساقيها ، وقد رفعت ثوبها إلى ما فوق حوضها . راقبنها للحظة قبل أن يستأنفن أنشطتهن الخاصة بهن . بعد وهلة ، بدأت أصغرهن سناً ، واللاتي تتراوح أعمارهن بين الأصغر من صفية والتي في سن أمها ، بالثرثرة حول موضوع كان زوجها قد قاله في الليلة الفائتة قبل أن يأويا إلى الفراش . لم تؤد صفية أية إشارة على أنها سمعت ، رغم وقوفها على مسافة تبعد عنهن ما يعادل طول ذراع .

مرت فترة ، انتبهت خلالها النساء أكثر إلى صمت صفية الخالي من التعابير ، أنهت ثلاث منهن استحمامهن ولففن أنفسهن في أقمشتهن . غادرن ، تاركات الأخيرة ، الأكثر هدوءاً ، لوحدها مع صفية . كانت في هذه اللحظة تغرف الماء بيديها وتوصله إلى معدتها العارية ، وقد كاد الثوب يتعلق من كتفيها والقماشة مدلاة على جسمها . سألت «هل هنَّ صديقاتك؟»

«نعم» أجابت المرأة .

«هناك الكثير مما لا أعرفه عنك» قالت صفية «يبدون وكأنه لديهن أزواج مهمون أيضاً» .

«نعم» هبط فم المرأة وأظهرت عيناها أنها على وشك الانخراط في البكاء .

«وهل تعرفين أشقاءهن؟»

رفعت المرأة رأسها بحدة .

«لا عليك» قالت صفية ، وهي تمرر قماشة على ذراعها من الخارج . «أنت وأنا نعرف لماذا نحن موجودتان هنا . لدينا اتفاق ، أنت

وأنا . فهل قمت بأداء الجزء الذي يخصك منه؟» .

«لقد فعلت» .

«جيد» تفحصتها صفية من الرأس للقدم قائلة «أتعرفين؟ مازال جسمك متماسكاً . هناك الكثير ممن يرغبون فيك بين الرجال لو لم يعد لديك زوج . أنت تعرفين ذلك ، أليس هذا صحيحاً؟»

كانت المرأة قد أغمضت عينيها .

«ولكن الأشقاء لا يمكن استبدالهم مثل الأزواج ، صح؟ ليس الأمر واحداً» . انتظرت ورود جواب لكنها عاودت السؤال بحدة «أليس صحيحاً؟»

«كلا» .

«ماذا؟ لم أسمعك» .

«لقد قلت كلا» . بدأت الدموع تسيل في هذه اللحظة . حاولت المرأة أن تسدل شعرها أمام وجهها ، لكنه كان مثبتاً بدبابيس خلف رأسها . عمدت إلى إخفاء عينيها بيدها .

«لا عليك يا فاطمة . لقد لاحظت كبرياءك حينما نظرت إليَّ للمرة الأولى . أنت تتحدرين من عائلة طيبة . أراهن أنك كنت تسخرين وتضحكين على الفتيات مثلي في أيام صغرك ، ألم تفعلي؟ العديد من الهمسات ، نكات صغيرة؟»

«كلا»

«قولي الحقيقة . أنا محقة ، ألست كذلك؟»

«نعم» .

«والآن نكتشف أن والدك وشقيقك يقومان ببيع العبيد بدون موافقة السلطان . أو على الأقل ، كانا يدفعان الضرائب عن البعض

وليس عن البعض الآخر . كثير من البعض الآخر ، على ما ظهر وحدث . تلك جريمة كبرى . أنت ذكية بما يكفي لتعرفي ذلك» .

أنهت صفية الاغتسال وبعد أن جففت نفسها بقماشتها الثانية ، عاودت ارتداء ثوبها .

«أنت تعرفين ما سيحدث لأخيك إذا لم نقم بهذا العمل ، أليس كذلك؟ إن والديك مسنان ، لكنه هو الذي سيخسر ميراثه ووسائل كسب رزقه وعيشه . هذا إذا احتفظ برأسه في المقام الأول . لذلك تابعي القيام بما قلته لك - هذه الليلة - وفي الصباح ، وسوف أقابلك مرة أخرى» . استدارت لتغادر «تصبحين على خير ، يا فاطمة» .

«وأنت بخير» أجابت فاطمة ، لكن الكلمات خرجت مثل غصة بكاء .

نظرت صفية تحتها إلى المرأة العجوز أثناء خروجها ، لكن حارسة الباب أبقت عينيها على الأرضية أثناء مرور صفية .

عبد

استمر بيبرس في التمشي والسباب والصراخ لمعظم ساعات الليل . لم يظهر أي رسل من جانب السلطان في البيت الثاني ، وأصبح واضحاً بحلول هذا الوقت ، بعد ساعات من الصدام في البلاط ، أنه لن يكون هناك رسل . أحاط بالبيت صفان كاملان من حرس بيبرس الشخصي ، وكذلك بالإسطبل ، ووقف جنود فرسان في كل واحدة من الزوايا الأربع . جرى توزيع رماة الأسهم على السطوح ، وفوق بيت الخدم الملحق في الحديقة الخلفية ، والذي يحتمل أنه كان يستخدم كمسكن للجنايني قبل أن تبدأ البلدة في التوسع ، وصار أبعد عن البيت الرئيس بكثير من أن يمكن الدفاع عنه ، لذلك تم هدمه واستخدمت حجارته في تعزيز وتقوية الجدار الخلفي وتوفير المزيد من الحماية للحراس الموجودين هناك . ركع رماة السهام في العتمة ، ينظرون إلى المداخل تحتهم ، بينما استمرت حمائم بيبرس في هديلها الهادئ داخل أقفاصها القريبة .

أغلقت مصاريع نوافذ البيت ، وكان قلاوون قد أمر بوضع قضبان حديدية متعاكسة فوق المصاريع حتى تمنع أي محاولة دخول لأي مهاجم بعد أن يخترق الحلقة الخارجية من الدفاعات .

قال لقائد الحرس «ربما نضطر إلى الدفاع عن المنزل غرفة بعد الأخرى» .

خطر لعبد أنه ربما كان الوضع أكثر فطنة لو انسحبوا من بيسان ببساطة واتجهوا شمالاً ، باحثين عن السلامة في التلال التي يعرفها بيبرس حق المعرفة من خلال الوقت الذي قضاه فيها أثناء نفيه من البلاط للمرة الأولى ، لكن قلاوون رفض الفكرة من أساسها ؛ لأن عبد لم يجرؤ على طرح الفكرة على بيبرس نفسه .

قال وهو يؤشر بيده باتجاه الإسطبل القديم «في نهاية المطاف ، يوجد هناك من المال ما يكفي للاستمرار» . عربتان مليئتان في واقع الأمر .

نفض قلاوون رأسه «كان يمكن القيام بذلك في الأزمنة الماضية يا عبد ، ولكن بيبرس يمارس في هذه الآونة لعبة على مستوى مختلف» . أطلق نظرة على الباب المغلق المؤدي إلى الغرفة الخلفية ، والذي كان يمكن سماع صوت بيبرس وهو يصرخ «لقد كان بوسعنا أن نمارس لعبة الفتى الخارج على القانون فيما مضى ، نركب متقدمين باسم المطالب الحق والشرعي بالعرش . لكن تلك الأزمنة قد ولت . الآن ، هو يسعى إلى الشرعية لنفسه» .

«لنفسه؟» جاءت الفكرة بأن بيبرس قد يضطر إلى القلق على شرعية جديدة بالنسبة لعبد .

«نعم» قال قلاوون «لقد أثبت نفسه كحاكم راسخ عندما كان الأمير الفعلي لحلب ، كما أن أوراق اعتماده في المعارك هي فوق الشكوك في هذه الآونة . فما هي الحجة التي سيقدمها لو أنه ركب مبتعداً عن البلاط ببساطة مثل كلب هارب في الليل؟»

سلَّم عبد بالنقطة «ولكنه إذا عرف كما قلت أن هذا التعيين في الجنوب كان آتياً ، فلماذا هو غاضب الآن إلى هذه الدرجة؟»

قفز كلاهما على صوت زعيق وشيء ما يتم ضربه في الغرفة الخلفية . جاء الصوت أشبه بمطرقة قد ضربت الحائط .

«لأن بيبرس رجل مفعم بالشغف والإيمان كما تعرف ، وأيضاً لأنه اليوم فقد صديقه بشكل نهائي» .

«تقصد قطز»

«نعم يا عبد»

«لقد كان صديقك أنت أيضاً ، ألم يكن يا قلاوون؟»

انخفضت عينا رئيس الجواسيس للحظة ، وفي تلك الثانية ، انحسر تعبيره الذي لا يتغير أبداً وعلت سحنته مسحة حزن ، فقال «لقد كان ، فعلاً ، قد كان» .

لم يكن المثقف عبد قد تجرأ من قبل أن يتقرب أكثر مما يجب من رجل الفرسان الصلب ، لكنه لمس كتف قلاوون . أحسَّ وكأنه يلمس تمثالاً من الرخام .

قال «أنا آسف»

رفع قلاوون رأسه ثم نظر إلى البعيد «نحن رجال بيبرس . إذا ارتفع ، ارتفعنا معه ، وإذا ذهب فكذلك سنذهب نحن» .

«إذاً ما الذي يفترض فينا أن نفعله؟»

«يعرف بيبرس ما يتحتم عمله الآن . لم يمنحه قطز أي خيار . ذلك هو الشيطان الذي يتصارع معه الآن» .

قال عبد «مثل يعقوب والملاك» .

«أنا لا أعرف تلك الحكاية» قال قلاوون «لكنها تبدو ملائمة» .

«يقول اليهود إن يعقوب عليه السلام اضطر إلى التصارع مع قدره كنبي . لم يخضع ويتبع المسار إلا بعد أن أرهقه الحق سبحانه وتعالى» .

هزَّ قلاوون رأسه «إذاً فالحكاية مناسبة . ليس قطز إلهاً بأي درجة ، لكنه وضع بيبرس في مسار مصيري هذه الليلة . يحتمل أن أحداً منهما لا يدرك الوضع ، لكن كل شيء قد تغير . سوف يستسلم بيبرس لقدره بحلول الصباح» .

«وماذا سيحدث حينها؟»

«سنذهب إلى الصيد» .

«ماذا؟»

توقف صراخ بيبرس أثناء سؤال عبد ، لذلك استدارت كل الرؤوس حينما صرخ طالباً الإصغاء إليه فوق الضجيج المفاجئ غير الموجود . تلفت عبد حواليه ثم همس مرة أخرى . «ما الذي قلته؟»

قال قلاوون بلهجة تقريرية عادية «سنذهب إلى الصيد غداً . ستبقى أنت هنا وتجيب عن أية أسئلة واستفسارات عن وجود بيبرس أو مجموعته» .

«وهل أنت باق هنا؟»

نفض قلاوون رأسه نفياً «كلا ، ولكن سيكون تيكا هنا كحارس لك وستحتفظ بسرية المدفع التابعة لك . وزعهم بحيث تكون مدافعهم جاهزة للإشعال والإطلاق على أي شيء يظهر بشكل قوة أمام هذا البيت . ستكون بقية الحرس برفقة بيبرس» .

«ألا يمكننا أن نجلب المزيد من الرجال من السرية الرئيسة؟ إنهم معسكرون في البلدة القديمة» .

اكتسى وجه قلاوون بصبغة اعتذارية «سيبدو الوضع في منتهى السوء إذا باشرنا بإحضار الرجال إلى داخل الأحياء يا عبد . يحتمل أن تتم رؤيته على شكل تهديد من قبل البعض . في الواقع ، سيتم النظر

إليه كتهديد حتماً من قبل كثيرين . ويحتمل أن يجعل الوضع غير المريح الحالي يتحول قليلاً إلى -» توقف ليفكر في الكلمة الصحيحة «نكد» . دق على كتف عبد تحبباً «هل تفهم؟»

«كلا» قال عبد .

«جيد» نظر قلاوون إلى باب الغرفة الخلفية «لقد مضت عليه بضع لحظات وهو هادئ ، يحتمل أن تكون هذه فرصتي ، إن شاء الله . يجب أن أذهب وأتشاور . سأراك عما قريب ، أيها العزيز عبد» .

«أشكرك يا قلاوون» . قال عبد ، لكن زعيم الجواسيس كان قد انطلق داخلاً إلى الغرفة الخلفية .

***

غادر الخيالة متجهين إلى التلال قبل الفجر بوقت طويل في اليوم التالي . حتى إن الكشافة المتقدمين وقارعي الطبول غادروا بوقت أبكر . لم يقدر أحد أن يدخل معتكف بيبرس غير قلاوون طيلة الليل ، مع أن عبد استخلص من الخدم وضباط الأركان الباقين في البيت بأن القائد كان في مزاج محايد حينما خرج وغادر البيت .

بالنسبة لعبد ، ولأن زيارة سرية إلى صفية قد أصبحت غير ممكنة مطلقاً ، فقد أوى إلى الجناح الذي يتشارك فيه مع تيكا وأنصار ، لأن مساحة البيت الثاني في بيسان محدودة ولا تتسع لجهاز وظيفي وحراس شخصيين بالقدر الذي يتطلبه وجود بيبرس ، وهناك دوَّن أحداث اليوم بكاملها في ضوء شمعة النحل ، وأحداث الأيام السابقة . بذل أفضل جهوده لأن يتذكر كل شيء قيل في البلاط ، تماماً كما قيل ، حتى إنه أضاف تفاصيل مظهر المشاركين وخصائصهم . بات لديه الكثير من الأفكار حول النبيل الشاب زين الدين ، لأنه

شكل في عيني عبد كمية غير معروفة ، والشباب في العادة يسهل إثارتهم إلا في حالات استثنائية . لم يعد هناك شك كثير بأن زين الدين قد ورث انعدام تعاطفه تجاه بيبرس ، وفكر عبد طويلاً في ردود الفعل التي ستسببها هذه العوامل في السلطنة حالياً .

الأمر الأكثر إثارة للقلق والضغط النفسي هو ما إذا كان بيبرس سيطيع أمر السلطان ويصبح محافظاً للجنوب . مثلما لم يكشف لقطز عن اكتشاف الذهب ، لم يشارك بيبرس صديقه عبد أفكاره عن المستقبل ، لكن أصبح واضحاً في ذهن الكاتب أن المحارب العظيم لم تكن لديه أي نية في قبول قيادة من الدرجة الثانية ؛ لأن هذا المنصب يشكل خفضاً للرتبة في كل شيء ما عدا الاسم .

تناول مخطوطة لأحد الفلاسفة ليريح عقله ويخلق شيئاً من الإلهاء «**ابن سينا حول تحليلات أرسطو طاليس**» ولكن حيث كان كل سطر وأحياناً كلمة في السابق توفر له متاهة من التفكير في بعض القضايا أو ساعة من الإلهاء ، إلا أن الكلمات سبحت في هذه اللحظة وتكومت أمام عينيه المتعبتين ، وأدرك أنه مرهق كلياً . اتخذ مكانه فوق الحصيرة على الأرضية ، حيث كان تيكا يشخر في الزاوية وأنصار ملتف بشدة في بطانيته قريباً منه ، وغط في النوم قبل حتى أن يتسنى له قراءة إحدى الآيات .

جاء الصباح بمنزل هادئ ، إفطار دسم ، والإدراك الرهيب بعدم وجود أي شيء يفعلونه .

مع ذهاب بيبرس وقلاوون والموت ومهنا ، جلس كل من عبد وتيكا وأنصار في الغرفة الخلفية وبحثوا في اليوم القادم . في حالة تيكا تمت الإشارة إلى ذلك الموضوع بمجرد وضع يده على مقبض سيفه

وحركة دائرية من يده الأخرى ، مشيراً إلى أنه سيقوم بجولة في البيت ومحيطه ، بحثاً عن أي شيء يمكن اعتباره معادياً .

«من غير المحتمل أن يحاول السلطان اقتحام البيت بالقوة المفاجئة في حال عدم وجود بيبرس هنا» . قال عبد «الأكثر احتمالاً هو أن أي هجوم - إذا كان أي هجوم أو محاولة هو ما يجري التخطيط له - سيتم تنفيذه على مجموعة الصيد» .

«ومع ذلك فهناك احتمال كبير بأن يحاول السلطان أن يحضر من أجل الذهب إذا اعتقد أن بيبرس والقسم الأكبر من حراسه غير موجودين هنا ، أيها النقيب» . قال أنصار . أظهر وجه تيكا أنه يوافق «يمكنك أن تصل إلى شبه التأكد بأن الخبر قد بلغه عن مكان وجوده الآن ، بالرغم من احتياطاتنا واحتياطات قلاوون . أنت تقول إنه أتى على ذكره أثناء الاستقبال في الليلة الماضية ، ألم تقل ذلك؟»

«لم أقل أي شيء يمكن تفسيره بطريقة أو أخرى» فكر عبد على شكل جواب «لقد كان الأمر أشبه بأنه يتصيد - يلمح إلى أنه يعرف شيئاً ما» .

«إذاً ربما ذلك هو كل ما يمتلكه - تلميحات . لكنه إذا فكر بأن بيبرس يحتفظ بثروة لا ينوي أن يشاركه فيها ، فسيذهب السلطان إلى بيت بيبرس الخالي ليبحث عنها» .

«وإذا قام بذلك؟»

«سنصبح بحاجة إلى بيبرس ليرفع الحصار عنا» . قال أنصار ، عاقداً ذراعيه على صدره بوجه ينطق بالثقة «لكنهم لن يدخلوا . لدي عشرون من أفضل رماتنا على السطوح» .

أومأ برأسه إلى فوق «وإذا أعطيتهم الإيماءة بأن يفتحوا الرماية على

رجال قطز ، فسوف يتمنون لو أن رجال القوس التابعين لقلاوون قد توقفوا . هناك عشرون رامياً آخرون في المؤخرة وعشرة على النوافذ الأمامية . ستحدث مجزرة . مجزرة دموية مطولة في هذه الشوارع المغلقة» .

اطمأن عبد إلى الوضع فترك الرجلين ليؤديا مهامهما بينما صعد هو إلى الطابق وعاد إلى أوراقه .

يحتمل أن ما حدث هو أن قطز قام ببعض الاستكشاف الخاص به ، لأنه عندما جعل حضوره معروفاً ، اتخذ ذلك على شكل خيَّال واحد ، يرتدي أثواب وعمامة مراسل ، والذي ركب حصانه الأبيض ببطء إلى وسط مقدمة المنزل وأعلن عن نفسه . طلب أن يقابل الأمير ، بيبرس البندقدار .

أخبره الحراس أن بيبرس غائب في الصيد ، ولكن مساعده الشخصي موجود ليرد على أية أسئلة بالنيابة عنه .

«إنه مطلوب للحضور أمام السلطان» . قال المراسل ببساطة ، وهكذا حدث أن قام أنصار بإزعاج عبد وأبعده عن كتبه ليخبره بأنه ينبغي عليهما اتخاذ طريقهما إلى القصر المؤقت لمقابلة مع **سيف العالم الدنيوي والإيمان** بشخصه .

دخل عبد إلى غرفة الاستقبال ، غرفة العرش نفسها حيث بصق بيبرس بالتحدي في الليلة الفائتة ، على ساقين راجفتين ، بينما معدته تتلوى ويرافقه شعور محتم لا فرار منه بأنه سوف يندفع إلى الأمام وإما يتقيأ أو يسقط على وجهه مباشرة من شدة الخوف .

لم يكن المنظر الذي قابله مخيفاً أو مهيباً بالقدر الذي توقعه بأية حال . وجد قطز جالساً على العرش وقد ألقى بإحدى ساقيه على المتكأ

الذهبي بطريقة غير رسمية ، ولكن غاب عنه المعطف والعمامة الهائلة الملفوفة ، وارتدى بدلاً من ذلك السترة الحمراء الأنيقة من الحرير الناعم وسراويل الركوب . كان حذاؤه اليوم من الجلد اللماع ، وليس اللباد المصبوغ الذي ارتداه في اليوم السابق .

قال «الكاتب عبد» بلهجة مرحة «لقد كانت بالنسبة لي مسألة مؤسفة أنني لم تسنح لي الفرصة بعد لأستفيد من علمك . مرحباً بك . وتيكا ، أخي الصامت . مرحباً بل أيضاً أحمد الله وأرجوه أن أبقى بصحبة عائلتي من **الفرسان**» .

وقف كل من زين الدين والأمير بهادر المعزِّي إلى جانبيه . لم يكن هناك أي حراس أو خدم آخرين حاضرين . توقف عبد عند حافة المنصة وانحنى هو وتيكا وأنصار بعمق .

«والآن قل لي ، أيها المساعد عبد» قال قطز بعد أن عادا إلى الانتصاب «أين هو سيدكم في هذا اليوم؟»

«لقد ذهب مع مجموعته إلى التلال للصيد يا صاحب الجلالة» .

«الأسد يتصيد أسداً» قال قطز وشخر كل من المعزِّي وزين الدين ضاحكين .

«**متملقان ذليلان**» قال عبد في سره .

«وهل يعقل أنه لم يهرب مرة أخرى باحثاً عن اللجوء في بلدان بعيدة وترككم لتردوا على الأسئلة بدلاً منه؟»

«كلا يا صاحب الجلالة . لقد أخبرني القائد قلاوون أنهم سيعودوا بحلول الليل» .

«آه ، إذاً فقد ذهب قلاوون معهم؟»

تقافزت عينا عبد يمنة ويسرة «نعم يا صاحب الجلالة» .

«شوشش!» قال قطز وهو يرفع إصبعاً، وينظر إلى الأعلى «هل تسمع ذلك؟»

ساد صمت ثقيل.

«كلا يا صاحب الجلالة».

«إنه الصمت يا عبد الظاهر. الأجواء هادئة جداً هذا اليوم، أليست كذلك؟»

«أنا لا أعرف يا صاحب الجلالة».

«وكيف لا تعرف؟»

«إن حياة المساعد والكاتب هادئة على الدوام، يا صاحب الجلالة. لأن الأيام تمتلئ بالأوراق والحبر واللوائح والأرقام. أخشى أنه لو كانت الأجواء هادئة حقاً، أنني لم ألاحظها».

صدرت عن قطز ضحكة أشبه بالنباح وقال «آه، جيد جداً! نعم، وفي منتهى الذكاء».

نظر إلى الرجلين الواقفين إلى جانبيه فبادله كلاهما الابتسام «أستطيع أن أرى سبب احتفاظ بيبرس بك قريباً منه». نظر تحته إلى ذراع مقعد العرش وخرمش نقطة «لكنني سمعت أن الأجواء لم تكن هادئة بالنسبة لك - لثلاثتكم في حقيقة الأمر - خلال هذه الأيام المنصرمة. أليس هذا صحيحاً يا تيكا؟ حسناً، أنت لن تخبرني بكل الأحوال، صحيح؟ وماذا عنك أنت يا أنصار؟» خاطب قطز ضابط المدفع للمرة الأولى «لقد تحولت الأمور إلى شيء من ضجيج قبل وقت قصير، أليس كذلك؟»

«مولاي؟» بدا على أنصار الاضطراب.

نظر قطز حواليه «يا زين الدين، أظن أنك بحاجة إلى تحريك ذاكرتهم».

«قبل بضعة أيام» بدأ الشاب يتكلم بصوت عدواني «قمتم أنتم الثلاثة بقيادة عملية إغارة وطاردتم عصابة من المغول الفارين من الخدمة العسكرية ، وقبضتم على غنيمة ضخمة . ألم تفعلوا ذلك؟»

استهل عبد الكلام «مولاي ، هذا أمر غير متوقع -»

«أجب عن السؤال!» أجفل الثلاثة من غضب قطز المفاجئ «هل ما يخبرنا به الأمير زين الدين صحيح؟»

قال عبد «لم تكن هناك عملية إغارة ، ولا مغول فارون من الخدمة» .

«لا؟» جاء صوت قطز ضعيفاً ، لكنه محمل بالتهديد .

«إن الكذب على السلطان من أسوأ الخطايا - ويعادل تماماً الكذب على الله نفسه» . قال زين الدين «ذلك هو السبب في أن أسوأ أنواع القصاص والتعذيب الرهيب تنتظر أولئك الذين حتى يشك في مقارفتهم لمثل هذه الأفعال المنطوية على الكفر» .

«لقد غبتم عن صحبة بيبرس لثلاثة أيام بطولها» . بدأ قطز يطرق مسند الكرسي ، فبان إظفره الطويل أشبه بمنقار نسر «ليس من الصعوبة رؤية هذه الأشياء - ليس بيبرس وقلاوون هم أسياد الجواسيس الوحيدين الموجودين في هذا الجزء من العالم» .

قال عبد «لقد تغيبنا ، هذا صحيح يا صاحب الجلالة» قال عبد «ولكننا لم نكن نسعى إلى قيادة غارة على الفارين من الجانب المغولي . لقد كان الرجال الذين نبحث عنهم من **جانبنا**»

تبادل قطز وزين الدين نظرات عاجلة ، فقال زين الدين «لقد كانوا من المغول» .

«نعم يا صاحب الفخامة ، هم مغول . لكنهم عناصر من وحدات

المغول العاملة مع الفرسان» .

استند قطز إلى ظهر الكرسي ، وقد انتابه الفضول قائلاً «أكمل أيها الكاتب ، اشرح كل شيء . وفقط حتى أمنحكم قليلاً من التشجيع ، إليكم جمهوراً من المستمعين -» .

رفع يده فانفتحت أبواب من جميع الجوانب ، واندفع الحراس من الإتجاهات كافة ، مدججين بكامل الدروع وحاملين الرماح . خلال ثوان ، أحيط بعبد وتيكا وأنصار ، بحيث لم تعد الأسنة المشحوذة تبعد عن ظهورهم وأضلاعهم وحلوقهم ، أكثر من سماكة شعرة .

شجعه قطز بقوله «استمر ، أرجوك» .

إدوارد

بينما تواصل أجراس السفن قرعها معلنة نهاية فترة الخفارة الصباحية ، وأصوات الأقدام تسير فوق العوارض الخشبية فوق رأسه ، نقل إدوارد ثقل جسمه ثم تحرك ودحرج نفسه خارجاً من الأرجوحة الشبكية على الأرضية تحته . استمر مورتيمر وتوماس وفووين وهيو فيتزهيو في النوم . لقد كان النبيذ ثقيلاً في الليلة الماضية ، فهو من عنب صقلي ، أو بوجه أكثر تحديداً - أعناب - لأن القبطان قال شيئاً ما عن كون الخليط آتياً من كروم على سفوح إتنا ، وشرح لهم بلغته اللاتينية المكسرة كيف أن المنطقة الواقعة حول البركان ، الأشد غضباً وعنفاً ، هي التي تعطي ذلك النبيذ قوته المتميزة .

وقد مارس قوته بكل تأكيد على رفاق إدوارد وفرسانه . فقد انفجروا في الغناء عندما قرعت الأجراس معلنة منتصف الليل ، واستمروا متواجدين على السطح ينشدون التراتيل والأغاني الشعبية النورماندية ، وفي حالة فووين ، الترانيم الجنائزية الاسكتلندية ، حتى موعد خفارة الصباح .

مدَّ إدوارد ذراعيه فوق كتفيه إلى الوراء وفكر في العودة إلى أرجوحته ، خاصة بعد أن البحارة قد انتظموا مرة أخرى ، لكن الأصوات الصادرة عن نداءات أحد الخفراء أثارت فضوله فخرج من الفتحة إلى السطح . شاهد جميع رجاله منبطحين على طول سطح

السفينة الأوسط ، أو نائمين ، متمددين بين المجذفين الثلاثين ، بينما بقي القسم الأكبر من رجاله البالغين قرابة السبعين رجلاً في أمكنتهم إلى الأسفل بسطحين . وقف إدوارد وراقب البحارة أثناء عملهم ، قبل أن يلمح القبطان متكوماً مع بعض من بحارته عند المقدمة . اتخذ طريقه نحوهم وافترق البحارة ليفسحوا له المجال ليمر ، وهم يلمسون مقدمة شعرهم وينحنون أثناء تراجعهم .

قال رئيسهم «ليكن الرب معك هذا اليوم يا صاحب السمو» . هو رجل مسن حاذق من بيزا اسمه بورنيني .

«وليكن معك أيضاً يا دون دييغو» قال إدوارد وهو يمسح الأفق بعينيه . تعرَّف على وجود سفينة في المدى ، أقرب منهم إلى الرأس البري ، وأصغر كسفينة من التي يبحرون على متنها . سأل «هل هذه السفينة تسبب لك المتاعب؟» مشيراً إلى السفينة الوحيدة بإيماءة من رأسه .

«لا ، لا ، أيها الأمير الطيب» قال بورنيني مشيراً برأسه «فنحن كبار وهو صغير في نهاية المطاف . لن يتسببوا لنا بأية متاعب» .

عاود إدوارد النظر . لاحظ أن السفينة لا تعلق أية أعلام أو معلقات . «هل تعرفهم؟»

رفع بورنيني كتفيه تحت ذقنه بطريقة مبالغ فيها . «من يمكنه أن يعرف؟ على هذا البعد . . . لكن ماريه نوستروم بحر صغير . يحتمل أنني أعرفهم» .

«هل هم من إيطاليا؟»

انفتح فم بورنيني على شكل دائرة واسعة «لا ، لا ، لا يا صاحب السمو . إنهم - كيف تقول ذلك - مسلمون . تجار عبيد عائدون إلى الجنوب» .

«عرب مسلمون؟»

«سي ، سي (نعم)» انتفض رأس القبطان صعوداً ونزولاً «هم عرب مسلمون . أشخاص مثل الذين ستذهب لتقاتلهم» .

«من أين هم عائدون باتجاه الجنوب؟»

«يحتمل أن يكونوا قادمين من الأدرياتيك ، ربما اليونان . إنهم يملأون عنابرهم ويذهبون إلى الأسواق في ليبيا» .

«يملأون عنابرهم - بعبيد مسيحيين؟»

ازدرد القبطان ريقه ، وفقد وجهه التعبير الوردي الساحر الذي كان مرتسماً قبل هنيهة «نعم يا صاحب السمو . يأخذون الصبيان إلى الجيش والفتيات إلى الحريم ، كما تعرف . ولكن من يمكنه أن يجزم ، ربما هم يقودون غارات على أبناء شعبهم نفسه . إنهم يتقاتلون كثيراً فيما بينهم . الأفضل أن نتركهم وشأنهم» .

بدأ إدوارد يحشر سترته في حزامه . «استدع لي خادمي . ما هو أسرع وقت يمكنك أن تدركهم فيه؟»

انتفض بورنيني «أدركهم؟ يا أميري ، نحن لسنا سفينة حربية . نحن مدفوع لنا فقط لننقلكم مع جيشكم إلى الأراضي المقدسة» .

قرَّب إدوارد وجهه من وجه بورنيني ، وحدق بعينيه في عيني الإيطالي بحدة . استدعى الأمر كامل جهود القبطان حتى لا ينظر إلى الجفن المتهدل .

«أنت مدفوع لك حتى تفعل ما أخبرك أن تفعله ، أيها الحشرة» أخرج إدوارد خنجراً من مكان مجهول ودسه تحت ذقن بورنيني - لامست الحافة الجلد الناعم خلف عظمة الفك . «إذا كان ذلك لا يسرك - وقتها أعتقد أنه ستدعو الحالة إلى قيام عصيان» .

«أرجـوك ، أرجـوك -» جـحظت عـينا الإيطالي في ذعـر . أحسَّ بركبتيه وقد أخذتا ترتجفان ، لكنه لم يكن بوسعه أن يسمح لجسمه أن يتهاوى لأنه بذلك سيطعن نفسه بخنجر الأمير .

وصل هيو فيتزهيو بصحبة البحار الذي أرسل لإحضاره . توقف ليراقب .

«هل لدينا مشكلة يا مولاي؟»

لم يحرك إدوارد عينيه عن عيني بورنيني «لا أعرف يا دون دييجو ، هل لدينا مشكلة؟»

«أرجوك ، أرجوك ، أيها الأمير الطيب . لدي عائلة . أرجوك - لدي عائلة» . بدأت الدموع تنحدر على خديه .

«لقد طرحت عليك سؤالاً»

همس «لا ، لا مشكلة . سأفعل ما تقوله . أرجوك ، أرجوك!»

خـفض إدوارد السـلاح وتراجع مـبـتـعـداً . «اشـتـبك مع تلك السفينة» .

تابع هيو فيـتـزهيـو اتجاه ذراع إدوارد ليـعـرف مـا الذي يتكلم عنه «ابعث إشـارة إلى السـفن الأخـرى في أسطولنا حـتى تلحق بنا . لا تجعلني أكرر نفسي» .

«كـلا أيهـا الأمير الطيب - صـاحـب السمو . كـلا . أقـصـد - نعم! نعم ، نعم ، كل ما تقوله .» .

تكلم إدوارد حتى يتمكن طاقم البحارة من أن يسمعوه . بدأ رجاله يتحركون في السطح الأوسط لدى سماعهم صوته .

«أنا القائد هنا . سيتم تنفيذ أوامري في اللحظة التي تعطى فيها وإلا فإن الرجل المسؤول سيتم طعنه واختراقه ثم يلقى به إلى الأسماك

لتقيم عليه وليمة . هل كلامي مفهوم؟»

حملق فيه البحارة مشدوهين - العملاق الذي حوَّل القبطان دييجو المرهوب قبل لحظات إلى كتلة خائفة منكمشة . تفاوتت تعابير وجوههم بين المصدومة والمتجهمة ومعظم التعابير الأخرى إلى ما بينهما . استدار إدوارد نحو الثاني في القيادة . بقي بورنيني واقفاً ، يرتعش .

«أخبرهم بما قلته بلغتك ، ثم - استعد للاشتباك . ابعث بإشارة إلى السفن الأخرى لتتبعنا . أريد أن أصعد على سطح تلك السفينة المومس» . مشى إدوارد متمهلاً ، يتبعه فيتزهيو «لديهم مسيحيون مؤمنون على تلك السفينة أيها الشباب» . صاح على رجاله «هل هناك أي شخص مستعد للقتال؟»

أبدى جميعهم رغبتهم في القتال هذه اللحظة وهتفوا له بحماسة وحدَّة . «أحضروا معداتكم وأحدثوا حزوزاً في أقواسكم الطويلة . دعونا نريهم ما تبدو عليه ريشاتنا» .

انهمك الرجال على الفور في تجميع أسلحتهم وملابسهم الخارجية ، بينما أمر القبطان بورنيني ، الذي استعاد نشاطه قليلاً ، رجاله أن يتجهوا إلى سفينة العبيد مباشرة ، قفز إدوارد إلى العنبر السفلي وأحدث فرقعة عالية كانت كافية لإيقاظ مورتيمر والآخرين .

قال دي كلير وهو يفرك صدغه «ما الذي يحدث؟ هل وصلنا إلى القدس؟ أنا أشعر أنني في الجحيم في كل الأحوال» .

قال إدوارد «ارتد دروعك وأسلحتك . هناك عرب مسلمون عند المقدمة» .

«ليس اليوم» قال مورتيمر رافعاً يده «أريد أن أتمكن من السباحة في حالة ميلان هذه السفينة» .

ناوله فيتزهيو حزام سيفه .

«كم يبلغ عددهم؟» سأل مورتيمر . انهمك بدوره في تحزيم أسلحته .

«سفينة واحدة» قال إدوارد «تحمل أسرى حسب قول القبطان» .

سأل فيتزهيو «كيف يمكنه أن يعرف ما هم؟»

«أسرى من أين؟ أسرى لدى من؟» ارتدى مورتيمر قميصاً واسعاً على كتفيه .

«هذا لا يهم؟ إنهم محضرون من بلاد مسيحية» . قال إدوارد «والسفينة عربية ، مسلمة . أليس هذا هو سبب وجودنا هنا ، نتعرق داخل علبة؟»

سأل دي كلير «هل قاموا برفع علم ما؟»

«هل فقدت شهيتك لخوض قتال ما؟» سأله إدوارد . أكمل ربط الخيوط على مقدمة قميصه الخارجي ذي الأكمام الطويلة . تناول سيفه ورفعه عالياً «أريد أن أطعم سيفي قبل وجبة الإفطار» .

«بإمكاني أن أتناول بعض الطعام» قال مورتيمر . تناول فأساً من فوق أحد الصناديق ، حركها ليجرب مدى ملاءمة وزنها .

خلال أقل من ساعة ، كانوا قد وصلوا إلى مسافة قريبة من السفينة الأصغر حجماً والأقل سرعة ، وتمكنوا من رؤية بحارتها واقفين على الجهة اليسرى ، يحدقون فيهم بفضول واجم .

قال مورتيمر «إنهم ذوو بشرات سمراء بما يكفي للاقتناع بكونهم عرباً مسلمين» .

طرح إدوارد السؤال على بورنيني «هل هم عرب مسلمون؟»

«نعم يا صاحب السمو . لا تنتمي الحبال والأشرعة إلى دولة مسيحية» .

«جيد بما يكفي» قال إدوارد . رفع سيفه عالياً في الهواء«أرهم المدى الذي نصله يا دي كلير» .

صاح دي كلير «يا رماة السهام!» تراجع بحارة السفينة بينما اصطف رجال إدوارد في حالة استعداد . وقفوا ممسكين بأقواسهم ، ينظرون عبر الزرقة الرائعة للبحر إلى النقطة في المدى . وقفت أقواسهم على السطح بحيث وصلت في ارتفاعها إلى أكتاف الرجال .

ظلت بقية سفن أسطولهم على مسافة خلفهم ، لكن القوات الإنجليزية على سطوحها تابعت مثال السفينة القائدة ، بحيث وقف الرجال عليها في حالة تهيؤ . استمر بحارة سفينة العبيد في المراقبة . أمكن في هذه الأثناء رؤية رجل أكبر حجماً من البقية واقفاً عند عجلة القيادة ، الاحتمال الأكبر أنه القبطان . أدرك أن اقتراب هذا الأسطول لا يحمل بشائر طيبة ، فيبدأ يبذل أفضل جهوده لتوجيه السفينة نحو اليابسة أو حماية من نوع ما قبل أن يقتربوا أكثر . قدَّر إدوارد أنهم على بعد حوالي خمسمئة قدم .

«الثلم!»

سحب الرجال الإنجليز السهام من كناناتهم ووضعوها على وتر القوس غير مشدودة ، ووقفوا مقدمين أرجلهم اليسرى أمام اليمنى ، مسترخين .

«انتظروا الأمر» قال إدوارد . صعدت السفينة فوق موجة كبيرة ثم الأخرى ، لم يكن رجاله معتادين على تموجات السفينة لكنهم احتفظوا بتوازنهم بدرجة جيدة .

كان يوماً صحواً جميلاً ، مع أنسام رقيقة ، وأصبحت المياه مستوية بأفضل ما يمكن أن تتمناه قوة برية تحولت إلى قوة بحرية . وموجة أخرى

ثم أصبحوا قريبين بما يكفي .

«إفعلوها» مال إدوارد إلى الأمام فوق الحاجز ليراقب .

«اسحبوا» وجه دي كلير سيفه نحو سفينة العبيد . انتظر حتى تهبط السفينة بعد تجاوزها الموجة وهو يحصي التموجات «أطلق!»

تم إطلاق الصلية ، وأصدرت الأوتار صوت ثرام جميلاً في الهواء المشبع بالملوحة ، ولم يصدر أي ردة فعل لمدة ثانية من السفينة المعادية . كل ما أمكن رؤيته لدى انطلاق السهام هو ميلان بسيط للرؤوس بينما حلقت السهام في السماء على شكل قوس واسع ، وصلت إلى سمتها . اختفت للحظة ثم عاودت الظهور ، انقضت هذه المرة في هجوم رهيب على البحارة تحتها .

انتشر الرعب حينما أدرك البحارة أن المسافة التي اعتبروها مستحيلة على التغطية ، هي في واقع الأمر في مسافة الإطلاق ، وليس ذلك فقط بل أن مطلقي السهام بوسعهم الرماية من تلك المسافة بدقة متناهية . هبط معظمهم في وضعية الإقعاء لحماية أنفسهم ، رافعين أيديهم فوق رؤوسهم ، لكن السهام اخترقت مباشرة أكف الرجال وأكتافهم وظهورهم ورؤوسهم . سمع إدوارد زعقات الرعب والألم فأطلق ابتسامة واهنة . وقع قبطان سفينة العبيد ضمن المصابين . هجم أحد بحارته ليمسك بالعجلة التي بدأت تنفتل بسرعة وحاول أن يضع السفينة تحت السيطرة ، لكن الأمواج القريبة من الشاطئ وصلت إليها في هذه اللحظة ، وبدأت تميل .

«اجعل السرعة بالقدر الذي تقدر عليه» قال إدوارد لبورنيني .

«لقد سيطرنا عليهم»

كان على حق ، لأنهم انقضوا عليهم خلال دقائق . أخذ البحارة

يركضون مذعورين إلى هذه الناحية وتلك ، لكنهم اختفوا عندما عاود الرماة بالإطلاق مرة أخرى ، بعد أن أصبحت الرماية القوسية العالية غير ضرورية ، أصدر دي كلير الأمر بالرماية حسب الرغبة ، فمارس الرجال نوعاً من التسلية وهم يطلقون السهام عبر الجانب ، بينما أصبحت السفينتان جنباً إلى جنب . أخذ إدوارد ومورتيمر اللذان ينتظران حاملين سلاحيهما يقفزان على رؤوس أصابع قدميهما لشدة الإثارة وتوقع المذبحة القادمة حتماً .

قال مورتيمر «أراهن على أنه لم يبق الكثير أحياء» .

«إنهم موجودون حتماً هناك» أجابه إدوارد «إنهم يختبئون تحت الحاجز» .

لم ينتظر حتى تتلامس السفينتان قبل أن يضع قدمه على حاجز سفينته و يقذف بنفسه من فوق الفجوة والارتفاع عن خط البحر تحته ؛ ليلقي بنفسه على سطح سفينة العبيد . رأى هناك الشكل الرابض لفتى خادم قمرة فأنزل حد سيفه عليه مع صرخة رضى وانتصار . نهض زملاء الفتى من عمال السفينة وهجموا باتجاه إدوارد في اللحظة التي هبط فيها مورتيمر في وسطهم ، يطوِّح بسيفه وبلطته ، ثم يمسك بأحد الرجال ويعضه في خده بينما الآخر يزعق ويتلوى من الخوف والألم .

صاح هيو فيتزهيو «احموا الأمير!» هبط دي كلير إلى جانبه يدفع بالرجال من فوق الحاجز نحو السفينة العدوة في البعد . أخذوا الآن يعبرون بأعداد كبيرة بحيث أجبر تجار العبيد على التراجع ، وانهزمت القلة التي بقيت كلياً . المانع الوحيد للمهاجمين الذين ظهروا وكأنهم قادمون من مكان مجهول ويهاجمون بلا سبب هو الاضطرار إلى الخطو

فوق جثث القتلى المطعونين بالسهام ، والإبقاء على توازنهم على ألواح السطح الخشبية المنقوعة بالدماء . عندما رأى خادم إدوارد فووين أن سيده آمن من التهديدات المباشرة ، وقف أمام الأمير وألقى بمعول بناء ثقيل على أحد البحارة المتراجعين ، بحيث أصابه في وسط وجهه وطرحه أرضاً فاقداً الوعي تماماً . كان مورتيمر يصرخ مثل المجنون ، وقد تحول وجهه إلى فوضى دبقة من لحيته ودماء الرجال الآخرين ، يركض منفلتاً باحثاً عن رجل آخر ليطعنه ويخترقه .

انتهى الأمر ، ارتمت حفنة من الناجين على ركبهم مادين أذرعتهم إلى الأمام في خضوع تام ، لكن رجال إدوارد لم يمنحوهم العفو ، فتم القضاء عليهم طعناً بالرماح والقضبان الشائكة .

عبر رجال بورنيني من فوق الحاجز بعد أن أحكموا تقييد السفينتين بعضهما إلى بعض بحبال قوية لينهبوا كل ما أمكنهم حشوه في جيوبهم قبل أن يقوم أحد نقباء إدوارد بطردهم عائدين بسوط كان يحمله .

«لا يسمح لكم بالمشاركة في الغنائم إذا لم تكونوا قد خضبتم سيوفكم بالدماء» قال دي كلير باللاتينية . استاء الطليان ولم يتراجعوا إلا بعد إطلاق خيط من الاعتراضات العالية والشتائم بلغتهم الخاصة .

عندما انتبه إدوارد إلى ما يقولونه ، وجه سيفه نحو بورنيني «قل لهم أن ينتبهوا إلى ألسنتهم وإلا فإنهم سيذوقون طعم الفطيرة التي اختنق منها هؤلاء الكفار» .

لم يفهم القبطان كل كلمة نطق بها إدوارد ، لكن لم يكن مجال للخطأ بالمقصود ، خاصة عندما ألقى نظرة على مورتيمر ووجهه المرعب يحدق فيه ، فنادى على رجاله ليعودوا إلى سفينتهم وأمرهم باستئناف

واجباتهم . اقتربت في هذه الآونة سفينتان من أسطولهم إلى جانبهم وانطلق الكثير من المزاح والصيحات بين رجال الكتائب المختلفة وهم يتفاخرون بأفعالهم ويقللون من قوة العدو .

استدار إدوارد وهو يتفقد المنظر ، ثم نادى على دي كلير وفيتزهيو وأشار إليهما باتجاه الباب المخفي الذي يؤدي إلى السطوح السفلية . تسلق إدوارد نازلاً ، مبقياً سلاحه مشهراً أمامه ، متبوعاً بالآخرين ، إلى قمرة خفيضة خالية سوى من بعض قطع الخشب المصفوفة فوق بعضها في إحدى الزوايا . ظهر أحد الجدران وكأنه مصمت مثل الآخرين ، لكن كان هناك قسم يحتوي على شبك لا يكاد يصل إلى ارتفاع الركبة على مدى قاعدته ، مثل ذلك الذي يمكن وضعه على جانب قن للدجاج أو وجار لكلب ما . لدى ملاحظته هذا الوضع ، ركع إدوارد ونظر إلى الداخل ، لكن المكان كان مظلماً إلى درجة كاملة ، بحيث لم يتسن له رؤية أي شيء في الداخل .

قال «أحضروا لي مصباحاً» . نادى دي كلير على السطح فأنزل فووين شعلة مناسبة بعد لحظة قصيرة . تناول إدوارد الشعلة وقربها من الشبك وعاود التحديق . في هذه المرة ، كان هناك زوج من العيون يبادله التحديق وينظر إليه ملياً .

تواجد قرابة ثلاثين شخصاً ممن بقوا أحياء في العلبة الرطبة الوسخة ، مع أن دي كلير وفيتزهيو تباحثا فيما بينهما مستغربين كيف يكون من الممكن حشر هذا العدد من الأرواح الحية في مثل هذا المجال الصغير . بعد أن تم تحريرهم ، لم يعد إدوارد يظهر أي اهتمام بخليط الأولاد والبنات ، الذين تكهن بأن أصغرهم في حوالي الرابعة أو الخامسة من عمره ، والأكبر في قرابة السادسة عشرة ، إلا لإسكات

بورنيني بنظرة حازمة عندما حاول أن يرفع رسومه بسبب الأفواه الإضافية التي سيجب عليه إطعامها .

«ستفعل خيراً إذا بقيت خارج مدى إبصار مولاي للمدة المتبقية من هذه الرحلة» قال له فيتزهيو في وقت لاحق من ذلك المساء . «ففي نهاية الأمر ، يحتمل أنك لاحظت أنه الآن يمتلك سجناً جاهزاً لأولئك الذين يتسببون بإغضابه» .

ابتعد بورنيني محتجاً ، ولم يعد يرى إلا أثناء فترات الخفارة التي حدثت في الأوقات الميتة من الليل ما بين منتصفه وانبلاج الفجر .

«ماذا سنفعل بهم؟» سأل مورتيمر بينما جلس إدوارد في الظل يزيت أسلحته .

كان يستمتع بالروح المعنوية لرجاله بعد أن تذوقوا طعم الدماء للمرة الأولى خلال أشهر ، ويتشوقون للقيام بالشيء نفسه مع جميع أفراد مجموعته بمجرد نزولهم إلى البر .

«أطعمهم جيداً وعندما يحين الوقت أطلقهم على العدو مرة أخرى» . قال إدوارد وهو يتناول قطعة قماش .

«لقد قصدت السؤال عن سجنائك . إنهم يؤدون الصلوات عند المقدمة ويقدمون الشكر للرب على إرسالك . يقولون إنك مخلصهم» .

استدار إدوارد إلى حيث ركع الأطفال على ركبهم جميعاً ، رافعين أذرعتهم إلى السموات . لم يسجل وجهه أي انطباع محدد .

«هنالك بينهم بضعة فتيان يبدو أنهم سوف يصلحون ليكونوا خدماً جيدين . امنحهم الخيار . الآخرون -» فكر للحظة «اجعل دي كلير يعين حارساً على الفتيات ، في حالة عاد هؤلاء البحارة الكلاب إلى الشجاعة ، وتأكد من أن يعرف أبناؤنا بأن جهنم تنتظر أي رجل

يحنث بأيمانه أثناء رحلة الحج . عندما نرسو في قبرص ، سوف أجعل ملكها يتأكد من إعادتهم إلى أوطانهم بطريقة جيدة ، أو إلى أي مكان يختارون الذهاب اليه» .

«هذا تصرف نبيل» قال مورتيمر .

«نحن هنا لنحرر بلاد السيد المسيح . ولكن خلافاً له ، لا نستطيع أن نطعم الآلاف الخمسة . لقد ورث الملك الفرنسي الجديد ديني لوالده إلى جانب تاجه» .

«ولن يجرؤ على القدوم بحثاً عنه» .

«حتى يعتقد نفسه قوياً بما يكفي للتحصيل» .

«أو أثناء وجودك في الأراضي المقدسة» .

«لن تدوم الحملة إلى الأبد . سوف نعود إلى الوطن ونواجه الخصومات القديمة مرة أخرى» .

«وهل نستمتع حالياً بالقتال لأجل القتال؟»

«لأجل القتال . ونعقد صلحنا مع الرب قبل أن نهزم المزيد من أناسه» .



بيبرس

رافقتهم رائحة الطرائد القتيلة أثناء عودتهم عبر بوابات بيسان ، قاد بيبرس المجموعة لوحده ، بدون حراس شخصيين يركبون إلى جانبيه . اتكأ الحراس الملكيون الذين يقومون بواجب الخفارة المسائية على رماحهم وراقبوا مروره بهم . مطيته الثانية مقيدة إلى الحصان الذي يركبه بحبل سميك خشن ، وقد ألقيت جثة أسد جبلي عبر ظهرها . برزت أسنان وأنياب الأسد الميت مكشوفة وسال الدم المنبثق من الجرح في خاصرته على بطن الفرس . لم يتبق الكثير مما يجب قوله لإيصال الرسالة التي يرغب في توصيلها . جاء خلفه مباشرة قلاوون والحرس الشركسي - حمل معظم الرجال تشكيلة من الصيد ، بدءاً بالغزلان الرمادية والوعل ذي القرون حتى الأرانب والطيور البرية .

عند البيت الثاني توقف وخاطب الحرس ، مساعد أنصار المدعو قابر .

«تأكد من فتح الاسطبلات البعيدة وإدخال جيادنا والعناية بها» قال بيبرس .

«أفترض أن المساعد وقائدك موجودان في الداخل؟»

«كلا يا صاحب السمو» أجاب قابر «لقد تم استدعاؤهم من قبل مراسل تابع للسلطان ولبوا الدعوة إلى القصر على الفور» .

«وماذا عن تيكا؟»

«لقد تم طلب حضوره أيضاً ، لم نشاهدهم منذ بضع ساعات» .

«منذ متى تحديداً؟»

«لقد غادروا هذه الصباح ، قبل موعد صلاة الظهر» .

نظر بيبرس إلى قلاوون «كيف يفسر هذا الأمر؟»

«إنه يفسر مثل دقات جرس جنائزي فرنجي» . قال قلاوون .

«سأذهب وأطالب بالإفراج عنهم» .

همَّ بيبرس بأن يسحب عنان حصانه ليديره ، لكن قلاوون وضع مطيته في مساره ببراعة . «افعل ذلك وسينتهي بك الأمر مقيداً بالسلاسل - إذا كان ذلك هو المكان الذي هم موجودون فيه . نحن لا نعرف» .

عاد بيبرس إلى الهدوء ، خفض أعنة حصانه . «هم ليسوا هناك يشربون عصير الفواكه ويأكلون العنب» .

«الاحتمال الأكبر هو ليس ذلك» . قال قلاوون . ألقى بنظرة على الشارع حوله «لكن ليس هذا هو المكان المناسب لخوض هذا البحث» .

«لا أعتقد أن هناك أي حاجة للبحث . السلطان يحتجز رجالي . أنا أريد أن أستردهم . سوف يسلمهم إليَّ» .

عبس قلاوون عند سماع هذا الكلام «يجب أن لا يصدر المزيد من ذلك الحديث . السلطان هو حاكم جميع بلاد الإسلام ، أليس هو كذلك؟»

اكتسى وجه بيبرس بتكشيرة ، لكنه لم يقل المزيد .

«يجب أن نتوجه إلى الداخل ونبدأ التحضيرات لوليمتنا» قال قلاوون بصوت عال .

«لدينا الكثير لنحتفل به!» حفز حصانه إلى الأمام نحو حصان

بيبرس وشد بيبرس عنان حصانه كارهاً وأداره باتجاه الإسطبل .

سأل قابر من فوق كتفه «هل حدثت أي محاولة من قبل السلطان أو رجاله للدخول؟»

«لا شيء يا صاحب السمو» .

تمتم بيبرس «وهكذا فالذهب بأمان على الأقل» ثم التفت إلى قوة المدافع «احتفظوا بيقظتكم . سرعان ما سيكون على أطباقكم لحوم أكثر مما ستقدرون على تناوله والاحتفاظ به لنتقاسمه معكم» .

في الداخل ، اتجه بيبرس مباشرة نحو الغرفة الخلفية وصفق الباب خلفه .

«أين هما : الموت ومهنا؟»

«سيكونا هنا عما قريب» ذهب قلاوون إلى الإبريق الموجود في الزاوية وبدأ يملأ قدحين . أدرك لدى جلوسه في البيت المريح نسبياً كم تغبروا وتوسخوا بعد قضائهم ذلك النهار في الجبال .

«إذا لم تصدر أية إشارة عن مكان تواجدهم خلال الساعة القادمة ، فسوف نذهب للبحث عنهم مصطحبين قوة» قال بيبرس «هذا هو الإذلال الأخير الذي سيلقي به عليَّ» .

«هدئ من غضبك يا بيبرس» ناوله قلاوون كوباً . راقب بينما شرب بيبرس وتنزل عليه بعض الهدوء . «ما الذي يمكن كسبه من الذهاب إلى السلطان على رأس قوة؟ سينتج عن ذلك حمام دم . الأفضل بكثير هو أن نبعث بمرسال وحيد ، كما فعل قطز ، ونستفسر عنهم . العملية بمنتهى البساطة» .

«وماذا سنفعل إذا قام قطز بنشر أحشائهم على سطح بيته ، كما فعل مع سفراء كتبغا؟»

«ليس رجالنا من المغول ، وقطز أكثر دهاء مما تعتقده عنه . ذلك هو جزء من المشكلة بينكما . لطالما كانت كذلك» .

«هو لا يتحلى بالجرأة» .

«ورغم ذلك فأنت تقلق من إمكانية قيامه بتعليق أحشاء أقرب مستشاريك من شبابيكه ، تماماً كما فعل مع مبعوثي الخان العظيم . قطز ليس جباناً يا بيبرس» .

اتخذ بيبرس موقف الدفاع «أنا لم أقل أبداً إنه جبان . إنه مقاتل عظيم وقائد فاضل . لقد قاتلنا سوية ضد أعداء خطرين في معارك لا حصر لها ، وعراكات لن يعرف بها أي شخص على الإطلاق . الاشتباكات على التراب ، الكمائن فوق الطرق الترابية ، المطاردات عبر صحراء سيناء» . تاه للحظة في خضم الذكريات . «ولكنه يقوم الآن باستفزازي . لقد بقيت على ولائي للسلطان الحقيقي بينما كان هو يمارس لعبة السياسة ويحاول الآن أن يعاقبني . لقد هزمنا الخان العظيم في هذه السنة بالذات ، ولكن هل تظن أن ذلك مهم بالنسبة له؟ كلا . والآن ها هو يحتفظ برجالي – أقول لك –»

رفع قلاوون يده ليوقفه «يكفي هذا! أنت الآن تتحدث بتعنيف وقسوة . اشرب ودعنا نحتفل . نحن في أمان هنا ولكنك إذا غامرت بمجرد الذهاب إلى حيث يمكنك أن ترى القصر ، فسوف يردونك قتيلاً في الشارع . لن تكون ميتة مجيدة ، وسوف يتم تذكرك ، هذا إذا تذكرك أحد على الإطلاق ، على أساس المقاتل الذي توفي في شجار بالشارع» .

زمجر بيبرس لنفسه لكنه بات مقتنعاً «متى أقرب وقت نرسل فيه المبعوث؟»

«خلال هذه الساعة . دعنا نتحدث إلى الموت ومهنا عندما يعودان وبعدها نقرر ما سيقوله الرجل . يجب أن لا نبدو وكأننا نقوم برد فعل متسرع أو غاضب . يجب أن نجعل المسألة تبدو وكأنها لا تزعجنا»

أفرغ قلاوون قدحه . «سوف آمر الرجال بإشعال نيران الطبخ ووضع قضبان الشواء حيث يمكن رؤيتها . لا يوجد أي إزعاج هنا . صح؟»

أنهى بيبرس شرابه «موافق . إذا تصرفت بصبر وتقوى ، فإن مؤامراتهم لا يمكن أن تسبب لك الأذى» .

ابتسم قلاوون «إن شاء الله» .

صفية

أخذت الخادمات والطاهيات في المطبخ بالاعتياد التدريجي على وجود المرأة العجوز بحلول هذا الوقت ، رغم أن أي واحدة منهن لم تعرف تماماً ماذا كان عملها أو من هو المسؤول عنها . عندما حاول رئيس الخدم أن يستدرجها في محادثة ، أجبرته ردودها المطوّلة وثرثرتها وصوتها الزاعق على اتخاذ خطوة إلى الوراء ، وعندما بدأت تدخل اسم الحق سبحانه وتعالى والسماوات إلى جانب اسم الخليفة نفسه ، يئس الرجل وتوقف مفترضاً أنها عاشت في البيت بطريقة ما ، وأن الخدم كبار السن قد أهملوا ببساطة أن يأخذوها معهم عندما هربوا من أمام المغول . لم يكن بوسعه أن يلومهم .

كان يمكن رؤيتها في أحيان عديدة تحمل دلواً صدئاً وفراشي تنظيف ، تتحرك بصعوبة من مكان إلى الآخر ، لذلك فقد شعرت أولئك اللواتي لم يعدن مضطرات لأداء مثل تلك الواجبات المنزلية المنهكة بالامتنان لرؤيتها تتحرك وتعمل . وهكذا تركت بدون أي إزعاج .

كان هناك الكثير مما يحدث ولا يتم الكلام عنه في القصر ، وإلى جانب التردد في تحمل المسؤولية عن العجوز الشمطاء المنفرة ولكن الكفؤة في عملها ، كان الصمت فيما يتعلق بالأقفاص التي يتم الاحتفاظ بها في طابق المطبخ نفسه ، خلف الدرجات الواقعة عند المدخل الخلفي

مباشرة . استخدمت هذه الأقفاص في الأيام السالفة كمخازن لمؤن الأمير ، ولكن عندما حضر جنود السلطان وجدوا أن الطعام كله قد اختفى ، ووجدت في مكانه مجموعة من الزنازين المفيدة . رغم أن السلطان كان حاكماً عادلاً ويحظى بالشعبية ، تواجد دوماً أولئك الذين يملأهم الطمع بالسلطة لأنفسهم ، فأصبحت مهمة السلطان حماية نفسه والشعب الذي عانى من مثل هؤلاء المخربين . خلَّف الاضطراب الذي أوجده وصول جيوش الخان ثم انسحابهم المتسرع بعد هزيمتهم في عين جالوت ، الكثير من الأخطاء التي هي بحاجة إلى التصحيح ، وقد حرص السلطان على أن يتم التعامل مع جميع العرائض والشكاوى . أولئك الذين تم التعرف على أنهم استغلوا الغياب المؤقت للسلطة الملكية ، أحياناً بالتربح الفاحش من الأغذية الحيوية ، وأحياناً بالتعاون مع قوات الخائن - يتم القبض على هؤلاء المسيئين ومحاكمتهم على كفرهم .

في بداية إحضار أوائل هؤلاء المساجين وحبسهم قريباً من إمكانية سمع عمال المطبخ ، انزعج هؤلاء . كانت الصرخات تسمع في الليل . أثناء النهار وعندما يلمح السجناء إحدى الخادمات تمر من أمامهم في نهاية النفق ، يبدأون في النداء - كل أنواع التملق والوعود والمجاملات . كان الكثير منهم يكسب عيشه من الكلمات الفضية ، ولذلك لم يكن مفاجئاً أنهم يقومون بأداء ما يجيء طبيعياً في أقصى لحظات حاجتهم . سبب ذلك الوضع القلق للخدم .

أدت كلمة من رئيس الخدم إلى رئيس حرس الجهاز المنزلي إلى إصلاح كل شيء . في وقت متأخر من المساء ، بينما كانت الخادمات والخدم وأولئك المختصون بأمور محددة والطباخون يتناولون وجبة عشائهم ، وصلت إليهم أصوات ضربات مكتومة من منطقة الأقفاص .

أرسل مشغِّل مروحة مصري شاب ليسترق النظر من خلف الزاوية ، فعاد ليخبر أن رجال الحرس الملكي يقومون بضرب السجناء بالعصي على ظهورهم ويحذرونهم بأن يحافظوا على الهدوء . أي شخص يصرخ من الألم نتيجة تلقيه الضربات على كتفيه أو ساقيه ، كان يضرب فوراً على رأسه ليقع مغشياً عليه ، كدرس للآخرين . لم يعد هناك أية إزعاجات تحدث بعد تلك الليلة . على أية حال ، فإن الخدم سيكونون سعداء عندما يباشر السلطان برحلة العودة إلى القاهرة كما أشيع أنه سيفعل في الأيام القادمة .

تم تخصيص زنزانة كاملة لكل من عبد وأنصار وتيكا لوحدهم ، ولكن حتى تقال الحقيقة ، فإن الخزانة السابقة لم تكن أكبر بكثير من مربط في أي إسطبل عادي للخيول . في البداية ، بقي ثلاثتهم واقفين بطرق غير مريحة ، ولكن حل التعب عليهم فيما بعد ، فقاموا بترتيب وضعيتهم بحيث جلسوا في صف ، أولاً عبد يواجه أنصار في الجهة المقابلة ، ثم تيكا .

على الأقل ، بقيت لديهم بهذه الطريقة مساحة صغيرة ليمدوا بها أرجلهم بدون الاضطرار إلى النوم فوق بعضهم بعضاً .

«سيحل البرد هنا مع هبوط الليل» . قال أنصار وهو يعاين الجدران العارية .

«لن نبقى هنا كل ذلك الوقت» . أجابه عبد عاقداً ذراعيه «سيعمل بيبرس وقلاوون على إطلاق سراحنا» .

«لا يمكنهما إلغاء أمر السلطان أيها النقيب» . قال أنصار «إذا أراد أن نبقى هنا ، فسوف نبقى هنا . إلا إذا اعتقد أننا قد كذبنا عليه . في تلك الحالة ، سنكون في عداد الأموات» .

«وهل تعتقد أنه يصدق حكايتنا؟»

«من الصعوبة بمكان أن تكذب عندما يكون حد الخنجر مسلطاً على حلقك ، لذلك أنا أحترمك على ذلك . ولكن هل سيصدق أن بيبرس أرسلك يا تيكا ، وأنت أفضل رجاله ، لتطارد بعض الفارين من الخدمة العسكرية؟ أمر مستبعد جداً . أو أنت ، مساعده المؤتمن على أسراره؟»

«كان ذلك أفضل ما تمكنت من فعله» .

«أعرف» . أراح أنصار رأسه على طوب الجدار البارد . «لو أنك أخبرته بالحقيقة لقاموا بمهاجمة البيت والقضاء على جميع شبابنا ، ولذلك ، فقد أنقذت حياتهم بطريقة ما . سيعود بيبرس عما قريب ومن غير المحتمل أن يقدم السلطان على مهاجمته بشكل علني ، شخصياً كما هو الوضع» .

«وهكذا فنحن ننتظر» .

«وهكذا ننتظر» أغمض أنصار عينيه «ونصلِّي» .

استمر تيكا في التحديق بقدميه أثناء جلوسه ، واضعاً يديه على ركبتيه ، غير متأثر مطلقاً بدوره في الأحداث ، مع أن عبد استمر يتساءل عن شعوره لوجوده في الموقع المقابل لقطز ، الذي قاتل إلى جانبه ونزف الدماء منذ أن كانا صبيين .

إن سبل الله سبحانه وتعالى غير معروفة للبشر الذين مآلهم إلى الموت ، لكن عبد لم يتوقف عن الشعور بالدهشة ، حتى بعد أن توصل إلى قناعة مفادها أنه لم يعد هناك شيء يفاجئه بعد الآن . نظر إلى فوق ليرى شكلاً مغطى بالسواد يقترب ، امرأة ، عجوز ومبرقعة كلياً . استغرق الوضع دماغه لحظة طويلة ليتمكن من اللحاق بما تراه عيناه .

«صفية؟»

انفتحت عينا أنصار على اتساعهما ثم وزع نظراته بسرعة بين عبد والشكل .

«من هو هذا؟»

«أبقِ صوتك منخفضاً» نهض عبد ووضع يديه على قضبان الباب «هل هذا أنت يا صفية؟»

«إنه أنا» قالت من تحت الغطاء والخمار .

«احترسي» وقف عبد ملتصقاً بالباب وحدق من فوق كتفها على الممر خلفها . «هنالك حراس» تكلم بهمس خشن ، بينما أمسكت أصابعه بالشبك بقوة .

قالت «إنهما سكارى من النبيذ الذي أحضرته لهما مبكراً» . قالت «كلاهما يشخر في غرفة إلى جانب المطبخ» .

«البوابة مقفلة» .

بحثت تحت ثوبها «لدي مفتاح» .

ابتسم أنصار «أنتِ امرأة واسعة الحيلة يا صفية . إنني أهنؤك على اختيارك لزوجتك ، أيها النقيب» .

«إنها ليست زوجتي» .

بدا على أنصار الارتباك «فهمت . حسناً ، ذلك ليس مهماً ، المهم هو –»

«يكفي هذا» قالت صفية «تراجع إلى الوراء» .

فعل عبد كما أمرته ، فوضعت المفتاح في القفل . انفتح الباب بدون أية تعقيدات . ركض الرجال الثلاثة خارجين . والتفوا حول شكل صفية الصغير .

سأل عبد «في أي اتجاه نذهب؟ لا يمكننا أن نعود أدراجنا في الطريق التي أحضرونا منها» .

أشارت صفية «اتبعوا الممر حتى المطبخ واعبروا من خلاله بدون أن تنظروا إلى أحد . لن يتدخلوا بكم . هنالك باب إلى اليمين في الجهة الخلفية . سيأخذكم إلى ساحة . تسلقوا الجدار هناك وستجدون أنفسكم في العراء» .

«الحمدلله والشكر» قال عبد وهو يهم بالركض .

«انتظر!» قالت صفية «هناك حراس موزعون على زوايا طرفي الشارع . حاولوا أن لا تجعلوهم يروكم وأنتم تتسلقون الجدار نازلين . عندما تصلون الجهة الخارجية ، اركضوا ولا تتوقفوا حتى تبلغوا مقر قيادة بيبرس» .

عانقها عبد وأحاطها بذراعيه ، تاركاً تيكا وأنصار يحدقان في الأرضية . «ألن تجيئي معنا؟»

«يجب أن أبقى هنا لأتمم مهمة أخرى . سوف أراك هذه الليلة . لا تخف على شيء ، فأنا أعرف هذا المكان جيداً» .

تردد عبد ، لكن أنصار وضع يداً على ذراعه «تعال يا عبد» قال له «إذا كانت قادرة على إعطائنا حريتنا ، فهي حتماً تستطيع أن تعتني بنفسها أكثر مما لو بقينا» . سحب كم عبد بخفة فهز الشاب الأصغر سناً رأسه وهم بالمغادرة .

«هناك أمر آخر» قالت صفية . توقف ثلاثتهم . مدت يدها تحت ثوبها مرة أخرى وحلّت ثلاثة سيوف قصيرة من حيث تعلقت من كتفيها «خذوا هذه» .

قال أنصار «أنت من صنف الآلهة بحق» وقد غمره السرور . ابتسم تيكا .

قال عبد «أنا أحبك» .

«سأراك عما قريب ، يا أعز الناس . اذهب» .

انطلقوا باتجاه المطبخ واستدارت صفية وذهبت بالاتجاه الآخر ، يحتمل نحو ممر سري ما لا يعرف سره غيرها .

لم تزد المسافة إلى المطبخ على خمسين خطوة ، ولكن أثناء مرورهم عن الدرجات بين الممر وغرفة الخزين ، صاح بهم صوت «توقفوا!»

استدار الثلاثي . كان ذلك زين الدين . كان ينزل الدرجات متبوعاً بثلاثة من حراسه .

لم تفعل الجماعتان أي شيء للحظة طويلة ثم بدا وكأن كل شيء يحدث على الفور . هبَّ زين الدين نازلاً الدرجات مندفعاً ، لكن تيكا تجاوز عبد وهجم عليه ليقابله بلكمة مستقيمة في منتصف وجهه . انهار زين الدين وسقط إلى الخلف ، نازلاً الدرجتين الأخيرتين من السلم ، بينما أنفه وفمه ينزفان بغزارة . ذهب حراسه ليقيموا حلقة حماية حوله لكن أنصار وعبد أشهرا سلاحيهما في وجوههم وأجبروهم على التراجع . استغل تيكا هذه الفسحة وقفز من فوق جسم زين الدين ، لكن الحراس كانوا قد انصرفوا ، عائدين تسلق الدرجات واختفوا عن الأنظار . تجاوبت أصداء صرخاتهم طالبين المدد وطغت على أصوات الطباخين في المطبخ المجاور .

قال أنصار «يجب أن ننصرف!»

نظر عبد إلى زين الدين المطروح «ماذا بشأنه؟»

«لا يسعنا أن نأخذه معنا . اتركه!»

«نعم» قال عبد ، ثم جاءت صرخة من الطابق الواقع فوقهم .

«نعم! هيا بنا نذهب!»

ركضوا إلى داخل المطبخ ، مارين عن خادمات مذعورات وطباخين ضخمي الجثة ، متجهين إلى الباب الذي وصفت لهم صفية موقعه . ركله تيكا بحذائه الضخم بدون أن يجرب ما إذا كان مغلقاً أم لا ، فانفتح بقوة على الساحة المفتوحة ، مجفلاً سرباً من الدجاجات كان يرعى في الساحة ، تفرقن يوقوقن ويحاولن الطيران .

عبروا الساحة ، دفع تيكا وأنصار بعبد إلى قمة السور العالي ، ثم قام هو بمساعدتهما على الارتقاء . تطلب الوضع كل قوى الاثنين لرفع تيكا ، لكنهم عبروا ووجدوا أنفسهم خارجاً في الشارع ، يتلفتون حواليهم من جانب إلى الآخر . لدى سماعهم صرخات آتية من غرفة حراس في نهاية الطريق ، اختاروا أن يركضوا في الجهة الأخرى ، نحو قطعة أرض خالية من البناء حيث سرعان ما ابتلعتهم العتمة .

سمعت صفية الإنذار خلفها أثناء عبورها الباب السري خلف الأقفاص ، نزلت نفقاً غارقاً في ظلام دامس ثم صعدت ثلاث درجات في النهاية . خرجت خلف السلالم الرئيسة في القاعة الكبرى ، ورغم وجود حراس يركضون جيئة وذهاباً ، لم يلاحظ أحد الباب المزيف ينفتح بمقدار شعيرات ويخرج منه كائن خرافي . وقفت في مكانها تحت ظل الدرجات لتتفحص الأحداث الجارية حولها . تجرأت لتلقي نظرة ، فرأت ظهر السلطان بثوبه الأخضر وحراسه وخدمه ووصيفه ينزلون عن المنصة ويتجهون إلى الغرفة الإضافية في المؤخرة ، حيث يستطيع حراسه أن يدافعوا عنه بشكل أفضل إلى أن يزول الخطر . في الجهة القصية ، حيث وقفت صفية ، أغلقت الأبواب من قبل جنود تابعين للألوية الملكية ، واقفين خارجه بأسلحتهم المشرعة . سحبت نفساً عميقاً وخرجت من تحت الدرجات ودارت لتصعد إلى الطابق الثاني .

«توقفي أنتِ هناك؟ ما هو عملك؟»

سمعت صفية الصوت ، لكنها استمرت في المشي ، خطوة واحدة في كل مرة ، محافظة على مشية العجوز الضعيفة العرجاء .

«قلت لكِ توقفي!» أصبح الصوت أقرب الآن . استدارت لترى رجل حرس صغير السن ، يحمل سيفه في يده . صاح بها «إلى أين أنت ذاهبة؟» . ركض حارس آخر يرتدي الزي نفسه نحوه ليقف إلى جانبه .

قالت صفية «إنهم الجن» وقد جاء صوتها متقطعاً ، ورغم ذلك جهورياً ، تسحبه من صدرها .

«ذلك هو ما يتحتم على كل البشرية أن تتسابق من أجله . لكن الأرواح قادرة على أن تطير ، ولذلك فأنت لن تسبقها!» ضحكت بجنون ، وبصوت مبحوح .

«إنها مجنونة» قال الحارس الثاني للأول «هيا بنا ، يقول غالب إن من نبحث عنهم هم ثلاثة رجال في الطابق السفلي!»

«هم الجن الذين ينبغي أن تحذروهم ، وليس الرجال!» غردت صفية ثم انطلقت صاعدة الدرجات ، تاركة الحارسين يحدقان فيها .

قال الثاني «اتركها بحالها . لن تتسبب لأي أحد بالضرر سوى لنفسها» .

ركضا خارجين باتجاه مقدمة القاعة والممر العريض خلفهما .

بلغت صفية الطابق الثاني وسارت في الممر الطويل ، المليء بالأبواب على الجدران من الجانبين . أخذت تعد أثناء سيرها ثم توقفت عند الرقم المناسب . نقرت على الباب . جاءها الصوت من الداخل :

«من هذا؟ ما الذي يجري؟»
دفعت الباب ففتحته ودخلت .
«من أنتِ . ولماذا أنت في غرفتي؟»
قالت «يا صاحب السعادة المعزِّي . إنني أجلب إليك أحداث الأيام القادمة» .
«ماذا؟» كان جالساً على الفراش ، لكنه في هذه اللحظة انتفض قائماً وركض إلى الجانب البعيد من الغرفة ، حريصاً على إبقاء الفراش بينه وبين الدخيلة . تناول سيفاً .
«لا تقتربي أكثر ، أيتها الساحرة . سوف أقطعك إلى نصفين!»
استمرت أصوات الصرخات والأقدام الراكضة في الوصول من الطابق الأسفل تحتهما ، وأصبحت الآن تأتي من الساحة والشارع خلفها .
«لقد جئت فقط لأخبرك بأن تأخذ حذرك» .
لم يكن قد أدرك تنكرها حتى اللحظة .
استجمع المعزِّي رباطة جأشه ، ورفع قامته قليلاً من حيث أقعى «أنت التي تحتاجين إلى ممارسة الحذر . سيأخذك رجالي ويطعمونك للكلاب والطيور الصيادة - سوف يقشرون اللحم عن ظهرك ويلقون بك في الجير الحارق» .
«رجالك ليسوا موجودين هنا يا صاحب السعادة» . اقتربت منه خطوة .
زعق بها محذراً «لا تقتربي أكثر!»
«لن تحميك السيوف يا صاحب السعادة . ليس أفضل المقاتلين عند الله سوى غبار . ليس هناك مهرب من القبر» .

أخذ جسمه يتعرق ، وتنفسه يجيء في شهقات ، بحيث يسمع كل نفس يسحبه وكأنه نحيب .

«هل جئت لتقتليني؟»

«كلا يا صاحب السعادة . لقد جئت لكي أنذرك . ستحل الندامة على مشورتي إذا لم يتم العمل بها» .

«ما الذي تتحدثين عنه؟ تكلمي بشيء من المنطق» .

«هناك إعصار قادم من الشمال وقد بدأ هبوبه من الجنوب ويجلس مستقراً في هذه البلدة . عندما تنفجر هذه العاصفة فسوف تسحب كل الذين لا ينحنون لها ، وسوف تطهر الأرض وتعود صالحة مرة أخرى» .

«هل أنت تتحدثين عن المغول؟ هل الخان عائد؟»

«إنني أتحدث عن الشخص الموجود بينكم أصلاً» .

«تقصدين بيبرس؟ زين الدين؟»

«هناك وقت لكل شيء يا صاحب السعادة ، وهذان الرجلان اللذين تتحدث عنهما سيحين زمنهما كما سيحين زمنك . بالنسبة للآن ، فأنت تحسن صنعاً بالإصغاء إلى الإنسانة التي تمسك بحياتك بين يديها» .

تغضن وجه المعزّي لشدة الغضب «وهل أنت تتجرأين على تهديدي؟ سوف أخترقك بهذا السيف» .

«لن يوقف ذلك زمن العواصف . ولن يحمي طائرك الصغير» .

بانت من عينيه نظرة جديدة «لا تتكلمي عنها أكثر مما فعلت!»

«إنني فقط أتكلم عما سيحدث . إذا كانت امرأة عجوز قادرة على دخول غرفتك في بهيم الليل بينما يقوم السلطان بحمايتك بنفسه ، إذاً يجب أن تعرف أنه لا أمان للرجال الذين يتحدون العاصفة . سوف يتم

إعطاؤك الخيار يا صاحب السعادة ، وستعرفه حينما يأتيك ، لأنني سأكون حاضرة وأراقبك . وقتها يتحتم عليك أن تقوم باختيارك» .

انخفض السيف ، وكأن ذراع المعزِّي قد اعتراها الإنهاك ، فأدارت ظهرها له وغادرت الغرفة . مع حلول وقت استعادته للسيطرة على أعصابه وخروجه لينظر في الدرجات والممر ، كانت قد اختفت .

عبد

ظهر المراسل بعد الفجر بوقت قليل، على ظهر حصان كما فعل من قبل وتوقف أمام البيت الثاني في بيسان. أعلن أن أمير قليوب، بيبرس البندقدار، مطلوب إلى بلاط السلطان على الفور، وأنه إذا كان حضوره لا يحدث خلال ساعة، فإن هناك قوة من الحرس الملكي متأهبة للمجيء وأخذه بالقوة.

سأل بيبرس وهو واقف أمام ضباطه، ينظر إلى المراسل رافعاً ناظريه، ما إذا كان مقبوضاً عليه.

اتضح أن هذا الرجل كان متأهباً لهذا السؤال ونفض رأسه «يعرف السلطان أنه ليس لديه صديق أعظم من بيبرس النبيل، وأنه ليس لدى الإسلام مقاتل أعظم منه، فيما عدا السلطان نفسه».

أطلق بيبرس ابتسامة ماكرة عند هذا القول.

«ولكن جلالته في منتهى التشوق لحضور بيبرس إلى البلاط في هذا الصباح، لأنه هناك قضايا عديدة تهم الدولة سيتم بحثها. ولن يتسنى حل الكثير منها بدون مشاركته».

نظر بيبرس إلى الرجل ولم يشاهد أية إشارة على أنه يخفي أي شيء. فقد بقيت عينا المراسل ويداه ثابتتين.

«حسناً، سأذهب إن شاء الله. هل أفترض أن رجال البلاط العظماء الآخرين سيكونون حاضرين؟»

«لقد طلب السلطان من جميع أولئك القادرين على تحمل أعباء الجهاد في سبيل الإسلام أن يحضروا ويقدموا جهودهم» .

«وهكذا فليكن» قال بيبرس . أشار إلى الحراس أن يجهزوا حصانه ثم استدار إلى قلاوون . وقف عبد وتيكا والآخرون على مسافة قريبة .

«ما الذي تعتقده؟»

فكر قلاوون في الموقف «لا يمكن لقطز أن يدخل اسم الله سبحانه وتعالى وحقيقته التي تكشفت إذا كان يضمر شيئاً من الخديعة ؛ لأن ذلك ليس مجرد خطيئة في نظر الله ، بل هو عمل يناقض جوهره نفسه وحقيقته كرجل» .

هزَّ بيبرس رأسه موافقاً «كما فكرت شخصياً . لكنه يهدد باستعمال القوة» .

«للمرة الأولى» وافقه قلاوون . نظر إلى عبد «لابد وأن هروب الأمس قد آذى إحساسه بالكرامة . ليس مقبولاً أن يظهر ضعيفاً في نظر القبائل ، أو الأمراء الآخرين ، أو في الواقع حكام الممالك المجاورة لنا وما وراءها . توجد سفارات أجنبية لديها مراقبون في هذه البلدة بالذات – الفرنجة ، الأتراك ، وحتى الخان العظيم نفسه . أنت الآن قائد شهير ، الرجل الذي قاد قوة الإسلام المتقدمة . من المتوقع أن يحتاج قطز إلى أن يظهر بأنه مازال قادراً على إصدار الأوامر اليك» .

«وهل من مصلحتي إظهار أنني ما زلت بحاجة إلى تلقيها؟»

استمر قلاوون في الوقوف عاقداً ذراعيه فوق صدره ، ثم أدى نصف استدارة باتجاه المراسل الملكي خلفه ، الذي ما زال جالساً على صهوة فرسه العربية الرائعة .

«من مصلحتك أن تفعل ما هو في مصلحتك» . قالها بصوت

خفيض «إن الاستجابة لهذه الدعوة هي جزء من ذلك» .

«في هذه الحالة سأذهب» . مدَّ بيبرس ذراعه ليتسلم أعنة حصانه وبدأ الحراس ينظمون أنفسهم على مطاياهم . قال بيبرس «لا» ممسكاً بالأعنة ورافعاً كفه . «سوف أذهب لوحدي» .

تناول قلاوون الرسن «والآن ، هل ذلك الإجراء في مصلحتك؟»

«إما أن يقتلني أو يسجنني ، أو أنه لن يفعل أياً من ذلك . إذا أراد أن يجعل قاذف سهام معيناً يرميني ليسقطني عن صهوة حصاني ، فليس هناك شيء بوسعك أنت أو الحراس أن تفعلوه بذلك الصدد . لذلك سأذهب وأواجهه كرجل ، وإذا حدث وغادرت الدنيا هذا اليوم ، فسأغادرها وأنا أدرك أنني قد استحققت مكاني في الفردوس» .

ترك قلاوون رسن الحصان وانطلق بيبرس مبتعداً بسرعة جعلت المراسل يبذل أقصى جهده للحاق به .

عندما وصل إلى القصر ، ترجل عند البوابة ومشى عبر الساحة الأمامية ، رافع الرأس ويده على سيفه الطويل . أفسح رجال القصر الذين كانوا متجمعين الطريق متراجعين ليسمحوا له بالمرور ، وعندما وصل إلى أبواب القاعة الكبرى ، انفتحت بدون أن يضطر هو أو المراسل اللاهث خلفه أن يعلنا عن نفسيهما . فوجئ ليجد أن الغرفة الفسيحة فارغة حينما دخلها ، تجاوبت أصداء أقفال الباب خلفه في أرجاء الزوايا الفارغة والسقف مثل هزيم الرعد .

أصبح شكل قطز الجالس مرئياً له على العرش أمامه ، ملتفاً بمعطفه .

مشى بيبرس نحوه وركع أمام العرش قبل أن يلوح له قطز بإصبعه قائلاً «انهض» .

«يا صاحب الجلالة» قال بيبرس .

«ما الذي تريدني أن أفعله يا بيبرس؟»

«ماذا يا صاحب الجلالة؟»

«لقد قلت ما الذي تريدني أن أفعله؟»

تصنع بيبرس الحيرة «لقد حضرت لأطرح السؤال نفسه على جلالتكم . إن وجودي كله رهن بخدمتك والعرش» .

رفع قطز إحدى ساقيه فوق متكأ كرسي العرش ، بحيث جاء رأسه شبه مائل على ظهر المقعد العالي ، والتصق خده بالحشوة الحريرية «هل ذلك صحيح يا بيبرس؟ لن أقول لك إن الكذب على السلطان خطيئة ، لأنك تعرف ذلك مسبقاً ، لكن الكذب على الصديق هو حتماً خطيئة مؤكدة» . جاء صوته متعباً ، حزيناً .

«أنا لم أكذب عليك أبداً ، سواء كنت سلطاناً أم لم تكن» .

«إذاً لماذا تهينني في كل مناسبة؟ لقد أعطيتك إمارة في قلب مصر . أعطيتك عدواً لتقاتله في شخص الملك الماكوري . ما هو الذي فعلته حتى يجعلك تخفي وتخطط ضدي؟»

«لم أخفِ عنك شيئاً يا صاحب الجلالة» .

رفع قطز رأسه عن الوسادة ونظر إليه ملياً «لا؟ لو قمت بإرسال فصيل من رجالي لتفتيش الإسطبل الكائن بجانب منزلك ، فماذا يحتمل أن يجدوا؟»

«مجرد حراسي» . حاول أن يجعل الكلام بصيغة المرح ، ولكن العبارة احتوت على الكثير من الجدية .

«صحيح» عاود قطز وضع رأسه على ظهر المقعد «وأين سيضعنا ذلك ساعتها؟»

لم يحر بيبرس جواباً .

«لقد كذب مساعدك عليَّ» .

«عبد؟ ما الذي قاله؟»

«قصة تافهة عن فارين من الخدمة . لقد تصرف بشكل جيد على اعتبار أن رقبته كانت على مسار سيف حارسي . كلهم تصرفوا بشكل جيد - تيكا وذلك الآخر . لقد أقدم تيكا على هرس أنف زين الدين بكتوت أثناء خروجه أيضاً . عندما سمعت القصة ذكرتني بالأيام القديمة» .

ابتسم بيبرس وهو يتذكر .

«لا يوجد شيء من هذا القبيل عندما يصبح المرء سلطاناً ، كما تعرف» .

«مولاي؟»

«لا تناديني بذلك الاسم . ناديني باسمي» . توقف قطز وسحب نفساً عميقاً . «ليست هناك أية مغامرات عندما تصبح سلطاناً ، لا يوجد سوى هذا الكرسي ، وأحياناً تراقب القتال من المؤخرة . أنت لن يعجبك ذلك» .

«مولاي ، أقصد قطز ، أنا -»

«هناك عرائض لا تنتهي ، قرارات ، جلسات سماع دعاوى ، أحكام ، طيلة النهار ، ثم تجيء الاحتفالات . نحن كلانا رجلان مؤمنان ، لكن تقواك تتعرض للامتحان عندما تستمع إلى المواعظ التي تستمر لأيام . تلك هي حياة السلطان - ليست أفضل من حياة موظف ، إلا ربما فيما يختص بالطعام» .

«والنساء -»

بدت على قطز الصدمة لدى سماعه الكلمة والفكرة . «لا تكلمني عن النساء! إن الحريم كابوس . ألف امرأة ، ولا واحدة منهن سعيدة على الإطلاق ، أو أنهن جميعاً مسرورات لدرجة أنك تتساءل عن الشيء الذي يردنه منك في ذلك اليوم . لا يمكنك حتى أن تجلس معهن وتشرب بعضاً من الشهد الحلو وتستمتع بفاكهة من السلطانية بدون أن تتعجب من نوع المؤامرة التي ينتظرن حتى يطلقنها عليك . هل تتذكر الفتاة الراقصة التي كانوا يسمونها باجيا؟ هل تذكر أنها كانت تمتلك أجمل سيقان وأرق رقبة؟ تلك كانت امرأة رائعة . متحررة جداً - مفعمة بالحيوية . وكريمة النفس فوق ذلك - ما كانت لتعطيك شراباً بإحدى يديها وتدس الأخرى في جيبك لتسرق نقودك» .

وافقه بيبرس «لقد كانت امرأة راقية» .

«ربما أتمكن من العثور عليها الآن» . أضفت الفكرة بعضاً من الحيوية في نفس قطز .

«لقد تزوجت عبداً محرراً حقق ثورة من بيع الفلفل الهندي الحار إلى الطليان . أنا واثق من أنهما سيرحبان بدعوة من السلطان عندما يعود إلى الاسكندرية» .

«آه» تنكس مزاج قطز بسرعة إلى درجة جعلت بيبرس يشعر بالأسى على طيشه . قال بعد وهلة «اليوم هو الأخير لنا في بيسان . سنغادر إلى مصر هذه الليلة . أصدر أمرك إلى رجالك ليستعدوا للتحرك بعد صلاة العشاء . يجب دفع تعويض عن الهجوم على زين الدين ، ليس هناك مفر من ذلك . سأترك موضوع تقديم عرض لقرار منك . بالنسبة لمساعدك ، تأكد من أنني لا أراه مرة أخرى أبداً» .

«سوف يطالب زين الدين برأس تيكا» .

«في هذه الحالة يستحسن أن تعرض عليه شيئاً آخر يجعله راضياً بالمقدار نفسه» .

«القضاء في هذه الحالة منوط بالسلطان» .

«وقد فعل» . اتخذ صوت قطز حدة واضحة «احرص على أن يتم التعويض على زين الدين حتى يقتنع . ذلك هو قضاؤنا» . استدار وجلس مستقيماً في كرسي العرش ، وقد وضع يديه على المسندين من معصميه ، بينما أصابعه تتحرك صعوداً ونزولاً . «وسوف تقوم بتسليم الذهب الذي صادرته من العدو كاملاً . ذلك هو ثمن إخفائه عن سلطانك» . جلس مائلاً إلى الأمام ، وقد ظهر الغضب في صوته . «لأن ذلك هو ما أنا عليه ، يا بيبرس ، وذلك هو ما استقرت عليه إرادة الله . أنا سيدك ، وسوف تخضع وإلا فسيتم تدميرك . لا يمكنك أن تعتمد على صبري لأننا كنا أصدقاء قبل زمن طويل – لن تدوم الدولة إذا لم يطع رجالها العظماء الأوامر ، أو يحاولوا الاستيلاء على السلطة لأنفسهم فوق سلطة ملوكهم . لقد تم القضاء على الخطر الذي يمثله الخان العظيم لكن الإسلام مازال في خطر بكل الأمكنة . إذا لم نناضل ، لن تبقى هناك سلطة مسلمة تستحق الإسم على وجه الأرض . لن أشهد على تحطيم تلك القوة لأنك ترغب في العودة إلى أساليبك القديمة في الغارات والشجارات عبر الصحراء كلها – تقاتل من أجل عيون الماء ضد رجال قبائل وسخين» .

«مولاي ، نحن نفوز لأننا لا نخاف من خوض القتال» .

«نحن نفوز لأنني الشخص الذي يعطي الأمر بالقتال يا بيبرس ، وليس العكس!»

انحنى بيبرس «كما تأمر يا صاحب الجلالة» .

«هيًا اخرج!» عاد قطز إلى وضعية الإقعاء، وأدار وجهه بعيداً عن بيبرس.

استدار بيبرس وبدأ يسير خارجاً من الغرفة.

«بيبرس!»

استدار

«لقد استمتعت بمغامراتنا - قد لا يبدو أنني فعلت، ولكنني استمتعت فعلاً. تذكر ذلك من أجلي، رجاءً».

لم يعرف بيبرس ما ينبغي قوله، لذلك، وبعد أن بادل قطز ابتسامته الواهنة، عاود الاستدارة وغادر.

إدوارد

بدأ حياته كسارق خيول ورجل عصابات قاطع طريق ، ومع حلول وقت وفاته توصل بوسيلة ما إلى حكم نصف إيطاليا ، إلى أن زرع الرعب في قلب إمبراطور القسطنطينية ، وإبقاء البابا في جيبه حتى يخرج ليرقص كلما حلا له ذلك . كان ذلك هو روبرت دي جيسكارد .

حامل اسم هيو الثالث ، ملك قبرص والقدس ، اتكأ إلى الوراء في مقعده وتجشأ بصوت عالٍ . «المزيد من النبيذ والمزيد من اللحم! إن أمير إنجلترا ضيف لدي ، ولم يطأ هذه الشواطئ شخص أنبل منه منذ أن قام سلفه بإغتنام هذه الجزيرة من الإغريق! النبيذ ، أقول لكم!»

شرب إدوارد من قدحه ثم وضعه على الطاولة . كانا جالسين في الغرفة العليا للحصن الذي قيل له إنه قد سمي الـ«كولوسي» ، وهو لا يزيد على مكان مربع ، يبلغ ارتفاعه أربعة طوابق وتمتلكه رهبنة فرسان الهوسبيتال . لكن هيو لم يسمح لضيفه بالاقتراب من الهوسبيتاليين ، على الرغم من أن القائد قد أشرف على حرس الشرف في الساحة لدى وصول الجماعة الإنجليزية . فقد اندفع هيو وتجاوزهم مع النبلاء المنتظرين ثم سحب إدوارد صاعداً به إلى هذا المكان ، حيث يستطيع كلاهما أن يشربا ويتحدثا «مثل الرجال» حسب صياغته - بدون الحضور المسبب للكآبة لمن سماهم «الجنود الرهبان» .

«إنهم يشكلون بؤرة من البؤس الذي لا نهاية له يا إدوارد ، ليست

لديهم أي فكرة عن الفن أو الثقافة ، أو ما قد يسميه الرب بحكمته المتناهية (الإنسانية) . إنهم نكدون ولا يسكرون ، حتى آخر واحد منهم . لكنني أعرف ما هو الأفضل» .

وهكذا فقد أمضى هيو وإدوارد النهار وهما يتحدثان عما يفعله الملكيون ، والذي يشعر هيو - وهو فرنجي من دماء نورماندية مثل إدوارد نفسه ، أنه محروم منه بحدة هناك في «الشرق» .

ذلك هو ما قادهم إلى البحث في موضوع سلف هيو ، روبرت ، الرجل الذي شكلت قسوته وطموحاته مثالاً ينبغي احتذاؤه بالنسبة لروبرت منذ زمن طويل ، وبات مصمماً على تنفيذه .

«والأمر الذي يدعو للعجب هو أنه جاء من اللاشيء» . قال هيو «فقد كان فعلياً قاطع طريق وصل إلى إيطاليا بصحبة أربعين رجلاً . لكن ابنه أصبح أمير أنطاكية ، هل يمكنك أن تتخيل؟ تلك هي العجينة التي تصنع منها الملوك» .

«لقد كان رجلاً بحق» وافقه إدوارد .

«في أصدق معاني الكلمة . وأصبح شقيقه حاكم صقلية . لكن الرجال كانوا أشد صلابة في تلك الأيام ، وليس مثل هذه الأيام . التضحيات التي قدمها كل من بوهيمند وبلدوين على الطريق لاحتلال القدس - الإيمان بالرب الذي كان لديهم بكل تأكيد . ليس هناك من جيش يستطيع حتى أن يقاربهم . تبحر جيوشنا اللاتينية هذه الأيام إلى كل مكان ، وتعني سيقانهم المهتزة أنهم لا يصلحون للقتال بعد أن يفلحوا في الوصول» .

وجد قليلاً من النبيذ في قدح قديم وقضى عليه «باستثناء الصحبة الحالية بالطبع» .

«بالطبع» ، قال إدوارد .

«إنه وكر للأفاعي ومصاصي الدماء يا إدوارد . أقول لك من الآن» .

«هل تقصد البحر؟»

«بل القدس . أقصد عكا» .

«إنها أكثر مدن الرب قداسة يا مولاي» .

«المدينة رائعة . أما الناس؟ الأمراء؟ إنهم حثالة قادرون على طعنك في الظهر لأنك أعطيتهم خمس قطع نقدية بدلاً من ست» .

أرجع إدوارد رأسه إلى الوراء واستمتع بالنسيم الذي يأتيه داخلاً من البحر عبر الشبابيك المفتوحة .

«سأخبرك الآن حتى لا يخيب أملك - لأنك سوف تشعر بالخيبة . إذا كنت تتوقع الجنة على الأرض - الحليب والعسل - حتى العذارى - فسوف يخيب أملك بمرارة شديدة يا فتاي» .

«لست أهتم لأي من هذه الأشياء» .

ظهر النادل ، الذي كان يرتدي معطفاً أحمر مذهلاً فوق درعه المصقول ، يحمل إبريقاً فخارياً ضخماً رفيعاً بمقبضين ووضعه على الطاولة بين الرجلين . قال «يرغب القائد في صحبة كل من صاحب الجلالة وصاحب السمو في الوقت الذي يناسبكما يا مولاي» .

«أنا واثق من أنه يرغب ، بحق الرب!» امتدت يد هيو إلى الإبريق وأخذ يصب في الأقداح المتنوعة التي تملأ الطاولة ، على الرغم من عدم وجود غيرهما في المكان .

«حسناً ، قل لقائدك أن أوامر الملك تقضي بأنه والأمير سيبقيان في عزلة لأداء الصلوات والتشاور في مسائل متعلقة بالسيادة والدولة .

سوف نسمح له بأن نستقبله عندما يكون الظرف ملائماً ، حسب طلب القائد» .

«مولاي» قال النادل ثم استدار على عقبيه .

«أليس الكذب على قسيس خطيئة؟ حتى لو كان قسيساً جندياً؟» .

نفض هيو كتفيه ، شرب ، وتجشأ مرة أخرى . «أنا لم أطلق أية أكاذيب يا صاحب السمو . نحن موجودان هنا للتشاور في شؤون الدولة . بدرجة أكثر خصوصية ، ما تحتاج إلى معرفته قبل أن تعبر الماء . ذلك شيء ستسمعه مني أولاً . ربما يكونون قد ارتدوا أفضل ملابسهم للترحيب بك ، ولكنهم لا يخدعونني» .

«لقد تلقى درع ذلك الرجل بعض الضربات - لا يستطيع اللمعان أن يخفي ذلك» .

هزَّ هيو رأسه موافقاً «هم قادرون على القتال ، سوف أمنحهم ذلك . عندما تصل الدماء إلى عيونهم ، ليس هناك مقاتلون أفضل من الهوسبيتاليين والمعبديين ، لكنهم أيضاً متمسكون بآرائهم ولا يثقون بالآخرين - حتى الأمراء والملوك - الذين يفكرون بطريقة تختلف عن تفكيرهم» .

«الملوك والأمراء بدورهم أنانيون في التفكير يا صاحب الجلالة» .

«نعم ، ولكن يحتاج الملوك والأمراء إلى أن يطاعوا ، وإلا فإن النتيجة هي الفوضى . أنت لديك خبرة أكثر من معظم الآخرين في هذا الموضوع» .

«أنت تتكلم عن حروب والدي» .

كان هيو قد شرب قدحه الثاني «نعم صحيح . فكر في

الهوسبيتاليين وكأنهم بارونات والدك . فيما عدا أنه خلافاً لهم ، لا يكتفي الهوسبيتاليون والمعبديون بامتلاك الأرض وفرض الجزية ضمن مملكتك ، بل هم يتلقون الدعم من الخارج . توفر لهم الممالك والإمارات في كل العالم المسيحي الأموال لتريح ضمائرهم ؛ لكونها لم تحضر إلى هنا لتقاتل شخصياً . إنهم أقوياء يا إدوارد» .

«سوف أتذكر ذلك» .

«احرص على أن تفعل ذلك . السلاطين بدورهم أقوياء بالمقدار نفسه - لدى مصر أفضل نظام ضريبي في حوض البحر الأبيض المتوسط - يسمونه الإقطاع - وجيش من المفتشين والمحصلين لتجميعها في كل سنة . طالما أنهم يقدرون على إبقاء جيوش الخان بعيدة ، هم في أمان» .

«ولكن ماذا عن احتلال مصر؟»

سحب هيو نفساً عميقاً وغرق في التفكير . «إنه ممكن . بوجود العدد الكافي من الرجال والشروط الملائمة - هو ممكن . ولكن تذكر ، لقد كان لدى الملك لويس الذي رحل من بيننا مؤخراً ، أعظم جيش أمكن تجميعه في مئة عام ، ولم يجده أي نفع» .

«لقد تمت هزيمته على يد بيبرس» .

«ذلك صحيح ، بيبرس» .

«هل حدث وقابلته؟»

«كلا» . عاود هيو صب النبيذ . «لقد سمعتهم يتكلمون عنه عندما كنت على الشاطئ في عكا . لقد كان واحداً من أفضل قادتهم - يقال إنه كانت له يد في مقتل توران شاه ، السلطان الفتي الذي قالوا إنه كان سكيراً . لقد أصبح موته بعد هزيمة لويس يعني أن الفرسان

أصبحوا قادرين على استلام السلطة بأيديهم ، ولكن بعد ذلك اختلف بيبرس مع السلطان الجديد الذي هو صديقه قطز - السلطان الحالي . أمضى سنوات يتجول في أرجاء فلسطين وجنوب سورية - يهاجم دورياتنا ويغير على قرانا» .

«ألم يغير على المدن؟»

«لم يمتلك العدد الكافي من الرجال ، أو الآليات المطلوبة لمثل هذا الواجب - في ذلك الوقت . وصل في نهاية المطاف إلى حلب وأصبح يشكل القوة الواقعة خلف الأمير هناك . حينما جاء المغول إلى الجنوب ، أنهى هو وقطز خلافاتهما وقاتلا سوية ليهزموا المغول - كما هزما لويس . نجح الأمر . وهو الآن القوة الكامنة خلف عرش قطز - على الرغم من وجود أنباء عن كونه القوة التي تحوم فوق عرش قطز» .

«هل وقعت بينهما خلافات مرة أخرى؟»

«كلا ، ولكنها مسألة وقت في كل الأحوال» .

تناول إدوارد إبريق النبيذ الهائل وصعق ليجد أنه يكاد يكون فارغاً . شاخ وجه هيو ملك قبرص بأكثر مما تقتضيه سنوات عمره - امتلأ بالخطوط واحمرار الشمس - لكن بدا وكأن النبيذ غير المخلوط لا يؤثر فيه على الإطلاق . سكب إدوارد لنفسه نصف كوب وعاود الجلوس .

قال «ماذا عن الفرسان؟»

«ماذا؟»

«لقد ذكرت أن بيبرس أوصل الفرسان إلى السلطة ، فمن هم؟»

«إنهم أفضل الخيالة لدى السلطان» سرحت عينا هيو بعيداً أثناء كلامه . «هم رجال يؤخذون من بيوتهم وهم صبية ويحضرون إلى

المعسكرات ، يتم تدريب العديد منهم في سورية ثم يرسل الأفضل من بينهم إلى مصر لحماية العائلة المالكة . ذلك هو ما فهمت أنه حدث مع بيبرس» .

«وهكذا فهو سوري» .

«لا بل هو شركسي» .

لم يكن إدوارد قد سمع بهذا الاسم من قبل «هو ماذا؟»

«هم شعبه . لقد تم أسره من الشمال في الجبال المحاذية للبحر الأسود . يقولون إن والده كان حداداً . يخضع الأولاد المختارون لتدريب شاق من قبل أن يدخلوا سنوات مراهقتهم . كل شيء - القوس ، السيف ، الجريد ، فن ركوب الخيل - إنهم يتقنون كل شيء» .

«مثل الفارس عندنا» .

هزَّ هيو رأسه بالموافقة ، عاد لينظر إلى إدوارد «نعم مثل أي من فرساننا . ومثل أي فارس ، يتم تدريسهم التقوى وعناصر دينهم . الإيمان ، الصلاة ، الصيام ، منح الصدقات . هناك الكثير مما ستجده مألوفاً لديك» .

«لكن الملك العجوز قال إنهم كانوا عبيداً» .

«كانوا كذلك لدى قدومهم إلى سورية في البداية . لكنهم حالياً يعتبرون أعلى مرتبة من المواطن العادي ، لأن واجباتهم مقدسة . إنهم يدافعون عن الدين» .

«كيف يقدرون على العيش وسط كل هذا الاضطراب؟»

أفرد هيو ذراعيه في تعاظم وكبرياء «فكر في ذلك الجندي الراهب الذي أحضر لنا هذا النبيذ . إنه عبد لدى الرب ، لكنه في الوقت نفسه عضو في رهبانية الفارس الهوسبيتال الأكثر قداسة . هو أعلى مرتبة من

المزارع العادي بكل تأكيد ، أليس هو كذلك؟ ولا يخامرنك أي شك - ليس لديه مانع في بقر أحشاء كتيبة كاملة من الصبية الفلاحين بدون أن يفقد اللمعان على ذلك الدرع الذي تحدثنا عنه . والفرسان هم على الشاكلة نفسه» .

فكر إدوارد في المسألة «سوف أتذكر هذا» .

«احرص على أن تتذكر» . مال هيو إلى الأمام واضعاً مرفقيه على الطاولة . «إن الإقليم كله في حالة عدم استقرار وفوضى أيها الأمير . لقد ألقى المغول بالنظام كله في الهواء وأخرجوه من النافذة . نحن صامدون ، ولكن بالكاد وبصعوبة . إن جيوش الخان قادرة على ابتلاعنا كلنا في قضمة واحدة ، لذلك فمن المحتم أن نبقي على صلات جيدة معهم ، وأن يتبنوا الإيمان الصحيح . في الوقت نفسه ، إذا استطاع قطز وبيبرس أن يعززا انتصاراتهما ، فستصبح كل الاحتمالات واردة في أن يطردونا إلى داخل البحر أيضاً» .

«هل أنت مستعد لتقاتل معي؟» اكتسى وجه إدوارد بالجدية .

«سأفعل ما أقدر عليه -» نظر هيو إليه ثم إلى الطاولة أمامه «لا تحمل أية أوهام يا إدوارد . الواجب الماثل أمامك يحتمل أنه أعظم مما يستطيع أي أمير مسيحي أن يفكر فيه . نحن أقل عديداً مما كنا عليه في أي وقت مضى على الإطلاق - وعدونا تنمو أعداده وتكبر مع مرور كل يوم» .

«ولكن ماذا يحصل إذا قمنا بقتل أفضل مقاتل لديهم؟»

«وقتها يحتمل أن يتم تسديد ضربة تفقدهم المنطق . يمكن لنا أو للخان أن نكون قادرين على الاستفادة من مثل ذلك الحدث» .

«هل جيوش الخان مستعدة لقبول تحالف معنا؟»

«لقد مات جميع القادة الذين قادوا الغزو الأول ونهبوا بغداد وغابوا عن المسرح . هولاكو وكتبغا وبايجو . كلهم ذهبوا» .

«من هو القائد الموجود الآن؟»

«أباغا هو ابن هولاكو ، وقد سمعنا أخباراً قادمة من التجار مفادها أنه يبحث عن الانتقام لهزيمة والده في عين جالوت» .

«هل سمعتم ذلك الكلام في هذا المكان» .

«إنني أسمع الكثير على هذه الجزيرة مما يعتقد كثيرون أنه لن يصلني . تلك هي وضعية الشؤون . إن زعماء الخان يتقاتلون فيما بينهم ، لكن أباغا سيفوز بدعم من الخان الأعظم ويسيطر على كامل الهضاب . وقتها يحتمل أن يساعدنا» .

«سوف أكتب له» .

«استخدم رسولاً مؤتمناً وأسرع بالكتابة إليه . يستمر المغول في التحرك على مدى أشهر السنة كلها حتى يتوفر لخيولهم أكبر كمية من العلف» .

«ذلك هو ما سأفعله» .

«يا إدوارد ، سأقدم لك كل مساعدة أقدر عليها ، كما سبق وقلت ، وربما يبتسم الرب على هذا المجهود ويعيد إلينا الأراضي التي انبثق منها مخلصنا والتي استولى الكفار عليها» .

رفع إدوارد قدحه وتبادلا التحية ، ثم شربا آخر محتويات الإبريق .

عبد

لم تكن هناك واجبات يفترض تأديتها في ليلتهم الأخيرة ببيسان . كان بيبرس قد عاد من القصر في ذلك الصباح وأصدر أوامره لتستعد الكتيبة للركوب . ثم ذهب إلى العزلة في جناحه ولم يعاود الظهور لبقية ذلك النهار . حاول عبد أن يشغل نفسه مع كتيبة المدافع ، لكن أنصار أوضح له بعدم وجود ما يفعله هناك ، ولذلك اكتفى بمراقبتهم لوهلة قبل أن يبتدع عذراً للمغادرة . فقد تبين أن جميع حاجاته الخاصة سيتم تلبيتها من قبل الضباط الأدنى رتبة والسيَّاس ، بحيث لا يتبقى عليه سوى أن يمتطي حصانه لدى هبوط الليل .

بحث عن صفية واكتشف أنها هي الأخرى قد غادرت . لم يقدم له أي شخص سأله عن مكان تواجدها أي جواب ، حتى قلاوون ، وهكذا دس كتاباً في جيبه وخرج ليتمشى بين الخرائب بمعنويات متدنية .

انهمك فرسان في تهديم خيامهم وتعبئة خروج سروجهم على مدى دروب وحقول المنحدر الصاعد خارج بيسان . تواجدت بعض وحدات المشاة في ميدان التدريب ، واقفين بحالة تهيؤ للتفتيش ، راقبهم عبد بينما كانوا ينتظرون ضابطهم المسؤول عنهم ليفتش محتويات حقائبهم ، والتدقيق على أسلحتهم ويعلق على حسن هندامهم وقيافتهم .

أطلق دعاء شكر صامتاً لكون مرتبته كرجل علم قد حصَّنته من

العذاب المحتم للوقوف والمسير لساعات ، حتى أيام ، في الوقت نفسه الذي شعر فيه بغصة وتأنيب وشعور بالذنب لكونه الآن يصدر الأوامر لمثل هؤلاء الرجال ، وحتى إنه أمرهم بالعناية بحاجياته قبيل رحلة العودة إلى مصر .

تساءل بشيء من الفتور عما إذا كانوا سيدخلون القدس أو أي مدينة عظيمة أخرى خلال الأسابيع القادمة . رافقه إحساس خلال جميع رحلاته من بغداد ودمشق إلى حلب والآن بيسان ، حاد بأن هنالك الكثير مما لم يشاهده بعد من الدنيا ، وقد ساعدت مطالعاته المستمرة أثناء الحملة في تذكية إحساسه بهذه الحقيقة .

دخل خرائب بيسان وأخذ يتمشى بين الأعمدة الهيكلية وقطع الحجارة الضخمة ، بينما كانت مطايا الفرسان تتجول بحرية وترعى الحشائش الصلبة التي تنمو بين الخرائب .

أدرك من نمط البناء أن البلدة قد تم بناؤها في الأصل من قبل إحدى قبائل المنطقة ، ثم استولى المصريون القدماء عليها ، وجاء بعدهم اليهود ، ثم وصلت إلى أوج عظمتها في عصر الهلينيين ، أو ربما الرومان . فوق كل هذا ، لاحظ وجود الطراز العربي المميز ، والذي أضيف أثناء القرون التي تلت فتح الخلفاء الأوائل للمنطقة . عصور وشعوب مختلفة ، وكل واحد منها يبني فوق عمل الآخر . فهل هذه هي الحضارة ، بعد أن يجري تقييمها في الميزان؟ ألقى بثقله على العشب الجاف وهو يدير عينيه في أرجاء البلدة .

فكر لنفسه «أم أنها عمل الجحافل؟ العمل الذي يكسر الظهر وتقوم به الجيوش لتنشر ثقافة شعوبها ، إلى جانب الدماء والبؤس اللذين يرافقان مسيرة الحروب؟»

نظر تحته إلى العربات والإبل التي جرى تحميلها بالمعدات ، تحركات كوكبات الفرسان وكتائب جيش السلطان التي تؤدي استعراضها ، وصعب عليه أن يتوصل إلى استنتاج مفاده أن الجيوش هي التي تقوم بنشر الفكر والتغيير الذي يمكن أن يتواجد .

ألم يحضر الإسكندر الكبير فلسفة أفلاطون إلى الشرق مع قواته؟ ألم تقم جيوش أبو بكر وعمر بنشر رسالة النبي محمد صلعم على مدى العالم كله في السنوات التي تلت صعوده إلى الرفيق الأعلى؟

أدخل يده في جيبه وأخرج الكتاب الذي يحمله ، وهو نسخة من تقرير ابن جبير عن رحلته ، الأسفار التي قام بها المفكر في بلدان البحر الأبيض المتوسط قبل سبعين سنة أثناء تأديته لفريضة الحج . كان بيبرس قد أعطاه الكتاب ليقرأه ويتعرف على مصر وسورية وخصائص البلاد ، والتي لم يكن يعرف عنها أي شيء لكونه من مواطني بغداد .

فكر بتعمق «أليس الأكثر احتمالاً أن هذا الكتاب سوف يستمر في الحياة أكثر من أعمال أولئك الرجال الموجودين تحت هناك؟» لأن الكلمات التي يدونها الرجال تبقى لأزمان غير محدودة ، ويتم تمريرها حتى يستفيد آخرون من حكمتها . أما الرجال فيتحولون إلى غبار . الأبنية والنصب التذكارية العظيمة تتحول إلى غبار . ومع ذلك فها هو هنا ، محاط بما يذكره بوجود الإنسان في هذا المكان قبل مولده بزمن مغرق في القدم ، زمن طويل قبل النبي نفسه .

همس له صوت خفي «إنها مجرد أصداء» . جاء الصوت شبيهاً بصوته إلى حد بعيد ، لكنه جاء من مكان مختلف بإيحاء ولهجة محملة بالمزيد من الثقة والمصداقية . «يتحتم عليك أن تعمل لتضمن أن يتمتع الشعب الذي يحكمه بيبرس بالقناعة والسعادة – تماماً كما

فعل القادة في ذلك المخطوط الذي تحمله الآن في زمنهم . ذلك هو واجبك . لكن واجبك هو أيضاً أن تسجل كل ما تراه . فمن الذي سيصدق أن رجلاً مثل الذين ترافقهم راكباً في هذا الزمان ، قد وجدوا ما لم تكتب عنهم؟»

أدرك عبد أنه كان مقصراً خلال الأسابيع التي تلت المعركة الكبرى ، وأن مغامرته المثالية لحماية الذهب هي جوهر السبب الذي جعل بيبرس يضمه إلى خدمته في المقام الأول .

يفترض فيه أن يكون كاتب سيرة الفرسان - لقد كانت مهمته هي أن يكتب ما رآه حتى يعرف فرسان الأجيال القادمة عن رجال أمثال بيبرس وقلاوون ، رغم أنهم لن يلتقوهم أبداً . لكنهم سيعرفون كيف قام أولئك الرجال بالبناء على الأساسات التي أوجدها أولئك الذين عاشوا بدورهم قبله .

أنهى الصوت كلامه بقوله «تلك هي طريقة الحق سبحانه وتعالى» .

راقب عبد بينما أخذ الجيش ورجال البلاط ينظمون قافلة تموينهم الهائلة على شكل طابور ، ثم أخرج لوحته الشمعية وريشته من داخل معطفه وبدأ يكتب .

صفية

«هل قام مكاريوس بتقديم وجبة الطعام لك؟»

كان قلاوون جالساً خلف طاولته الصغيرة في جناحه، وقد انتصبت أمامه أكداس من القطع النقدية وسجل حساباته. رفع رأسه ونظر إليها أثناء دخولها لتتوقف أمامه.

«لقد قال بأن فتاة مثلي لا ينبغي أن تمضي الأمسية كلها وهي جائعة».

تنهد قلاوون ودوَّن ملاحظة في السجل «أنا واثق من أنه قال ذلك» تناول صفاً من الدراهم وأحصاه «هل راجعك أي شخص أو حقق معك؟»

«كلا يا مولاي».

«ألم يظهر أي شخص الشكوك؟»

«لقد شاهدت المرأة المسماة فاطمة وجهي. لكن لن تقول أي شيء».

«إلا إذا أدرك شخص ما أنها تخفي شيئاً ما؟ ساعتها سوف يضغطون عليها حتى تنهار. لقد قلت أنت بأنها ليست من الصنف الذي سيصمد».

«لقد قلت هذا. لكن العيون ستكون مسلطة على شقيقها وليس عليها. إن زوجها شخص نكرة».

وضع قلاوون النقود على الطاولة ودوَّن ملاحظة أخرى . «كما تقولين . وماذا عن المعزِّي؟»

«لقد تم إبلاغه الرسالة في الوقت المناسب تماماً» .

«لم يشاهد منذ ذلك الوقت»

«كما قلت لك لقد تلقى الرسالة» .

«وليس هناك أي شيء يمكن أن يشير إلى شخصك وهذا البيت؟»

«لا شيء» قالت . «إنني أدخل في العتمة وأغادر في العتمة . فتاة خادمة عند الدخول وجدّتها لدى مغادرتي» .

«هناك مهمة أخرى أريد منك أن تكمليها قبل أن يحين الوقت» .

«وما هي تلك المهمة؟ هل هناك تحدٍ آخر لم تتوقع حدوثه؟»

«نعم . زين الدين» .

«ذلك الفتى الغر؟ لقد تكفل بأمره وحشك تيكا في القصر . هل بوسعه أن يشكل ذلك القدر من المانع بالنسبة لبيبرس؟»

ملأ قلاوون محفظة بالنقود الفضية «ليس سيفه هو الذي يهمنا . إنما هي ألقابه وأراضيه» .

«لن تحميه كل هذه» .

«ليس هنا» ربط قلاوون الخيط ليقفل المحفظة . «لكن الأراضي ستمنحه ثقباً يحفره ويختبئ فيه . إن امتلاكه الألقاب سيمنحه الشرعية . لقد لحقت جيوش بكاملها أقل من ذلك وأدركت النصر . لقد تم الإنعام عليه بالألقاب من قبل السلطان نفسه . نحن بحاجة إلى التأكد وضمان أنه لن ينفذ مما خططنا له» .

«لم لا تكتفي بإرسال بضعة رجال لإتمام المهمة؟»

ألقى بالمحفظة على الطاولة أمامه «لأنه سيصبح واضحاً وقتها أننا

أعددنا –» توقف عندما شاهد ابتسامتها، مدركاً أنها إنما تناكفه. رفع إصبعاً، مبتسماً رغم ارادته.

«لا تدفعيني في هذه اللحظة، أيتها الشابة» قال محذراً مؤنباً «هذه أزمنة عصيبة». قالت «هي عصيبة على الجميع. متى؟»

«على الطريق. ليس الليلة. فلنسمح باستقرار قليل من الغبار الذي أثرناه، قبل أن نبدأ بتحريك الأوضاع مرة أخرى».

«جيد. سيمنحني ذلك بعض الوقت لرؤية عبد. لقد تغيب النهار بطوله».

سحب قلاوون نفساً عميقاً واستند في جلسته ليدقق النظر فيها. «لقد أمر بيبرس أن تركبي قبلنا وتنتظري قدومنا».

حدجته بنظرة قاسية.

قال «الأفضل هو الإبقاء على السرية. أنا أتفق معه. لا يسعك أن ترحلي مع القافلة الرئيسة».

«وهكذا يترتب علي أن أرحل في الليل بدون أن أرى عشيقي؟» فاجأت نفسها باستخدام التعبير.

أجابها قلاوون «أخشى أن هذا هو الوضع. نحن جيش ويتحتم علينا أن نحافظ على الانتظام».

«أنا لست جندياً».

«وأنت أيضاً لست زوجة. عبد ليس زوجك. نفذي الأوامر وستكون الجوائز عظيمة لكليكما. تحدي بيبرس وستكون النتيجة انعدام السعادة».

«أنت تقصد إذا تحديتك أنت أيضاً؟»

«كلا، لا أقصد هذا. إنني أنفذ وأطيع الأوامر بدوري».

أشارت إلى القطع النقدية الموجودة على الطاولة «كما أنك تحسن التصرف بهذه أيضاً» .

عاود الميل إلى الأمام ، وقد دفع بوجهه نحوها «كما ستفعلين أنت أيضاً - حتى أكثر مما تفعلين حالياً . وكذلك عبد . افعلي ما تؤمرين به وستكون الأمة بكاملها سعيدة» .

«هل ستبلغه رسالة من قبلي؟»

لم يقل أي شيء لفترة طويلة . في النهاية ، تناول سجل حساباته مرة أخرى واستأنف العد «كلا» .

غادرت .

بيبرس

قضت الأوامر السارية لذلك اليوم بأن يلتزم الرجال بارتداء أفخر أزيائهم أثناء مرورهم من تحت منصة استعراض السلطان . ركب ثلاثة آلاف خيال من قوة الفرسان عبر البلدة القديمة لبيسان ، وعلى رأسهم بيبرس وقلاوون ، ثم اتجهوا جنوباً .

رفع أفراد الحرس الملكي الواقفين على جانبي الطريق ، سيوفهم ورماحهم القصيرة تحية لهم أثناء مرورهم . انتشرت الشائعات القائلة بأنه يجري التخطيط لمفاجأة ما بكثرة ، ربما بحق الفرنجة ، أو ربما حتى غرباً لمحاصرة الأراضي التي يحتلها المغول على ضفاف الفرات ، لكن الرجال كانوا في هذه المرحلة مقتنعين بالشعور السار لمعرفتهم انهم يتحركون مرة أخرى ، وقد أضاء نور الفجر وجوههم وامتلأت رئاتهم بأنسام الربيع .

تصرفت الجياد المطهمة بعصبية رغم تدريبها المكثف الطويل ، فتقافزت وخببت وأفردت حوافرها أمامها وكأنها متحفزة لإظهار مهاراتها أمام حضور مهيب مثل السلطان .

أثناء مرورهم من أمام موقع قطز ، الذي كان راكباً بدوره ومحاطاً بأمرائه وأركان بلاطه ، استدار بيبرس ولامس قلبه ، وألقى بنظرة حوله وخلفه لينظر إلى العربتين السائرتين خلفه مباشرة . إذا كان قطز قد فهم ما تحتويه العربتان ، فهو لم يبد أية علامة على ذلك ، وبقي ثابتاً .

محتفظاً بكبريائه حتى انتهى الاستعراض .

طبق بيبرس سرعة بطيئة غير معتادة بالنسبة له في منطقة الريف خارج العمران ، لكنها سرعة رحب بها أولئك المضطرون إلى سلوك الدروب الجبلية المتعرجة بالعربات ، أو المشي على أرجلهم إلى جانب الثيران وحيوانات الحمولة . في المدى البعيد أمامهم ، بدت الطوابير الأولى للجيش الملكي واضحة للعيان تحت النور المتزايد ، وخلفهم الكتائب الأولى التي تبعتهم ، جاءت قوات الفرسان التي باشرت في الخروج من البلدة بدورها . كان منظراً يرفع المعنويات ، وبعد أن استقر الرجال في وضعية المسير ، بدأوا يتبادلون أطراف الأحاديث فيما بينهم ، وبات الضباط سعداء بأن يسمحوا للانضباط بأن يتراخى قليلاً باسم صحة الروح المعنوية .

سادت هذه الأجواء أثناء تحركهم في طابور طويل ، حيث خرج أبناء القرى في المنطقة الجبلية ليراقبوهم أثناء مرورهم ويقدموا لهم الشكر لانتصارهم على العدو . بات معروفاً لدى القاصي والداني ما كان المغول سيفعلونه لو أنهم استمروا في هيجانهم ، وبات الجميع سعداء لإزالة جيش كان يهدد بنهب البلاد بكاملها . عندما توقفوا لأداء الصلوات أو الاستراحة ، اقتصر وجود بيبرس مع مجموعته ورفض الدعوة للانضمام إلى الأمراء الآخرين في محطة قطز . عندما خيموا لقضاء الليلة ، انضم إلى رجاله : قلاوون والموت ومهنا وعبد ، بينما سرت أنباء عن أن قطز كان يستضيف أُنس والمعزي وزين الدين ضمن آخرين في الصالون الملكي . صدر الأمر لعبد ليأمر أنصار بنشر وحدة كتائب المدفع لحراسة محيط معسكر الفرسان طيلة الليل .

جاء اليوم التالي على الشاكلة نفسها ، وخيموا في تلك الليلة

خارج قرية تسمى خربة المفجر، أو كما سماها الرجال «قصر هشام». سميت بهذا الاسم لأن البلدة المدمرة الواقعة على ضواحي القرية كانت فيما مضى عزبة مزدهرة حسنة التخطيط، تتبعها أراض زراعية تغذي وتدعم القصر الهائل الضخم التابع للخليفة العاشر الذي سمي القصر باسمه.

سيدخلون أريحا في اليوم التالي ويبقون فيها ليتلقوا شكر وامتنان الشعب والنبلاء - «وضرائبهم» كما يقول قلاوون بعد أن ركب المراسل الملكي مبتعداً - قبل أن يرحل السلطان مرة أخرى وقد أعيد تموينه، باتجاه القدس.

غمرت السعادة قلب عبد لدى سماعه أنهم على وشك دخول مدينة القدس العظيمة، والتي كان قد رآها من البعيد أثناء ركوبه مع بيبرس للانضمام إلى قطز في وقت مبكر من ذلك الموسم. جلسوا حول النار في الليلة الثانية وتحدث هو عن زيارة المسجد الأقصى العظيم، ورؤية المكان نفسه الذي عرج منه النبي محمد إلى السماء.

رفع بيبرس رأسه عن طبق الثريد وأشار بمعلقته إلى آثار قصر هشام «سنبني مثلما بنى هؤلاء الخلفاء الأوائل يا عبد. لولا الزلزال، لبقي القصر قائماً، تماماً كما يقف أول مسجد في الإسلام في القدس الآن. وهي ليست مجرد قصور وغرف خاوية - هل قرأت أنت ما يقوله ابن جبير عن القاهرة والاسكندرية؟ -»

هزَّ عبد رأسه إيجاباً.

«ما زالت الكليات والجامعات العظيمة التي كانت عاملة في زمنه موجودة اليوم، ولكنها تعرضت للإهمال. سنعيد بناءها، مستخدمين الضرائب على البضائع والمحصلة من الذميين، والبلاد التي سوف

نحتلها . ستكون مصر أقوى مما كانت عليه إطلاقاً - وسوف يستفيد جميع المواطنين وينعمون ، سواء منهم الأغنياء أو الفقراء ، لا فرق بينهم طالما أنهم مؤمنون . أنت على علم بما كانت عليه الأمور في بغداد يا عبد ، سوف نستفيد من ذلك ونضمه إلى حكمة ائمتنا» ساهمت رحلة الركوب في تنشيط معنويات بيبرس ورفع معنوياته .

«لكن المغول اغتالوا الخليفة يا مولاي . من هو الذي سيبني في مكانه؟»

«لا تحمل أية مخاوف في تلك الناحية يا عبد» قال قلاوون «لا يمكن إطفاء جذوة الخلافة من قبل أعداء الله . سوف تستمر بلا توقف ، غير قابلة للمساس بها . مقدسة» .

رغب عبد في طرح المزيد من الأسئلة ، لكن لا وجه بيبرس ولا وجه قلاوون قالا إنهما مستعدان لتلقي التساؤلات في تلك اللحظة . في الحقيقة ، فقد كانت عينا بيبرس تتوهجان بياضاً وسواداً في ضوء النار ، بينما تتقلب الخطط والتدابير في داخل عقله .

استأنف عبد تناول طعامه بدلاً من طرح الأسئلة وهو يصغي للعسكريين يتحدثون عن قراد النهر والحوافر المتشققة ، والتي تشكل مادة الحديث التقليدية لأي خيال من الفرسان . أدرك أن كل الأمور ستكشف عن نفسها عندما يحين وقتها ، وفي كل الأحوال ، فهو يتحتم عليه أن يكتب مقالته .

صباح اليوم التالي ، ركب بيبرس متجهاً لمقابلة حراسه على رأس طابور الفرسان كالعادة ، لكن وجهه بدا هذا اليوم عابساً ، وقد غارت لحيته في ذقنه .

قال «يا قلاوون : يجب علينا إحاطة السلطان علماً بمستجدات

الليلة الفائتة . سوف ترافقني أنت وعبد . تيكا» واستدار نحو الرجل الضخم «الأفضل أن تبقى بعيداً عن أنظار كل من السلطان والأمير زين الدين . سنعود عما قريب» .

وجدوا قطز خارج جناحه ، يتشاور مع الأمراء وما ظهر أنهم نبلاء محليون . بعد أن تمت عملية التعارف ، قالوا إنهم ركبوا خارجين من أريحا من قبل الفجر .

أظهر بيبرس امتنانه لإجراءات السلطان وحيا الرجل بكل أدب بعد أن ترجل في حصانه ، ثم بدأ الكلام مباشرة في موضوعه . «لدينا خبر عن وجود قوة مغولية عبرت نهر الأردن وتقوم بمهاجمة الساحلة» .

«ذلك مستحيل . إن الحامية في دمشق مكلفة بإدامة الدوريات في تلك المنطقة . كيف يتسنى لمثل تلك القوة الكبيرة أن تتجاوزهم؟»

«لقد عانوا من نقص في الأفراد بعد أن أرسلوا تعزيزات لإعادة الاستيلاء على حمص وحلب» .

قال بيبرس «ليست لديهم القدرة على فرض الأمن في الجنوب وفي معابر النهر بينما هم يدعمون حرباً في الشمال بالوقت نفسه» .

استطرد قطز «لكن جيش المغول في حالة تقهقر كامل . ليس هناك قتال يمكن الخوض فيه» .

«ربما يكون ذلك هو الوضع ، لكن هناك حاجة للرجال لإخلاء الطرقات من المتسكعين المتأخرين والفارين من الخدمة - لقد تحول معظمهم إلى تشكيل عصابات ويقومون بالسرقة من المزارع - المزارع التي تدفع الضرائب - هناك حاجة إلى رجال للحفاظ على المدن - هناك حاجة للرجال للاندفاع إلى الأمام وإخلاء البلدات والقرى

والممرات الجبلية . ومع ذلك فإن معظم جيشنا يتحرك جنوباً . في موقف مثل هذا ، ليس أمراً مفاجئاً أن يشم العدو رائحة الضعف ويخرج من الشرق» .

«وهل وصلوا إلى الساحلة؟»

«سيصلون إليها مع حلول الليل . إن فرقتي جاهزة للركوب شمالاً ودفعهم إلى الوراء : على أية حال ، فأنا أعرف أن صاحب الجلالة يصر على أن نبقى مع الجيش الملكي» .

قال قطز «أصدر الأمر ، ولكنني سوف أرافقك» .

«مع كل الاحترام ، يا صاحب الجلالة . إذا تحركنا مع كامل قواتنا فسوف نصل متأخرين جداً عن إمكانية التعرض لهذه القوة المغيرة . سيكون من الأفضل تحريك الجيش عائداً إلى جزريل وانتظارهم هناك» .

«ذلك هو المكان الذي زحفنا منه لتونا!» جلب الإحباط في صوت قطز نظرات دهشة من مستشاريه وحامية وفد أريحا .

أضاف بيبرس «هناك احتمال أن يخرج الفرنجة من عكا وصور لمقابلتهم» .

«هناك احتمال أكبر بأن يكون الفرنجة هم الذين استدعوهم . كلا . سوف أركب مع حرسي الشخصي وستقود فرقتك الحملة . كم يستغرق الركوب نحو ساحلة؟»

«يومان» . قال قلاوون «بدون عربات مغلقة أو مفتوحة . يستطيع كل رجل أن يحمل مؤناً خفيفة ، ولكننا سنأخذ معنا ما نجده من الطعام والعلف على الطريق» .

«دعنا نذهب معك يا صاحب الجلالة» قال المعزِّي «سنشكل

أُنس وزين الدين وأنا جزءاً من حراسك» .

أضاء وجه قطز بابتسامة «كما تقول أيها الصديق النبيل . إن حكمتك في جانبنا مقدرة عالياً دوماً» .

قال «إنها مهمتنا المباركة» .

«ومبعث سرورنا» قال زين الدين وهو ينظر إلى بيبرس بابتسامة ملؤها الكراهية . بقي أنفه الذي كان طويلاً ومتناسقاً مع وجهه ملتوياً مفلطحاً جراء ضربة تيكا ، مع أن السواد حول عينيه قد خف في الأيام التالية .

«ويا قلاوون» استطرد قطز «أنت تقول بأن الرحلة سوف تستغرق يومين بدون أية عربات . لقد فهمت أن هناك عربتان في عهدتك وعهدة بيبرس تعود ملكيتهما إليَّ حقاً . سوف تقوم بإيداعهما لدى المحتسب التابع اليَّ في أريحا . سوف يدقق في نقاء محتوياتهما ويخرج العمولة الملكية . هل هذا مفهوم؟»

«مفهوم يا صاحب الجلالة» قال قلاوون .

حدج قطز بيبرس بنظرة . وقف عاقداً ذراعيه ، ووجهه يقذف الشرر .

قال قطز «سنركب باتجاه الشمال إذاً . أخبر نقيب الحرس . هل ستنتظر حتى نغادر يا بيبرس؟»

«كما يسرك يا صاحب الجلالة» .

«حسناً ، إذاً نحن مستعدون . سيستمر الجيش في التوجه جنوباً على الطريق نفسها التي رسمناها وسنركب نحن شمالاً لمواجهة هؤلاء الغزاة المبتدئين . هذا وضع أشبه شيء بالأيام الماضية ، أليس كذلك يا بيبرس؟»

استطاع عبد أن يشعر بمقدار غضب بيبرس . كان يتمنى لو أنه يستطيع أن يغض بصره .

قال بيبرس «كما تقول يا صاحب الجلالة ، مثل الأيام الماضية تماماً» .

عادوا إلى ناحيتهم من المعسكر وأصدروا الأوامر بأن الفرقة سوف تركب شمالاً طيلة النهار - سيبقى جميع الرجال غير المقاتلين والتموين مع الجيش الرئيس . لن يحتاج الفرسان سوى إلى ما يمكنهم الركوب معه ، وأسلحتهم .

إدوارد

كان إدوارد يشعر بتأثيرات النبيذ حينما أعلن الملك هيو أخيراً أنه ينبغي عليهما تحمل العذاب القادم ومقابلة الهوسبيتاليين . فتح الباب وجرجر نفسه خارجاً ، مشيراً إلى إدوارد ليلحق به . التفت درجات مبنى **الكولوسي** حول جدرانه المربعة ، فمشيا نازلين عبر الطوابق العليا الفارغة حتى بلغا قاعة الاستقبال المفتوحة في الطابق السفلي . وجدا في استقبالهما المنظر الغريب لفرسان الهوسبيتاليين وحاشية هيو مع رجال إدوارد ، جميعهم واقفون ينظرون إلى أعلى نحوهما أثناء نزولهما ، وكأن المجموعة كلها بقيت واقفة بتلك الطريقة منذ لحظة صعود الملكين . سبحت الشارات التي لا تحصى والشعارات على الدروع وألبسة الرجال أمام العيون .

رفع هيو يده قائلاً «هذا إدوارد ابن هنري وأمير إنجلترا ، أقدم لكم هيوز دا راڤيل الرئيس العام العشرون لرهبنة فرسان الهوسبيتال» .

كان إدوارد قد شاهد هيوز بين قادة الهوسبيتاليين الآخرين عندما قام هيو بتهريبه صاعداً به الدرجات ، لكنه لم تكن لديه طريقة ليعرف بها شخصية كل واحد منهم . تفحص الرجل الواقف أمامه بعناية وعن كثب ، وتعرف على الوجه الناحل واللحية البيضاء الطويلة .

رأى أن الرئيس العام لم يكن رجلاً قوياً ، حتى في شبابه ، لكنه رأى قدرة رهيبة على الاختراق في عينيه الزرقاوين اللتين تحدقان به ،

بدعم من الدرع الخارق الذي يرتديه الرئيس، وقد أفرد معطفه الأحمر فوق درع صدري أسود مع سترة بيضاء تحت صدارة من الزرد. حامت يداه قرب السيف والخنجر الطويل اللذين يتمنطق بهما في حزامه، كلاهما مزود بمقبض معدني ثقيل مصقول، ولم يعد لدى إدوارد أدنى شك في أن هيوز دا راڤيل قادر على سحب كليهما خلال لحظة للدفاع عن نفسه، على الرغم من سنه المتقدمة.

«إنني أشكر الرب الأوسع رحمة على خلاصك فوق البحر، يا صاحب السمو». قال الرئيس العام وهو ينحني.

«لقد كان الرب الأوسع رحمة هو الذي جاء بي إلى هنا، يا سيدي». قال إدوارد. نظر إلى الخارج فوق رؤوس الرجال المحتشدين «لقد جئنا لكي نخلص القدس مرة أخرى من أيدي الكفار!»

صدر هتاف من الجمع عند هذا الكلام، وأطلق الرئيس العام ابتسامة تنم عن الطيبة. نزلت يد الملك هيو على كتف إدوارد.

«هل تسمح لي بأن أقدم لك أحد مواطنيك يا صاحب السمو» قال هيوز، تقدم فارس أكبر سناً من إدوارد ببضع سنوات من وسط صف الهوسبيتاليين الأرفع مقاماً «هذا هو جوزيف دي تشونسي». أعلن هيوز «هو رئيس رهبانية إخوتنا الإنجليز في المسيح. أحب أن أقول بأنه عرض بمنتهى الجود بأن يتخذ لنفسه مكاناً إلى جانبك في الحملة القادمة أثناء حجك إلى تلك المدينة الأكثر قداسة».

تفحص إدوارد المدعو جوزيف كما فعل مع الرئيس العام. وجد الإنجليزي طويل القامة مع بنية رياضية، أطرافه طويلة ولكنها ليست نحيلة. وجهه داكن، يكاد يكون بلون الجوز، وشك إدوارد بأن رئيس الرهبانية هذا قد كان أحد أسلافه المباشرين من غير الساكسون ولا

النورمانديين . ومع ذلك فقد جاء وجهه ذكياً ولم يكن هناك أثر للخداع أو التورية لتعابيره .

«نحن نرحب بوجود دليل ليسهل دربنا في شؤون هذا الإقليم» قال إدوارد .

«وإنه لمما يريح القلب أن نعثر على رجل قادم من شواطئنا ليقوم بهذا العمل . أرحب بك يا جوزيف دي تشونسي» .

انطلق هتاف آخر من المناداة وركع جوزيف أمام الأمير . مدَّ إدوارد يده اليمنى ، فضغط الجندي الراهب شفتيه على الخاتم الياقوت في اصبعه الثالث . نهض واقفاً وتراجع ليقف بين اخوته الهوسبيتاليين . عاد إدوارد إلى مخاطبة هيوز . قال :

«هناك الكثير مما نحتاج إلى معرفته أيها الرئيس العام . لقد أخبرني صاحب الجلالة بالكثير أثناء اجتماعنا ، لكننا نعرف أن هناك الكثير مما ينبغي معرفته . ستكون مساعدتك شيئاً لا يقدر بثمن في هذا الأمر . نحن ننوي أن نقاتل ونبذل كل قطرة من دمائنا لأجل غاياتنا . لن يقف أي شيء في طريقنا» .

«إذاً تفضل أرجوك» أشار هيوز إلى الطاولات المعدة في الخارج أمام المدخل الرئيس للكولوسي ، وقد علقت مظلات بيضاء فوقها لحماية رؤوس المجتمعين من الشمس . «أن تقبل عرضنا المتواضع للضيافة وسوف نسعى جاهدين لإيجاد أفضل الطرق لنقدم أسلحتنا ومقدراتنا في سبيل تقدم المجهود باتجاه النصر المقدس ، وخلاصنا من تهديد العرب المسلمين وأعداء الرب» .

«تفضل بقيادة الدرب» قال إدوارد ، ومشى هو والرئيس العام شابكين ذراعيهما سوية باتجاه المائدة الرئيسة . أخذ هيو ملك قبرص

مكانه الصحيح على رأسهم لكونه الملك الأعلى مرتبة . اتخذت مجاميع الإنجليز والهوسبيتاليين المختلطة أمكنتها أثناء التوجه إلى المقاعد .

رغم أن إدوارد مقل في طبيعته عندما يتعلق الأمر بالطعام والشراب ، إلا أنه أكل رغم ذلك بنهم من اللحوم المشوية والسلطات التي قدمها الهوسبيتاليون ليس لأنه اكتشف أن الطقس الحار في الشرق قد أثار جوعه وعطشه بطريقة لم يكن قد عرفها في وطنه ، بل أيضاً لأن جلسة الشرب الطويلة مع الملك هيو قد جعلت معدته تزمجر .

حافظ الرئيس العام هيوز على أدبه بما يكفي لأن يحدد الأحاديث أثناء تناول الوجبة ببعض الإشارات إلى تاريخ جزيرة قبرص ، ومصاعب الملاحة في البحار المحيطة بها ، ولكن عندما أزيل الخبز اليابس المسطح الذي قام مقام الأطباق ، مال بجسمه باتجاه الأمير . كان قد تخلى عن الدروع الاحتفالية الثقيلة والمعطف الذي ارتداه طيلة اليوم ، احتراماً لاستقبال إدوارد ، مثله مثل بقية المجموعة ، وارتدى الآن سترته الطويلة المزينة بالصليب فوق سراويل ركوب بسيطة من القماش ، وأحذية ركوب عالية الرقبة .

قال «لن تكون رحلة حجك سهلة يا ولدي» .

«لقد تم إفهامي أن رحلات الحج بطبيعتها ، لا يفترض فيها أن تكون سهلة يا سيدي» . أجاب إدوارد .

«أصبت» قال هيوز بلغته البورجوندية الأصلية قبل أن يعود إلى اللاتينية «فهل تسمح لي بأن أشاركك في بعض أفكاري ، يا ابني؟»

تناول إدوارد قدحه ورفعه عالياً «إنني أرحب بكل نصائحك ، أيها الرئيس العام» .

ألقى هيوز بنظرة باتجاه الملك هيو ، الذي كان جالساً إلى جانب إدوارد لكنه منهمك في محادثة مع الرجل الجالس إلى جانبه للمرة الثانية .

«الملك هيو رجل فاضل ومن أكثر الملوك نبلاً ، لكنه لا يمتلك القوة الكافية لكسب النصر على العرب المسلمين» .

«يبدو قادراً على ذلك بالنسبة لي» .

«هناك المزيد من كون الإنسان ملكاً أكثر من القدرة على التلويح بسيفك والقتال بعنف . الملك هيو ملتبس بنوع خشن من التقوى ، بطريقته الخاصة لكن ينقصه - كيف أقولها؟ - نوع من التوجه العقلاني تجاه شؤون الدولة» .

«أليس عدم اهتمامه بالخصومات الصغيرة وإحصاء النقود أمراً طيباً؟»

«يا صاحب السمو» نظر هيوز إلى الطاولات المحتشدة برجال يضحكون ويتكلمون ، يطلبون المزيد من الطعام وقد بدأوا يمارسون ألعاب القوة والمهارة على العشب «نحن نعرف الصعوبات التي عانيت منها أنت ووالدك مع البارونات . التنقل في الولاءات والتحالفات . هؤلاء المدعوون بالنبلاء الذين يقسمون على ولائهم ودعمهم لقضيتكم ثم يختفون عندما تحين لحظة اختبار قوتهم وحقيقتهم . الأسوأ ، هنالك الذين سوف يديرون ظهورهم لكم في ميدان المعركة ويقاتلون مع أعدائكم ضدكم - ضد الرب نفسه!»

«لقد استملنا العديد من بارونات الأعداء إلى جانبنا عندما شاهدوا عدالة قضيتنا» قال إدوارد .

«حقاً» مال هيوز أقرب حتى كاد يتكلم في وسط أذن إدوارد «إنني

أحد رعايا والدك بحكم مولدي . يواجه الملك هيو مصاعب مشابهة وحتى ربما أكثر تحدياً بنفسه في منطقته التي تضم قبرص وعكا وبعض الأراضي القليلة التي ما زالت بحوزة اللاتين . بالنسبة لدورك يا صاحب السمو ، فقد بقيت في إنجلترا حتى كسبت حربك ثم غادرت لتجيء إلى هنا وتقاتل في سبيل الرب . نحن نحتفل ونشكر الرب على هذا وعلى العمل الذي أنجزته حتى الآن ، في تحرير المؤمنين من براثن الكفار . معارك الملك لم يتم كسبها حتى الآن ، ومع ذلك فهو يجلس هنا ، بعيداً عن الخط الأمامي لمعركة الرب ولا يشتبك مع العدو» .

«هذه كلمات خطيرة ، حضرة الرئيس العام» .

«وليسامحني الرب على النطق بها يا صاحب السمو ، ولكن يجب أن أحذرك - سيتطلب الأمر كل ذكائك ودهائك ومهاراتك لتجلب جميع فئات المملكة سوية لتقاتل معك ، قبل حتى أن تبدأ في قتال العرب المسلمين أنفسهم» .

تصالب إدوارد «سوف أُقاتل وحدي إذا اضطررت إلى ذلك» .

«أنت شجاع يا ولدي ، وتتصرف بما يليق بسلالتك الملكية ، لكنني شاهدت الأعداد التي أحضرتها معك -»

«إن شقيقي إدموند سيصل في الفصل القادم مع المزيد من الرجال-»

«حتى لو أنه ضاعف أعدادك ، سيكون لديك فقط - ألفاً - ثلاثة آلاف رجل؟ حشد طيب لمكن الفرسان الذين يقودهم بيبرس يبلغ عددهم أربعة آلاف رجل وحدهم - إضافة إلى جيش السلطان الملكي الذي تصل أعداده إلى عشرات الآلاف ، حينما يدعو جميع الأمراء والجندين إلى جماعته . يستطيعون أيضاً أن يستدعوا القبائل العربية

المسلمة الأخرى لتقاتل معهم - عرب الصحراء . ثم هناك المغول ، الذين لديهم جيوش مثل المحيطات ، لا حصر لها . سوف نحتاج إلى اجتذاب جميع القوات المسيحية في الشرق سوية لتحدث أي نوع من التأثير على اليابسة لدى وصولك» .

«سأحدث تأثيراً أيها الرئيس العام ، فلا تكن لديك مخاوف . سوف يرتجف بيبرس أمام اسمي» .

«نحن لدينا الإيمان أيها الأمير إدوارد ، سوف ترى أننا نمتلكه - لكن هناك الكثير هنا مما ستجده محبطاً . سوف أصلي من أجلك» .

افترقا عن بعضهما لدى نهوض الملك هيو عن المقعد ، يتمايل قليلاً ، وبدأ يخاطب الحشد بتعليمات حول كيفية المضي قدماً بمنافسات القوة بين الجماعات المختلفة .

تم اتخاذ قرار يقضي بأنه على الرغم من أن مقارعة بالسيوف بين فارسين ستكون الأكثر رغبة - إلا أن **الكولوسي** تنقصه مساحة مستوية كبيرة ملائمة لإدارة مثل تلك المباراة ، لذلك تم اختيار مباريات بسيطة من القوة العسكرية بدلاً من ذلك ، يد مقابل اليد بدلاً من الصراع الأكثر تعقيداً .

على الفور ، نهض أحد رجال الملك وتحدى أي رجل إنجليزي في منازلة بالعصا . وقف فارس عريض الكتفين وفكين أشبه بالصخر من جماعة إدوارد واسمه روجر ليبورن ، وأعلن أنه سيقبل أن يلقي القفاز باتجاهه . تم إحضار عصوين صلبين من البلوط الإنجليزي وخطا الرجلان نحو المربع الواسع الذي وضعت حوله موائد الطعام . انطلق تصفيق عالٍ من المشاهدين كل لتشجيع المشارك الذي يخصه ، ونهض إدوارد بعد أن استأذن من هيو وهيوز على التوالي .

قال لهيو «يا صاحب الجلالة ، ويا سيدي الرئيس العام ، سوف أقف لأراقب صديقي ليبورن يقاتل وأقدم النصيحة التي أقدر عليها ضد ما يبدو وكأنه خصم رهيب» .

قال هيو «إن هنري مقاتل جيد . لكنني أعتقد أن رجلك سيعطيه علقة ساخنة . اذهب ومتع نفسك أيها الأمير . ولكن عد إلى هنا قبل أن يبدأ اللعب بالسيف . أريد أن أسمع أفكارك حول المبارزة نظراً لسمعتك في ذلك الفن» .

قال إدوارد «أعطيك كلمتي على هذا يا صاحب الجلالة . كما سأبحث عن برميل من ذلك النبيذ البوردو الفاخر الذي حدثتك عنه أيضاً» .

أطلق هيو ضحكة مدوية وضرب إدوارد على ظهره تحبباً بمرح ظاهر .

«يا أسيادي» قال إدوارد وهو يبتعد . حدجه هيوز بنظرة حاذقة .

مشى إدوارد حول طرف أرض التقاتل ، وهو يصرخ إلى جانب الآخرين ، بينما انهمك الرجلان في صد ضربات عصا كل منهما للآخر وتوجيه ضربات من عنده ، والقليل جداً منها يصيب هدفه ، وقابل مورتيمر في الجهة البعيدة .

«إذاً ما الذي كان لدى الراهب الكبير ليقوله؟»

«لا شيء مما نسمعه من قبل» قال إدوارد «هناك الكثير مما يجب عمله ، ويبدو أن الموجودين هنا سلفاً لا يمتلكون الإرادة القوية للقيام به» .

«ماذا عن الملك؟»

«إذا كان يستطيع أن يقاتل بقدر ما يشرب ، فنحن سنتمكن من

دخول القدس مشياً بدون القيام بأية حملات على الإطلاق» .

«تعني أنه يشكل خسارة؟»

«ليس بالكامل» نظر إدوارد إلى الرجلين اللذين يخوضان المباراة «يبدو أن الهوسبيتالي جاهز للقيام بحملة إذا كانت الظروف مؤاتية - يبدو أن الملك قد يئس . كان يمتلك القدرة على القتال فيما مضى ، لكن القدرة نائمة حالياً» .

«الوضع بائس» قال مورتيمر «أنت تسيطر على نفسك بشكل جيد ، لكنني أستطيع أن أرى ما فعله قضاء فترة بعد الظهر معه فيك» .

«إنه لا يؤثر فيَّ» .

«على العكس يا مولاي ، أعتقد أنك بدوت في منتهى البطء حينما نزلت مع الملك من أعلى البرج» .

ألقى إدوارد بنظرة جانبية إلى مورتيمر ، وقد أدرك اللعبة التي تجري ممارستها .

قال «حسناً . دعنا نرى ، سوف أنادي طالباً التحدي عندما تنتهي هذه الجولة» .

«الأمر كما تقول يا مولاي» . عقد مورتيمر ذراعيه على صدره ، وقد بدا عليه السرور تجاه نفسه «أظن أنني أعرف متحدياً معيناً قد يثبت أنه جدير بالاهتمام» .

تابع إدوارد مسار عينيه ورأى الرجل الذي قصده . الهوسبيتالي الإنجليزي ، جوزيف دي تشونسي ، الجالس بكل هدوء إلى زاوية واحدة من الطاولات الأمامية ، يراقب المجريات باهتمام . هزَّ رأسه برضى واقتناع «سينفع هذا» .

وصل روجر ليبورن والفارس الفرنسي هنري إلى حالة انقطاع الأنفاس ، وأخذا يطوحان بضربات يائسة حالياً ، كلاهما يبتسم من خلال الكدمات حيث أنزل خصمه ضربة أو دفعة بعصاه الخشبية الثقيلة . اتجه هنري ليضرب كتف ليبورن من جهة عالية ، وعندما هيأ الانجليزي سلاحه ليحمي نفسه ، نقل الفرنسي ثقله ، ركع من ركبتيه ولوَّح بالعصا إلى تحت ليسجل ضربة قوية إلى مؤخرة ركبة ليبورن .

صرخ الرجل من الألم وسقط ، متكئاً على عصاه وكأنها نوع من العكاز .

نادى هيو «هل تستسلم يا سير روجر؟» رفع ليبورن يده ليعترف بنصر السير هنري وهو يلهث وقد غمره العرق . صدرت عن الفرنجة والهوسبيتاليين المجتمعين صرخة هائلة أقرب إلى الزئير . تقدم إدوارد ليقف بين الرجلين ، وساعد ليبورن ليقف على قدميه ثم جذب الرجلين ليتعانقا كرفيقين .

«تهاني لك يا سير هنري» قال بعد أن هدأ التصفيق مرة أخرى . «لقد كان فوزك مستحقاً بكل أجزائه تماماً مثلما خاض السير روجر معركته بكل جدارة» . جاء تطبيل مؤدب على الطاولات وبعض التصفيق على هذا الكلام . «لكنني أشعر أنني لا يمكنني أن أرسل رجلاً أخر من رجالي بكل شرف إلى وسط أي اشتباك بدون أن أحاول تعديل النتيجة إلى التعادل بنفسي ، ولذلك فأنا أطلب الإذن من الملك للتحدي التالي» .

نهض هيو واقفاً ورفع يده بالترحيب «لك حق الضيف يا صاحب السمو» .

«إذاً فإنني أختار أن أتعارك مع أخ من الهوسبيتال تعرفت عليه لتوي . جوزف دي تشونسي!»

استؤنف قرع الأقداح على الطاولات مع صيحات التشجيع للأخ دي تشونسي الذي أحسّ بالصدمة . ضربته الأيدي على ظهره تشجيعاً وسحبته من سترته لتوقفه على قدميه . بدأ يخطو إلى الأمام بتؤدة .

سأل إدوارد «آمل أن لا يكون هناك أي مانع لدى الرئيس العام؟»

«لا مانع أبداً» أجاب هيوز «مع أنني أحذرك بأن أفراد رهبانيتنا رجال من المعدن بقدر ما هم رجال الرب» .

حتى الهوسبيتاليون المتحفظون أطلقوا الهتافات على هذا القول .

«سألتزم جانب الحذر» قال إدوارد . تناول العصا نفسها التي استخدمها ليبورن بينما أخذ الأخ دي تشونسي عصا هنري . «وبهذه الطريقة فالذي سيفوز هو رجل من إنجلترا حتماً!»

قاد مورتيمر الهتافات على هذه العبارة وبدأ الرجلان يدوران حول بعضهما بعضاً . أمسك كلاهما بالعصا بيديه الاثنتين من أحد طرفيها وكأنهما يتعاركان بالسيوف ، بدلاً من القبضة الطويلة التي استخدمها هنري وليبورن .

ظهر على دي تشونسي الصفاء والتركيز وهو يراقب عيني إدوارد طيلة الوقت ، لكن بات واضحاً لدى الجميع أنه لا يحبذ فكرة أن يضرب ملكياً ، وعلى الأقل ليس الرجل الذي سيصبح ملكاً مع مرور الزمن . عندما رأى إدوارد أن دي تشونسي لن يبادر بالضرب ، لاحظ وجود فسحة فقام بهجمة من طرف عصاه ، محاولاً الوصول إلى صدر دي تشونسي .

ارتد الهوسبيتالي إلى الوراء ليتجنب الضربة ، لكن حدث ما يكفي من اللمس ما جعله يكشر من الألم .

قال إدوارد «آه! لاحظوا الآن . تلك واحدة لصالحي» .

«ضربة موفقة يا مولاي» قال دي تشونسي .

«كانت تلك لمجرد تعريفك بأنني هنا يا سير جوزيف . قد لا تكون التالية بهذا القدر من الودية» .

زمَّ دي تشونسي عينيه في حالة تركيز واستأنف الاثنان الدوران .

حاول أن يقلد حركة السير هنري في المبارزة السابقة ، فقام دي تشونسي بتطويح عصاه عالياً باتجاه كتف إدوارد ثم أنزل العصا بسرعة ، لكنه فوجئ عندما رأى أن إدوارد توقع الحركة وتمكن بسرعة مذهلة من إنزال عصاه تحت عصا دي تشونسي ليضربه على أضلاعه بقوة . زمجر دي تشونسي وانخفضت عصاه قليلاً .

«أخشى أن لا تكون قد انقطعت أنفاسك أيها الأخ الطيب؟»

نفض دي تشونسي رأسه نفياً رغم وجود طعم معدني جاف في فمه ، واستمر في الدوران «كلا يامولاي . ضربة تستحق عليها الثناء» .

أمسك بعصاه على امتدادها لإبقاء إدوارد بعيداً ريثما يستعيد انتظام أنفاسه ، ثم اتخذ خطوة إلى الوراء ، سحب الأمير إلى الأمام ، طعن منخفضاً نحو قصبتي ساقيه ثم طوَّح بالعصا حول جانب إدوارد الأيمن ثم الأيسر . عندما رأى ردة فعل الأمير المحتارة ، ثبت قدميه ووجه ضربةَ مستقيمة إلى بطن الأمير ، دفعته إلى الوراء وكادت أن تلقي به على ظهره . صدرت شهقة عن المشاهدين وتحرك ليسدد الضربة القاضية .

حينما رأى عصا إدوارد تسقط منخفضة إلى درجة أنها لامست الأرض ، غير هجمته بحيث طوح بالسلاح نحو جانب إدوارد الأيمن المكشوف مرة أخرى ، قفز الأمير في اللحظة الأخيرة وسيطر على نفسه

ليتجنب التطويحة . استمر دي تشونسي في المطاردة بكل الأحوال ، وقد أمسك بعصاه بيدين متباعدتين واستعان بكل القوة الكامنة في كتفيه لينزل بها على عضلات إدوارد المفتولة . رفع إدوارد عصاه في اللحظة الأخيرة ، تجنب ضربة وتصدى للأخرى والثانية والثالثة ، متراجعاً مع كل ضربة ، حتى وجد نفسه في النهاية محشوراً عند الطاولة الأولى ، بحيث أسقط الأواني والأقداح عنها وقفز المتفرجون مبتعدين عن طريقهما . نهض الملك هيو والرئيس العام هيوز على قدميهما ، لكن الصمت فيما عدا الأنفاس المبهورة وطرقعة الخشبتين كانا مسيطرين . توقف إدوارد ساكناً تماماً ، منتظراً نزول الضربة ، ولوَّح دي تشونسي المدفوع بقوة هجومه وليس بأي إرادة متعمدة لإلحاق الإصابة بخصمه ، العصا وأمسك بها بقوة ثم أهوى بها . انتظر إدوارد حتى الثانية الأخيرة ثم خطا جانباً ، وانقض على خصر الهوسبيتالي ثم سحب رجليه من تحته .

انتهى الوضع بدي تشونسي ملقى على ظهره ، مذهولاً ، بينما ركع إدوارد فوقه ، ممسكاً بالعصا فوق رقبة الرجل المطروح .

سأله «هل تستسلم؟»

«كما تقول يا صاحب السمو» .

انطلق هتاف هائل من النشوة والتقدير للمباراة التي تمت مشاهدتها للتو .

سحب كل من الملك وهيوز دي ريفيل أنفاس ارتياح عميقة لكون الأمير لم يتلق ضرباً يغيبه عن الوعي في يومه الأول على أرضهم . نهض إدوارد أولاً ثم ساعد جوزيف دي تشونسي ليقف على قدميه ويتلقى التصفيق الطويل . كان كلاهما ينزف وغارقاً في العرق ، وقد

التصق الشعر على رأسيهما العاريين بفروتي الرأس .

«يا لها من مباراة مدهشة!» كان هيو يصفق براحتيه بقوة ، وهو يشجع المتفرجين على فعل الشيء نفسه . «لك التهاني أيها اللورد الأمير إدوارد!»

رفع إدوارد ذراع دي تشونسي وقدمه إلى الجمهور الذي قدم له تحية تصفيق حارة هو الآخر .

«سنكون سعداء بوجود رجل انجليزي صاحب قدرات في وسطنا عندما نذهب لخوض المعارك مع العرب المسلمين يا سيدي» . قال إدوارد . مازال صوته يرتجف جراء المجهود الذي بذله في العراك .

جاء صوت دي تشونسي ثقيلاً ولكنه ثابت «أقدم لك الشكر يا مولاي ، ولكنني أعتقد أنك ستجد بأن مؤهلاتي لا تقع في عضلات وعقل الحرب بل في مكان آخر» .

«أحقاً تقول؟» أنزل إدوارد ذراعه وحدق فيه .

«إن مهاراتي تكمن في ما سماه شيشرون أوتار الحرب» تلاشى خجل دي تشونسي المبكر من ضرب رجل ملوكي . أدرك إدوارد أنه يتكلم الآن على أرضية الراهب المقاتل الشاب .

«سيترتب عليك أن تساعدني على تذكر ما كان الروماني يتحدث عنه يا دي تشونسي ، لأنني رجل تقي حينما يتعلق الأمر بالقراءة . أنا لست رجل علم» .

«المال يا مولاي . أنا بحاجة للاطلاع على سجلاتك» .

استحال أي حديث مطول كلياً بسبب ظهور الملك هيو إلى جانبهما حاملاً إبريق نبيذ آخر هائلاً ، والذي أصر على أن يشرب كل منهما جرعة طويلة منه للاحتفال بجهودهما .

«هذا هو ما لدينا» أخبر هيو فيتزهيو دي تشونسي ، وهو يناوله دفاتر الحسابات الثقيلة المغلفة بالجلد . «سوف تجد - إذا كنت متنعماً بالقوة التي تمكنك من القراءة عبر هذه الخربشات اللعينة - كل الأموال التي تم تحصيلها في هذا المجلد -» وضع إصبعه على الدفتر العلوي «وكل الأموال التي تم إنفاقها في هذا الآخر» .

تفحص دي تشونسي الكتابين على منضدة مكتبة الكولوسي .

«أين قام الملك كما تقول ، بتحصيل النقود سلفاً؟»

نفض فيتزهيو كتفيه قائلاً «في كل مكان . إنه سيأخذها في أي مكان يمكنه أن يحصل عليها فيه . رحلات الحج ليست رخيصة» .

«كلا ، في الحقيقة . ولكن هل تمانع في أن تكون أكثر تحديداً يا سيدي ، قبل أن أدخل في التفاصيل الدقيقة؟»

«ضرائب في انجلترا» فكر فيتزهيو أثناء كلامه «الكنيسة في انجلترا . بعض الأملاك في فرنسا . الملك لويس قبل أن يموت بالطبع . ثم ابنه - الملك الجديد - وعمه بالطبع . الإيطاليون . والآن فقد وعده تنظيمكم بتسليم نقود لتمويل المرحلة الأخيرة والعمليات في عكا» .

لم يفصح دي تشونسي عما يفكر فيه ، والذي انحصر في أن الأمير إدوارد بدا غير قادر مطلقاً على تحمل نفقات خوض الحرب التي ينوي شنها «يبدو لي أن عبارتك (كل مكان) جاءت تقييماً منصفاً» .

«نعم» وافقه فيتزهيو مبتسماً . فهو مثل بقية مجموعة إدوارد ، بمن فيهم الأمير نفسه ، يعتبر الحديث عن النقود دون مستواه .

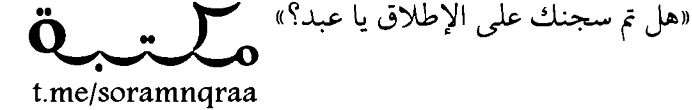
بيبرس

استدعى عبد في وقت متأخر من تلك الليلة ، ووجده الكاتب جالساً لوحده تحت العتمة النسبية لمصباح وحيد مرفرف ، منكباً على مخطوطة قديمة وقد قرَّب وجهه إلى الورقة إلى درجة أنه أصبح من العجب عدم وجود علامات حبر حينما رفع رأسه ليرحب به . جاءت التحية ، إذا صح تسميتها كذلك متعبة ومقتضبة ، وأمر بيبرس عبد أن يجلس بينما هو يصب سائلاً يكاد يكون غير شفاف من إبريق فضي . القدحان اللذان استعملهما من الفخار البسيط .

قال «كوميس»

«بالطبع» . أجابه عبد . فقد كاد أن يعود نفسه على شرب حليب الفرس المخمر القوي الطعم الذي يتم شربه من قبل جميع أفراد مرتبات الفرسان كلها ، وفي الحقيقة بين مرتبات المغول أيضاً . ذكَّر الشراب بيبرس والشراكسة ببلادهم الأصلية في الشمال ، حيث تخيل عبد أن الجبال تنزل حتى شاطئ البحر ، وأن الهواء يجدد النشاط مثلما يفعل رذاذ ماء الربيع البارد . وجد أن الطعم المترسب للوز غير منفر إذا كان لابد من قول الحق ، لكنه عرف أن الشخص المتغطرس بداخله لن يسمح أبداً بتفضيل الكوميس على الخمور الفارسية التي تربى عليها في بغداد .

«هل تم سجنك على الإطلاق يا عبد؟»



فكر عبد في هذا السؤال «نعم سيدي . لقد وضع السلطان تيكا وأنصار وأنا في قفص حينما احتجزنا» .

«بالطبع» وضع بيبرس الورقة من يده على الطاولة واستدار نحوه «كيف شعرت حينها؟»

احتار عبد فيما يقوله . لكنه جهد في أن يعطي جواباً معقولاً . «غير سار . مخيف . لقد قام حراسه بإهانتنا . حسناً ، أهانوني أنا على الأقل . لقد عاملوا كلاً من تيكا وأنصار بقدر أكبر قليلاً من الاحترام» .

«أخشى أن ذلك أمر ينبغي توقعه» .

شرب عبد قليلاً من الحليب . هو مسكر إذا شربه الشخص بسرعة «نعم» وافق «أعرف . رغم كل ذلك ، لم يكن الوضع سيئاً جداً» .

استند بيبرس إلى الوراء وقد انجذب اهتمامه «حقاً؟»

«يحتمل أن بعضاً من مواقف الفرسان العسكرية قد أثرت فيَّ . ولكنني لم أعد خائفاً بعد الصدمة الأولى . ربما أكون قد استخدمت الكلمة الخطأ حين قلت مخيف» .

«ربما تكون قد فعلت» .

«لقد كانت مفاجأة الوقوع في الأسر هي المخيفة ، حينما اندفع الحراس نحونا ، ولكن بمجرد أن بدا وكأن مصيرنا قد تمت كتابته ، أسلمت نفسي إلى ما يحتمل أن يجلبه القدر» .

«هل وضعت إيمانك في الله عز وجل؟»

«بالطبع . لقد قرأت في كتب الفلاسفة القدماء مرات عديدة أن ما يحدث للجسم لا يؤثر في الرجل إلا إذا سمح له بالتأثير . لابد وأن مثل هذه الأشياء ممكنة ، لكنني لم أصدق أبداً أنني سأتمكن من وضع مثل هذه الأفكار قيد التطبيق عندما يحين وقتها . لقد كان إدراكاً ساراً

أن أعـرف بأنني قـادر . إنني قـادر على أن أضـيف الفـضل إلى زمن وجودي مع الفرسان» .

«أمر طيب أنك لم تكن لوحـدك . تيكا وأنصـار كـلاهمـا رجـلان أحب أن يكونا إلى جانبي إذا تم أسري من قبل العدو» .

«هما حتماً لم يكونا خائفين» .

«لقـد واجـهـا الموت ومـا هو أسـوأ في مرات عـديدة ، كـلاهـمـا» نظر بيبرس إلى لـهب المصباح . «لقد تم أسري في إحدى المرات»

«هل حدث هذا يا سيدي؟»

«نعم ، من قبل رجال العصابات» .

فوجئ عبد إلى درجة أنه كرر السؤال «هل أسرت؟ استغرب كيف يكون أمر مـثل هذا ممكناً» . ابتـسم بيـبرس للذكـرى «لقـد حـدث ذلك حينمـا كنا في السـنة الأولى من النفي . كـان قطز مـا زال في خـدمـة أيبك حـتى بعـد أن اغـتـال صـديقنا أقطاي ، رحـمـة الله عليـه . كـانت سورية بأكملها مشتعلة جراء الأمراء الثائرين وأسياد الحرب . ووجدنا : قـلاوون وتيكا وأنـا أنفسنا وسط الحـريق . كنا قـد خـرجنا باتجـاه أرض مرتفعة قريبـة من الحصن في بيلفوار . كنا قد سـمعنا بأن هناك قـافلة ستمر من هناك لإعادة تموين الحصن» .

«وقاموا بأسركم؟»

«تجار القـافلة؟ لا يا عـبـد . تبين أن هناك مـجـمـوعـة من الفـرسـان اللاتين مع القـافلة ، وصلت حـديثـاً من أوطانهـا ، وكـان قـائدهم ذاهبـاً لزيارة ابن عـمـه الذي هو قائد قوة الحـصن . اندفعنا خارجين من الحفرة التي كنا مختبئين فيها وقاومونا . وقعت خسائر لدى الجانبين . وجه لي أحدهم ضربة بالفأس إلى كتفي» .

«آه يا الله . . .»

«كنت قد أطلقت سهماً على صديقه لتوي فألقى بالفأس عليَّ»

عاود بيبرس الإبتسام «لقد كان قتالاً طيباً . في النهاية ، شاهدنا غيمة من الغبار نازلة باتجاهنا من الحصن حيث أرسلوا التعزيزات . أجبرنا على التفرق . ذهب قلاوون وتيكا إلى ناحية وذهبت أنا إلى الأخرى» .

«وهكذا قبضوا عليك في حينها؟»

«لقد قبض عليَّ قطاع الطرق - وليس اللاتين ، بحمد الله . كانوا عصابة من القساة الذين يجوبون التلال هناك ، وأحاط بي حوالي خمسة عشر شخصاً . كنت جريحاً مسبقاً ، ولكنني تمكنت من إقناعهم بأنني أساوي أكثر إذا أرسلوا شخصاً ما ليطلب فدية . كثيراً ما يكون رجال العصابات جشعين ، ولذلك فإن التودد إلى تلك الناحية من طباعهم أمر جيد . كان اللاتين سيفصلون رأسي عن كتفي بكل بساطة وربما ساقي أيضاً لو عرفوا من أكون» .

أصيب عبد بالذهول «وماذا حدث بعد ذلك؟»

لوَّح بيبرس بيده «وصل قلاوون حاملاً بعض المال ، فأخذوه وتركوني أذهب» . شرب المزيد من الكوميس «ثم عدنا وقتلنا كل واحد تواجد منهم في ذلك المخيم» .

«تلك كانت العدالة يا سيدي» .

«العدالة ، نعم . ولكنني كنت سجيناً لفترة من الزمن ، وقد أخذت مؤخراً أشعر بذلك الشعور نفسه مرة أخرى . لقد عاد الي ذلك الإحساس . وأنا لا أحبه» .

«هنالك أشكال عديدة من الاعتقال يا سيدي . إنني أفترض أنك تقصد النوع الأكثر شيوعاً» .

«لقد قصدته - وأقصده . هل تعرف الشعور بالحرية والفرح الذي تحصل عليه عندما تمشي وسط حقل أخضر في يوم ربيعي مفعم بالنسائم؟»

هزَّ عبد رأسه إيجاباً .

«يعيش ذلك الشعور في داخلك دوماً - بغض النظر عن مكانك أو محيطك - بمجرد أن تجربه ، فهو يحيا في داخلك إلى الأبد ولا يستطيع أحد أن يأخذ تلك الحرية منك . تستطيع أن تتذكر كيف أحسست وتحسه مرة أخرى . يتحرر جسدك بكامله . إنها هبة من الله سبحانه وتعالى يقدر الإنسان أن يتذكرها أحياناً» .

«هل ذلك هو ما تفعله حالياً - حينما تشعر بأنك مسجون؟»

انتقى عبد كلماته بعناية ، غير واثق مما ينبغي عليه قوله ليناسب الإحساس الصحيح لحالة بيبرس المنزعجة بدرجة واضحة .

«لقد كنت أحسُّ بذلك ، لكن هذه الحالة لم تعد تفيدني . ولا حتى الصلاة الصادقة . أعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد أجاب على صلاتي بما يتحتم علي فعله» .

«وهل ستقوم به؟ مثلما فعلت مع رجال العصابات الذين حبسوك سابقاً؟»

«أليست تلك هي العدالة يا عبد؟»

أجاب الكاتب ببعض العبارات المبهمة التي لن يتمكن أبداً من تذكرها حينما تعود المحادثة لتدخل عقله . زحفت إليه جسامة الموضوع الذي يتكلمان عنه وأذهلته إلى درجة أنه بدأ يطرح على بيبرس أسئلة تافهة حول بعض الإجراءات المكتبية ، فتحدثا عنها إلى أن قرر بيبرس أنه سيلجأ إلى النوم لتلك الليلة . شكره عبد على كرم ضيافته واستأذن

في الانصراف ، ثم خرج من خلال المدخل المغطى بستارة .

بعد انصرافه ، حدّق بيبرس في شعلة المصباح لوقت طويل ، صامتاً وساكناً . تقافزت الشعلة وأصدرت هسيساً ، وهي تتراقص في العتمة ، محاطة بألسنة مغرقة في الصغر من الحرارة . جعلت هذه الأشعة الجدار والأمتعة والأشياء على طاولة مقره غامضة ومبهمة ، وكأنه ينظر إليها من خلال زجاجة أو في حلم . راقب الزيت في المصباح يتراجع وينكمش ، وكأنه يجري تجفيفه من قبل شمس ما ، وهو ما كانت عليه الشعلة بطريقة ما . تحولت الغرفة إلى الظلمة ببطء تدريجي وملأتها الأخيلة ، إلى أن غلفها السواد مع نفاد الزيت ، وألفى بيبرس نفسه جالساً في الظلام الدامس ، بلا أية أصوات سوى الدردشات المبهمة الأخيرة من الرجال في الخارج وهم يجهزون بطانياتهم للنوم .

اجتمع القواد صباح اليوم التالي ليبدأوا المرحلة الأخيرة من رحلتهم لمواجهة فرقة الإغارة المغولية . كان قطز يرتدي ملابس الركوب الجلدية والزرد ، بينما فضل أمراؤه زين الدين وأُنس والمعزي أن يرتدوا أزياء أكثر إبهاراً وتلوناً . تناقض هذا حتى مع لباس القلة من أفراد الحرس الملكي الذين رافقوا قطز ، والذين صدرت لهم الأوامر بارتداء ملابس قاتمة أقرب إلى لون التربة حتى يتناسبوا مع طبيعة المنطقة أكثر .

استمر بيبرس وجماعته ، الذين شكلوا العدد الأكبر بكثير من المجموعة في ارتداء المعاطف نفسها التي ارتدوها حتى من قبل معركة عين جالوت . لاحظ عبد بشيء من الرضى ، كيف أن معداته التي كانت جديدة وتلمع عند بداية الحملة ، قد أصبحت الآن موحلة

ومهترئة . جعله ذلك يشعر بالألفة في طيات سترته .

سأل قطز «هل سنستمر في الركوب شمالاً حتى نتصل بهم؟» رغم أنه لم يكن أي أثر لسؤال حقيقي في لهجته .

«ما زالت تلك هي الخطة يا صاحب الجلالة» ردَّ عليه بيبرس «سوف نصل إلى ساحلة مع نهاية هذا اليوم . أوصي بأن نحاول الإبقاء على قوتنا بعيداً عن مرأى المدن الكبرى ما أمكننا ذلك ؛ لأنه من المعروف وجود عملاء للمغول عبر هذه المنطقة ، ناهيك عن المخبرين الذين يدفع لهم المغول بكل بساطة» .

سأل قطز «ألن نتحرك بأسرع مما يتمكن أي من المخبرين أن يرسل أخبار اقترابنا قبلنا إلى العدو؟ بإمكاني أن أطلب تعزيزات من البلدات والحاميات الموجودة في طريقنا» .

قال زين الدين «يتحتم الاستماع إلى السلطان وإطاعته» أثار قوله نظرات متسائلة من كل الموجودين حولهم .

«هذا إجراء لا ينصح به يا صاحب الجلالة» تجاهل قلاوون الرجل الأصغر سناً «فكما تعرف ، فإن تنظيم المجندين وتحصيل الضرائب يستغرق وقتاً . الأفضل هو أن نتحرك مع فرقة فرساننا على شكل قوة موحدة - كتلة من الرجال المعتادين على القتال معاً ويمكن الاعتماد عليها في إطاعة الأوامر . وقتها حين نهاجم فسوف نفعل ذلك كوحدة واحدة ، نخرج بشكل مفاجئ ونقترب بدون أي حلقات ضعيفة» .

فكر قطز ثم بان عليه الاقتناع ، ثم ركبوا منطلقين وقد ركبت معهم قوة الفرسان بكاملها ، وقد انفردوا في صف واحد عبر المرتفعات والأودية ، على بعد مجرد بضعة أميال من الطريق الرئيس الذي اتبعوه بصحبة الجيش الملكي قبل أيام . بدأ الشتاء يفرض وجوده ، ولم يعد

هناك أي من الدفء أو النسيم الذي وصفه بيبرس لعبد عندما أخبره عن يومه المثالي في الليلة الفائتة . بدلاً من ذلك ، ثارت ريح شديدة البرودة وسحابات سوداء فضية على المدى البعيد فوق المنحدر الحرجي لجبل الجرمق ، الذي يسميه اليهود ميرون .

راقب عبد اقتراب السحب وبدء الريح في الهبوب بوجهه بدرجات متصاعدة . قبل مرور أقل من ساعة ، كانوا يركبون وسط عاصفة هوجاء من الرياح . وصلوا إلى مرتفع يطل على أحد الروافد ، بحيث وصلت الفرقة خلفهم وانتشرت حتى أحاطت بالقادة . الأرض صخرية وعرة ، أجبرت الجياد على رفع حوافرها وخفضها في بحثها عن وقفة مريحة . أوقف أنصار مطيته خلف عبد ، الذي توقف بدوره إلى جانب تيكا . وقف قلاوون وبيبرس أمامهم . لاحظ عبد أن تيكا قد ركب أمام حرس زين الدين الشخصيين ، وهم أربعة على اعتبار أنهم استخدموا القوة للفرار من اعتقال السلطان خلال الأسبوع الماضي ، وأصابوا الأمير الجديد إصابة بليغة أثناء عملية فرارهم .

توقف عند حافة المرتفع الصخري ، ينظر تحته إلى النهر الموحل يعبر المدى والحقول والحفر البعيدة . ارتفعت أعمدة من الدخان يحملها الريح بعيداً إلى الغرب من هناك بفعل العاصفة .

«سيكونون عبر ذلك النهر ويقترفون جرائمهم في تلك الأودية خلفه . انظروا إلى النيران» . صاح خلفه بعكس الريح . كانت عيناه مغمضتين بشدة اتقاء الحصى المتطاير «مع بداية نزول الشمس سنكون قد اتصلنا بهم ونبدأ بدفعهم إلى الخلف باتجاه النهر . سوف نتمكن من الإجهاز عليهم حينما يتباطأون هناك» .

تبادل بيبرس وأُنس نظرة خاطفة . دفع بيبرس بمطيته إلى الأمام ،

تاركاً قلاوون ومهنا والموت خلفه .

«عندما تنتهي تلك العملية ، أنوي الركوب إلى حلب» .

«ماذا؟» استدار قطز خلفه لينظر إلى بيبرس «ماذا قلت؟» اضطر إلى الصراخ بأعلى صوته فوق عويل الرياح المتزايد . بدأت قطرات كبيرة باردة من المطر تحفر في جماجمهم وأكتافهم مثل الرصاصات .

قال بيبرس «أنا لن أعود إلى مصر . بعد أن تنتهي هذه المعركة . سوف أستمر في السير باتجاه الشمال . لقد أتممت التحضيرات لرحلتك إلى القاهرة . إن سلامتك مضمونة . كذلك سوف آخذ ذهبي معي» .

انتفض رأس قطز عالياً من شدة الغضب «هل تقول إنك أتممت الترتيبات لسلامتي؟»

بدأ أفراد الحرس الملكي يقتربون منه أكثر . كذلك أطبق عليه الأمراء زين الدين وأُنس والمعزي وكلهم يحدقون في بيبرس بغضب .

رفع زين الدين ذقنه وصاح بصوت رفيع زاعق «كيف تجرؤ على التحدث إلى سلطانك بدون استئذان!»

«يا بيبرس : ستعود إلى الصف وتطيع الأوامر» . نزلت يد قطز على مقبض سيفه .

نظر بيبرس إلى السيف ثم رفع رأسه نحوه .

«أنا أنوي أن آخذ ما هو ملكي - بموجب حق الاحتلال وحق الخدمة المخلصة باسم الدولة» .

«أبداً ، مستحيل ، هل تسمعني؟ حتى الإمارة التي منحتك إياها في قليوب وقيادة المناطق الجنوبية كثيرة عليك . سوف تتخلى عن جميع سلطاتك والذهب وتخضع جنودك إلى قيادة حراسي - على الفور!»

حدث تبادل غير مريح للنظرات بين أمراء قطز . لم يتحرك بيبرس .

«شريف!»

تقدم قائد حراس قطز خطوة . خلافاً لبقية الفرقة ، كان الحراس قد ترجلوا واقفين ، وكلهم مسلحون بجرائد طويلة ثقيلة مستدقة بحدة . ظهر على الرجل عدم الارتياح لأنه زج به في خصومة تتجاوز كل صلاحياته حتى الساعة .

«يا صاحب الجلالة ، نعم؟»

«سوف تأخذ الأمير السابق بيبرس وتحتجزه لديك وتأمر بأخذه من هنا ليسجن في مكان آمن إلى أن أتفرغ للنظر في أمره» .

أجال القائد شريف نظره في المنطقة الريفية غير المألوفة بالنسبة لهه «والى أين آمر بإرساله يا صاحب الجلالة؟»

«أنزله عن حصانه وكبله بالسلاسل ، أيها الأحمق!»

أدار شريف رأسه باتجاه بيبرس ، وقد لاحت في وجهه بارقة أمل في أن يعطيه بيبرس نوعاً من الإعفاء ، لكن النظرة التي تلقاها منه كانت عصية على التفسير .

قال بيبرس «لن أسمح لنفسي بأن يتم أخذي إلى أي مكان - وعلى الأخص مقيداً بالسلاسل» .

دفع زين الدين بحصانه إلى الأمام بحيث أصبح أمام قطز «سوف تنفذ ما يأمرك به السلطان! وإذا لم تفعل ، فإنني سوف -»

ما حدث بعد ذلك جاء سريعاً جداً ، سقط زين الدين عن سرجه فاقد الوعي ، فقد قوطع في منتصف جملته وأسقط جراء ضربة من الخلف . اتجهت كل الأعين نحو المعزي ، الذي كان يحمل قضيباً

شائكاً يقطر دماً في يده اليمنى . استدار قطز بعنف في سرجه ليرى ما يحصل ، لكنه لم ينجح إلا في الالتفات ليواجه الحد الطويل لخنجر أُنس .

«أرجوك أن لا تتحرك يا صاحب الجلالة» قال الأمير .

لم يتحرك قطز ، لكنه بدأ يصرخ «ما هي هذه الخيانة؟ أيها القائد! يا شريف! اقبض عليهم!»

لم يفعل القائد أي شيء غير الوقوف مطاطئاً رأسه ، بلا حراك . بدأ الحرس الملكيون يتمتمون بين بعضهم بعضاً ، غير واثقين مما يتعين عليهم فعله في غياب الأوامر من الرجل الذي قادهم على الدوام ، وليس السلطان نفسه . بدأوا يدركون أن هناك خطأ ما ويتمتمون فيما بينهم ، ثم بدأ البعض منهم يتحرك باتجاه السلطان والرجل الذي يهدده ، أُنس .

حاول حراس زين الدين أن يخترقوا صف الفرسان ليصلوا إلى قائدهم ، لكن مرأى تيكا وسيفه المشهر أبطأ حركتهم ، وتسبب ظهور العديد من الأقواس القصيرة المسددة إلى صدورهم في توقفهم كلياً . عندما لم ير بيبرس أي محاولة من شريف للسيطرة على الحراس الملكيين ، رفع ذراعه وأنزلها . أخرست الريح هسيس صف الأقواس القصيرة العائدة للفرسان ، التي انطلقت في اللحظة نفسها لتصدم دروع الحراس الملكيين ، لكن صوت ارتطام السهام واختراقها دروع الحراس الملكيين أمكن سماعها على مدى المرتفع الصخري . سقط الصف الأول من الحرس سقطة رجل واحد ، وكأنهم أطفال يقعون على الأرض في لعبة متخيلة . عندما أدرك رجال الصف الثاني من الحرس تفوق الفرسان الراكبين ، انهار تنظيمهم وبدأ رجاله يدوسون على

أجساد زملائهم في محاولة للفرار ، بحيث انزلق بعضهم عن الجرف الصخري وسقط ، وحاول قسم آخر الوصول إلى جيادهم .

راقب بيبرس انصرافهم ثم ركب متقدماً نحو قطز .

«أنت الآن في عهدتي يا صاحب الجلالة . إخلع أسلحتك» .

جحظت عينا قطز لشدة الغضب واتسع منخراه الضيقان «هذه ليست مجرد خيانة يا بيبرس ، هذا كفر وإلحاد . سوف تحترق في جهنم جراء هذا العمل» .

جاء صوت بيبرس هادئاً برغم هدير الريح «إخلع أسلحتك» .

أوصل قطز يده إلى حزام سيفه ، وانتظر حتى الثانية الأخيرة قبل أن يحرك يده عن القفل إلى جراب سيفه . تسنى له الوقت ليسحب السلاح ويهمز حصانه باتجاه بيبرس مع صرخة زئير قبل أن يدخل كل من أُنس والمعزي أيديهم داخل الدرع الجلدي لصدره والإمساك به بقوة ، خافضين رأسيهما بعيداً عن تطويحات سيفه الخارجة عن السيطرة .

في الأثناء ، سحب بيبرس سيفه المقوس وأنزل حده الرهيب على قطز ، بحيث قطع سيف السلطان كأنه غير موجود واستمر ليضرب السلطان بين كتفه ورأسه . سقط قطز خارج سرجه مع زعقة ألم وأخذ يتدحرج على الأرض الصلبة ، اختلط دمه بالتراب والحجارة أثناء تحركه . في اللحظة نفسها ، وكأن معجزة ما قد دبت فيها الحياة ، انبثق البرق في السماء ودوّى الرعد ثم أخذ المطر يتساقط في شلالات ، بارداً غير متوقف .

استمر قطز يركل بقدميه على الأرض ، وقد تبلل الآن كلياً ، ويحاول أن ينهض . ترجل بيبرس عن سرجه ومشى باتجاهه ، رافعاً

السيف الرهيب عالياً .

«الأفضل أن ننهي المسألة الآن . لن يسمح أحدنا للآخر بأن يستمر في الحياة» .

نجح قطز في الركوع على ركبتيه برغم الجرح دفع ذقنه متحدياً وقانعاً في الوقت نفسه . «دعني أقف وأواجه الموت غير منحنٍ» .

لم تسمع أغلبية الرجال المحيطين بهما هذا الكلام ، فاستمروا يراقبون مشدوهين ، بينما مد بيبرس يده فتناولها قطز . ساعد السلطان المحتفظ بكرامته في الوقوف على قدميه ثم تبادلا بعض الكلمات ، قبل أن يتباعدا وتفترق أيديهما . أبقى بيبرس سيفه المقوس عالياً وقريباً من وجه قطز أثناء تبادلهما الكلام . وصل افتراقهما إلى نهايته ، فتراجع قطز ونظر إلى السلاح الذي ظن أنه سيرديه ، ولكن بينما هو ينتظر ، كان بيبرس قد سحب خنجره المصمم على أسلوب بلاده الأصلية ، فدسه بقوة إلى بطنه ثم تحت أضلاعه بينما كان شارداً . تجمد وجه قطز من صدمة الإصابة ثم تحول إلى ابتسامة حين أدرك ما فعله صديقه القديم الذي تحول مؤخراً إلى عدو . أبقى بيبرس السلاح في مكانه حتى انطفأ النور في عيني السلطان ، ثم أعاد الجثة إلى الأرض بلطف .

قال «غطوه جيداً» .

عبد

يتذكر أنه حينما كان صبياً صغيراً جداً ، يسأل أمه عما إذا كان يعيش في حلم . فكانت أمه ، المرأة اللطيفة القادرة على إثارة عاصفة من السباب والشتائم عندما لا يكون حولها سوى ابنها وزوجها ، تأخذه بين ذراعيها وتخبره أنه يحتمل أن يكون محقاً ؛ إذ تقول «في نهاية المطاف ، ألست أنت الصبي الذي طالما حلمت بأن ألده عندما كنت فتاة صغيرة؟»

عادت إلى عبد كلماتها أثناء جلوسه على الأرض وسط عاصفة ، ينظر إلى بقايا الرجل الذي كان فيما مضى ملكاً . شكر الله سبحانه وتعالى على المطر المستمر في الهطول لأنه يخفي الدموع التي ما توقفت عن النزول على خديه . أدرك أن قطز كان يضمر الأذى لبيبرس ، وبالطريقة نفسها التي كان قطز سيؤذي عبد نفسه وتيكا وأنصار وقلاوون . . . ولكن كان هناك جزء منه انكسر أثناء مراقبته سلسلة الأحداث التي تحققت وأدت إلى موت قطز . فقد سمع منذ فترة طويلة شائعات عما حدث في الليلة التي مات فيها السلطان توران شاه هو الآخر – كيف قام بيبرس وقلاوون وقطز أيضاً بدور فعال في التخلص من ذلك الشاب المضطرب عقلياً – فقد كانوا هم قادة تلك المؤامرة أيضاً ، مع أن أحداً لن يجرؤ على قول ذلك الآن .

«قف هناك يا عبد!» كان بيبرس وقلاوون يذرعان النتوء الصخري

المستوي جيئة وذهاباً في المكان نفسه الذي نفذت فيه العملية ، يوجهون الأوامر إلى السرايا لتخرج في جميع الاتجاهات وتطارد فلول الحرس الملكي التابع لقطز وتتصيدهم ، بينما استمرا في استجواب أفراد مجموعته الذين لم يفروا . ظل زين الدين راقداً ، فاقد الوعي . مع أن قلاوون أمر بتقييد يديه خلف ظهره ، ووضع شريف قائد الحرس إلى جانبه وقد قيدت يداه خلف ظهره وربطت قدماه . قام تيكا بأخذ حراس زين الدين إلى مكان ما ، وافترض عبد أنه لن يشاهدهم مرة أخرى أبداً .

«عبد! اصعد إلى هناك!» كان قلاوون قد توقف عن التمشي ووقف يحدق فيه . بقيت جثة قطز مسجاة خلفه تماماً ، مغطاه بالمعطف الثقيل الذي كان يحمله في أحد أكياس سرجه .

انتظر قلاوون حتى يقوم عبد برد فعل ما ، وعندما لم يفعل ، هم بالتقدم نحوه .

قال أنصار «انهض واقفاً أيها النقيب» جاء صوته لطيفاً . كان يقف خلفه فمد يده ليمسك بذراع عبد «هيا بنا»

نهض عبد متثاقلاً ليقف على قدميه ، بينما استمر قلاوون يراقب ، حتى اطمأن إلى أن عبد لن ينهار ويضعف ، مشى مبتعداً ليصدر المزيد من الأوامر .

«ستظل الأمور مضطربة لوهلة يا سيدي» قال أنصار وهو يسير به عائداً نحو حصانه .

«الأفضل في مثل هذه الأوقات هو أن تبقي نفسك بعيداً عن لفت الانتباه إليك أكثر مما يجب ، وإذا تمت ملاحظتك ، حاول أن يتم نسيانك بسهولة . هذا عمل سيتم الحديث عنه من هنا حتى بلاط الخان العظيم» .

«سيتم الحديث فيه إلى الأبد» . قال عبد .

«أنا لا أعرف عن ذلك» قاده أنصار من مرفقه «إليك ، اركب حصانك وابتعد إلى تلك الأشجار هناك إلى أن يصدر الأمر إليك بالتحرك . نحن ليس بوسعنا أن نبقى هنا وسط هذه الأوحال . سوف نحتاج إلى ملجأ لتمضية الليلة» .

«وماذا عن الغزاة؟» نظر إليه عبد من فوق «الغزاة المغول - الرجال الذين كنا نحاول أن نعترضهم؟»

استغل أنصار سانحة وضع قدم عبد في الركاب لينظر يمنة ويسرة ثم تكلم بصوت خفيض .

«ليست هناك مجموعة مغيرة من المغول أيها النقيب . أنا لست متأكداً ولكنني أرغب في إخبارك ذلك على الأقل . لقد كانت هذه خدعة لإبعاد السلطان عن جيشه . ونجحت» .

شعر عبد بموجة من الإعياء تجتاح كيانه فخفض رأسه قريباً من رقبة الحصان .

«إبق هنا لوهلة يا سيدي» قال أنصار «وسوف أعود إليك . إنهم بحاجة إلى بعض من شبابنا ليطاردوا الفارين» .

انتظر عبد حتى غادر أنصار إلى الجهة المقابلة من الفسحة قبل أن يدير حصانه إلى الوراء حتى لا يعود مضطراً إلى النظر نحو الجثة أكثر مما فعل ، ولا إلى السجينين : زين الدين وشريف . سمع صوت بيبرس في مكان ما ، يطلق الأوامر بقوة ، وراقب بينما مر الأميران أُنس والمعزي من جانبه ، متجاهلينه كلياً . شاهد الدماء على أكمامهما وعلى سرجي حصانيهما .

صفية . . . لو أنه فقط يستطيع أن يكون معها الآن وينسى كل

شيء - دعا الله عز وجل أن يمسح ذاكرته كلياً ويختفي كل شيء ببساطة فيما عدا هو وهي . أغمض عينيه وشدد قبضته على الأعنة بين أصابعه ، بحيث طرد البرد والبلل الذي سببه المطر وتخيل نفسه وقد عاد إلى شقته في بغداد ، بصحبتها ، مستلقين في الفراش ويتحدثان عن نوع الطعام الذي سوف يشتريانه من السوق ، وكيف يحتمل أن يتجرآ على التمشي سوية في المساء ، متظاهرين بأنهما رجل وزوجته .

فكر «حتى ذلك كان كذبة كله . لقد كانت تعرفني ، ولكنني لم أعرفها أبداً . تظاهرت بأنها فتاة بسيطة تنظف بيوت كبار المدينة ، ولكنها كانت تقبض المال من قلاوون طيلة الوقت وتتجسس - ربما حتى كانت تتجسس عليَّ» حاول أن يسيطر على دفقة الغضب التي تصاعدت من داخله جراء الفكرة . لقد بقي غضبه مكبوتاً منذ فترة طويلة ، لكنه كان يظهر وجهه البشع بين فترة وأخرى ليسخر منه ويضحك عليه .

وقف بيبرس وقلاوون معاً الآن ، ينظران إلى المعبر الوعر على النهر تحتهما ، يتحدثان في أذني أحدهما للآخر فوق هدير العاصفة . راقب عبد بينما أمسك بيبرس بحصان قطز ، ومرر يده فوق خطم الحصان ثم قرب رأسه من رأس الحيوان ليهدئ من روعه . بين لحظة وأخرى ، يستدير أحدهما إلى الخلف لينظر إلى الرتب المختلفة المحتشدة ، الحرس ، والأمراء ، وكأنهما يقرران ما سيفعلانه انطلاقاً من هذه النقطة .

بدون إنذار ، أطلق بيبرس سراح الحصان ومشى باتجاه السجينين . اقترب من خلفهما بحيث لم يواجه صعوبة في استلال خنجره وقطع عنق زين الدين ، محاذراً أن يتراجع حتى لا يصله شلال الدماء

المتدفقة من شريان الشاب السباتي إلى ثيابه .

بقي واقفاً إلى الخلف بينما ظل رئيس الحراس شريف يراقب تراخي زين الدين إلى التراب ، وكأنه يفكر فيما سيفعله معه . كرر بيبرس العمل نفسه مع شريف .

بعد أن تأكد من موت الرجلين ، مسح بيبرس الخنجر على ظهر شريف ومشى عائداً إلى قلاوون . استأنفا الحديث .

بدأت يد عبد ترتعش وتقفز بخفة فوق رقبة الحصان ، بدأ الحيوان يتململ عندما أحسّ بانزعاج عبد ، على الرغم من تعوده على مناظر الموت . لاقى عبد صعوبة في التنفس وأحسّ بألم رهيب عند مؤخرة عنقه . تلفت حواليه بحثاً عن إشارة مرحة ، وجه ودود يمكنه أن يلتفت إليه أو يوفر له مضغة من التسرية في هذا المنظر المرعب - أرض مليئة بالجثث وقوة من الرجال المتوترين المتعطشين للدماء خلفه .

لم يكن هناك أي من هذا . أحسّ - كما قال بيبرس أنه يشعر في اللية الماضية - أنه في فخ . لم يعد قادراً على المغادرة ، فقد وقعت على كاهله فداحة المكان وشعوره بالرجل الذي تحول إليه .

«أيها النقيب؟ أيها النقيب؟» كان ذلك أنصار . لم يعرف كم مضى عليه في جلسته هذه ، مغمضاً عينيه بقوة ويتمتم لنفسه ، لكن أولئك القلائل الذين كانوا حوله انصرفوا الآن وركب بيبرس وقلاوون حصانيهما ووقفا ينظران إليه . فتح عينيه ليرى أن أنصار أيضاً راكب حصانه ويربت على ساقه بلطف . «أيها النقيب ، نحن على وشك المغادرة ، هل يمكنك أن تركب؟ يجب أن تمضي قدماً . تقضي الأوامر بأن نتوجه إلى القاهرة مباشرة . سيكون ركوباً شاقاً . أيها النقيب ، هل أنت معنا؟ نحن مضطرون إلى المغادرة» .

«هيَّا بنا يا عبد!» نادى بيبرس واستخدم عنانه ليضرب مطيته وينطلق في طراد سريع .

اختفت جثة قطز ، بينما بقيت جثث زين الدين وشريف والحرس الملكي ملقاة حيث سقطوا . ركبوا مبتعدين تحت سماء سوداء ممطرة ، وتحولت الأرض تحت حوافر خيلهم إلى عجينة لينة ملبدة . تغطس كل رجل منهم بالوحل والقذارة من رأسه إلى قدميه قبل أن يقطعوا مجرد ميل واحد . مروا في الطريق بجثث بعض من أفراد الحرس الملكي المعراة ، والذين تم اغتيالهم من قبل طواقم الموت العائدة لبيبرس . باتت الطريق مفتوحة باتجاه مصر والأخبار الوحيدة التي كانت تسافر قبلهم هي تلك التي يبعث بها بيبرس نفسه .

تناول عبد كميات قليلة من الطعام وتكلم أقل من ذلك في الأيام ثم الأسابيع التي تلت ، واتبع في هذا مسلكاً مشابهاً لبيبرس ، الذي دخل بدوره في حالة من الانزواء .

في كل يوم ، خاضت مطايا الفرسان عبر أميال من الريف حتى لحقت بالجيش الرئيس خلال أسبوع ثم غادرته تحت قيادة الموت ، غير متمهلين في ركوبهم جنوباً عبر فلسطين وإلى داخل سيناء ومنها إلى العاصمة . طبقوا جميع الأنشطة التي أقنعوا قطز بعدم الخوض فيها أثناء رحلته المصيرية إلى الشمال ، ابتداءً بأخذ تعزيزات من بين صفوف الفرسان من كل بلدة مروا خلالها ثم إرسال تعليمات بوجوب التحاق الآخرين بمجرد تبليغهم الرسالة . استخدم بيبرس الحمام الزاجل لإرسال النداء المسبق بأنهم قادمون ، وكانت تتوفر في كل يوم مطايا جديدة نشيطة وأطعمة للرجال المنهكين ليستمروا في ركوبهم ، بينما تترك المطايا العادية المتعبة لتستريح طيلة الليل . فسوف تتم

قيادتها خارجاً في اليوم التالي وقد استردت نشاطها ، ويؤتى بها إلى الوجهة التالية .

اندفعت قوة الفرسان المتعاظمة بموجب هذا النظام التعبوي ، بصحبة مضيفيهم من البدو بقيادة منها ، خارجة من الصحراء وبلغت نهر النيل ، توقف الرجال لوهلة ليقدموا الشكر ويقيموا الصلاة بعد أن يبللوا أنفسهم في المياه ويعبثوا في النهر مثل الأمهار . شكل ذلك انفراجاً رائعاً بعد حالة الخدر التي خلفها الغموض في كل من بيسان والساحلة ، والمذبحة في عين جالوت . حتى بيبرس تمكن من نسيان توتره لفترة قصيرة وأخذت الابتسامة طريقها إلى لحيته مثل الشمس التي تشرق من خلف الغيمة . لم يستطع الناس الذين حوله أن يمتنعوا عن التركيز على الحلقات السوداء حول عينيه ، البلادة التي أصابت عينه السليمة المتوترة في العادة ، والتحديق الجامد في عينه العمياء . راقب الرجال وهم يغطسون تحت الماء ثم يقفزون إلى الأعلى ضاحكين ، بقهقهة عميقة تمنح الحياة لأولئك الذين يعرفونه خير معرفة ، ويتلهفون آسفين لرؤيته بمعنويات متدنية إلى تلك الدرجة في الأيام التي تلت موت قطز .

أصبحت مهمتهم هي إبعاد كل العيون الفضولية بعيدة عنه منذ ذلك الحين .

داوم تيكا على الوقوف أمام خيمته المنصوبة بتسرع ، حارساً خلال الساعتين أو الثلاث التي يسمح فيها لنفسه ببعض الراحة ، لأن الزعماء المحليين والمحافظين ، حتى صغار الأمراء ، صاروا يسعون إلى مقابلته للحصول على بعض التأكيد حول مصير قطز ، ولكي يقدموا له الطاعة والولاء ، رغم أنهم حرصوا على التأكد من أن كل شاهد يحتمل

أن يكون معادياً، بشكل خاص الحرس الملكي، قد تم إحصاؤه والتعامل معه في أعقاب المذبحة، ظل هناك عنصر لا يمكن السيطرة عليه في العملية كلها. سيتكلم شخص ما حتماً طال الزمن أم قصر. كان حراس الموت الشخصيون، القادمون مع الجيش الرئيس الأبطأ تحركاً، مشتبهاً بهم محتملين، كما كان أُنس والمعزي. ربما تم الحصول على ولائهم بالرشوة أو الترهيب، لكن ذلك لم يكن يعني أنهم فوق البوح بالقصة حتى يصبح دورهم أكثر براءة مما كان في الحقيقة.

ستحين لحظة الحقيقة بالنسبة لبيبرس عندما يصل إلى القاهرة، وليس قبل ذلك. وقتها سيخبر البلاط كله بما حدث، وليس قبل ذلك. هذا هو ما قيل لمقدمي الاستدعاءات من قبل خاصته. عندما يسأل قلاوون عن السلطان، كان يتلفت حوله ويرفع يديه قائلاً «هو ليس هنا؟ أليس كذلك؟»

خلال كل هذا، بقي عبد منفصلاً. لم يحتمل أن يشارك في حالة الاحتفال المرح لدى وصولهم إلى النيل، وهكذا فقد جلس على حصانه عندما غطس الرجال وغطى رأسه بكوفية. لم يكلم أحداً من حلقة بيبرس الداخلية بكلمة واحدة، سوى شخص واحد هو قلاوون.

قال عبد «العربات». كانا يمشيان على الجياد عبر بستان من أشجار الرمان، تتراقص أشجاره الخضراء وترتعش بحيوية جراء حمولتها من الفاكهة التي أوشكت على بلوغ قمة نضوجها لذلك الموسم. كان الرجال يستغلون ارتفاع خيولهم لالتقاط أفضل العينات ثم يسحبون خناجرهم ليشقوا الثمار. عبس عبد لدى رؤيته العصير الأحمر اللون.

«أي عربات؟» سأل قلاوون.

قال عبد «أنت تعرف العربات التي أقصدها . إلى أين ذهبتا؟ لم أرهما منذ أن غادرنا الجيش وركبنا متجهين إلى الشمال» .

«لا أستطيع أن أقول إلى أين ذهبتا يا عبد . لكنني أستطيع أن أخبرك بأنك لن تراهما لوقت أطول بكثير مما تظنه» .

قال عبد «ولكنني رأيتهما في استعراض القوات أثناء مغادرتنا بيسان» أحسَّ بالارتباك . أصابه صداع مؤلم . عانى من الإرهاق .

«هل رأيتهما فعلاً؟» ارتسمت على وجه قلاوون ابتسامة ماكرة «أنا لا أذكر رؤيتهما ، وقد كنت معك في الصف نفسه» .

«لقد كانتا خلف بيبرس أثناء الخروج . شاهدهما قطز أيضاً» .

مال قلاوون باتجاهه «لا تذكر ذلك الاسم مرة أخرى يا عبد . وخذ نصيحة من رجل يعرف ، لا تطرح أسئلة أنت لا تفهم معانيها» .

«ولكنني اعتقدت أنني أفهم» .

«إذاً ربما يكون الأفضل أن لا تطرح أية أسئلة على الإطلاق» .

تركا المسألة عند ذلك الحد ، وأطاع عبد فنفذ ما قيل له ، ولم يعد يسأل عن أي شيء بعد ذلك .

لم تعد توجد أية أحاديث بين بيبرس وبينه خلال هذا الوقت أيضاً . ففي الوقت الذي كان ما بينهما صداقة سهلة في الماضي ، مع وجود بيبرس بصفة الرئيس الواضح لعبد ، يتشارك معه في محادثات سهلة فوق نار الليل في خيمة بيبرس ، فقد أدرك كلاهما أن الآخر قد أصيب بأضرار بطريقة ما جراء الأحداث على الجرف الصخري خارج ساحلة ، ولم يعد أي منهما يقترب من الآخر خوفاً مما يمكن أن ينتج إذا كان أحدهما يحمل في داخله الغضب على الآخر . فقد توصل عبد إلى قناعة حتمية مفادها أن بيبرس يحمل ضده نوعاً من الاستياء

بسبب ردة فعله الأقل من الحماسية ، وتولدت الآن بدرجة غير قليلة في نفس عبد على مصير بيبرس .

تردد منظر كل من زين الدين والحارس شريف بحلقيهما المفتوحين ملقيين على الأرض مرات عديدة داخل عقله . في كل هذه المشاهد غير المرغوب فيها ، كان بيبرس يقف فوقهما ، ممسكاً بخنجره الدامي بيده .

انقضى يوم آخر وإذا القاهرة ماثلة أمامهم ، نقطة بيضاء ثم لطخة على الأفق في المدى .

تساءل عبد بكسل كم سيبقى حياً إذا اختبأ بين القوافل التي قابلوها متجهة نحو الشمال ، أو القوارب النهرية التي تتزحلق بسهولة فوق السطح الداكن للنهر العظيم . ربما يمكنه أن يقفز بسهولة إلى أحدها ويطوف مبتعداً ، فهل هناك احتمال كبير بأن يطاردوه بكل الأحوال؟

أجاب على نفسه «نعم» ذلك هو الجواب عن هذا السؤال «فقد شاهدت بنفسك التصرفات الداخلية للمجموعة التي أقدمت لتوها على ذبح أقوى الرجال في **الأمة** . إذا اعتقدوا للحظة أن ولاءك مشكوك فيه ، فهم لن ترمش لهم عين قبل أن يشقوا حلقك أيضاً» .

كان ينوي أن يسأل قلاوون عن صفية ، ولكنه قرر بعد تبادل الحديث الأخير معه أن الأفضل هو التخلي عن ذلك الحديث أيضاً . آلمه قلبه لمجرد التفكير فيها ، فقد ظل يفكر بطريقة ما ، أن مجرد قضاء الوقت لوحده معها سيعيد إصلاح كل الآلام والأفكار السلبية ، حتى لو كان العالم في الخارج ينزل إلى قعر الجحيم نفسه . لم تعد كتبه مفيدة في تهدئة عقله في هذه الآونة . لذلك فقد أصبحت الصلاة - الصلاة في كل لحظة - تعزيته وملاذه الوحيد .

صار يصلي منذ الصباح وحتى الليل ، أثناء وجوده في السرج وأثناء الساعات القصيرة التي يستلقي فيها على الأرض ، ملتفاً ببطانية تقيه البرد وتمنحه بعض الراحة .

راقب بينما وقف بيبرس أمام البلاط في قلعة القاهرة ليعلن أنه غير مهتم وليست له مصلحة في أخذ السلطنة لنفسه ، وأخبر القاصي والداني أن الدور الإلهي ينبغي أن يذهب إلى رجل صاحب سلالة أعظم منه ونسب أطول من نسبه . وجب على قطز أن يموت لأنه كان عدواً للإيمان ، وأنه تجاهل تعاليم الرسول عليه صلوات الله ، حين أدار ظهره إلى أولئك الأصدقاء الذين ساعدوه حينما كان بحاجة إلى الصدقة . تم قبول هذا بتصفيق حاد وهتاف هائل من قبل النبلاء والأمراء والأئمة المجتمعين الذين تم إفهامهم بشكل مفصل عن الترقيات التي سيحصلون عليها عندما يتم التوصل إلى تسوية ملائمة للفرسان ، ونتيجة يكون فيها بيبرس قائدهم . مع أن المدينة والقلعة نفسها كانتا ملتفتين بالزينات وتتردد فيهما أصداء أغاني النصر التي ينشدها الشعب بعد هزيمة المغول ، بات واضحاً أن الأربعة آلاف رجل الذين تتشكل منهم أرقى قوة خيالة تسيطر على الوضع بكل حزم . أصبحت الكتائب الملكية التي اعتمد عليها قطز إما تحت قيادة الموت ، أو أنها تم الاستيلاء عليها من قبل قلاوون ، الذي أمرهم جميعاً بالعودة إلى ثكناتهم بدون الحصول على إجازات . جاء دور قلاوون الآن ليتحدث مخترقاً الصمت الذي ساد في أعقاب خطبة بيبرس التي أعلن فيها أنه لن يسعى إلى السلطنة .

بدأ قلاوون بقوله «لقد جئت لأخاطب البلاط ، بشخصي المتواضع كخادم للحق عز وجل وللدولة» . جاءت الردود «الله أكبر» عبر

القاعة كلها . «إنني أرغب في الشهادة بأن صاحب السعادة بيبرس البندقدار صادق في كل ما يقوله . لقد كان قطز يخلق التآمر في المملكة ، ولا يوجد سوى حل واحد لمثل هذه الجرائم . لو سمح له بالاستمرار في خططه الشيطانية ، لكان كل العمل الطيب للفصل المنصرم - النصر العظيم الذي وهبنا إياه الله عز وجل الذي نحتفل به حالياً - قد ذهب سدى» . صدرت همهمات مؤيدة . كان عبد واقفاً قرب عمود رخامي مزخرف فاتكأ عليه ، وقد بدأ الضغط عليه يتزايد من الرجال الذين يحيطون به من كل ناحية مع كل مقطع ينطق به قلاوون .

«وماذا كان ذلك سيعني بالنسبة للناس الذين يقيمون الآن في شوارع قاهرتنا وبيوتنا ، هذه الأرواح البريئة التي ركض أصحابها للنجاة بأرواحهم عندما نزل جيش الخان على سورية كما فعلوا على الجزيرة وبغداد وبلاد فارس قبل ذلك؟ ماذا كنا سنقول لأولئك الرجال الذين هم إخوتنا لو ذهبت الجرائم على أشخاصهم وأملاكهم بغير عقاب من قبلنا عندما سنحت لنا الفرصة لنفعل ذلك؟»

صاح شخص من الحضور «كنا سنقع في العار!»

«ذلك صحيح أيها الأخ!» رد عليه قلاوون «كنا سنقع في العار! ليست هناك طريقة أخرى لقولها ، يا سادتي . سنفعل خيراً إذ نتذكر كل أولئك الذين ذبحهم المغول أثناء اختراقهم البلاد الشرقية للإسلام ، ويجب أن لا ننسى أبداً أن رحمة الله وحدها هي التي انقذتنا! تذكروا هذا ، ولا تنسوه أبداً» .

تجاوبت أصداء صرخات عالية من التأييد عبر السقوف العالية المقوسة مما اضطر قلاوون إلى الانتظار قبل أن يستطرد .

«ليس هناك من نحزن عليه ونتذكره في صلواتنا أكثر من خليفة الدنيا بأسرها - المستعصم بالله أبو احمد عبدالله بن المستنصر بالله!» انفجرت صيحات الغضب لدى ذكر الاسم ، وانهمرت الدموع على الوجنات بشكل مكشوف . تذكر عبد الخليفة ، الرجل المسن الذي ظهر عليه الانبهار من ظهور الجيش المغولي ، حتى إن أحد قادتهم جاء إلى داخل بيته ليسلم إنذاراً بشخصه ، مصحوباً بسهولة من قبل وزيره ابن العلقمي . كان كلاهما قد اختلفا بحدة بينما تهاوت المدينة إلى نوع من الجنون ، وقررا أن الخيالة وحدهم سيكونون نداً لذلك الجيش الذي قد اكتسح آسيا كلها سلفاً .

كان عبد محظوظاً حين استطاع أن ينجو بحياته ويخرج من المدينة . وحده معلمه ، ابن دقيق المبجل ، هو الذي استطاع أن يقنعه ويعثر له على الوسيلة التي يغادر بواسطتها ، وبعد ذلك بأشهر انضم إلى خدمة بيبرس أثناء وجوده في دمشق . كان قلاوون هو الذي دبر أمر لقائهما .

وها هو الآن يراقب كليهما واقفين في الفسحة بوسط القصر ، وكل العيون مسلطة عليهما ، وهما يتدبران أمر حاكم الامبراطورية لشخصيهما . لم يستطع عقله أن يستوعب ، وهو القادم من الفلاسفة النبلاء في بيت الحكمة ، كيف تمكن رجلان هما في الحقيقة عبدان أن ينظما مثل هذا المشروع .

كان قلاوون يقول «منذ بداية عصر الإسلام المبكرة ، عندما كان الدين الحقيقي يشمل الأرض العربية وحدها ، كان هناك خليفة ، وهناك أمر شديد الإلحاح هو ضرورة تعيين خليفة ليحل محل عزيزنا المستعصم ، حتى قبل أن نعين سلطاناً جديداً» .

فوجئ الجميع بهذا القول، لكن لم يعترض أحد. حلَّ الفضول بأولئك الأكثر دهاء ليعرفوا إلى أين يذهب قلاوون بهذا الاقتراح. «ألا توافقني يا صاحب السعادة بيبرس؟»

قال بيبرس «نعم أوافقك، لا شيء يأتي قبل أمر الله».

«إذاً اسمحوا لي أن أستدعي النبيل أبو القاسم أحمد، ابن شقيق خليفتنا المرحوم، والوارث الحقيقي لذلك الدور الأقدس في الأمة!»

انفتحت الأبواب في مؤخرة القاعة ودخل شاب، يرتدي الثوب الأبيض و**العقال** والغترة البيضاء من رأسه حتى أخمص قدميه، وسار عبر الجمع الصامت. كان أطول قامة بمقدار رأس كامل من أي رجل آخر هناك، وملامحه لطيفة وارستقراطية. عزز هذه الملامح قوامه الأهيف وكتفاه العريضتان. أخذ الرجال يتراجعون أثناء مروره، وكأن يداً إلهية خفية قد لمستهم، ثم بدأ الرجال، واحداً تلو الآخر، ثم في جماعات، يركعون ويتلون الأدعية. وصل أحمد إلى وسط القاعة وحيَّاه كل من بيبرس وقلاوون.

«أنت خليفتنا» قال بيبرس بصوت يثقله التأثر «أنت حفيد نبينا، صلى الله عليه وسلم، وأنا أضع سيفي وثقتي فيك إلى الأبد». واستدار ثم أكمل «كما يفعل كل رجالي».

ارتفعت الهتافات من الفرسان، عالية إلى درجة أن كل رجل آخر حاضر، تم تذكيره بأنه هناك لوحده، أو على الأقل ضمن أقلية صغيرة محددة ومعزولة.

رفع قلاوون ذراعيه «هل يوجد أي شخص هنا يمكن أن يعارض تنصيب أخينا ابو القاسم أحمد ليأخذ اسم عمه العزيز ويمسك بدفة الخلافة لكل بلاد الإسلام؟»

انطلق صوت جماعي متحمس «كلا!» تسبب في هتاف آخر من جميع الرجال .

استمر هذا الوضع لبعض الوقت . تراجع عبد في استناده إلى عموده ، داعياً الله أن لا يلاحظ أحد عدم تمكنه من إجبار نفسه على المساهمة . توقفت الهتافات أخيراً وأعلن بيبرس أنه سيهدي إلى الخليفة الجديد جيشاً شخصياً ، قادراً على أن يستعيد مدينة بغداد المقدسة من أيدي الكفار .

«يا بيبرس ، أنت الآن أعظم مقاتل في الإسلام وأكثر خدمة وتواضعاً» قال الخليفة «أريد من الجميع أن يعلموا أنه مع وجود هذا الأمر في مقدمة عقولنا ، بوجود قانون قديم – صدر في زمن النبي عليه السلام –يقضي بأن اليد التي صادرت حياة السلطان هي اليد التي يحق لها أن تتسلم التاج باستحقاق . يا إخوتي –» ارتفع صوت الخليفة كما ارتفع قبله صوت قلاوون – أصبح بوسع عبد أن يلاحظ بأنه خطيب مثقف – «نحن ملزمون بموجب هذا القانون أن نعين بيبرس سلطاناً لنا أمام الله عز وجل» .

حل صمت مشبع بالصدمة ثم عاود الزئير والتصفيق مرة أخرى ، وقد زاد في عنفوانه حالة الصدمة من تسارع الأحداث وتعاقبها . لم يكن هناك أحد بوسعه أن ينكر أحقية بيبرس بالتاج ، ولذلك لم يجرؤ أحد على معارضته . انهمرت الدموع من أعين كل رجل متواجد ، باستثناء عبد ، وأطلق الجميع الأدعية إلى السموات العلى .

كان منظراً مؤثراً يمس شغاف القلوب ، وما كان لأحد من الحاضرين أن ينساه أبداً .

تمكن الحراس الشراكسة الضخام وعلى رأسهم تيكا ، بطريقة ما ،

من رفع بيبرس وحمله والدوران به حتى يبايعه كل الحضور في القصر . وعده الجميع ووعد الخليفة الجديد بالولاء الأبدي المطلق ، وبعد أن داروا به أمامهم ثلاث مرات ، حملوه إلى العرش الفارغ ، وأجلس بيبرس في مقعده ، فملأه جسمه الهائل كلياً وارتفع رأسه أعلى من ظهر المقعد الذهبي» .

باتوا ينشدون «إنه عظيم! إنه عظيم!»

جلس بيبرس مستنداً بظهره واستعرض المنظر قبل أن يشير إلى قلاوون ليقف إلى يساره والخليفة إلى يمينه . بعد أن اكتملت دائرة السلطة ، أرسل البلاط المراسلين خارجين إلى الشوارع ليخبروا الشعب بأن الله سبحانه وتعالى قد استجاب لدعواتهم ببركات وإنعام أكثر مما تخيله الناس ممكناً .

إدوارد
عكا

«حلاقة ، حلاقة ، ما هو الأمير الشاب بدون حلاقة؟» انطلق فووين يغني ، وهو يغطس السكين في الماء ثم يحكها على المسن إلى الأمام والوراء . رفعها في شمس الصباح وهو يتفحصها بدقة ثم عاود الانحناء ، يسحب سكين الحلاقة جيئة وذهاباً وهو يدندن لنفسه أثناء عمله .

تنهد إدوارد دافعاً برأسه إلى الوراء ، وقد استند بمرفقيه إلى ذراعي الكراسي ، وأغمض عينيه . مع تزايد دفء النهار ، رفع قدميه على الطاولة الصغيرة ذات الأرجل الثلاث ، لم يعد يرغب في شيء أكثر من العودة ليندس في فراشه . «أرى أن الماء في هذا المكان لا يغسل داخل أمعائك كما يفعل مع أمعائي» . قال للخادم ، وندم لتوه على إفشاء سر مرضه الذي عاود إيلام معدته ومؤخرته من جديد . نقل ثقله في الكرسي ، غير مرتاح .

قال فووين وهو يتحسس حد السكين «إنك تبدو مصفر الوجه يا مولاي . هل تسمح لي باستدعاء الطبيب؟ يقول الشاب دي تشونسي إنه مقبول إلى حد بعيد» .

«الطبيب يهودي ، أليس كذلك؟ ألا يجدر بي أن أكتفي بجعل أحد المحمديين يقطع رأسي بتلك السكين التي تلهو بها وانتهي من الحكاية؟»

«لم لا تجعل دي تشونسي الشاب يوصي لك بشيء إذاً . هو يقول لي إن الهوسبيتاليين يتلقون تدريباً طبياً . إنهم يديرون المشافي في نهاية المطاف ، وهو يعرف تأثير هذا المناخ على الناس القادمين من بلادنا . إنه واحد منهم» .

«بحق دم الرب . أنا لست موشكاً على الموت - كل ما أحتاجه هو النبيذ والمرق ، وسرعان ما تأخذ هذه الإصابة مجراها وتنتهي . أين هو مورتيمر؟»

«لم ينهض من النوم بعد يا صاحب السمو» . دار فووين خلف ظهر إدوارد وبدأ يدير رأسه في هذا الاتجاه وذاك حتى يحصل على أفضل إضاءة للمهمة التي هو بصددها «يقول وصيفه إن امعاءه ملتوية بدرجة رهيبة ، وإنه من المحتمل أن لا يراه أحد حتى المد المسائي في أفضل الأحوال» .

«ملتوية من النبيذ الإيطالي والخمور الأخرى» . نفض إدوارد رأسه ليحرره من يدي فووين ونظر إليه بغضب . انتظر السكسوني لحظة ثم بدأ يحرك السكين صعوداً ونزولاً على مؤخرة رقبة إدوارد بكل لطف ممكن .

«لا تلمس اللحية عند الذقن ولا تبالغ في التقصير عند الخدين» . عاد إدوارد إلى إغماض عينيه .

«أعرف يا صاحب السمو» بدأ فووين يدندن لنفسه مرة أخرى ، بمنتهى الخفة . «ما هو تقييمك له يا مولاي؟» سأل بعد برهة .

«ما هو تقييمي لأي شيء؟»

«لهذا المكان الذي وصلنا اليه؟»

«إنه عبارة عن حفرة امتصاصية في الفردوس» .

«هكذا هي أفكاري بالضبط يا صاحب السمو» .

«لا عليك من هذا الكلام . أنت هنا في موطنك تماماً ، أيها الكلب» . تنهد إدوارد ، وقد أحسَّ ببعض الراحة بينما كانت السكين والماء يؤديان عملهما ، وابتسم فووين لنفسه لأنه نجح في تحسين مزاج الأمير .

«ألست تشعر بالخيبة؟»

«من ماذا؟ من فقدان الحماسة والتبذير الذي وجدناه؟ لا . لقد أتى بنا الرب إلى هذا المكان ونحن جزء من خطته . سأفعل ما يأمرني به وأهاجم أولئك الذين يهاجمون شعبه . لا يمكن وجود الخيبة وانعدام التشجيع عندما تعرف ما هو مكانك في هذا العالم» .

«أنت أبرع وأنبل أمير في هذا الوجود يا مولاي» .

في الحقيقة فإن إدوارد قد أحسَّ بالصدمة لدى رسوه في عكا . رغم أن المعبديين والهوسبيتاليين وحامية المدينة قد بذلوا جهداً لجعل عملية استقباله ملكية ، إلا أنه لم يكن بالإمكان تمويه الحالة الحقيقية للأوضاع أثناء ركوبه عبر المدينة على صهوة حصانه المنهك الذي يوشك على الهلاك جوعاً . عكا ، آخر مدينة عظيمة وميناء في أيدي مملكة القدس ، كانت تتمتع بتحصينات جيدة ، لكن شعبها واللاتين الذين يفترض فيهم أن يكونوا حماتها ، تواجدوا في كل مكان ولا في أي مكان . لم تكن مدينة تعيسة ، لكنه كان بوسعه أن يشعر بانزعاج محسوس في كل مكان يذهب إليه .

هي الأشياء الصغيرة التي يلاحظها الفرد من زاوية عينه أثناء ركوبهم عبر شوارعها - مجموعات الرجال الذين يشربون ويمارسون القمار في الخمارات ، نقص المنتجات الطازجة في السوق ، حجم

ومقدار ثراء قصور الرهبنات والقطاع الإيطالي ، المتناقض مع غياب الحراس عن حماية الأسوار الهائلة والأبراج والبوابات .

«ولكن ليس هناك مجال في الخطأ بشأن كون هذا المكان متأخراً ، كما فكرنا» . قال مورتيمر حينما ركبوا متجولين في أنحاء شارع الميناء الذي يطوق أبنية المدينة الرئيسة .

«إن الضرائب المحصلة سنوياً من عكا تضاهي تلك المحصلة من كامل مملكة إنجلترا» . كان دي تشونسي يمتطي حصاناً عربياً مخصياً رائعاً ويركب خلف جيادهم الحربية الضخمة . «أو على الأقل ، هذا ما سمعته» . قال عندما التفت أفراد مجموعة إدوارد لينظروا إليه .

صحيح أن قدوم إدوارد ورجاله قد رفع من معنويات أبناء عكا ، الذين على الرغم من ثراء المدينة كانوا واعين وغير مرتاحين لحقيقة أنهم أصبحوا في هذا الزمن جزيرة مسيحية في بحر من عدم الإيمان . جهز لهم الرئيس العام هيوز مكان إقامة في برج الهوسبيتاليين في شمال المدينة ، لكن إدوارد كان قد أجرى ترتيباته مع الملك هيو ليأخذ جناحاً من القلعة الرئيسة في وسط المدينة ، حتى يظهر قدراً أكبر من الحياد بين المعبديين والهوسبيتاليين دائمي التنافس . يقع مقر قيادة المعبديين في أقصى نقطة من شمال المدينة ، تماماً حيث تلتقي الأسوار الخارجية بالبحر ، واحتفظوا هناك بمينائهم الصغير الخاص بهم أيضاً . لكن الحصن الأكبر بفارق هائل على كل حال هو حصن الفرسان التيوتون ، وقد التقى إدوارد سابقاً برئيسهم ، الذي نبح فيه باللغة الألمانية ثم ركب مبتعداً بدون أن ينتظر جواباً بينما الأمير ما زال على الرصيف .

لم يكن ذلك هو التطور الأكثر إثارة حتى ركبوا في الشوارع نفسها

وبدأوا يشاهدون رجالاً عليهم سيماء العرب والأفارقة يمشون في الشوارع بحرية ، وعندما سأل إدوارد دي تشونسي ما إذا كان هؤلاء مسيحيين متحولين مازالوا متعلقين ببعض مظاهر حياتهم السابقة ، أم لاتين تأثروا بالشمس وتبنوا الأنماط المحلية في اللباس ، نفض الهوسبيتالي رأسه وقال «لا ، ربما يعتنق بعضهم الدين الصادق ، ولكن معظمهم يتبعون اليهود والمحمديين» .

«وإلى أين هم جميعاً ذاهبون؟» استدار إدوارد في سرجه لينظر إلى الشارع الطويل المنحني تحته .

قال دي تشونسي وهو يشير بيده «إلى الحي الإيطالي . أهل جنوا هم في هذا الجانب ، بينما أبناء البندقية وأبناء بيزا لهم أحياء خلف أولئك . لقد مررنا من خلال الاثنين في طريق خروجنا من الميناء» .

«هل أنت تخبرني بأن الإيطاليين يتاجرون مع العرب المسلمين؟»

«نعم يا مولاي»

«إذاً يجب على هذا الوضع أن يتوقف» .

ظهر الإحراج على دي تشونسي «هذه التجارة تحظى بمباركة خاصة من الأب المقدس نفسه . يمكنك أن تجبرهم على التوقف ، لكن الأمر ستكون له مضاعفات سيئة ، وسيتم إرسال مبعوث بابوي للتوسط» .

أخذت أوداج إدوارد تتحول إلى اللون القرمزي الداكن . «هل البابا هو الذي سمح لهم بالمتاجرة مع العرب المسلمين؟» نظر دي تشونسي إلى بياض براجمه وهي تشد على الأعنة .

«نعم يا مولاي . إنه اتفاق سارٍ منذ أمد طويل . إن المدينة سوف تهلك جوعاً في وقت قصير إذا حرمت من المتاجرة مع الأرياف المحيطة بها» .

لم يستطع إدوارد أن يصدق ما تسمعه أذناه «فإذاً ليست الرائحة الكريهة التي اشمها مجرد البراز الذي أراه في كل زاوية ، أهي كذلك يا دي تشونسي؟»

«الأمر ما تقوله يا مولاي» .

تحول اليوم الأول لإدوارد في عكا إلى طوفان من الاكتشافات والمفاجآت ، وبعد تلبية تكريم مضيفه ، بات سعيداً بالانزواء في جناحه عند مغيب الشمس ليغمض عينيه . في يومه الثاني ، سيمضي وقته في استعراض طوابير الجند والتفتيش على المهاجع والمطعم ، يحصي عدد الرجال والجياد اللائقين لديه ، ويتشاور مع قادة الطوائف المختلفة حول أفضل خطط الهجوم على قوات السلطان . عرف من محادثاته مع هيوز قائد الهوسبيتاليين أنه لا توجد لديه الأعداد الكافية لشن هجوم على نطاق واسع مثل ذلك الذي سيحتاجه لاحتلال القدس على الفور ، وعرف في الوقت نفسه من محادثاته مع الملك هيو أن التعاون بين الرهبنات والتشكيلات الوطنية المختلفة غير محتمل الحدوث .

قال لهيو فيتزهيو ، أثناء سلوكهما الطريق إلى غرفته بحلول الليل : «سوف نقود الناس بأن نشكل مثالاً يحتذى لهم . إن النصر يقود إلى النصر ، وإذا استطعنا أن نوجه لهذا المدعو بيبرس الذي يتكلم عنه الجميع ، ضربة تدمي أنفه ، أو حتى الأفضل من ذلك ، أن نقتله تماماً ، فإن كل شيء سيصبح أسهل بكثير» .

قال فيتزهيو «إنه من السهل جداً اتباعك يا مولاي . سوف نجعل النظام يسود في هذا المكان . إن الرب معنا» .

ردّد إدوارد «إن الرب معنا» .

أوشك فووين على إتمام حلاقة إدوارد الصباحية عندما دخل

فيتزهيو إلى الجناح الباهر الذي تهب فيه النسائم بصحبة ثوماس دي كلير خلفه ودي تشونسي يسير بسرعة أبطأ على بعد بضع خطوات خلفهما .

«ما هي الأخبار؟» سأل إدوارد وهو يتناول قطعة قماش من الخادم ليمسح بها وجهه .

«كما قلنا بالأمس . أول زيارة يتحتم علينا القيام بها هي إلى الإسطبل للتشاور مع البياطرة والسوَّاس والحدادين ؛ لأننا بدون مطايا سوف نتحول إلى قوة تحافظ على الحصن» .

«ما مدى سوء الوضع؟»

«يخبرني الفرسان الذين تحدثت إليهم بأن الجياد بحاجة إلى أسبوعين لتسترد عافيتها . لقد أحسنت الجياد صنعاً بإحضارنا على ظهورها عبر المدينة بالأمس» .

«ذلك أمر طيب» انحنى إدوارد إلى الأمام «فترة أسبوعين تشكل وقتاً كافياً لتجميع قوات المدينة والقوات اللاتينية بعدها . مازلنا مضطرين لانتظار أن يعبر الملك هيو مع مضيفه أيضاً» .

«يا مولاي» نظر فيتزهيو إلى الاثنين الآخرين ثم إلى فووين بعينين مضطربتين . «سنحتاج إلى أسبوعين لاستعادة صحة الجياد . سوف تحتاج إلى شهر على الأقل أو ربما أكثر قبل أن تصبح لائقة بما يكفي للركوب الشاق . ثم هناك موضوع الأعلاف . . .»

«هل قلت شهر؟»

فوجئ دي تشونسي الذي لا يعرف مدى عصبية مزاج إدوارد - ولو أنه متمرس بمهاراته القتالية - برؤية الرجال الآخرين يجفلون وينكمشون .

«هذا هو السبب في اضطرارنا إلى زيارة الإسطبلات، وبحث مسألة العثور على مطايا جديدة - ربما في القطاع الإيطالي؟ - كما أن هنالك شخصاً موجوداً هنا ينبغي عليك مقابلته . . .»

قفز إدوارد عن كرسيه وغمر بقامته بقية الرجال، بينما اكتسى وجهه بتكشيرة غضب عنيف. «الإيطاليون مرة أخرى؟ من أين يأتون بالجياد في هذه الأمكنة؟ قل لي يا دي تشونسي؟»

نظر الهوسبيتالي إلى الرجال الآخرين، لكنهم تجنبوا النظر إلى عينيه. لم يكن هناك أي دعم متوقع، فغامر بقوله «أعتقد أنه يوجد عدد من المربين إلى الجنوب وهم يتعاملون معهم يا مولاي . . .»

«هل هم عرب؟»

كاد الرجال الآخرون أن يديروا ظهورهم له. فقد جاء صوت إدوارد خطيراً في لطفه.

«نعم يا مولاي».

ركلت قدم إدوارد المرتدية الحذاء الضخم الكرسي عالياً في الهواء إلى درجة أنه ارتطم بحرف الشباك ونزل إلى الأرض فاقداً اثنين من أرجله «وهكذا يفترض فيَّ أن أدفع المال للعرب المسلمين لأحصل على ميزة مهاجمتهم، أهذا ما هو الأمر عليه؟»

حدقت عينا دي تشونسي في الأرض «أنا لا أعرف يا صاحب السمو. هنالك المزيد مما يتعلق بالأمر-»

«هل من العجيب أن هذه البلاد لم يتم فتحها بعد والحفاظ عليها أكثر من جيلين؟»

«ليس الأمر بالسهولة القائمة نفسها في الوطن يا صاحب السمو».

«الواضح أنها ليست كذلك -» بدأ غضب إدوارد يتراجع «هل

تعتقد أننا يمكن أن نذهب ونشتري جياداً من اللوردات الإيرلنديين حتى نتمكن من خوض معركة ضدهم في اليوم التالي؟ هل هذه الطريقة التي تدير بها رهبانتيك شؤونها يا دي تشونسي؟»

«يا صاحب السمو ، الأفضل هو أن تنتظر لفترة من الزمن وتتعرف على البلاد قبل أن تحكم -» .

«حتى أصبح مواطناً هنا كما فعلت جماعتك؟ ليس ذلك احتمالاً إطلاقاً» .

«يا صاحب السمو» تدخل فيتزهيو مقاطعاً «يوجد زائر هنا -»

«وماذا يعني ذلك بالنسبة لي؟» كرر إدوارد ركل بقايا الكرسي . «بحق جراح الرب» .

«إنه رجل يقول إنه قادر على مساعدتنا في استعادة القدس لأجل الدين الوحيد القويم يا صاحب السمو» .

استدار إدوارد نحو فيتزهيو «لقد تم منحنا استقبال دولة بالأمس لدى وصولنا أيها الرجل . لقد أعلن قضاة المدينة ونبلاؤها أن هدفنا هو إعادة فتح القدس . الأفضل لك أن تعتاد على ظهور الناس أمامنا ليخبرونا أنهم يعرفون الطريقة لفعل ذلك - لا شك لدي في أنه يسعى إلى الحصول على المال» .

قال فووين «أو أنه يسعى إلى بيعنا عظام أحد القديسين؟»

«كلا يا صاحب السمو» نظر فيتزهيو خلفه إلى الباب المغلق بستارة «إنه قادم من قبل الخان المغولي» .

غاي تويكنهام رجل طويل القامة ، يكاد يصل إلى طول إدوارد ، لكن بنيته تكاد تنقصها جميع مقاييس الأمير في العرض والحيوية . فحيث يتمتع إدوارد بصدر ضخم عامر ، فإن غاي نحيل ، وحيث كتفا

إدوارد عريضتان قويتان ، فإن كتفي غاي مستديرتان وضيقتان . تأمله الأمير من رأسه إلى قدميه ، لاحظ السترة البالية المتفتتة وكذلك بنطال الركوب ، الحذاء الغريب ، ثم هزَّ رأسه .

«إنه لا يبدو مثل مغولي» قال وهو يوزع نظراته بين دائرة مستشاريه .

قال غاي «ذلك لأنني لست مغولياً . إنني إنجليزي» .

تجاهل إدوارد وقاحة الرجل الذي فشل في مخاطبته بلقبه «تقول إنك إنجليزي؟ فلماذا إذاً أخبرت زميلي أنك قادم من قبل خان المغول؟»

«لأنني فعلاً كذلك» . التقط غاي النظرات الباردة متأخراً وسارع إلى إضافة «يا مولاي» .

هزَّ إدوارد رأسه «إنه مجنون ، اطردوه خارجاً» .

تحرك فيتزهيو ودي كلير وفووين للانقضاض عليه ، لكن غاي رفع ذراعيه «لا! لا يا مولاي ، انتظر أرجوك» .

توقف الثلاثة واستدار إدوارد ليواجهه ، عاقداً يديه خلف ظهره «نعم؟»

مدَّ غاي يده تحت قميصه وبحث للحظة قبل أن يسحب شيئاً لمع حين أصابه شعاع الشمس المشرقة .

«خنجر!» توفر لفيتزهيو الوقت ليصرخ قبل أن يركل إدوارد السلاح من يدي الرجل ثم يتابعه بركلة أخرى ليسحب ساقيه من تحته . سقط غاي على الأرض متكوماً على نفسه ، تماماً كما وقع كرسي حلاقة إدوارد من قبله . انقض عليه فووين مشهراً قبضتيه إلى الأعلى .

«مولاي ، أرجوك ، اعف عني – إنه هدية!» جعل غاي يصيح رافعاً يديه رغم أنه مبهور الأنفاس بحدة . نظر إليه إدوارد ، ولاحظ بكل

وضوح أن السلاح يبدو حتماً للزينة وأنه مازال داخل جرابه . تناوله وفتحه . النصل منحن وعريض ، العمل على معدنه في غاية الإتقان – محفورة عليه أشكال ونماذج غريبة ، ما نتج عنه انسيابية جميلة على جوانبه ، وكأنه تم تصميمه نقلاً عن مياه جارية تمكن الصانع الفنان من إمساكها وتطويعها في شكل صلب .

«سلاح رائع» قال إدوارد ومرره إلى دي كلير ليتفحصه . «وإلى من أدين بهذا الشرف؟»

انفتل غاي ليرقد على جانبه «هل تسمح لي بالنهوض؟»

«كلا»

«إنني قادم لأمنحك تحيات ضياء الكون وحاكم العالم ، الخاغان قبلاي خان وابنه الهادي اباغا خان» .

«وهل تحياته عبارة عن خنجر؟» نظر إدوارد إلى رجاله ، وقد لمعت عينه الطيبة تعبيراً عن استهزائه . «ياله من مكان عجيب انتهى بنا المقام فيه!» أعاد ثوماس دي كلير الخنجر إليه ووقف هو يربت به على براجمه «الأفضل لك أن تبدأ بالكلام وتخبرنا بقصة جيدة يا غاي تويكنهام ، وإلا فإن رجالي هنا من المحتمل أن يلقوا بك عن هذا البرج إذا لم يعجبهم ما يسمعونه» .

عدل غاي وضعيته ببطء إلى الجلوس ، مسنداً ظهره إلى الجدار وعبس من الألم في ساقه ، لقد استحق صاحب السيقان الطويلة لقبه ، لأن حصان حراثة ما كان بوسعه أن يرفس بأقوى منه . بدأ كلامه قائلاً «أنا كما يدل اسمي ، أصلي من خارج لندن» .

«ذلك القدر واضح من لكنتك» . أشار إدوارد إلى إبريق النبيذ فسارع فووين ليسكب منه .

استطرد غاي «لقد كانت عائلتي فقيرة، حسناً، ليس في البداية. لقد جئنا مع الفاتح وتمت مكافأتنا بأرض جيدة في الجنوب. كان غاي بايو فارساً قاتل مع وحدة فرسان وليم الخاصة».

سأله فيتزهيو «وهكذا فلماذا أنت لست موجوداً هناك الآن؟»

«أو ساعياً إلى الانضمام لبعثة الحج هذه؟» تناول إدوارد القدح من فووين وشرب.

«ستة أجيال من غاي كلهم مقامرون». رسم غاي الابتسامة الماكرة العائدة للنادم والمخطئ والمحتال «أنا هو السابع. ابني هو الثامن».

«هل هو موجود هنا؟»

«كلا، هو هناك في انجلترا مع والدته. لقد خرجت إلى هنا حتى أكفر عن خطاياي وذنوب أجدادي الذين لم يتركوا لنا أكثر من ملكية صغيرة جداً. لقد جئت إلى هنا ولا أملك شيئاً أكثر من حصاني وسيفي، ومهر زوجتي، ليباركها الرب».

«ثم ماذا حدث؟» جلس إدوارد على الكرسي الثاني الذي أحضره له فووين وهو يتابع النظر إلى الرجل الغريب.

«لاحقتني خطاياي إلى هنا - حتى إلى هذا المكان المقدس».

قال دي كلير «ليس هناك أي شيء مقدس فيما يتعلق بعكا. لقد كانت رائحة المياه الآسنة في قاربنا أطيب رائحة منها».

قال غاي «هذه هي الأرض التي مشى عليها السيد المسيح».

«ذلك صحيح» قال إدوارد «ولكن ماذا تظن أننا سوف نستنتج من قصصك التافهة؟ هل بقي لديك أي شيء؟»

«كلا يا مولاي. لقد خسرت كل شيء قبل حوالي خمس سنوات».

«خمس سنوات!»

تبادل الإنجليز الآخرون نظرات غير مصدقة .

«هل تقصد التحول أنك عشت هنا - في هذا المكان - لمدة خمس سنوات؟» أمسك إدوارد بكم فووين «اسكب للرجل شراباً ، غير مخلوط بالماء . مع أنه ربما كان النبيذ هو الذي أراك الطريق إلى وكر القمار ، ألم يفعل يا غاي تويكنهام؟»

تقبل غاي القدح مع ايماءة مجاملة ورفعه تحية لمضيفه . «لقد عرف الطريق حتماً أفضل مما عرفته أنا ، يا صاحب السمو» . شرب ورأى الآخرون كيف ذاب قلقه السابق .

«إذاً ما الذي كنت تفعله هنا طيلة ذلك الوقت؟» طالبه فيتزهيو «هل أرسلت خبراً لزوجتك؟»

«كلا ، يا مولاي» أطرق غاي ناظراً إلى الأرض . «لم أكن في المدينة طوال هذه الفترة . بعد أن خسرت كل شيء في لعبة النرد ، تجولت في الشوارع لوهلة ، إلى أن قبض علي رجال المطران بتهمة التشرد وألقوا بي خارج الأسوار» .

«ألم تعطك الكنائس أي طعام؟»

«لقد كان سلوكي مشيناً طالما تحكم النبيذ فيَّ يا مولاي ، وقد كانوا محقين فيما فعلوه . لقد كنت في بعض الأحيان أسوأ من وحش» .

«يا الهي الطيب» قال دي كلير .

«حقاً يا سيدي» اعتدل غاي في جلسته وسحب نفساً «لقد عاملني الرب بإحسان ، لأنه بواسع رحمته لم يتركني لأموت من العطش أو الجوع ، ولا حتى أن يتم تقطيعي إرباً بواسطة سيوف العرب

المسلمين الرهيبة . لقد سمح لي - أقصد الرب العظيم - أن أمشي فوق أرض فلسطين المقدسة - من أحد أطرافها إلى الآخر!»

تعاظم اهتمام إدوارد «وهل أنت تعرف هذه البلاد؟»

«إنني أعرفها يا صاحب السمو» تقدم غاي في جلسته وقد غمره الفضول .

«في هذه الحالة ربما نسمح لك بأن تدخل في خدمتنا وتخلص نفسك ، لأننا بحاجة إلى -»

رفع رأسه بحدة حينما قاطعه غاي :

«ولكن يا صاحب السمو ، أنا أؤدي خدمة سلفاً!»

تقدم فيتزهيو خطوة مهدداً «إشرح وضعك يا تويكنهام» .

«إنني - كما قلت في تقديمي الأول لنفسي - في خدمة صاحب السمو الأنبل والأسمى أباغا خان» .

بقي دي تشونسي واقفاً إلى جانب الشباك في مؤخرة الغرفة ويصغي بتركيز . التفت إدوارد إليه «هل ما يقوله الرجل يعني لك أي منطق ، أيها الأخ جوزيف؟»

«لم أقابل هذا الرجل من قبل يا صاحب السمو ، ولذلك لا أستطيع أن أشهد له ، لكنني بكل الأحوال قد سمعت عن أباغا خان» اكتسى صوت دي تشونسي بالمزيد من الخشونة لدى مخاطبته غاي تويكنهام «كيف اتفق أنك قابلت الخان؟»

بدأ غاي «لقد تجولت لأشهر عديدة ، أيها الأخ ، وفقدت كل احترام لمظهري وهندامي وشكلي . تحولت كل الثياب التي بقيت عندي إلى خرق ، وسرعان ما أتلفت الشمس والرياح والمطر والحرارة البقية . حدث يوماً أنني كنت أخوض في نهر الأردن تماماً مثلما فعل

يوحنا المعمدان نفسه ، مرتدياً جلود الحيوانات والفراء نفسها التي ارتداها عندما قام بتعميد إلهنا الرب» .

قال فيتزهيو «أمسك عليك لسانك . لدينا قوانين قاسية ضد الكفر وعقوبات توازيها» .

«أنا لم أقصد الإتيان بأي إلحاد يا مولاي . كل ما كنت أقوله هو أن الرب جعلني أرى المعاناة الحقيقية التي عانى منها الرب وابن عمه ، في حالتي من الضياع - حتى أتعلم مدى الخطيئة في مسلكي بطريقة أفضل» .

ذكَّره دي تشونسي «الخان -»

«نعم ، حسناً ، قررت في أحد الأيام أن أعبر ذلك النهر المقدس ، الأردن ، وأغامر في الأراضي البرية لأمتحن مقدار إيماني» .

تبادل إدوارد وفيتزهيو نظرة أخرى . واضح أن الرجل مجنون .

«كنت قد سمعت قصصاً عن مدن عظيمة في الشرق تمنيت أن أشاهد هذه المدن بنفسي» .

«وماذا حدث؟»

«ضللت طريقي وأصبحت سجيناً في المستنقعات الهائلة هناك . لم يتم العثور علي إلا بنعمة من الرب وابنه . آخر شيء أتذكره قبل أن تحتويني العتمة هو الصلاة لأمه ، وكان تدخلها هو الذي أنقذ حياتي التي لا تساوي شيئاً» .

«ماذا عن الخان؟»

«آه نعم ، حسناً ، لم يكن الذين عثروا علي أعضاء في قافلة ما ، بل كانت فرقة إغارة تابعة للخان ، أو هكذا علمت فيما بعد . قبض هؤلاء الرجال المخيفون المرعبون بأشكالهم علي وقيدوني إلى ظهر أحد

جيادهم وركبنا لأيام ، بدون توقف . علمت بعد وقت طويل أننا قد دخلنا أرض بلاد النهرين ، والتي سماها الرومان ميزوبوتاميا . شاهدت النهرين العظيمين الفرات أولاً ثم دجلة . يقال إنهما بعرض نهر النيل نفسه ، مع أنني لا أعرف حتى أقارن . المغول قادرون على البقاء في السرج لأسابيع متواصلة» .

«تفاهة» قال دي كلير .

«كلا يا مولاي ، لقد رأيتهم بنفسي» انفتحت عينا غاي على اتساعهما في جديته .

«لقد رأيتهم يفعلون هذا شخصياً . لقد فعلتها بنفسي ، لأنهم علموني أساليبهم لاحقاً» .

«هل قاموا بتعليمك؟ أنت محظوظ لأنهم لم يتخذوك عبداً لهم» .

«لقد فعلوا! فقد عانيت الأمرين على أيديهم ، لأن المغول عديمو الرحمة تجاه أولئك الذين يعتبرونهم أدنى منهم . من المحيط البعيد وحتى البحر الأبيض المتوسط ، ليس هناك شعب يمكنه أن يتفوق على قسوتهم . ولكن بعد ذلك أنقذني الرب المسيح ووالدته مرة أخرى . عرف الذين أسروني أنني أتكلم ليس فقط لغات الفرنجة ، بل أيضاً لغة العرب ، لأن هؤلاء هم الناس الأطياب الذين قدموا لي ما يكفي من الحسنات لأبقى على قيد الحياة ؛ بينما كنت أتجول تائهاً على ضفاف نهر الأردن المقدس» .

«هل أبقاك العرب المسلمون حياً؟» كان دي كلير قد قرر أن الرجل يحوك لهم حكاية ليس فيها سوى الهواء والتخيل .

قال غاي «ينبغي على أي واحد منكم أن ينقذ نفسه من النار بأن يعطي ولو نصف تمرة» .

سأل إدوارد «ماذا كان ذلك؟»

«الصدقة» هزَّ غاي رأسه مؤكداً . «كان الناس العاديون يهمسون بهذا عندما يصادفونني ، ويعطونني بعض القطع واللقيمات للحفاظ على حياتي . لقد كان ذلك مساوياً لما يقدرون على إعطائه للعديد منهم . إنني كثيراً ما أجد أن الأشد فقراً بينهم هم الأكثر شبهاً بربنا في أفعالهم يا صاحب السمو» .

«تماماً» قال إدوارد «أخبرني عن أباغا خان» .

«عندما بدأ ضباط الجيش المغولي يصدقون أنني قادر على تقديم خدمة نادرة لهم ، تم تقديمي إلى أباغا خان وابنه . إنهما من بين أرقى الرجال . لم أكن أعلم أنهما بدورهما أبناء هولاكو خان ، ذلك القائد الأوسع شهرة والذي اكتسح بغداد» .

سأل فيتزهيو «وابنه - أباغا هذا - هل هو زعيم قوي؟»

«في منتهى القوة يا سيدي . تسيطر جحافله على جميع بلاد فارس وحتى الهند باسم الخان العظيم قبلاي ، الذي يقيم في قصور بايكينغ» .

«كم يبلغ عدد الرجال الذين يقعون تحت قيادة أباغا؟»

«عشرة تومينات يا مولاي» .

«وكم يبلغ ذلك العدد باللغة المقدسة؟»

«مئة ألف ياسيدي» . رفع غاي عينيه باتجاه فيتزهيو «عدد كبير إلى درجة أن هذه المدينة بكاملها وكل الأرض التي حولها سيتم تغطيتها بأعدادهم» .

ندت عن الموجودين شهقات حادة عند هذا الكلام . فتح إدوارد عينيه على اتساعهما .

«ما هي رسالتك؟»

«يرسل إليك الخان العظيم تحياته وبركات الرب» .

«وهل هو مسيحي؟»

«نعم يا مولاي . إن كلاً من زوجته المنصفة ووالدته امرأتان تقيتان ومخلصتان ، وقد أوضحتا له طريق الرب ، مع أنه لم يقبل بعد بالتعميد الكامل» .

«ذلك أمر واعد بالخير» قال فيتزهيو .

«يا صاحب السمو ، إن الخان يرى في التحالف معكم وسيلة لتطوير وتقدم أهدافكم الإلهية – غايتك أنت في رؤية القدس وقد عادت إلى أيد مسيحية ، وغايته هو في الانتقام من أولئك الذين هزموا أباه وقتلوه» .

«أبوه؟»

«هولاكو خان . ليس هناك سر في أن مهمتك هنا ليست محصورة فقط في استعادة المدينة المقدسة ، بل أيضاً لتهزم شيطان مصر المدعو بيبرس . أباغا خان يتمنى ذلك بدوره ؛ لأن بيبرس هو الذي هزم جيش والده عند ينابيع جولياث ، والتي يسميها العرب عين جالوت ، ثم طارد والده حتى مات» .

«وهكذا فهو يرغب في المشاركة برحلة حجنا؟»

تحرك غاي بحيث أصبحت ساقاه ممدودتين إلى الأمام «يجب أن تفهم يا صاحب السمو ، بأن الخانات لا يمكن أن يشاركوا ، كما قلت . إنهم الخيرة المختارة في هذا العالم – يشيرون إلى الرب في لغتهم على أنه رب السماء – وهم يقيِّمون القوة على أنها فوق كل اعتبار . يعرف الخان أنك لا تقود عشرة من عدد الرجال الذين يركبون معه كل يوم ،

ولكنه قد سمع عن شجاعتك وجرأتك ، ويرغب في أن يجعل منك حليفاً - مع أنه سوف يتوقع منك جزية عند انتهاء الحملة» .

«جزية؟» نزلت يد دي كلير على سيفه «وتجرؤ على المطالبة بها؟»

أوقفه إدوارد بإشارة من يده «أخبرنا بالمزيد يا تويكنهام» .

«سيكون ذلك مبلغاً رمزياً يا مولاي . ومقابل تلك الكمية الهزيلة ، فإن جيش أباغا ونسله سوف يقفون مستعدين للدفاع عن المدينة المقدسة خلال لحظة طلب العون» .

التفت إلى دي كلير «أنا لست أمزح حينما أقول بأن الجيوش المغولية قادرة على الركوب بسرعة غير معروفة في بلادنا . بدون أي شيء أكثر من الدماء والحليب لإعطاء أبدانهم القوة ، يستطيع الجيش المغولي أن يقطع ألفي ميل في أسبوعين ، ينامون في السرج ، ثم يخوضون معركة في النهاية . إنني أحضك يا أميري ، على أن تقبل هذا العرض ، وأن تقاتل مع الخان لتحرر أرض السيد المسيح» .

«أنا أقول أن نقتله الآن على أساس أنه خائن ومنحرف» . قال فيتزهيو .

قال دي كلير «وانا أؤيد» .

قال غاي «سيكون ذلك في منتهى غياب الحكمة» . رفع يده ليريهم أنه لا يمسك بشيء في كفه ثم أدخل يده تحت سترته بكل بطء . خرجت اليد حاملة قطعة معدنية مستطيلة مسطحة مربوطة بخيط سميك حول رقبته . رفع القطعة أمامهم حتى يروها .

سأله إدوارد «ما هو ذلك المطبوع هناك؟»

قال غاري «رأس الذئب . هذه هي أوراق اعتمادي . إنها تعطى لكل قواد جيوش الخان . إذا أقدمتم على قتلي ، فإنكم تعتدون على

قدسية السفير وتصبحون بحالة حرب مع الخان» .

«كلام فارغ» قال دي كلير واشتدت قبضته على مقبض السيف .

قال دي تشونسي «ما يقوله صحيح . يستخدم المغول هذه الرقائق للتدليل على زعمائهم» .

أصر دي كلير «يحتمل أنه تمكن من قتل أحد قوادهم وسلبه» .

«يا أحمق ، هل يبدو لك وكأنه قادر على التغلب على قائد مغولي؟» هب فيه إدوارد محنقاً «لماذا قد يسمح أباغا هذا لنا باحتلال القدس اذا كانت قوته أعظم من قوتنا بهذه الدرجة؟»

قال غاي «لأن هذا هو أسلوب المغول . لقد علمت بأن هؤلاء الرجال لا يهتمون كثيراً بالمدن والقصور كما يفعل بقية الحكام . لقد علمهم خانهم الأول العظيم جنكيز أن هزيمة عدوهم في المعركة شيء أعظم وأصدق بكثير من إشغال النفس بحكم البلدات والمدن . حياتهم هي العيش في السهول» .

قال دي تشونسي «صحيح أيضاً أن المغول ليس لديهم أي اهتمام في حكم المدن التي يجتاحونها . إنهم يدمرون جميع من يقاومهم ثم يقبلون الجزية بكل بساطة . المجالس والنقابات لا تثير اهتمامهم» .

«تفرض قوانين الشعب على اباغا أن ينتقم من الرجل الذي قتل أباه - بيبرس» . قال غاي «أنت - إدوارد من بلانتا جينيه - قد أشهرت بأنك أيضاً ترغب في مقاتلة هذا الرجل . يعرض الخان عليك أن تضم قواتك إلى قواته وهكذا تخلصون هذه البلاد من عدوكم المشترك . وبعد ذلك ستعود جميع بلدان الشرق الأوسط إلى الأيدي المسيحية مرة أخرى ، وسوف تنسحب جيوش الخان إلى سهولها» .

قال إدوارد «أخبر خانك بأن لديه حلفاً» .

أباغا

السهل المنخفض بين نهري كوراس وآراس ، شمال بلاد فارس

ابدأ .

مع إطلاق الأمر ، همز فرسان الصف الأول مطاياهم بسرعة خبب ، بينما اطلقت المجانيق القاذفة من فوق رؤوسهم صخوراً كل واحدة منها بحجم حصان على البلدة . توقف القصف فجأة عندما وصل الخيالة إلى مسافة مئة الد من الأسوار ، فأطلقوا سهامهم من حيث جلسوا في سروجهم ثم انسحبوا . راقب وقادته عن ظهور خيلهم ، على مسافة أبعد من مدى المستوطنات وقلة من المدافعين وحتى خط دفاعهم الأقل ، فعالية من آليات الحصار .

الصف الثاني

رفرفت الرايات بقوة في مهب الريح . تحركت فصيلة أخرى من الجيش الرئيس قدماً ، وأتمت العملية بأسلوب مطابق كلياً للهجمة الأولى . بحلول هذا الوقت ، كان الصف الأول قد عاد إلى خلفية التشكيل ، ولم يبد عليهم من علائم الإجهاد أكثر من البخار الصادر عن خياشيم جيادهم وكناناتهم الفارغة من السهام .

ركب الضابط إلى صف الخان

«قدم تقريرك» .

«لا شيء ، مجرد مجموعة استكشاف ، وقعت نتيجة سرعة

تقدمنا . إنهم يتحصنون بالسور ، لكن سيحتاج الأمر إلى أقل من كتيبة لإزالتهم» .

«ماذا عن المدفعية؟»

نظر الضابط إلى البلدة خلفه هازئاً «لا يستحق الوضع . إنني أقدر وجود خمسين رجلاً على السور» .

ثم التفت «لماذا ندمر سوراً صالحاً؟»

«السكان؟»

«لقد مررنا بهم على المرتفع أثناء قدومنا . ليس هناك من أحد في المدينة سوى كلاب بيركة» .

تكلم أرغون «إنهم لا يصيبون أي شيء . نستطيع أن نستمر في الهجمات حتى يبقى عدد قليل جداً لدرجة أننا لن نخسر أحداً عندما نتسلق السور . بهذه الطريقة نحن لا نخسر شيئاً وتبقى المدينة سليمة» .

فكر قليلاً «لن نخسر شيئاً سوى الوقت . والوقت هو ما ستكلفنا إياه هذه الغارة» .

قال الضابط «سوف نهدم الأبنية ونسويها بالأرض خلال ساعة . لا تتركوا شيئاً واقفاً حولهم ، وقتها سنتمكن من ذبحهم بسرعة» .

بدأ الصف الثاني ينسحب في هذه الآونة ، تاركين بضعة مدافعين ملقين على أبراج السور ، لا يتحركون .

كان الرجال يتمتعون بروح معنوية عالية .

«ربما يكون من المستحسن أن نسمح لهم بتذوق القليل من الدماء» .

قال أرغون «أوافقك يا أبي . سوف أقود الهجوم بنفسي» .

نفض أباغا رأسه نفياً «ولكنني لا أريد أن أفقد أياً من الرجال على يد هؤلاء الرعاع . . .»

«بعض الرجال ، أو البلدة . . .» أغراهم الضابط . اسمه تايسون .

«إن البلدة تجلب لنا ضرائب النهر» قال أرغون معارضاً .

أحنى الضابط رأسه وحوَّل عينيه جانباً .

قال أباغا «كلا ، إن تايسون يختزل أحجيتنا بشكل جيد . هم لن يخرجوا ليقاتلوا ، سيكون ذلك في منتهى السهولة . إذا بقوا ، هناك احتمالية للانفراج - مهما كانت مستبعدة . الرجال المشرفون على الغرف سيمسكون بأي شيء لإطالة حياتهم في نهاية المطاف . هم يعترفون أيضاً أن إطالة وقت القتال هو شكل من أشكال النصر بالنسبة لهم ، لأنه يعني أن جميع الفرق المغيرة الأخرى سوف تتقدم وتحتل مناطق بينما نحن موجودون هنا ، نمارس معهم لعبة المسك والقذف» . سحب نفساً طويلاً من هواء الصباح القارس البرودة . «لن نقدم لهم هدفاً كبيراً لا يسعهم السهو عنه» تحرك في سرجه .

«خذ رجالك يا أرغون وتجول حول البلدة . خذ تايسون هذا معك . اعثر على مكان في الجهة الخلفية يمكنك اختراقه . إذا لم يكن هناك أكثر من خمسين منهم في هذه القرية ، وقتها لن تواجه صعوبة إذا لم يتمكنوا من الاختباء خلف السور . إذا كان ذلك مستحيلاً ، اسحب بعض هؤلاء الرجال إلى هنا» . أشار إلى المدافعين المتمترسين عند البوابة . «إلى المؤخرة وسوف نهاجمهم نحن بقوة كبيرة عندما نراهم ذاهبين . إذا كانوا يجدون صعوبة في ضرب هدف واحد الآن ، فسوف يجدون من المستحيل عليهم ضرب هدفين . اذهب» .

همز أرغون مطيته «نعم يا أبتاه» . تحرك معه بضعة رجال من

الصف الخلفي . أدى تايسون التحية أثناء مروره ثم ذهب ليلتحق .

جلس أباغا ساكناً في سرجه بينما ركبوا مبتعدين باتجاه الغرب ، تاركين الهضبة التي تمركز عليها الجيش الرئيس في جنوب البلدة ، واتجهوا نحو الحقول البعيدة . بقي أباغا حيث هو محاطاً بالرجال الأكبر سناً حوله ومن خلفه . قال «ابدأوا بتحريك الصف الثالث» .

قال أرغون أثناء ركوبهم عبر حقل غير محروث نحو ما ظهر وكأنه قد كان بستاناً فيما مضى «تايسون . . . أنت لم تخدم والدي لمدة طويلة» .

«كلا يا مولاي . لقد كنت ضمن التومين الذين أرسلهم الخان العظيم قبلاي لمساعدة والدك في السنة الماضية» .

طوّح أرغون بسيفه ليزيح بعض الأغصان الشبيهة بالدوالي «نعم ، أنت تحمل بعض مواصفات الجين في مظهرك» .

«لقد كانت والدتي من الجين» .

«وماذا عن والدك؟»

«لقد كان من الجاداران» .

تلفت أرغون لينظر إلى تايسون قبل أن يعاود الانحناء تحت عروق الدوالي الشائكة .

«إذاً أنت من الجاداران والجين . هل تحظى بشعبية بين الرجال؟»

احتفظ تايسون برأسه خفيضاً فوق رقبة الحصان . لم يكونوا يتحركون بسرعة ، ولكن الرجال خلفهما بدأوا يتذمرون من تلقي خدوش على وجناتهم ورقابهم من قبل أشواك غير مرئية . بغض النظر عمن نهب هذه الحديقة ، فقد أجاد عمله .

«لدي بعض الرجال الذين يعتقدون أنهم أعلى مرتبة مني ، لكن

توجد دوماً طرق لمعالجة مثل تلك المواقف» .

«هذا صحيح ، توجد . ينبغي عليك أن تشعر بالامتنان لأن المبجل جنكيز خان قد جعل ترقية الرجال بناءً على أحقيتهم ، بدلاً من خلفيتهم قاعدة للعمل بموجبها» .

«إنني أمتدح اسمه في كل يوم . ما كان شعبنا يستطيع أن يحكم العالم كما نفعل اليوم ،لولا عظمته وامتيازه» .

«شعبنا؟»

لاحظ تايسون بريق الغرور في عيني أرغون .

«نعم» قال نجل الخان «أنت واحد منا بالطبع . والرجل الذي يستطيع أن يقود برغم مثل هذا المولد المتدني بدرجة واضحة هو رجل صاحب مواهب» .

تقبل تايسون هذا المديح بانحناءة «أنت تشرفني يا مولاي» .

«والآن ، أيها الرجل صاحب المواهب ، ما الذي تعتقده بشأن خطة والدي للاستيلاء على هذه البلدة؟»

كانا يقتربان من حافة البستان في هذه اللحظة ، بعد أن قطعا كامل المسافة حول البلدة بدون أن تصادفهم أية مقاومة . لاشك في أن المدافعين يعانون من نقص في الرجال . باتت الزاوية الخلفية للأسوار بادية للعيان ، لا يتجاوز ارتفاعها الأقدام العشر في هذا القطاع ، ولم يكن هناك شخص واحد يمكن رؤيته على أي من برجي المراقبة المقامين من الخشب الخشن .

«أظن أن والدك مصيب» قال تايسون لدى توقفهما «لا تستحق هذه البلدة خسارة مقاتل واحد ، ولا حتى جهد التقاط الصخور التي سوف نستخدمها لتدمير البلدة» .

ضحك أرغون عند هذا القول .

«ولكن سيتحتم علينا إعادة بنائها لتجميع الضرائب النهرية» .

هزَّ أرغون رأسه موافقاً «صحيح»

«وهكذا نقسم قواتهم ثم نجهز على كل جزء لوحده» .

«أحسنت القول يا ابن الجاداران . هناك عدد كبير جداً من ضباطنا الشباب ممن لا يفهمون التخطيط الحربي» .

تنحنح تايسون قائلاً «لقد كان جدي قائداً في بلاط الإمبراطور» .

«هل قلت الإمبراطور؟»

«لقد خدم جدي الامبراطور شوان زونغ ولاحقاً ابنه . في يانجينغ ثم كايفينج» .

«فهمت» قال أرغون وصمت مع تعبير جدي لوهلة . «أين هي والدتك حالياً؟»

«إنها تعيش مع والدي على شكل محظيته . لم أشاهد أياً منهما منذ وقت طويل . لقد كبرا في السن» .

انصرف انتباه أرغون بسبب حركة ما تحت البرج الخشبي . كان هناك خفيران يتمشيان جيئة وذهاباً ، يحمل كل منهما قوسه على كتفه وقد غطى وجهه بلفحة . ظهر أنهما لوحدهما .

«نستطيع أن نقفز ونتسلق ذلك الجدار ، ألا نستطيع؟»

«مولاي؟»

«بدون سلالم؟»

عبس تايسون مدققاً النظر «بسهولة يا مولاي» .

«حسناً . لنقم بذلك» رفع أرغون ذراعه وأشار إلى الحارسين . همز حصانه بسرعة الطراد بدون أن يتكلم وتايسون يتبعه وبقية الرجال

الذين بلغ مجموعهم عشرين شخصاً .

بدأ المدافعان ، لدى رؤيتهما للمهاجمين خارجين من خط الأشجار ، في الإتيان بحركات محمومة لتهيئة قوسيهما ، ويصرخان على الشوارع تحتهما قائلين بوجود هجوم ثان وقد ابتدأ . لم تظهر أشكال أخرى بكل الأحوال ، وأطلق أرغون صرخة حماسية عندما أطلق أول المدافعين سهماً وأخطأ بدرجة سيئة . انتظر الثاني حتى وصل الخيالة إلى مدى فعال لقوسه وأطلق ، ذهب القوس إلى يسار كتف تايسون وهبط في الأرض خلفه .

ألقى كلاهما قوسيه وسحبا سيفين ، وهما مستمران في الزعيق من فوق كتفيهما طالبين شيئاً من المساعدة .

لدى وصول أرغون ورجاله إلى مسافة ثلاثين خطوة أو أكثر ، صوب أرغون قوسه وزأر «أطلقوا!»

أطلق جميع الفرسان سهامهم فسقط الرجلان الواقفان على السور إلى الخلف وعلى الأرض تحتهما ، وقد اخترق جسد كل منهما سهمان أو حتى ثلاثة . لدى وصوله إلى أسفل السور ، أوصل أرغون حصانه ليقف إلى جانب أخفض نقطة ثم وقف على ظهر الحيوان . كل ما احتاج إليه هو قفزة قصيرة ليمسك بالطرف الخارجي ثم رفع نفسه إلى فوق ، وهو يوزع نظراته في كل الاتجاهات ليتأكد من عدم وجود أي شخص آخر في الجانب المقابل .

الأبنية خلف السور متراصة مع وجود بضعة أزقة ضيقة في كل جانب ، تمنح قدراً قليلاً جداً من الرؤية لما يقع أمامها ، ولكن حتماً لم يكن هناك أي شخص آخر فيما عدا الرجلين الميتين على الشارع تحته .

صاح برجاله «هلموا بنا!»

ظهروا في اللحظة نفسها التي وطأت فيها قدماه المتراس ، حوالي عشرة مدافعين يرتدون ملابس الحارسين الأولين نفسها ، يركضون خارجين من الزقاقين وبدأوا يتخذون مواقع ووقفات الإطلاق . قفز أرغون إلى الأسفل ، لامس المتراس للحظة ، ثم وجد نفسه بينهم ، مشهراً سيفه وقاطعاً عليهم المدى الذي يمكنهم من إردائه بسهامهم .

أجفلوا وحاولوا أن يستخدموا أقواسهم مثل الهراوات ، لكن حتى الاثنين اللذين تمكنا من الوصول إلى قمة رأسه ، قفز قوساهما مرتدين عن الطاقية الجلدية السميكة التي يرتديها مربوطة بقوة تحت ذقنه بدون أن يتسببا له بأي أذى . أطاح بسيفه على الرجل الأول ففتح فيه جرحاً بليغاً ، ثم عاد ليطعن الثاني تحت إبطه . استدار إلى يساره ورأى رجلاً ثالثاً هاجماً عليه بخنجر طويل ، لكنه وقع بشكل مباغت إلى اليسار ، حيث طعنه تايسون بسيفه في خاصرته . سمح أرغون لنفسه بابتسامة قبل أن يعود إلى المواجهة . وقف الرجلان جنباً إلى جنب في هذه اللحظة وأخذا يدفعان الباقين خارج الفسحة الكائنة تحت المتراس وإلى الأزقة خلفهم . قفز المزيد من رجال أرغون عن السور الآن ، ولكن فيما عدا جندي واحد أو اثنين مترددين ، لم تحضر أية تعزيزات لنجدة المدافعين .

«إلى الأمام» صرخ أرغون وهو يطوح بسيفه باتجاه العدو الآخذ في التردد . «طاردوهم في الشوارع! عوداً إلى المكان الذي جاءوا منه!»

لم يكن الزقاق يتسع لأكثر من رجلين واقفين كتفاً لكتف ، وأخذ كل من أرغون وتايسون يهاجمان الرجلين اللذين يحاولان أن يحشراهما ، وقد حمستهما الريح من خلفهما ورائحة الدماء في منخريهما . ياردة ثم الأخرى ، وفي النهاية انهزم آخر الحراس وحاولوا

الفرار ركضاً . أطلق أرغون صرخة مجنونة وركض خلفهم . باتوا الآن في مكان مكشوف والشارع محصور ومحدد ، ولكنه أصبح جزءاً واضحاً من النتيجة النهائية الرئيسة .

استمر أرغون يركض في خط مستقيم ، موجهاً سيفه باتجاه الرجال اللاحقين عندما لا يستخدمه للتطويح بالأشكال المتراجعة أمامه .

قبل أن يدرك هو أو تايسون أنهما قد ركضا حتى بلغا الناحية الثانية من أسوار البلدة ، بحيث وصلا هذه المرة إلى ظهور المدافعين الذين يعانون من الضغط على الجهة المشرفة جنوباً .

عندما لم تعد هناك مسافة للركض أو التراجع ، استدار آخر المدافعين ورفعوا أيديهم ، بوجوه مستجدية ، لكن أرغون جرح أحدهم في ساقه غير المحمية بحيث انبثق الدم منها ، ثم وجه له طعنة أخرى عبر الصدر . أصبح بالإمكان سماع أصوات رجال والده وهم يهاجمون والسهام تجيء من فوق السور وتنزل على الشارع خلفه .

تناول أرغون قوسه من كتفه ووضع فيه سهماً . قام تايسون والرجال الآخرين بالعمل نفسه . صوبوا جميعاً على الرجال الواقفين على السور فوقهم ، والذين لم يلاحظ أحد منهم أنهم قد حوصروا .

«أطلقوا!» زأر أرغون فسقط قرابة عشرين من المدافعين ، بعضهم مباشرة من فوق السور نحو أقدام رجال أباغا تحتهم ، بينما سقط الآخرون إلى الخلف على الشارع أمام تايسون . عندما أدرك المدافعون الباقون فداحة الموقف ، استداروا وركعوا على ركبهم ، ألقوا بأسلحتهم وأخذوا يرجون الرحمة ، لكن أرغون رفع يده ليأمر بصلية أخرى . عندما أدرك بعض الرجال الواقفين على المتراس مصيرهم ، وقفوا ، بينما رفع آخرون أيديهم إلى السماء .

«لقد حظيت باستحقاق المجد» قال أباغا لابنه بعد انتهاء القتال.

كان يتفقد القتلى وإجراءات دفاعهم المؤقتة بعد أن فتح أرغون بوابة المدينة ليدخله. جاء شرف رفع راية النصر من نصيب تايسون.

رد عليه أرغون «لقد كانت عملية بسيطة. كان لديهم حراس في الموقع، ولكن لم تكن لديهم طريقة لإبلاغ الرجال المقاتلين في المقدمة عندما ظهرنا نحن».

«أمر معيب» بدا على باغا الحزن «عندما نفكر بأن هؤلاء هم رجال ابن عمنا بيركه».

«ماذا ستفعل يا ابتاه؟»

«سوف نبعث بمرسال ونخبره بأننا راغبون في التحدث»

«التحدث؟ بعد أن سقط رجاله اليوم بدون أدنى قتال؟ إنهم نساء أكثر من كونهم رجالاً من شعبنا».

نفض أباغا رأسه «لقد هزمنا اليوم حامية متروكة لتجمع الدوانيق من رجال المراكب، وليس جيش بيركه. **ذلك** هو ما يرافقه يا ولدي، وسيكون ذلك مكلفاً على التحطيم».

«الأمر معيب».

«بل هو صحيح» دخلت لكنة فولاذية في صوت أباغا «ما الذي تفضل أن تفعله؟ أن ننهب مدن الشرق الأوسط وننتقم لأنفسنا من جيش العبيد الذي هزم أخانا كتبغا؟ أم نتبادل رماية السهام في هذه البرية مع إخوتنا المغول؟»

«يا أبتاه، لقد أقسموا على الانتقام منا، لن يستريح بيركه وأولاده حتى ينتقموا لمدن المسلمين التي يحبونها كثيراً جداً. لقد نسوا حقيقة كونهم من المغول».

توقفا في وسط الشارعين الرئيسين للبلدة ، وأخذ فرسانهم يدخلون البيوت القريبة ويخرجون منها ، يبحثون عن أي شيء ثمين يحتمل أنه ترك خلف السكان .

مرَّ أحدهم حاملاً عقلة حديدية أخبر رفيقه أنها ستكون مفيدة لخلع خشبات الأرضيات .

وضع أباغا يديه على حقويه ، يتفحص المنظر العام «ليس هناك ما يمكن أن نفعله ونستفيد خلال شهر ، يا ولدي . سوف نحتاج إلى الوقت لتجميع قوانا وعبور النهر ثم نواجه بيركه . سوف تحتاج تومينات‌نا التي أرسلناها إلى الشرق والغرب لتطهير البلاد من متوحشيه إلى الوقت لتقاتلهم ثم تعود . إذا تم التحدث ، فهو يناسبنا لأننا سنصبح أقوى حتماً - وسيكون النصر أسرع وأسهل بسبب ذلك . ولكن يجب أن لا يغيب هدفنا الأسمى والأعظم عن ناظريك يا أرغون . إن المغول مقدر لهم أن يحكموا العالم ، وبالنسبة للوقت الحالي ، فإن هناك قسماً من هذا العالم مازال يتملص من سيطرة الخان العظيم . لقد حلت المسؤولية عن ذلك إلى والدنا هولاكو ، ومسؤوليتنا هي تصحيح ذلك الوضع . سوف نرتق خلافاتنا مع بيركه ، نوقف حرب اللصوصية هذه ، ثم ندير قواتنا على سلطان مصر وجيشه من العبيد . السماء تأمرنا بذلك» .

كرر أرغون «السماء تأمرنا بذلك يا أبتاه» انتظر للحظة ثم رفع رأسه «أبتاه ، هل لي أن أتقدم بطلب واحد؟»

«وهل سيكون هذا جائزتك على إحرازك النصر اليوم؟ اطلب ما تشاء وسمه» .

أشار أرغون إلى تايسون ، الواقف بين الضباط ذوي الرتب العالية ،

وهو أصغر رجل سناً في حلقتهم الشخصية .

«أود ان أطلب أن يسمح لتايسون الجاداران بأن ينضم إلى فرساني المرافقين . لقد أنقذ حياتي هذا اليوم» .

نظر أباغا إلى الشاب النحيل صاحب البشرة الباهتة . لم يكن يشبه أكثر من مراسل ، لكن وجهه كان ملطخاً بالدماء ، وسترته ملوثة وكأنه قد ذبح وعلاً لتوه . هز أرغون رأسه .

«فليكن» .

صفية

وجدته لوحده في المكتبة الكبرى ، واقفاً في الزاوية ، منكباً على قراءة مجلد ما من التاريخ المنسي ، وبادياً لكل الدنيا وكأنه ضائع هناك في بدنه وروحه . شعره طويل وغير مقصوص ، وعمامته معوجة ، مدفوعة إلى مؤخرة رأسه لتعطيه منظر قرعة أخرجت لتوها من عربة تبن .

سألت «هل اشتقت إليَّ يا عبد؟» بحيث أجفلته ليلتفت مذعوراً ، وقد انبهرت أنفاسه فجاءت في شهقات «هل أخفتك؟»

«صفية . ما الذي تفعلينه هنا؟»

«أنا أعرف كيف أدخل إلى بنايات القاهرة العظيمة بدون بذل مجهود يذكر» .

اكفهر وجهه وعاد إلى التحديق في الكتاب «أنا واثق من ذلك» .

خطت نحوه واضعة يدها على ذراعه ، بينما كانت لديه في السابق عضلات نمت وتطورت جراء الأيام الطوال في الركوب مع الفرسان ، فقد تحول الآن إلى مجرد جلد وعظام ، أنحف حتى مما كان عليه حينما كان الدارس نصف المتضور الذي عرفته في بغداد .

«هل أنت غاضب مني؟»

«الغضب عاطفة غير مجدية - إنها لا تجعل المقاتل يحارب بشكل أفضل ، ولا تساعد الفيلسوف على التحكم بعقله . لا تساعد التاجر

على البيع ، ولا الإمام في الصلاة . أنا لا أغضب» .

بات رأس عبد قريباً من كتابه إلى درجة أن أنفه كاد يدخل بين الصفحات .

«أنت لم تجبني . هل أنت غاضب مني؟»

أطلق تنهيدة عميقة ونظر إلى فوق باتجاه السقف ، وكأنه يقول «لماذا تزعجينني أثناء وجودي مع كتبي؟ أنا لست غاضباً منك يا صفية» .

«أمر طيب أن أسمعك تلفظ اسمي . هل أنت على ما يرام؟»
مدت يدها لتلمس ذراعه مرة أخرى ، لكنه انسحب بعيداً عنها .

«أنا في حالة سلام مع هذا المكان . ماذا يمكن للمرء أن يحتاج أكثر من هذا؟»

«أشياء كثيرة . بيت . أطفال» .

«وهل أنت تظنين أنني يمكن أن أحصل على بيت وأطفال من خلالك؟» جاء صوته محملاً بالمرارة . «أعرف ما أنت عليه الآن . لقد اتخذني الجميع وعاملوني كمغفل - كلكم فعلتم ذلك ، ولكنني أعرف الآن» .

اكتسب صوتها بعض الصلابة بدوره «ما الذي تعرفه؟ ما الذي تظن أنني أكونه؟»

«لا شيء . أنتم جميعاً على الشاكلة نفسها . تسبحون في الخطيئة والعنف . لا أريد المزيد من ذلك لنفسي . لقد اكتفيت» .

«ألم تعد كاتباً لدى بيبرس؟ منذ متى؟ إن الوقت منتصف النهار ، لم أنت لست في مكان عملك حالياً؟ إن سيدك هو السلطان ، أم أنك لم تكن تعرف؟»

صفق عبد الكتاب ليغلقه «هو السلطان لأنه قتل السلطان!»

«أبقِ صوتك خفيضاً!» تلفتت حواليها في المساحة الفسيحة المليئة بصفوف من خزائن الملفات، على ارتفاع ثلاثة طوابق، ورأت أنهما لوحدهما. «وهذه هي قوانين الرجال. هكذا كانت الأمور على الدوام».

«كلا لم تكن» حاول أن يبتعد عنها، لكنه لم يستطع أن يسحب نفسه عنها، وهكذا تردد ثم توقف «الوضع غير صحيح»، ليست هذه الطريقة التي ينبغي على قوانين الرجال أن تعمل بموجبها».

«أنا لا أفهم الأشياء التي تتكلم عنها يا عبد، أنت تضيع في أمكنة مثل هذه وتقرأ أشياء لن أعرفها أبداً ولو استمرت حياتي إلى آخر الزمن. لكنني أفهم العالم الذي نعيش فيه والعالم الذي اتخذت لنفسك مكاناً فيه. لقد جئت إلى هنا لأرحب بعودتك، ولكن بدلاً من ذلك أجدك وقد أضعفك منظر الدماء. هل كنت تفضل لو أن دماءك أنت هي التي سفكها المغول؟ مثلما سفكوا دماء كل من عرفناه في بغداد؟ لقد أبيدت عائلات بكاملها يا عبد، لكنك لم ترها لأنك كنت قد وجدت لنفسك ملاذاً مريحاً مع بيبرس. والآن تريد أن تهرب من ذلك لأن شيئاً لا توافق عليه قد حدث»

«لقد استدرجوه إلى حتفه بالحيلة! ولماذا لم يقم أمراؤه أو قائد الحرس بحمايته؟ ما الذي حدث لهم؟»

«لقد كان قائد الحرس فاسداً. لقد كان يبيع العبيد بدون أن يخبر جباة الضرائب لدى قطز ولذلك كان ضعيفاً. شقيقته هي احدى سيدات البلاط وقد أرسل له خبر من خلالها مفاده أنه ينبغي عليه أن لا يفعل أي شيء عندما يحين الوقت - هذا إذا كان يريد أن يحيا بعد ذلك اليوم».

«هل تم ترهيبه؟ ابتزازه؟ وماذا عن الآخرين - المعزي على سبيل المثال؟»

نفضت صفية كتفيها «الشيء نفسه. مع أنه انهار بطريقة أسهل بكثير. كان هناك عرض لا يمكن رفضه لجميع رجال قطز. بالنسبة لبعض الرجال هو الثراء، وبالنسبة للبعض الآخر، النساء. وهناك بعض الرجال يتحتم علينا إخافتهم».

اقترب منها وحدق في وجهها بحدة «كيف تعرفين كل هذه الحقائق؟»

«لقد كنت أنا التي ساعدت قلاوون على تحقيق كل شيء».

«ماذا عن بكتوت؟ الفتاة الجديدة التي أمضت الليلة في غرفته قبل أن يتم تسميمه؟»

ألقت صفية بعينيها إلى الأرض.

«هل وهبت نفسك له؟»

رفعت إليه عينين تقدحان شرراً «لقد أخذت له الموت! لأن الموت هو ما يستحقه، وكانت تلك أفضل طريقة لتنفيذ العملية. ما الذي تظنه؟ لو سمح لبكتوت أن يبقى على قيد الحياة لكان هاجم بيبرس وقلاوون وهاجمك في نهاية المطاف! هل تعتقد للحظة أنه كان سيبقي على حياتك؟ كلا! كان سيعرضك للتعذيب ليكتشف منك كل ما تعرفه. كانوا سيشقون أذنيك عن رأسك حتى تخبرهم عن مكان وجود آخر فلس! وبعد ذلك كان جسمك المجرد من الروح سيلقى به طعاماً للكلاب والطيور».

«أنت عاهرة!» صفعها بقوة على خدها، ولما رفعت عينيها نحوه بنظرة تحد، صفعها مرة أخرى. آلمها ذلك، وأدرك مدى ألمها، لكن

لحظة الرضى التي اجتاحته من صفعها سرعان ما حل الندم محلها. رفعت وجهها إليه بمنتهى البطء هذه المرة، واستمرت في كبريائها غير مهزومة ولا مذلولة. قاومته عندما لف ذراعه حول ظهرها وسحبها نحوه، تحرك وجهها إلى هذه الناحية وتلك بعيداً عن شفتيه، تصارع لتفلت من عناقه. لاقى صعوبة هائلة في الاحتفاظ بها بين ذراعيه بسبب حالته الواهنة، لكنها استسلمت في النهاية والتقت شفتاهما، بينما انساحت الدموع من عينيها لتنزلق على خديه، باردة.

«إنه يصارع ويعاني» قالت له وهما يعيدان ترتيب ثيابهما.

سألها «من هو الذي يصارع؟»

«بيبرس. هو لا يظهر أي شيء، لكنه ليس بحالة جيدة».

«هل رأيته أنت؟»

«كلا» توقفت عما تفعله «بل أخبرني قلاوون. قال لي إن بيبرس لا يستطيع أن ينسى ما فعله. إنه يعتقد بأنه ذاهب إلى جهنم».

«هل قابلت قلاوون قبل أن تأتيني؟»

«لقد ساعدني قلاوون قبل أن أتعرف عليك، وهو مازال يساعدني. ليس الأمر كما هو معك. إنه يمنحني النقود والحماية، وفي المقابل أقوم بمساعدته في مجابهة المخاطر التي تواجه الدولة».

«وهل هذا كل شيء؟»

«ذلك هو كل شيء. إننا نعتمد على بعضنا بعضاً. لكن هنالك العديد جداً من الآخرين في خدمته، وفي خدمة بيبرس».

«لقد قتلا قطز بدون أي رحمة. ضحيا به على مذبح».

«لقد كان يخطط لتدمير قوة الفرسان، وكان ينوي أن يرسل أفضل قادته إلى الجنوب حيث لا يكون نافعاً لأي أحد. ذلك أمر مخالف

للإسلام . أصبح إعدامه محتماً . لا يمكن السماح بمثل هذه الأفعال . لا ينبغي على بيبرس أن يشعر بالذنب ، لكنه يشعر به» .

«أنا أشعر بالذنب ، مع أنه لم يكن لي دور فيما حدث» .

«بل كان لك دور ، حتى لو كنت تعتقد في قرارة نفسك بأنه لم يكن لك دور . يجب أن تتراضى مع بيبرس» .

«لا أعتقد أن بوسعي عمل ذلك» .

«يجب عليك ذلك يا عبد . إذا لم تفعل ، وقتها يتحتم عليك أن تتوقع حدوث أسوأ مصير لك» . جاء صوتها بسيطاً عادياً ، حتى برغم تصميمها .

«وهل سيكون بدرجة سوء مصير قطز؟»

«بتلك الدرجة من السوء ، إن لم يكن أسوأ . أنت مساعد بيبرس الشخصي وقائد إحدى كتائبه الراقية . هذه ليست مهام بسيطة . أنت لست مجرد دارس يدون ملاحظاته . إن الرجال مستعدون لأن يقتلوا لمجرد معرفة ما تعرفه» .

«لكنني لا أعرف أي شيء» .

«لقد رأيت التنظيمات الداخلية لقوة الفرسان . لذلك الشيء قيمة بالنسبة لعدو مهم لا يمكنك حتى أن تتخيلها . ثم هناك الفرسان أنفسهم . ألا تعتقد أن صعودك من المجهول قبل مجرد سنة واحدة لم يخلق لك أعداء؟ إذا اعتقدت العكس فأنت غر بسيط . هناك العديد من الرجال في دائرة بيبرس الخاصة ممن يكرهونك» . أحاطته بذراعيها وجعلته ينظر في وجهها . «إذا أدرت ظهرك لبيبرس ، فإنك تفقد الحماية التي يمنحك إياها حالياً . بدون تلك الحماية ، فإن هؤلاء الرجال الذين دست على أصابع أقدامهم ، سوف يأتون في طلبك . في

الحقيقة ، سيفعلون بدون أي خوف ، لأنهم سيقولون إنهم كانوا فقط يدافعون عن شرف بيبرس ويعاقبونك على عدم احترامك له» .

«لم يحبني ألموت أبداً . حتى مهنا لا يحترمني» .

«حتى الأصدقاء الذين تعتز بهم - قلاوون وتيكا وأنصار - سوف يديرون ظهورهم لك ، لأن بيبرس هو قائدهم وهم لن يفعلوا أي شيء يقوم باتجاه مضاد له» .

أسدل عينيه إلى الأرض «لم أفكر في أي من هذا أبداً» .

أحاطت وجهه بيديها ، بشرتها ناعمة «أنت حزين ، وأنت لا تنتمي إلى هذا العالم الذي نعيش فيه . لقد عشت أنا فيه لمدة أطول منك . إن بيبرس حزين هو الآخر . فقد كان قطز صديقه لسنوات عديدة ، وموته يسبب لبيبرس المعاناة . يجب عليك أن تدعمه وتمنحه ما يحتاج إليه ، لأن الرجال الآخرين لا يستطيعون أن يفعلوا له أي شيء» .

هزَّ عبد رأسه وقد بدأ يخرج من عزلته وعذابه . سحب نفساً عميقاً «سأفعل ذلك . أنت على حق . إنه الرجل الوحيد القادر على إنقاذ الدولة حالياً» .

تقدم ليعانقها ، لكنها صدته قائلة «أريد شيئاً آخر حالياً» .

«نعم؟»

برقت السكين التي أخرجتها من المجهول تحت شموع المكتبة «إذا مددت يدك علي مطلقاً مرة أخرى بغضب يا عبد ، فإن كلماتك الأخيرة سوف تغرق وسط صوت خرير دمائك» .

عندما افترقا ، همست له أنها ستزوره في الليل ، فانصرف وقد تجددت معنوياته ورفع رأسه أعلى مما كان يرفعه لأيام طويلة . راقبته وهو

يتجه نحو المدخل الرئيس للمكتبة ، ثم استدارت واتخذت طريقها عبر المتاهة من الممرات والمداخل التي تصطف عليها رفوف الكتب ، صاعدة في درجات ملتفة نحو الطابق الثاني ثم عبر مكاتب المدير الفارغة . هناك ولدى وصولها إلى رف الكتب الخلفي ، ضغطت على بلاطة جدارية منقوش عليها نموذج زهور غريبة أشبه بشبكة العنكبوت ، فانتفض رف المكتبة خارجاً من الجدار وكأنه مركب على زمبرك . الممر خلفه يتسع لشخص نحيل الجسم فقط ، لذلك لم تجد صفية صعوبة في الولوج واتخاذ طريقها إلى الداخل ، ألفت نفسها في ظلام دامس بعد أن أغلقت رف الكتب خلفها ، إلى نهاية الممر . مدت يديها أمامها فعثرت على باب تحسسته حتى عثرت على المقبض . أدارته ، فانفتح الباب لتجد نفسها في نفق آخر مظلم ، أخذها هذا إلى حيث بدأت تسمع أصوات الشارع فوقها . رفعت شالها فوق رأسها ثم صعدت الدرجات المؤدية إلى الضوء المسائي . خرجت بدون أن يلاحظها أحد إلى الشارع المزدحم لتختفي وسط تيار جارف من العربات والجمال والناس والبسطات .

بمجرد وصولها إلى القلعة ، أتمت عملية مشابهة ولكن بطريقة معاكسة هذه المرة ، بحيث نزلت في مدخل أشبه بممر معلق في جانب المبنى المجمع ، حيث أشار لها حارسان خافران بالدخول فوراً بمجرد رؤية وجهها . انفتح الباب الواطئ هناك على ممر طويل جداً ، يؤدي انحناؤه بداية نزولاً ثم صعوداً لفترة طويلة . أدركت صفية أنها إنما تسير تحت الجسم الكامل لديوان البلاط والقوات المسلحة للدولة ، ناهيك عن الخليفة المعين حديثاً - تحت قصور ومساجد وثكنات ، إلى قلب مملكة السلطان نفسها . عندما ذكرت هذا الخطأ الواضح في تصميم القلعة

لقلاوون ، اكتفى بأن ابتسم وهزَّ رأسه .

«لا تجعلي تلك المشاعل الجميلة التي تضيء طريقك بالكامل نزولاً إلى هناك تخدعك . كل ما يحتاجه الأمر هو سحبة من رافعة وسوف يغرق الممر بكامله بالمياه المحولة من نهر النيل . إنه معجزة هندسية مزدوجة . بداية في بناء الطول الهائل للممر ، ثم إضافة تلك القوة المائية القادرة على تدميره» .

انتابها شعور بالانحباس أثناء مشيها وسط ذلك السكون المطبق . استمر دبيب خفيض في النبض داخل أذنيها حتى إنها تساءلت عما إذا كان مصدر الصوت هو المياه الموجودة خلف الجدار ، المنتظرة لتنفجر وتسحبها لتغرقها . كم من الوقت يمكن للمرء أن يصمد في مثل ذلك الطوفان؟ دقيقة؟ اثنتان؟ قررت أنه وقت لا يحتسب أبداً ، لأن قوة ذلك المقدار من المياه قادرة على كسرها إلى نصفين .

وصلت إلى الباب الجانبي مع شعور بالانفراج ودخلت إلى الغرفة الأخيرة قبل وجهتها . حياها الحارس الواقف هناك بإيماءة من رأسه ونقر على الباب خلفه ثلاث مرات .

وصلها صوت تمتمة داخل الغرفة ثم ساد الهدوء قبل أن ينفتح الباب ويقف خلفه قلاوون ، وقد زحف النور الخافت من غرفته نحو ظلام الغرفة الأمامية البارد .

قال لها «ادخلي» .

بات من المستحيل تجاهل التغير الذي طرأ على قلاوون . فهو في نهاية المطاف الوزير الأكبر للخلافة حالياً ، والأمير الرئيس بكل استحقاق . لقد ظل على الدوام يشع بهالة من النبالة والهيبة المستقاة من السلطة ، وها هو الآن يرتعش بقوة السلطة التي يستمدها من دوره الجديد .

«هل قابلت عبد؟»

دخلت واتكأت إلى طاولة جانبية مركونة عند الجدار «لقد قابلته» .

«وهل سيقوم بعمل ما ينبغي عمله؟»

«ذلك هو ما قاله . أنا لا يمكنني أن أشرب الماء عوضاً عنه - أستطيع فقط أن أشير له إلى النبع المتدفق» .

نظر قلاوون إلى كومة سجلات الحسابات على الطاولة خلفه . هناك خريطة هائلة معلقة على الحائط خلفها ، ومدينة القاهرة في وسطها . «إن النبع يتدفق فعلاً ، لكن ما يؤسف له أن جبايتنا مثقوبة أكثر من منخل . هناك الكثير مما يجب عمله» .

«وعبد قادر على أن يكون مفيداً» .

نظر إليها «أعرف أنه قادر ، ولكن يبدو لي أنه فقد رغبته في العمل الذي نقوم به . لقد كنت قلقاً من مثل هذا الضعف لديه عندما جئت به إلى بيبرس في دمشق ، لكن بيبرس أعجب وتأثر به . فكر بطريقته الخاصة أن المزيد من المسؤوليات ستجعل من عبد شخصية مؤثرة» .

«لقد كان الأمر كذلك ، لكن موت السلطان السابق أرعبه . هناك الكثير من الأمور التي ترعبه» .

«هو ليس مقاتلاً» .

«كلا . لكنه ليس جباناً أيضاً» . نهضت واقفة «هل تقول لي إن بيبرس يعاني من الوضع الجديد؟»

«نعم ، ولكنه سيعود إلينا . هو ليس مثل عبد» .

«لأ؟ أين هو السلطان بيبرس الآن؟»

تصالب فم قلاوون ليصبح خطاً ، وحدق فيها غاضباً ، ثم قال في

النهاية «لدي تحدٍ جديد لك» .

«لقد أنهيتَ لتوي واحداً من تحدياتك» .

«هذا لا يمكن تأجيله أو جعله ينتظر . لقد دأبت العصافير على إخباري الكثير من القصص» .

«وماذا تخبرك القصص؟»

«إنها تجلب لي رسائل من فلسطين - ومن بلاد فارس» .

«ومن سورية والجزيرة والأناضول . ذلك هو ما تفعله العصافير» .

«لهذه القصص دلالات مهمة . لقد رسا ابن ملك إنجلترا في عكا بصحبة ألف رجل» .

«وماذا يشكل ألف رجل؟ هناك عدد أكبر من الرجال يحرسون بابك في الخارج» .

«لقد تمكن آخر أمير من إنجلترا أرسى سفينته في عكا من مقاتلة صلاح الدين حتى الجمود . لقد انضمت إليه قبرص مسبقاً» .

«إن ملك قبرص رجل سكير . لقد رأيته بنفسي . هناك رجولة أكثر منه في بنصر بيبرس . إذا كان يمتلك من القوة ما يجعله يرسو على شواطئ فلسطين فسوف تتم إبادته» .

«لن تحصل إبادته إذا استطاع أن يجتذب الرهبنات وآخر قوات المملكة اللاتينية القديمة ويجمعها إلى بعضها . هذا الأمير إدوارد قادر على إنجاز ذلك» .

أطرقت صفية مفكرة ثم نفضت رأسها «كلا ، إلا إذا كان هذا الأمير قد أحضر خمسين ألف رجل على ظهور الخيول» .

«وماذا إذا قلت لك إنه قادر على حشد جيش قوامه ضعفا هذا العدد؟»

زمت صفية عينيها عند هذا القول وأدارت رأسها قليلاً «كيف؟»

«لقد وصل آخر العصافير هذا الصباح مع رسالة تخبرني أن ممثلاً عن أباغا خان، ابن هولاكو، موجود في عكا هذه اللحظة ويعمل على بناء تحالف مع الفرنجة».

«ألم تخبرني أنت أن أباغا هذا منغمس في مقاتلة اعتداء أبناء شعبه أنفسهم عليه من الجنوب؟»

«ذلك هو مضمون الرسالة التي بعث بها إليّ العصفور القادم من بلاد فارس. لقد تم التوسط في تلك الحرب من قبل الخان العظيم في الشرق. لقد صدر إليهم الأمر بالتوقف عن التقاتل فيما بينهم. يمتلك أباغا الآن اليد المطلقة في الركوب إلى الجنوب».

«والانتقام لنفسه من بيبرس...» أطرقت صفية غارقة في التفكير، وعقلها يحلل تبعات الخبر. «ليس هناك شخص باقٍ بعد الانتهاء من قطز».

«حتى ذلك لن يؤثر. إنه ينوي أن يدمر القاهرة كما فعل مع بغداد. آخر معاقل القوة للإسلام. إن الفرنجة قد بدأوا سلفاً يضغطون على حدود الأندلس، وقد عاد إدوارد لتوه من حرب فاز فيها ضد تونس. سيضطر أميرها الآن إلى دفع الجزية للفرنجة الذين يسيطرون على صقلية».

قالت «لقد بدأت مرة أخرى»

قال قلاوون «هي لم تتوقف مطلقاً». جاء صوته حزيناً للمرة الأولى «نحن في حالة تراجع في كل مكان. كل ما يحتاجه الفرنجة هو تأمين دعم المغول لهم وبعدها سيركبون خارجين من حصونهم وقلاعهم لنشر الدمار على كامل أرض فلسطين مرة أخرى».

وقفت أمامه منتصبة القامة، مواجهة «ما هو العمل الذي تريدني أن أنجزه؟»

«أريد منك أن تغادري القاهرة هذه الليلة وأن تتسللي إلى عكا بأي طريقة تقدرين عليها. لن تقف أمامنا أية عوائق عندما نمتلك المعرفة عن عدونا. سيكون حضورك وموقفك ذا قيمة لا تقدر بثمن. لقد رتبت أمر وجود مرافق معك».

«كلا» أدارت رأسها ببطء «بدون مرافق. وسوف أغادر في الصباح. ليس الليلة. إنني مدينة لعبد في معرفة كيف ستتم مقابلة عبد مع السلطان. السلطان بيبرس. مازال الأمر غريباً على اللفظ».

ابتسم «لن يبدو على تلك الدرجة من الغرابة بعد أن يدمي جيشه الملكي في معركتهم الأولى».

امتدت يده نحوها بحافظة جلدية «إليك - بعض المال، وتصاريح مرور للطرق الملكية. سوف تصطحبين مرافقاً. لا يصح أن تسافر المرأة بدون خدم، وهكذا فهم سيحملون الأسلحة بطرق مخفية. هل توافقين؟»

«أوافق» قالت «أنت حتماً تعرف أنه ليس بيدي الكثير لأمنع جحفلاً كاملاً نازلاً من الشمال مرة أخرى، صح؟ لم يكن هناك شيء أستطيع أن أفعله في بغداد في نهاية المطاف».

«نعم، ولكننا لم نكن نحكم بغداد في حينها. سوف تساعدنا المعرفة التي ستجمعينها في عكا أكثر مما تساعدنا فرقة من العسكر، تذكري ذلك».

«سوف أغادر بمجرد أن أقابل عبد»

هزَّ رأسه موافقاً «فلندعُ الله أنه قد نجح هو الآخر».

عبد

اختفت طوابير حاملي الاستدعاءات الواقفين خارج مكاتب الوزير الأكبر قلاوون ، حيث تم اقتياده إلى قاعة عرش السلطان من قبل حارس ملكي ، أمره أن ينتظر . لاحظ عبد أن الأشخاص الوحيدين الموجودين في هذا الممر الطويل هم من رجال حرس بيبرس الشركسي وحرس شرف من عشيرة مهنا البدو .

المكان هادئ وساكن - وقف الرجال يحدقون أمامهم في الجدار المقابل بدون أن ترمش أعينهم ، وكأنهم قد جرى تجميدهم من قبل الأنماط المحفورة في الحجر والرخام هناك .

لم يكن هناك أي رجال قصر ولا موظفين ولا حتى صغار النبلاء الأغنياء الذين يمارسون كسلهم طيلة العام حول محيط حاشية السلطان . نقل عبد ثقله من قدم إلى الأخرى وتمشى .

البساط الطويل الممتد تحت قدميه مثبت في مكانه بمسامير ذهبية معقوفة ، وأحسَّ بفخامته تحت قدميه المحشورتين في حذائه ، يكاد يشعر أنه يغطس إبهام قدمه في ثلوج ممر معزول غير مطروق في أحد الجبال . عاد عقله إلى المرة الأولى التي شاهد فيها الثلج في بغداد وهو بعد صبي صغير . سقطت ندفة واحدة أولاً ثم اثنتان ، أشبه بحبوب القمح ، حطت الأولى على خده والتالية في وسط كفه . كان منهمكاً في اللعب مع الصبية الآخرين ، ثم رفعوا أعينهم إلى السماء ، حيث

انهمر تساقط الثلج ، مثل بتلات بيضاء تسقط من شجرة الماچنوليا التي زرعها معلمه في الحديقة . أثناء تحديقه في الطوفان الأزرق الرمادي الهائل ، كاد أن يقسم بأنه رأى شطحات بلون زهري أشبه بالنبتة .

توقف الجميع عما يفعلونه كلياً ورفعوا وجوههم ليراقبوا الغيوم الباردة المتقطعة التي تعلقت فوق المدينة ، وكان الصبية قد أفلحوا في جمع بعض الثلج طيلة الساعة أو ما يقاربها التي استمر فيها الهطول ، يتراكضون ويحاولون أن يجمعوا ما يكفي من المادة حسب قدراتهم ، وكل ذلك ضمن اعتقاد خاطئ منهم بأنه سيبقى كما هو وأنهم سيتمكنون من أخذه إلى بيوتهم .

المرة التالية التي شاهد فيها الثلج هي عندما ركب مع تيكا وأنصار على رأس كتائب المدفع ، فوق جبال جزريل وعبر الأودية خلفه لاصطياد القافلة التي تضم العربتين حاملتي الذهب . انتابه إحساس غريب حين فكر مستذكراً مشاعره بالقناعة والرضى في ذلك الحين ، ليتحول كل شيء إلى الظلمة بعد عودتهم بالذهب .

سحابات مقطعة عابسة خارجة من سماء بيضاء نقية . فهل السبب هو أن المغول قد سكبوا على المسكوكات والقطع النقدية لعنة من نوع ما؟ وهل يقف الآن أحد آلهتهم القديمة آتياً من وطنهم المتوحش فوق الذهب كما تقف الوحوش فوق كاتدرائيات الفرنجة؟

هل هذا هو ما حدث لهم الآن حتى انقسموا وسكنهم الإحساس بالذنب؟ واضح أن قلاوون يتجنبه ، يقابل أعداداً غفيرة من ذوي المطالب والنبلاء والشيوخ والأمراء ، بينما اختفى بيبرس كلياً ، ومازال الموت على رأس الجيش الملكي ، والذي يعتقد الآن أنه موجود في

مكان ما في صحراء سيناء . وقد عجز كل من تيكا وأنصار عن أن يقدموا له العون .

أصبحت صفية مجهولة بالنسبة له ، فكلما زادت اكتشافاته منها ، زاد يقينه وفهمه لهذه الحقيقة ، وهاجمته مثل نصل ينغرز في ذهنه كلما فكر فيها .

في النهاية ، انفتح الباب الهائل لقاعة العرش وخاطبه رجل أصلع لم يكن قد رآه من قبل :

«أيها المساعد عبد ، عليك أن تتبعني» .

أمسك الخصي الباب ليبقيه مفتوحاً له أثناء مروره نحو القاعة الفارغة ، ولم تخف على ملاحظة عبد النقوش المطرزة ولا القماش الذي يتكون منه ردن موظف القصر . أدرك عبد وجود نفوذ قوي في القدرة على ارتداء ملابس بهذه الدرجة من الفخامة ، أثواب زاهية إلى درجة أنها تتلألأ ، لكنه عرف أيضاً أنه منذ قدوم قطز إلى السلطة ، فقد عمل على الحد من نفوذ هذه المخلوقات ذات المظهر العجيب في الجيش والبلاط على السواء . افترض عبد أن هذه ستكون هي الوضعية في عهد بيبرس أيضاً ، ولكنه لم يعد متأكداً ذلك خاصة وأنه يتم اصطحابه إلى بيبرس تحت رعاية إحدى هذه العينات . لم يستخدم بيبرس في الماضي سوى ضباط من الفرسان كمساعدين له . تساءل عبد مستغرباً ، ما الذي حدث؟

نظر إلى كرسي العرش الفارغ «هل السلطان موجود في جناحه الخاص؟»

قهقهه الخصي قائلاً «شيء من هذا القبيل» وجاء صوته عالياً وسخيفاً برنته السخيفة . استمرا عبر مقدمة منطقة الاستقبال ، حيث

توقف الخصي لينحني أمام منصة العرش ، قبل أن يخرجا من القاعة عبر باب جانبي خلف رواق الأعمدة التابعة للجدار الخلفي . جاء طراز الممر الخلفي على نمط القاعة الرئيسة نفسها ، بحيث طليت الجدران ذات الألواح بلون أحمر عنبري داكن ، مع بلاطات أرضية من فسيفساء الرخام الأبيض وبساط سميك آخر يمتد إلى ما بدا وكأنه طول الممر بكامله .

مشيا في صمت ، وعبد غير راغب في إعطاء موظف القصر فرصة أخرى ليضحك عليه ، ولا يعرف في أبكر مما يستحب إلى أين هما ذاهبان تحديداً .

فكر لنفسه «سيكون هناك وقت كافٍ لكل ذلك» .

فيما يخص الخصي ، فقد بدا وكأنه تائه في عالم من صنعه هو أثناء سيرهما سوية ، حيث تجمدت عيناه إلى ما يقارب عدم الإبصار ، والتوى وجهه في ابتسامة فجة غريبة .

لاحظ عبد أنهما قد عبرا أبواباً مغلقة وحتى ممرات متقاطعة أثناء سيرهما ، لكن الخصي ، لم ينظر إلى أي منهما واستمرا في السير ، بخطواته القصيرة التي تصفع البلاطات بكل خطوة يخطوها ، بلاطات الأرضية بالشبشب الملوي إلى أعلى الذي ينتعله ، مصدراً صوتاً سرعان ما اكتشف عبد أنه يكرهه .

فوجئ بأن القلعة يمكن أن تحتوي على ممرات بهذا القدر من الطول ، لكنه بات على ثقة من عدم معرفته بالكثير من تفاصيل مثل هذه الأمكنة . يحتمل أن الخصي يعرف عن إدارة شؤون أي قصر أكثر مما سيعرفه هو على الإطلاق ، وبات عبد سعيداً بهذا الاحتمال .

وصلا في النهاية إلى باب خشبي بسيط آخر ، لوحاته محفورة

بخطوط ملتوية ، وأخرج الخصي مفتاحاً كبيراً استخدمه لفتح القفل . فوجئ عبد الذي كان يتوقع أن ينفتح الباب على جناح أو غرفة مريحة ، ليجد أن الباب يؤدي مباشرة إلى ساحة معتمة وتبدو كأنها فارغة . شعر عبد بالرطوبة تشع من الرايات غير المزوقة والجدران الحجرية . أشار إليه الخصي بأن يتابع المسير ، لكن عبد توقف متردداً .

«هل السلطان موجود في الخارج هنا؟»

«ذلك صحيح ، لقد قلت بأنك قادم إلى هنا لتقابله ، أليست تلك هي طبيعة غايتك؟» لاحظ عبد أن الرجل - إذا كان ينبغي أن يسميه رجلاً - ليست لديه أي حواجب ، وأن الطريقة الوحيدة لمعرفة ما إذا كان متفاجئاً أو مذعوراً هي الزيادة في طيات الجلد فوق جبينه .

«إنني أرغب في رؤية السلطان ، فأنا مساعده وكاتب سيرته الشخصية ، بالإضافة إلى أنني قائد كتيبة المدفع التي امتازت في حملة هولاكو والمعركة التي أنهت ذلك الغزو . أين هو؟» شعر بحماقة الكلمات وهي تغادر فمه ، لكنه بات مصمماً على الاستمرار في مكانه .

تبين أن الخصي أقصر قامة من عبد ، لكنه رفع ذقنه لمقابلة عيني عبد «إنني سكرتير القصر ورئيس حرم السلطان» لانت ملامحه لتشكل ابتسامة وجدها عبد مزعجة . «إنني قد فوجئت لأننا لم نتعارف ، رغم أنني رأيتك في احتفال التتويج حينما أعاد جلالة السلطان بيبرس تعيين الخليفة . أنا حارس الأسرار الطواشي» .

«أنت حارس الأسرار؟ وهل اسمك أحد الأسرار أيضاً؟» قال عبد وقد جاء تعبيره ساخراً .

«إنه اسم كبرت وتعودت عليه ، وهو اسم أتعامل معه بمنتهى الجدية» .

«حسناً إذاً يا حارس -» أصبح الموقف سخيفاً إلى درجة أن عبد أخذ يشعر بنوع من السخافة بنفسه «هل ستفصح عن السر الذي يتعلق بمكان وجود السلطان؟»

«سأفعل أيها المساعد عبد ، على شرط أن نفهم من هو الذي يجيء مركزه في الدائرة الأولى حالياً» .

«الدائرة الأولى؟»

للمرة الأولى في حياته ، وفيما عدا بعض لحظات الخطر الماحق ، تولد لدى عبد الميل إلى استخدام السيف والخنجر اللذين يحملهما على وسطه . فقد استمر تدريبه مع الفرسان وبات على ثقة من أن حتى مهاراته الغرة قادرة على هزيمة أي شيء سيتمكن الخصي من استخدامه في الدفاع عن نفسه . باتت الفكرة مغرية ، لكنه سمح لغرائز أخرى أكثر هدوءاً وأقل إرضاءً له أن تتولى زمام الموقف .

قال «ليست بي رغبة أو اهتمام في مراتب وأدبيات البلاط . إن اهتمامي مقتصر على بيبرس ، وسوف أقابله الآن . بعكس ذلك ، فسوف تتعامل أنت مع أسئلته حينما يصله الخبر بأنك سددت طريقي» .

حدق فيه الحارس الخصي لوهلة ، لكن عبد أجبر نفسه على عدم التراجع أو التردد تحت تحديق العينين الأرجوانيتي اللون الغريبتين ، ثم أشار حارس إلى نهاية الساحة التي يقفان فيها قائلاً «من هنا» .

أصبحا الآن في الخارج ، ورغم أن عبد لم يكن يعرف تفاصيل تصميم قلعة الجبل ، إلا أنه أدرك أنهما قريبان من المشاغل والإسطبلات ، أصبحا على مسافة بعيدة من الواجهات الفخمة للقصر والقاعات الفسيحة والمساجد التي تشكل أهم عناصر المجمع .

استمرا في السير، مارين بالعربات المحطمة وسط أعمال التصليح وأكوام الحطام التي لا تختلف عن ساحة خردة بأي شكل. تخافتت أنوار مشاعل القصر ولم يكن أي منهما يحمل شعلة. سمع عبد أصوات الطرق المعدني والصفير يعلوان على صوت هدير منخفض بعد الزاوية. ذهبت يده إلى مقبض سيفه بطريقة عفوية، والأخرى إلى الخنجر.

رآه حارس فأطلق ابتسامته العجيبة.

«إنه مكان موحش في الخارج هنا أيها المساعد عبد، أليس كذلك؟ ولكن لا تخف. إن الجدران عالية ولدينا كلاب لتبقي كل المتسللين خارجاً».

انحبست أنفاس عبد. فقد أحسَّ بأنه في المكان الخطأ. «إلى أين نحن ذاهبان يا حارس؟»

ابتسم حارس «لم يعد المكان بعيداً الآن».

وصلا إلى زاوية جدار القلعة الخارجي ودارا حولها، هاجمهما شلال من النور قوي إلى درجة أعمت عبد للحظة، بحيث اضطرته إلى الإشاحة برأسه جانباً، وعندما استعاد القدرة على الإبصار وأعاد النظر أمامه، شاهد محددة كاملة في أوج عملها، ممتلئة بالعمال والمتدربين.

لقد شكلت مطارقهم وهدير الكير الذي يوقد النيران الضوضاء التي سمعاها قبل قليل.

وصل ضجيج عمل الحدادين إلى درجة رهيبة، بسبب عدم وجود ستارة لتخفف من غلوائه.

قال حارس «نحن في مشاغل القلعة» وجاء صوته جذلان مرحاً. على الرغم من التناقض الكامل لمظهره مع هذا المكان القذر حدّ

السواد ، لاحظ عبد أن الخصي لم يظهر أي رد فعل من الانزعاج ، في الواقع ، ولو لم يكن عبد يعرف الحقيقة ، لكان أقسم يميناً على أن رئيس الحريم موجود في مكانه الاعتيادي .

«تعال» قال حارس واضطر عبد إلى ابتلاع شعوره بالضيق قبل أن يجبر نفسه على متابعته . قاده الخصي إلى وسط أرضية المشغل ، بين السندانات والأكيار السوداء الضخمة نفسها ، بينما تنفث مداخنها البخار والأدخنة ، ماراً بأكوام من الأسلحة في كل مكان متاح ، حتى أوصله إلى فجوات تحت سقف خفيض . أجفل عبد من ظهور متدرب يحمل حزمة من السيوف غير الحادة أخرجت لتوها من صواني التبريد ، فقفز إلى الخلف ، ما جعل حارس يصرخ هلعاً ويطلق المتدرب شتيمة .

«ألم أقل لك من قبل إنه لا ينبغي عليك أن تدخل في ورشة حدادة إلا إذا كنت تعي ما تفعله؟»

بحث عبد عن صاحب الصوت وعثر عليه في الزاوية الأشد إعتاماً ، منحنياً فوق سندان واطئ ، يسن حد سلاح بالمبرد . حتى ظهره المفصل بالعضلات البارزة والمليء بالندوب والجروح القديمة ، كان سهلاً على التمييز فوراً .

«أما أنا فقد اكتشفت أنه من الأسهل أن تعرف ما تفعله حينما تعرف إلى أين أنت ذاهب» . أجابه عبد ، قبل أن يضيف «يا صاحب الجلالة» .

استدار بيبرس وهو يحمل بين يديه بلطة حربية صغيرة «لا تنادني بذلك الاسم» .

كان يرتدي الملابس نفسها التي ارتداها في المرة الأولى التي قابله

فيها عبد : مريلة جلدية سميكة سوداء مليئة بالسخام فوق صدره العاري ، وقد امتلأت مقدمة جسمه بندوب الحروب نفسها مثل ظهره تماماً ، حتى العضلات التي تتماوج مع تعرقه نتيجة العمل وحرارة الكير .

تحامل عبد على نفسه في هذه اللحظة وشد قامته «يبدو وكأنني أتذكر أنك سألتني أيضاً حول من كنت في تلك المرة الأخيرة ، فهل نسيت من أنت يا صاحب الجلالة؟»

كان المتدرب قد حمل سيوفه وانصرف لعمله ، لكن حارس بقي واقفاً ، فانتفض فزعاً غاضباً لدى سماعه كلمات عبد .

قال «كيف تجرؤ!» وهمَّ بالتحرك باتجاه عبد ، الذي جاء رد فعله مزيجاً من السخرية والتندر .

قال بيبرس «ذلك هو كل شيء بالنسبة لك . أشكرك» .

«ولكن يا مولاي!» قال الخصي ، وهو مازال ثائراً .

كرر بيبرس القول «أشكرك» بلهجة لم تخل من الأناة .

ألقى حارس بنظرة مغادرة محملة بالسموم باتجاه عبد ثم انطلق مسرعاً . راقبه عبد أثناء انصرافه ثم استدار :

«مثل هذه الإضافات التي لا بد من قدومها مع امتلاك التاج» . قال عبد بلهجة مرحة «لا بد وأنها مباركة جداً»

طرق بيبرس بأصابعه على نصل البلطة «لقد سمعت أنك كنت تعاني من هبوط في معنوياتك . والآن أرى أن معنوياتك أشد هبوطاً مما قالوا لي ؛ لأن الواضح أنك نسيت موضوع سلامتك الشخصية» .

اقترب عبد خطوة ثم خلع عمامته ورفع ذقنه ليكشف عن رقبته «هل ستقتلني أنا أيضاً مثلما قتلت قطز؟»

لم يكن هناك أي شخص آخر قريباً منهما قادراً على سماع كلمات عبد فوق هدير الكير، الأمر الذي جاء لمصلحته، لأنه لو نطق بمثل هذا التحدي أمام حراس بيبرس وقادته، لتبع الموت عبارته حيث يقف. رغم ذلك، كان بمقدور بيبرس أن يصرعه حيث يقف وما كان سيقال أي كلام في المسألة. أدرك عبد كل هذا، لكنه لم يأبه.

منحه هذا الكلام إحساساً بسمو المعنويات.

حدق بيبرس في وجهه بقوة لوقت طويل، ثم أدار له ظهره وبدأ يسنن نصل البلطة.

اقترب عبد لمسافة تمكنه من سماع أي شيء لدى بيبرس ليقوله، لكنه لم ينطق بكلمة.

لم يستطع أن يجبر نفسه على الإشفاق على بيبرس. فعلى الرغم من عمق الإحساس الإنساني لدى أمير الحرب، بات ذلك مستحيلاً. لكن رؤيته هناك، وحيداً، يعمل على تلك الفأس القديمة حرك في داخل عبد مشاعر شتى، فتنحنح:

«لقد قالوا لي إنك أيضاً تعاني من هبوط في المعنويات. هل هذا صحيح؟»

«من الذي أخبرك بذلك؟» لم يرفع بيبرس رأسه.

«ليس هناك أمر سري في البلاط». قال عبد «باستثناء ربما السبب الذي يجعلك تحتفظ بشيء مثل حارس قريباً منك».

«إن حارس يحتفظ بعدد من الأسرار حول هذا القصر وبلاط السلطان بقدر ما يعرف قلاوون أسراراً عن أعدائنا في عكا والأناضول».

توقف بيبرس، غيَّر من قبضته على المبرد ثم عاود العمل «قد لا

يعجبك مظهره ، ولكن لا تفكر للحظة بأن مثل تلك المعرفة أمر غير ذي قيمة» .

«أنت لم تجب عن سؤالي» .

«وأنت لم تجب عن سؤالي أيضاً . ما الذي يجعلك تكلمني بمثل هذه الطريقة؟»

«لقد سادت الصراحة بيننا على الدوام» .

«الصراحة ، ولكن ليس العدوانية» نظر إليه بيبرس «لكن كلماتك لا تنبع من العداء ، لأنك تعرف أن ذلك سيقودك إلى التهلكة . هل أنت مشتاق إلى الفردوس يا عبد؟ أهذه هي الحكاية؟»

«كلا»

«إذاً فأنت غاضب ؛ لأنك لم تستطع أن تحزن على قطز ، وأنت لم تعرفه بقدر معرفتي له» .

«لم تمنعك معرفتك له من قتله . لقد كان ذلك جريمة اغتيال» .

«ششششش . . . . .» أسكته بيبرس . أفلت الفأس من الملزمة ودورها بين يديه «لماذا تعتقد أنني أقدمت على ما قمت به يا عبد؟»

رمشت عينا عبد رغماً عنه لشدة مفاجأته .

«ما هي الحكاية؟ هل أنت مندهش من صراحتي؟» تكلم بيبرس بلهجة لم تخل من الضيق .

«كلا – أنا – أنا لا أعرف يا مولاي . هل كنت ترغب في التاج؟»

هزَّ بيبرس رأسه في حزن «آه يا عبد . أعرف الآن أنك لا تتعمد ايلامي أو إغاظتي بأي شكل ، مع أن انعدام الدهاء والمكر لديك يحزنني . أنسى أحياناً أن ما هو منعش في معظم الأحيان في هذا المكان المليء بالدسائس والخدع يمكن أيضاً أن يكون محبطاً . نحن لم

نخطط ضد قطز لأننا كنا نريد السلطة . فقد كانت لدي السلطة أصلاً . فما الذي كان سيوقفني عن الركوب إلى الشمال خارجاً من بيسان مصحوباً بكامل فرقتي لأمارس حياة الخارج على القانون مرة أخرى؟»

فكر عبد «لا شيء . يحتمل أن قطز كان سيحاول أن يستخدم قواته ضدك . . .»

شخر بيبرس ساخراً من الفكرة «لا يا عبد . كان سيحاول ، لكن لم يكن أحد الفريقين سيقدر على الإمساك بالآخر رهينة أو إحراز نصر مؤزر . إلا إذا قام أحد الفريقين بنزع سلاحه طواعية . وما كان ذلك سيحدث . لو حاولنا أن نخوض معركة مفتوحة ضد قوات قطز ، لأصبنا بالهزيمة في تسع مرات من عشرة ، ولكن ما الذي كان سوف يوقفنا عن التخلي عن زحفه إلى الجنوب والركوب مبتعدين؟ لا شيء» . قدَّم بيبرس يده إلى الأمام ، بينما أمسك الفأس باليد الأخرى مشدودة إلى معدته .

«فكر فيما مضى . ألم أخبر قطز عن نيتي في القيام بذلك العمل تحديداً؟ لقد أخبرته في الساحلة أنني أنوي الركوب باتجاه الشمال» .

«ولكنك استدرجته إلى الشمال تحت ذرائع مزيفة!»

«لأنه كان ينوي أن يقتلني . وكما تم التخطيط ، فقد حاول أن يجعل قائد حرسه يقبض عليَّ» .

«لكنك وصلت إليه قبلاً -»

«لقد فعلنا ذلك . وقد أحسنَّا صنعاً فيما فعلنا يا عبد ، وإلا لكنت ترسف في الأغلال هذه اللحظة . ما كانت امرأتك صفية ستقدر على إنقاذك مرة ثانية . وستكون جثتي ملقاة حتى تتعفن في مكان ما هناك . لقد كذبنا حتى نحمي أنفسنا والناس الذين نحبهم» .

«إذاً لماذا قمت بما فعلته؟ لماذا أقدمت على قتل قطز؟»

«لأنه لم يعد هناك اتساع كافٍ لكلينا يا عبد . لقد حاولت أن أوجد مساحة . كنت أنوي حماية الشمال بحيث يستطيع هو أن يحكم من هنا في القاهرة ، أو يذهب ليقوم بحملة بنفسه إذا كان يرغب في ذلك ، لكن الأمر لم يكن مقدراً . ما كان سيسمح لي في الحياة بعد النصر الذي حققناه لتونا . فقد قرر أن يرسلني إلى أدغال أفريقيا ويتركني هناك حتى أتعفن ، وأنا أعاني الخوف من سيف القاتل المأجور» .

لم يقتنع عبد ، بل استمر في وقفته وقد تصالب فمه على شكل خط .

أفرد بيبرس ذراعيه «ماذا كان المزيد من السلطة سيعني لي؟ هل سأتناول طعاماً أفضل لمرات أكثر؟ هل سأحصل على نساء أكثر من الأعداد التي لا تحصى التي حصلت عليها سابقاً؟ الخيل؟ هل تعتقد أنني كنت أريد درعاً براقاً لأخوض معاركي فيه؟ لقد عرفتني يا عبد ، هل تراني على شاكلة الرجل الذي قد يتمنى أن يغادر فراش المعسكر ليستبدله بغرفة في القصر؟»

طأطأ عبد رأسه وقال «سامحني» .

«ما الذي كسبته من مقتل قطز ولم أكن أمتلكه قبل ذلك؟ التاج؟» انخفض صوت بيبرس «وما الذي خسرته؟ صديقي - صديق كان منافساً لي على الدوام ، ولكنه صديق وأخ في السلاح برغم ذلك» .

شاهد عبد الألم الذي تكلمت عنه صفية في قسمات بيبرس . العذاب والشعور بالذنب . أحسَّ بالخجل من تفاهة حزنه الشخصي ،

والذي بدا له الآن مجرد تأثر ومراوغة باعثة على الإشفاق . طبيعي أن قطز كان ينوي أن يلحق بهم الأذى جميعاً ، وبالطبع فقد تعامل بيبرس معه بالأسلوب المتاح الأكثر حزماً . لقد كان حدثاً صادماً ومفجعاً ، ولكن كان تنفيذه أمراً حيوياً لمصلحة الدولة .

قال عبد «إنني آسف . إنني آسف» .

رفع بيبرس رأسه قائلاً «لا تتأسف . لقد رحب قطز بالموت عندما حضره ، أنا أعرف ذلك . لقد افترقنا كصديقين وسوف يقابل أحدنا الآخر مرة أخرى . ليس هناك من شك في ذلك . سيرافقني موته – لن يمر يوم واحد لا أتذكره فيه ، ولكنني لا أندم على ما فعلته . هل ستكتب ذلك من أجلي؟»

«بالطبع يا صاحب الجلالة» .

«اعتقدت أنني أمرتك بعدم مخاطبتي بذلك اللقب» لمح عبد طيف ابتسامة على شفتي بيبرس وتراخت عضلات كتفيه ، وكأنما بقي منحنياً اتقاء البرد لأيام طويلة .

«أقدم اعتذاراتي يا مولاي» .

قال بيبرس «ذلك أفضل . هناك الكثير مما يجب عمله يا عبد ، وستكون هناك حاجة إليك» .

قال «قل لي ما هو المطلوب وسوف أقوم به» .

كالعادة ، عندما كان بيبرس يضع لائحة بالمهام التي يطلبها من عبد ، توجد قائمة لا نهاية لها من الإصلاحات الداخلية والمتعلقة بالبنية التحتية والمنشآت على رأس الكومة .

بالنسبة لرجل ليست لديه معرفة أو تحكم في مسألة البناء أكثر من الإعجاب بجمال مسجد ما قبل أن ينضم إلى جهاز الفرسان ، صار

عبد يفهم الآن أكثر بكثير مما كان يعتقده ممكناً في قضايا الأساسات ، التحصينات ، وموارد المياه - عالم جديد كامل أبعد من حكمة العلماء الذين قضى سنوات عمره المبكرة وهو يدرسهم .

المفروض هو تطوير مدينة القاهرة ، الاستمرار في العمل الطيب الذي باشره قطز وتسريعه ، مع بناء مدارس جديدة ومشاف ومأو للفقراء في كل أرجاء المدينة . أصبح توفير المواد الأولية واللوازم الضرورية لعمل الطواقم على هذه الأبنية الجديدة وحده كافياً لحرمان عبد من نوم الليالي ، لكن خفف من قلقه بعض الشيء تأكيد بيبرس له بأنه سيحظى الآن بدعم وزارات الحكومة كلها وجيوش موظفيها لمساعدته . توارى شعور عبد بالاطمئنان بعض الشيء بعد أن استحم وانتعش . فقد أخبره بيبرس بأن حارس الخصي سيعرض عليه المكاتب الضرورية لعمله ويعرفه على الوزراء المختصين للتأكد من المباشرة بالعمل حسب الأصول والإشراف عليه بأسلوب لائق .

«يجب أن لا يكون هناك أي هدر يا عبد!» قال بيبرس بينما انهمك فتية سمر البشرات ، عراة الصدور عبيد في وضع أثوابه الجديدة في مكانها . «ستكون العقوبات على أي شخص يقبض عليه وهو يأخذ أموالاً من الخزينة الملكية أشد قسوة من أي شيء شهدته هذه المدينة وهذه الدولة . لن أتساهل مع الانحراف» .

«نعم يا مولاي» قال عبد وهو يفكر «هذه هي الخصلة الشركسية فيه ؛ لأن الشراكسة يوقرون الأمانة فوق كل اعتبار» .

أجال بصره في أنحاء قاعة ارتداء الملابس العملاقة التابعة لقصر القلعة ، والتي هي أكبر بكثير من قاعات معظم الحصون الإقليمية . لابد وأن الملابس المعلقة التي تزنر الجدران قد بلغت أعدادها المئات

على أقل تقدير، وقد أصر بيبرس على أن جميع الأثواب ينبغي تفصيلها وإخاطتها جديدة، لأنه لن يرتدي أية ملابس لامست ظهر قطز سابقاً.

قال مازحاً «لا يتعلق الأمر بالتطير أو الكراهية، بل مجرد مسألة لياقة». وبات في هذه اللحظة يتساءل عما سيتم عمله بجميع الألبسة، خاصة وأن قيمة خيوط الذهب والقماش وحدها كافية - حسب تفكيره - لإقامة أود مملكة بأسرها.

أدت الفكرة إلى طرح سؤال آخر «كيف ستدفع كلفة كل هذه الأعمال؟ لن تكفي هاتان العربتان اللتان أخذناهما من المغول سوى إلى حد معين».

ابتسم بيبرس لقاء السخرية «لقد تم توزيع ذلك الذهب على رجال الجيش الملكي بشكل علاوة خاصة من قبل ألموت. وأنت على حق، سوف نكون بحاجة إلى المزيد. سيتم رفع مبلغ الجزية وسوف نحصل على عائدات أعلى من الموانئ مثل الاسكندرية، خاصة أنه قد تمت السيطرة على الموقف مع المغول. سرعان ما ستعود السفن إلى الملاحة من أول البحر الأحمر إلى آخره مارة بالجزيرة العربية».

«ما الذي يقوله بطريرك الأقباط أو حاخامات اليهود عن هذه الضرائب الزائدة؟»

«لا شيء حتى الآن، لأنه لم يتم إعلامهم». استدار بيبرس ليواجهه وهو يفرد ثنايا الأثواب الجديدة حتى يستعرض بها. أحمر فوق الأخضر، مزين بنقاط من الأسود والذهبي. تماماً مثل قطز.

«رائع يا صاحب الجلالة، ولكن ماذا بشأن الأقباط؟»

زمَّ بيبرس شفتيه اعتراضاً على الاستعمال المتعمد للقب الذي

كان قد أمره بعدم استخدامه . وازن الثوب حول كتفيه وعاود الاستدارة نحو الأولاد ليبدأوا بلف رداء رأسه . «حسناً ، ما الذي سيقولونه؟ لقد مات ملك فرنسا ، وسوف يقضي ابنه سنوات وهو يركب في طول البلاد وعرضها في محاولة لتوكيد سيطرته وسلطته على باروناتهم وأدواقهم . مملكة القدس تلفظ أنفاسها الأخيرة ، مع ملك جبان يختبئ في جزيرة قبرص وعاصمة تبعد عن القدس نفسها حوالي خمسين ميلاً إلى الشمال . كل ما نحتاجه هو التخلص من -» توقف عن الكلام فعبس عبد سائلاً :

«كل ما نحتاجه هو ماذا يا مولاي؟»

نفض بيبرس رأسه نفياً «هو لا شيء . سيخبرك قلاوون أثناء حفل الاستقبال هذه الليلة . إنه يعرف عن المسألة أكثر مني» .

لم يضغط عبد أكثر في الموضوع ، لكنه شعر بالقلق «لقد كنت آمل بالعودة إلى جناحي هذه الليلة ، لأن هناك الكثير مما يتحتم علي مراجعته» أومأ برأسه إلى قوائم العمل التي أوكله بها بيبرس حول المهام الواجب تنفيذها .

«الأكثر احتمالاً هو أنك بحاجة إلى مراجعة امرأتك» قال بيبرس «لا تخش شيئاً . هذا إيجاز أكثر منه إفساداً خلقياً . أعتقد أنه مع انتهاء قلاوون من شرح معلوماته ، سنكون كلنا بحاجة إلى استراحة . وهكذا اذهب لرؤية صفية . استمتع بوقتكما معاً» .

بهت انزعاج عبد من إعلانات بيبرس الجدية مثلما تخافت قلقه على مشاريع الأبنية الجديدة حينما تبع السلطان وحراسه إلى الغرفة المجهزة للندوة ، فشاهد حارس واقفاً في الصف ليرحب بالمجموعة الملكية إلى جانب مسؤولي القصر الآخرين .

استمتع عبد بابتسامة النصر وبتكشيرة الخصي أثناء مروره عنه ، لاحقاً بيبرس عبر الأبواب الثنائية الهائلة إلى قلب منطقة السلطة . توزع في أرجاء الغرفة كل من قلاوون وتيكا ومهنا وألموت إضافة إلى الأمير أُنس ، جالسين على وسائد أو بسط . نهضوا جميعاً وركعوا على ركبة واحدة أمام السلطان ، لكنه سارع إلى إنهاضهم وتحيتهم كما يفعل دائماً . شكل وجود أُنس إضافة جديدة إلى حلقته الداخلية ، لكن البلاط بذل أقصى جهوده لجعله يشعر أنه محل ترحيب . لاحظ عبد بشيء من التفكه مدى صعوبة شرب أُنس للكوميس . فهذا الشراب تعود عليه عبد منذ زمن طويل .

كان ألموت قد وصل قبل سويعات ، حيث ركب مستبقاً الجيش الملكي الذي تحول الآن إلى الولاء ، نصب خيام معسكره خارج المدينة بصحبة المئات من خيالته ، حاملاً معه تقارير إيجابية عن التطورات على مدى المملكة . لاقت الأخبار التي جلبها قلاوون عن الأحداث في مناطق نفوذ الفرنجة بعضاً من التحفظ بكل الأحوال .

أصغى عبد مع الآخرين إلى وصفه عن رسو الأمير الإنجليزي في عكا .

«إنه سر مكشوف في عكا ، ذلك الذي يقضي بالقدوم الوشيك لشقيقه في الموسم القادم مع عدد مماثل من الرجال» . انهى قلاوون تقريره بهذه العبارة .

«وماذا يعنيني من هذا الأمر؟» ظل بيبرس الوحيد الواقف من المجموعة ، ورغم أن هذا شكَّل مخالفة صريحة للآداب الملكية المرعية ، إلا أنه من الناحية الأخرى ، أظهرهم جميعاً في جلوسهم عند قدميه بمظهر تلاميذ مدرسة جاثمين أمام مديرهم .

«حتى مع وجود شقيقه الجرو، وجميع الرهبنات المسيحية، وإنعام الملك هيو عليهم بحضوره عبر المياه - ما الذي سيتوفر لهم؟ نصف أعدادنا. نصف أعداد الفرسان وحدهم! بدون ذكر الجموع الملكية التي ورثناها لتونا».

قال ألموت «السلطان مصيب في تقييمه يا قلاوون. لقد وصل إدوارد هذا في وقت خاطئ وستكون جياده جلداً على عظم. لقد ركبت لتوي عبر فلسطين كلها ولم تعد توجد هناك قشة من العلف بعد حملتنا والعدوان المغولي. إنه عالق في تلك المدينة، وليست هناك أية احتمالية أن يقوم بهجوم خارجها».

«وما الذي بوسعه أن يحققه حتى لو قام بهجوم خارجي؟» رفع مهنا قدح الكوميس «سيركض بلا سيطرة في الريف الخالي. ليس لديه أي أمل حتى في الاقتراب من القدس، وأقل من ذلك استيلاؤه عليها».

«إذا تمكن من الدخول سيصعب إخراجه» استدارت كل الرؤوس باتجاه أُنس، في المرة الأولى التي تكلم فيها «لن يكون ذلك مستحيلاً طبعاً، لكن إذا أتيحت له الفرصة ليتخندق، فربما نضطر إلى محاصرة المدينة. الأمر الذي نحتاج إلى التفكير فيه يا مولاي السلطان، هو عدد المصادر التي يمكن لإدوارد أن يستعين بها. لقد ذكرتم رهبنتي المعبديين والهوسبيتاليين، ولكن من يوجد غيرهم؟ لا شك في أن النبيل قلاوون لديه جواب».

مد الأمير أُنس يده باحترام نحو قلاوون ليحتل الساحة مرة أخرى.

قال قلاوون «إن حدسكم صحيح يا صاحب الفخامة». نهض

واقفاً وتمطى بساقيه «ثم هناك أيضاً أنطاكية وكيليكيا لأخذهما في الاعتبار، ناهيك عن السلاجقة» .

قال بيبرس «سوف أسدد حسابي مع المملكتين لتحالفهما مع هولاكو، ويبقى حسابنا مع الأتراك مفتوحاً . سوف نركب في موسم الحملات القادم باتجاه الشمال حتى نصل إلى القسطنطينية نفسها» .

قال ألموت «سوف نكون بحاجة إلى السفن وإعادة التموين، ثم هناك الأساطيل الإيطالية التي تحمي المدينة» .

قال بيبرس «يا عبد، جهز لنا قائمة باحتياجاتنا البحرية المطلوبة واتصل بنقابة بنائي السفن» .

حبس عبد الأنين بجرعة كبيرة من الكوميس، وطغى طعمها على الشعور بالإعياء الذي انتابه من التفكير بأعبائه العملية المتزايدة .

قال قلاوون «مولاي، لقد لامست لب القضية نفسه . هولاكو . إنه المفتاح» .

«لقد مات هولاكو يا قلاوون . ولست واثقاً من أنه سيفتح أية أبواب في أي وقت قريب . سواء كان المفتاح أم لم يكن» .

«كلا يا مولاي» توقف قلاوون وأدرك لتوه أنه قد ناقض السلطان، مخالفة أخرى لآداب القصر وواحدة أخرى عقوبتها الموت فيما إذا قرر السلطان أن الجريمة تحمل حجماً معيناً . تلفت قلاوون حواليه ليرى ما إذا كان الرجال الآخرون قد لاحظوا ذلك، لكن بيبرس كان يلوح بيده «لا عليك من ذلك . ما علاقة المغولي الميت بالرجل الإنجليزي؟»

«لقد جاء الإنجليزي ليقتلك يا مولاي . هناك سر مكشوف آخر مقتضاه أنه يرغب في تجربة قوته ومهارته ضدك» .

قال مهنا «يبدو وكأنه أحمق ومتهور» .



وافقه بيبرس «نعم، وأنا معجب به بدوري. لكن هذا لا يعني أنني لن أجعل من زوجته أرملة. أنا أفترض أنه متزوج، صح؟»

«نعم يا مولاي، متزوج من أميرة اسمها إليانور أميرة الاكيتين. جمالها معروف لدى جميع الفرنجة».

قال بيبرس «إذاً من المؤسف أنها ليست موجودة هنا؛ لأن حارس سيجعلها تشعر بأنها موضع ترحيب شديد بين الحريم».

انفجر الضحك على هذا التعليق قبل أن يستطرد قلاوون «مولاي، لقد صرح إدوارد بأنه سيخوض معركة ضدك في سبيل القدس».

رد عليه بيبرس بعنف «وأنا قلت إنه سوف يموت».

«لدى هولاكو ابن».

«وما علاقة هذا بأي شيء؟ كل الرجال لديهم أبناء».

«فيما عدا حارس» قالها ألموت وانفجرت دورة أخرى من الضحك. فقد أخذ الكوميس يرفع من إحساسهم بروح الدعابة.

«إن اسمه هو أباغا. لقد تجاوز سن الثلاثين ولديه ابن قد اكتمل نموه. لقد أقسم كلاهما على الانتقام لمعركة عين جالوت».

«وهل تعتقد أن أباغا هذا وهذا إدوارد سوف يعملان سوية؟»

«أنا لا أعتقد يا مولاي، لكن العصافير القادمة من عكا تخبرني أن هناك عميلاً من قبل أباغا موجود في المدينة. أنا سوف أرسل عميلاً من قبلي إلى هناك في هذه الليلة بالذات».

لم تخف على عبد النظرة الجانبية التي أطلقها نحوه قلاوون لدى قوله هذا.

«لماذا هذه الليلة؟ لماذا لم ترسله من قبل؟»

رد قلاوون وهو يرمق عبد بنظرة عاجلة أخرى «هناك استعدادات ينبغي القيام بها» .

التقط بيبرس اللمحة واتسعت عيناه من فرط دهشته للمعرفة .

«أنت محق يا قلاوون . سيتمتع عميلك بأن يسبقنا بخطوة على الأقل» التفت الجميع نحوه .

«مولاي؟»

«دعونا نمنع إدوارد هذا من الفرصة لتجفيف قدميه والاستقرار بانتظار قدوم أصدقائه المغول إليه . ابعث بالأوامر . هل أنت تقول إن لدى الفرسان عشرة أضعاف أعداده؟ دعونا نركب إلى عكا ونرى ما إذا كان هذا الأمير يمتلك الشجاعة الكافية ليخرج من خلف الأسوار ويواجهني . إذا فعل ، فسوف يموت . إذا لم يخرج فسوف تصيبه المذلة والعار أمام جميع سكان الشرق الأوسط» .

إدوارد

تلقى الخائن ضرباً مبرحاً ، لكنه ظل قادراً على الوقوف واستمر الهواء يمر خلف أنفه المهشم وشفتيه المشقوقتين . بات ذلك كافياً .

«إذاً أخبرني» قال له إدوارد «كيف أخرجت رسائلك إلى خارج المدينة؟»

حاول الرجل أن يركع على ركبتيه ، وقد أحنى رأسه بين يديه المقيدتين ، لكن كلاً من مورتيمر ودي كلير استمرا في رفعه من تحت إبطيه وصفعه فيتزهيو بقوة على وجهه بقفازه المدرع .

اقترب منه إدوارد خطوة «أنا لا أحب أن أكرر نفسي ، تقريباً بقدر ما أكره المخبرين والجواسيس . أنا لا أحب المرتدين . لا أحب الضعف والطمع . باختصار ، أنا لا أحبك . ولذلك دعني أخبرك - لأن هذا هو العمل اللطيف الوحيد الذي سأقوم به لأجلك - أخبرني بالأجوبة التي لديك عن الأسئلة التي أطرحها عليك . لا تكذب . لا تصدق أنك إذا أخبرتني بما أريد أن أسمعه سيجعل هذا الأمر أسهل عليك ، لأن ذلك لن يحدث . أخبرني بالحقيقة ، وسوف تمنحك الحقيقة تخفيفاً من غضبنا . الرب يسامح ويعفو ، ولكن فقط إذا ندمت بحق ، وستبدأ ندامتك الآن» .

مر على هذا الرجل زمن كان فيه وسيم الطلعة ، وعندما تقرب منه فيتزهيو في المشرب ، تكلم اللاتينية بلكنة وصوت أقرب إلى الغناء ،

وقد امتلأت روحه بالحماسة والتوق إلى الحياة .

لم ينخدع إدوارد الواقف على مسافة قريبة وقد أسدل غطاء رأسه متنكراً ، فقد استخدم الرجل هيكله الضخم العريض القوي ليدفع بهيو الأصغر حجماً منه ، بحيث أخفى توكيده شبه الحيواني بالسيطرة خلف عناقات حميمة والتلامس المستمر . تجيء ضحكته الرنانة وتتكرر كثيراً ، لكنها تصدر عن حلقه ولا تخرج من بطنه ، ولم تتواصل عيناه بقدر ما فعل فمه . اشتعلت هاتان العينان بالبريق حينما أخرج فيتزهيو كيساً جلدياً مليئاً بالنقود وطلب من التاجر أن يوصل رسالة سرية إلى سلطات السلطان في القدس ، وفي تلك اللحظة بالذات عرف إدوارد أنهم قد عثروا على طريدتهم .

ترك هيو الكيس يسقط على الطاولة في وسطهم ، وعند تلك الإشارة اندفع رجال إدوارد ليملأوا المشرب وربطوا الرجل العاجز ثم أخرجوه ، بحيث لم يعد رفاقه وأصدقاؤه يرونه بعد ذلك أبداً .

أصبح صوته الآن مجرد بكاء خفيض ، وكلامه يصعب على الفهم ، إذ يستجدي الأمير أن يعفيه من المصير الذي وجد نفسه فيه .

«أرجوك يا صاحب السمو ، أرجوك . . . الرحمة!»

أشار إدوارد إليهما بأن يسمحا له بالسقوط على الأرض ، فوقع على شكل كومة . ركع إدوارد حتى أصبحت عيناه على مستوى عيني السجين .

«أنت لم تفهم بعد يا أرماند» قال له «لقد أخفقت في فهم ما حاولت أن أقوله لك» .

اقترب منه أكثر ، وكلمه بصوت يكاد يكون متحفزاً وبدون أي تلميح إلى الشر «أنت هو الشخص الذي سجن نفسه . أنا لم أفعل

ذلك . لقد جلبتك أفعالك إلى هذا المكان ، وأفعالك هي التي تضمن بقاءك هنا» أشار إدوارد إلى سقف الزنزانة المتعفن «الرب يخلق كل شيء ، وكل ما هو موجود ، هو كذلك بإرادته وبإرادته وحدها» .

عاود أرماند الأنين مثل حيوان مرهق واقع في مصيدة .

«لا ، لا يا أرماند! استمع إليّ!» احتفظ صوت إدوارد بخفته وحياده . «هذه هي الطريقة التي ستتعلم بواسطتها في النهاية» تنحنح ثم استطرد «صحيح أن الرب يخلق كل شيء ، لكنه أيضاً يمنح الإنسان الإذن ليرتكب أخطاءه بنفسه . هو يفعل ذلك حتى نحتل أمكنتنا إلى جانبه في الفردوس عن جدارة واستحقاق ، لأنه لو اختلف الأمر ، فماذا كانت الحاجة إلى هذه الدنيا في المقام الأول؟ هاه؟»

بدأ أرماند ينتحب .

«لقد مشيت ضد مشيئة الرب يا أرماند ، ومن أجل ذلك أنت تتوب وتأتي فعل الندامة - بقلب سليم مؤمن وبإرادتك الحرة . نحن-» أشار إدوارد حوله إلى رفاقه العابسين «نحن لا يمكننا أن نرغمك . يجب أن تقوم بهذا العمل بنفسك . إن ضرباتنا لا تعني شيئاً إذا لم تكن روحك راغبة . هل تفهم ما أقوله؟»

أخرج أرماند عويلاً .

«أستطيع أن أرى أنه لا يفهم» نهض إدوارد واقفاً ، وينظر إلى الرجل الراقد «فووين - أحضر لي النار والملقط . سوف نحرقه ونسحب منه السم -»

«لا! أرجوكم باسم الرب» دفع أرماند بكلتا يديه إلى الأمام وتوسل إليهم ، وقد امتلأ وجهه بالدموع والبصاق .

سحب فووين إحدى الشعلتين الملتهبتين عن الجدار

«هل ستتعاون معنا؟» رفع إدوارد صوته «هل ستقبل الرب في حياتك البائسة؟ وتعترف بخطاياك؟»

«نعم! نعم!»

«انزع عنه ثيابه» التفت إدوارد إلى فيتزهيو «دعه يتكلم إلى الرب كما خلقه الرب» .

تقدم فيتزهيو ومزق سترة أرماند التي كانت راقية فيما مضى وسحب عنه قميصه الداخلي ، ثم رفعه عن الأرض أثناء عمله هذا ، وسحب خنجره الطويل ليقص بنطال ركوبه وحذاءه الطري . انطلق أرماند يتكلم وهو يرتعش من الألم والخوف والبرد . في البداية ، جاءت كلماته على شكل دفعات وانفجارات ، ولكن بعد أن أسس إيقاعه الخاص به ، تكلم بلا توقف لوقت طويل إلى درجة أن الشعلة التي يحملها فووين في يده بدأت تقرقر . أخبرهم كيف اشتغل منذ بداية ذكرياته على السفن التي تبحر من موانئ مرسيليا وطولون في الإقليم الجنوبي ، بين مناطق نفوذ الفرنجة وتلك الخاضعة للإيطاليين ، لأن بواكير ذكرياته كانت عن هذه الأمكنة ، فقد افترض أنه مولود في المنطقة ، لكنه لم يكن قادراً على الجزم . عمل بوظيفة قرد على الشراع منذ أن كان صبياً ، وهو الذي يصلح حبال الأشرعة والصواري للسفن التي تبحر في المسارات بين جزيرتي سردينيا وكورسيكا وإلى البر الرئيس ، ولكنه عندما كبر في السن وجعلت منه إحدى الغواني رجلاً ، غامر إلى مرافئ أبعد ووجد عملاً يدر ربحاً أكثر على السفن التي تنقل الرجال والمعدات من الغرب إلى أراضي اللاتين الواقعة على السواحل الشرقية للمتوسط . بعد بضع سنوات من هذا التنقل جيئة وذهاباً ، كان قد ادخر بعضاً من النقود وقرر أن يغادر السفينة فاراً بينما

هي في عكا ، حاملاً فكرة مفادها أنه قادر على أن يصبح تاجراً وسيطاً ، يشتري السلع رخيصة من تلك المدينة ثم يطلب من رفاقه القدامى في البحر أن ينقلوها إلى فرنسا في رحلات عودتهم مقابل ربح وفير . نجح هذا الترتيب ، رغم أنه لم يحصل أبداً على لوحة أو طاولة بنكية كما يفعل التجار البارزون في المدينة ، إلا أنه وفر لنفسه معيشة مريحة ، حيث امتلك بيتاً في الحي الراقي وتمت تلبية احتياجاته كافة من قبل الخدمات المتوفرة في ذلك المكان . حينما كان جالساً يستمتع بشرابه حوالي الظهيرة في يوم قائظ من أشهر الصيف ، اقترب منه رجل عربي ذو مظهر نبيل وسأله عما إذا كان يعرف أميراً معيناً في مدينة دمشق . قال له أرماند إنه لم يغامر يوماً إلى مسافة أبعد داخل اليابسة من الشاطئ عبر السنوات العشر كلها التي قضاها في المشرق ، وهكذا فهو لم ير ذلك المكان أبداً ، ولكنه سمع بالاسم . أسرَّ إليه العربي بعد أن اشترى له شراباً من صاحب المشرب ، بأن الأمير قريب له بالدم وأن لديه مشكلة عاجلة ذات طبيعة عائلية يود إعلامه عنها ، لكن السلطات في عكا تبقيه تحت رقابة مشددة ، وأن أي رسالة يبعث بها أو يعهد بتسليمها إلى مراسل سوف يتم الاستيلاء عليها وتستخدم لافتعال تهم تقضي بأنه يتواصل مع قوات عدوة . فهل يمكن لأرماند أن يمتلك وسيلة لإيصال ملاحظة مختومة إلى بيت رجل في دمشق مقابل رسم ما ، ويؤدي صنيعاً طيباً لغريب مأزوم ، كما قال السيد المسيح نفسه إن السامري قد عمل للتاجر التائه ، على الرغم من أن السامري واليهودي قد جاءا من مذهبين يعادي أحدهما الآخر؟

استمع أرماند إلى رجاء الرجل العاطفي ، وأعجب تماماً بإجادة العربي ليس فقط اللاتينية ، بل أيضاً بضع كلمات وعبارات من

اللهجات التي لا يتكلم بها سوى أولئك الرجال القادمين من المناطق الساحلية بين فرنسا وإيطاليا. طبيعي أنه لم يصدق قصة الرجل ولا حتى للحظة، ولكن ما هو الضرر الذي يمكن أن يحصل في الاستعانة بواحد من أصدقائه التجار لإيصال ملاحظة إلى تلك المدينة التي طالما بقيت خارج منطقة نفوذ الشرق المسيحي؟ ختمت المحفظة المنتفخة التي أبرزها العربي على قراره وهكذا تم تسليم الملاحظة - وجاءت ملاحظة ثانية في الشهر التالي، وبعدها ثالثة بعد ذلك بأسبوعين، ثم أخرى وأخرى وهكذا، حتى اكتشف أرماند أنه يقضي وقتاً في البحث عن وسائل لقوافله كي تصل دمشق ومدن أخرى خارج نفوذ اللاتين، يكاد يساوي الوقت الذي يقضيه في إرسال البضائع عبر البحر إلى إخوته في الوطن.

«ما هو اسم هذا الأمير؟» كان إدوارد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً أثناء كلام أرماند.

قال أرماند «إنه قلاوون الألفي. إنه معروف لدى الجميع بأنه الذراع الأيمن لبيبرس البندقداري».

توقف إدوارد عن التمشي «في الحقيقة هو كذلك. هل كانت الرسائل التي تبعث بها تسلم إليه وحده؟»

«نعم يا مولاي. إلى بيته دوماً، مع أنني اكتشفت بعد بضعة أشهر من بداية الترتيب أن قلاوون لم يعد يقيم في دمشق بل إنه ارتحل شمالاً إلى حلب».

«ألم تكن هناك أسماء أو أماكن أخرى ترسل إليها الرسائل؟»

«كلا يا مولاي».

سأل فيتزهيو «وماذا كانت هذه الرسائل تحوي؟»

أرخى أرماند نظره إلى الأسفل ونفض رأسه «لا أعرف يا سيدي» .

«ألم تنظر في داخل أي منها؟ ألم تسأل مراسلك عما تقوله تلك الرسائل؟»

«كلا يا سيدي . لقد كانت مختومة بطريقة سيظهر فيها أي تلاعب حاصل ، عند التسليم ، ولمعرفتنا بسمعة الرجل الذي يفترض فيه أن يتسلم هذه الرسائل ، فإنه من الحماقة أن يفقد الشخص حياته بدافع الفضول» .

«الفضول يقول» نفض فيتزهيو رأسه .

«وهكذا قمت بتسليم هذه الرسائل - على مدى سنوات - ولكن ليست لديك أي فكرة عما قيل في أي منها؟» وقف إدوارد فوقه .

«كلا يا سيدي ، فقد تصورت ذلك ضرباً من الوقاحة» .

«وقاحة!» انفجر دي كلير وبدأ يقفز على أرماند . تراجع السجين ووقع على ظهره ليبتعد عن الفارس الذي يهاجمه .

«تراجع!» صاح إدوارد فتوقف دي كلير في مكانه كأن يداً إلهية قد ضربته .

«دي تشونسي -» أومأ إدوارد إلى الفارس الراهب واستدعاه من الزاوية التي كان واقفاً يستمع فيها . «استمع إلى اعترافه ثم انضم الينا في جناحي . هنالك الكثير مما يتعين بحثه . فووين؟»

«مولاي؟»

«انشر الخبر القائل بأننا قد ألقينا القبض على جاسوس يعمل لحساب السلطان ويقبض منه . أخبر الناس أنه سيتم التعامل معه حسب قوانين كل من الكنيسة والتاج» .

انحنى فووين «سيتم عمل ذلك يا مولاي» .

خرجت الجماعة الإنجليزية من الغرفة ، تاركة دي تشونسي ليجلس ويدعو أرماند لينضم إليه ويشاركه منح البركة . بعد أن خلصه من جرائمه وخطاياه ، أصدر إليه دي تشونسي تعليمات لكي يصلي وناوله ثيابه الممزقة ليغطي نفسه بها . مشى عبر الدرجات الحجرية الطويلة صاعداً إلى قمة الحصن . وجد إدوارد وجماعته هناك يتشاركون في ابريق من النبيذ وطبق من السردين المقلي ، ويبحثون فيما سمعوه لتوهم .

قال مورتيمر «شق حلقه أمام المدينة كلها وليكن ذلك درساً لهم» .

أجاب فيتزهيو «سوف يعثر لنا على هذا العربي وعندها سنحصل على أجوبتنا» .

شرب إدوارد من قدح مزين بالجواهر ، غارقاً في التفكير .

«إذا أردنا الحقيقة ، فما الذي أخبرنا إياه ولم نكن نعرفه مسبقاً؟» سأل بعد أن انتظره الآخرون حتى يفكر . «بأن السلطان وهؤلاء الجنود الفرسان العبيد لديهم جواسيس في المدينة؟ كان ذلك واضحاً وضوح الأنوف على وجوهنا . إن المسيحيين والمحمديين يعملون مع بعضهم البعض؟ عرفنا ذلك مسبقاً ، لتحل عليهم جميعاً سوية وبالدور . كلا يا مورتيمر ، لدى فيتزهيو الرأي الصائب - سوف نعمل على طريقة ما تمكن هذا الشقي أرماند من أن يوصلنا إلى رجله ، وبعدها سنعمل على التوصل إلى المكان الذي يحصل منه على المعلومات الواردة في تلك الرسائل» .

قال دي كلير «يمكن أن تكون أي شيء - تفاصيل دفاعات

المدينة، مفكري المجالس، أعداد الجنود، مسألة وصولنا ومقدار قوتنا».

قاطعه دي تشونسي «لم يكن وصولكم ومقدار قوتكم بحاجة إلى جاسوس للمشاركة في الخبر، فقد كان واضحاً ليراه كل شخص حينما رست سفنكم في وسط النهار. نحن لا نستطيع أن نمنع الناس من مغادرة المدينة وإخبار الآخرين بما شاهدوه. لو فعلنا ذلك فسوف يهلك السكان جوعاً وتتلاشى التجارة بدون تدفق المنتجات».

قال مورتيمر «لتحل اللعنة على التجارة».

قال دي تشونسي «هذه عاطفة من السهل التصريح بها يا مولاي. لكنها لن تساعدنا في قتالنا ضد الكفار. يتحتم على المدينة أن تحصل على الغذاء وأسواق البضائع. إن الضرائب المتحققة من الفلفل المرشوش على هذه السمكات». وأشار إلى طبق الطعام الهائل «تدفع رواتب الخفراء على سورنا. بدونها نحن لا شيء. حتى أكثر المؤمنين وذوي القلوب الطاهرة الصادقة لا يمكنهم أن يقاتلوا بدون وجود الخبز في بطونهم لدعم خبز الحياة».

ألقى مورتيمر بسمكة البلم الصغيرة التي كان قد التقطها لتوه في الطبق وعبس.

قال إدوارد «هذا المدعو قلاوون، أيها الأخ دي تشونسي. هل هو كما قال السجين الرقم الثاني بعد بيبرس؟»

«إنه كذلك يا مولاي، ومنذ زمن طويل. لقد خدم مع بيبرس من قبل أن يرسو الملك الطيب لويس في دمياط. إن بيبرس محاط بدائرة ضيقة كما هو حالكم. أقدم أصدقائه هما قلاوون والعملاق المعروف فقط باسم تيكا. يقال إنه أخرس، لكنه أضخم رجل في جيش السلطان برمته».

«وماذا عن الآخرين؟»

«نعم يا مولاي . لقد ورث قادة عن السلطان قطز ، أولئك الذين يمكن الوثوق بهم ، أما الذين لا يمكن الوثوق بهم فقد تم إعدامهم . كذلك فقد قتل معظم أفراد عائلة قطز . وقد علمنا مما سمعته مصادر رهبنتنا ، أن كل ذلك هو من صنع قلاوون» .

«ولكن لابد وأن السلطان الجديد يعرف بما يجري؟» سأل دي كلير .

قال دي تشونسي «هناك القليل جداً مما يجهله من المسائل التي تهم الدولة والمنطقة يا سيدي . سوف أفاجأ كثيراً لو علمت أن قلاوون يتصرف بدون علم بيبرس في مسألة على تلك الدرجة من الأهمية» .

«إذاً ، قضي الأمر» وضع إدوارد قدحه على الطاولة «سوف نجعل أرماند يقودنا إلى هذا العربي - لابد وأن لديهما ترتيباً منتظماً وسوف ننشر النظام في هذه المدينة . إذا لم نستطع أن نسيطر على المكان الصغير الذي نحتله هنا ، فما هي فرصنا في الانطلاق نحو القدس؟»

«فعلاً يا صاحب السمو . لقد وصلت إلى قلب المسألة . تماماً كما في كل الأمور» . فرك مورتيمر يديه ببعضهما .

انكسرت لحظة الرضى والقناعة التي تلت توصلهم إلى القرار لدى سماعهم عويل بوق في الخارج . نظروا جميعاً باتجاه الشباك الكبير الذي ينفتح على المدينة من فوق ، حيث تم التقاط الصوت الأول ، سرعان ما التقطه نداء مجيب . تنامى الضجيج عندما أخذت الأجراس تقرع في كنيسة القديس جرجس ثم في قاعة طعام دير الهوسبيتاليين والقلعة .

«ما الذي يجري؟» وقف مورتيمر قريباً من كتف إدوارد ، بحيث

اتخذ الرجل الأكبر سناً وقفة دفاعية فورية عن الرجل الأصغر سناً. ذهب دي تشونسي إلى الشباك البعيد الأقرب إلى الباب، وحدق إلى برج المراقبة في المدى البعيد. كان هناك خفير يلوح ببيرق قرمزي كبير.

قال «هناك جيش معاد يقترب. سيتم استدعاء كل القادرين جسدياً للدفاع عن الأسوار».

«هل قلت جيش؟» استدار فيتزهيو ليواجه دي تشونسي «من أين؟»

«لست أدري يا مولاي».

«ألا يوجد حراس موزعون على المناطق المحيطة؟» اقترب إدوارد من دي تشونسي هو الآخر الآن، بحيث بدأ الهوسبيتالي يشعر أنه محاصر.

«لدينا بعض المواقع في الأراضي البعيدة يا صاحب السمو، ولكن يحتمل أنه تم اعتراض الفرسان، أو أن القوة المهاجمة تحركت بسرعة كبيرة».

أمر إدوارد «أحضروا ذلك المجنون غاي تويكنهام إليَّ. لقد قال بأن الجيوش المغولية تركب بسرعة. دعونا نرى ما إذا كان يعرف أي شيء عن هذا الأمر».

ركض فووين خارجاً من الغرفة.

قال دي تشونسي «يجب أن نذهب إلى برج الهوسبيتاليين، أيها الأمير إدوارد. ستتمكن من مراقبة الأسوار الخارجية من هناك وأنت آمن».

«ليس هناك من شيء على البحر». كان فيتزهيو قد ذهب إلى

الجهة المقابلة ووقف ينظر إلى الخارج فوق المرفأ المحمي والجدار البحري «لا شيء سوى قواربنا» .

قال مورتيمر «سوف يغادرون بسرعة إذا اعتقدوا بوجود متاعب» .

«أعطني الدروع» قال إدوارد «دعونا نواجه هؤلاء الضيوف بأفضل لباس لدينا» .

قال دي تشونسي «أنا لا أظن أنهم المغول ياصاحب السمو» .

«حقاً؟ ولم لا تظن ذلك؟»

«سيكونون قد اضطروا إلى عبور الصحراء ، من ناحية الشرق ، بقوة كبيرة ، وذلك صعب التنفيذ بدون أن تتم ملاحظتهم من مسافة بعيدة ، أعتقد أن قوة تتحرك بهذه السرعة لابد وأنها جاءت من الجنوب» .

«الجنوب» رفع إدوارد حاجبيه «هل تقصد مصر؟»

ابتلع دي تشونسي ريقه وطأطأ برأسه «نعم ، يا مولاي» .

تناول إدوارد سيفاً عريضاً عن الطاولة «في هذه الحالة ، دعونا نقدم للمصريين أفضل تحية عندنا» .

انفتح الباب ودخل منه فووين متبوعاً بتويكنهام . تراجع المندوب قليلاً لدى رؤيته إدوارد يشهر السيف أمامه ، لكن فووين أمسكه من ذراعه بقوة وسحبه إلى الأمام .

«يا غاي من تويكنهام» أشار إدوارد إلى الضجيج القادم من الخارج ، وقد انضمت صرخات الرجال إلى النفير العام «هل تعرف أي شيء عن هذا؟»

استعاد تويكنهام السيطرة على نفسه ونظر إلى الخارج وهو يهز رأسه قائلاً «ليس هذا من صنع أباغا خان . ما زال رجال تومينات الخان

في الشمال ، في الأرض الواقعة بين بلاد فارس والبحرين الواقعين هناك . لقد كانت الحرب ضد قوات مينجو تيمور ونوغاي توشك أن تضع أوزارها حينما غادرت . إن رسالته إليك هي أنه سيركب في فصل الحملات التالي» .

«وهل من المحتمل أن يكون القادم هو واحد آخر من هؤلاء الخانات؟» قال مورتيمر بخشونة .

عقد تويكنهام يديه عند خصره وكأنه راهب في حالة تأمل «بكل الاحترام ، يا مولاي ، فإن كل شيء وارد» .

زمجر مورتيمر غاضباً ولكن تويكنهام أبقى عينيه مسبلتين في خضوع .

قال إدوارد «سنغادر إلى برج الهوسبيتاليين . وسوف ترافقنا يا تويكنهام» .

غادر فيتزهيو مسرعاً ليجهز الإسطبلات لوصول الأمير .

«هذه دروعك يا صاحب السمو» قال فووين .

«أرسلها مع شخص ما وسوف أرتديها إذا دعت الحاجة إليها» . انطلق إدوارد أثناء كلامه وهو يقفل حزام سيفه «هذا كل ما أحتاجه في الوقت الحاضر . أريد أن أرى ما إذا كان السلطان اختار زيارتنا بالفعل» .

«هل قال السلطان؟» وجه تويكنهام سؤاله إلى دي تشونسي . حدجه الهوسبيتالي بنظرة ملؤها السخط وذهب ليلحق بالأمير وجماعته .

سأل مورتيمر أثناء سيرهم «ما مدى استعداد المدينة للحصار تموينياً؟»

«جيد إلى درجة محمولة . ومع ذلك فإن وصول تموينكم سيكون ملائماً وفي وقته» . قال دي تشونسي .

«إن مؤوننا معدة للاستعمال في حملة متحركة» . قال دي كلير مع نصف التفاتة من خلف إدوارد «وليست مقصودة لإطعام الرعاع التابعين لهذه الشوارع ولا لملء بطوننا ونحن جالسون» .

قال دي تشونسي «يحتمل أن لا يكون لديك خيار يا مولاي . لقد رأيت حالات حصار واجه فيها حكام قلعة ما القتال مع جماعتهم على البقايا القليلة من علف حيواناتهم ، أو مواجهة العدو الأقوى في الخارج . ليس أي منهما خياراً مغرياً» .

وصلوا في هذه اللحظة إلى العتبات .

«لدينا خيول - بإمكاننا أن نشن غارة إلى الخارج» .

«بشكل عام فإن الجيش المحاصر تكون له الأفضلية في المواقف الشبيهة بهذه ؛ لأنهم في العادة يكونون متخندقين بشكل أفضل» .

«حسناً ، في هذه الحالة لن نمنحهم الوقت الكافي لحفر الخنادق» . أصرَّ دي كلير .

«يحتمل أيضاً أنهم يتمتعون بميزة الأعداد الأكبر» لم يتصد دي تشونسي الواقعي لتحديق دي كلير العدائي .

في الساحة ، كان السوَّاس والحرس يتحركون بأسلوب متسرع ، وزادوا سرعتهم لدى ظهور جماعة إدوارد وذهابهم إلى الخط الأمامي للمطايا . أمكن تمييز حصان إدوارد بروعة سرجه ، والركابات المعدنية الصلبة المطلية بالفضة اللماعة . قفز إدوارد إلى ظهر الحصان وهو لا يرتدي سوى قميصه الخارجي وحذاء الركوب ، بحركة واحدة ومنح بقية المجموعة الوقت الذي استغرقه لجمع الأعنة حتى يلحقوا به قبل

أن يهمز الحصان ويتحرك باتجاه البوابة . أدار الحراس الموجودون هناك الروافع في البرجين التوأمين فوق البوابة ، وهكذا انطلق إدوارد إلى الشارع أمامه ، واندفع حراسه ومستشاروه ليلحقوا به .

لم تكن المدينة في حالة الهيجان التي توقعها الأمير ، رغم أنه حتى لعيني القادم الجديد ، كانت هناك درجة من الحدة في حركات السكان لم تكن موجودة في سياق الأحداث اليومية المعتادة . حتماً ظهر وجود المزيد من الناس المتحركين وكلهم يسيرون إلى غاية - أولئك الذين يرتدون بزات عسكرية متجهين إلى الأسوار كما توقع دي تشونسي ، وأولئك الذين يرتدون الملابس اليومية يتحركون في الاتجاه المقابل - حتماً كان هناك قدر من التوجس ، ولكن كان أيضاً نوع من التمسك بالصبر لم يكن قد شاهده من قبل ، وكأن إشارات الإنذار وظهور قوات معادية هي من ضمن الأحداث العادية المتوقعة ، والتي لا ينبغي المبالغة فيها بعقول الناس العاديين .

لحق به حراسه - وعلى رأسهم مورتيمر - وشكلوا دائرة حماية حوله ، بحيث أخذ الإنجليز المشاة يدفعون أولئك الناس الذين يقتربون أكثر مما هو مسموح أو حتى الذين وجدوا أنفسهم وسط دوامة المجموعة الملكية ، خارج الطريق .

وصلوا إلى برج الهوسبيتاليين إلى الجنوب من القصر الملكي ، وهو آخر معقل كبير على سور المدينة فيما عدا حصن المعبديين ، ركبوا مباشرة إلى داخل الساحة . تركت أبواب القلعة مفتوحة ووقف الخفراء حاملين رماحهم في حالة استعداد أثناء مرور موكب الأمير أمامهم ، وكأنه جرى تنبيههم مسبقاً بوصول إدوارد . عند مدخل البرج ، كان الرئيس العام هيوز ينتظرهم على الدرجات ، محاطاً بجمع من فرسانه وبعض الرهبان .

«أنت على أتم الرحب والسعة يا صاحب السمو» قال وهو ينزل عن الدرجات فاتحاً ذراعيه على اتساعهما . «ونحن نمنح الامتنان لوجودك في هذا الوقت الخطير» .

«ما معنى هذه الإنذارات؟» قفز إدوارد إلى الأرض وفتح ذراعيه ليقابل عناق هيوز .

«لقد وصل السلطان إلى واجهة الأسوار» .

انفجر الاستياء بين الإنجليز وأخذ كل واحد يتكلم في الوقت نفسه حتى رفع إدوارد ذراعه «هل فعلاً وصل السلطان إلى واجهة الأسوار؟ في هذه اللحظة؟»

هزَّ هيوز رأسه بأسى «فعلاً يا صاحب السمو . هذا هو الواقع . لقد ظهروا خلال ساعة فأصدرت الأوامر بإطلاق الأبواق» .

قال دي كلير «يمكن لهذه الحرب أن تنتهي قبل أن نبدأها . دعونا نسحقه هنا الآن وبعد ذلك نسير إلى القدس بدون أي مقاومة» .

فحَّ فيه إدوارد «اصمت عن هرائك» . التفت إلى الرئيس العام «أرغب في إلقاء نظرة عليه وعلى قواته» .

«لا ينطوي الأمر على شجاعة بل تهور لدى الحديث عن الهجوم عندما لا يعرف الشخص حجم العدد أو انتشاره أو حتى الأرض التي يقف عليها» قال مورتيمر بصوت خفيض مخاطباً دي كلير «لا تتكلم لبعض الوقت بينما تفكر في ذلك» .

تراجع هيوز خطوة ومد ذراعه حتى يتقدم إدوارد «من هنا يا صاحب السمو» .

اتخذوا طريقهم إلى داخل الحصن وأخذوا يصعدون الدرجات الضيقة الملتوية ، والتي لا تسمح إلا بصعود شخص واحد في المرة

الواحدة ، لأن الحصون مصممة بحيث لا يستطيع أن يصعد أو ينزل إلا شخص واحد في كل مرة ، وذلك لتحسين فرص الدفاع ضد المهاجمين .

على الشرفة ، دفع إدوارد بشعره الطويل إلى الوراء ونظر إلى الخارج ليرى مجموعة كبيرة من الفرسان على بعد متوسط ، قريبة بما يكفي لتمييز ملامح أزيائهم الملونة وبيارقهم بكل سهولة ، ولكن بعيدة بحيث لا يمكن لأي رامي سهام أو حامل قوس صغير أن يضبط مداهم بأي درجة من الدقة . راقبه الحراس الهوسبيتال الخافرون عندما دخل بينهم ووضع يديه على الحاجز .

ظهر الفرسان أقرب بكثير إلى ما تخيلهم - خيولهم جميلة ، صف من الأفراس الكميتة والكستنائية ، الأحصنة السود أخف عظاماً من أنواع خيولهم الشاير الإنجليزية ، رشيقة ، بحوافر خفيفة ، جميلة . كذلك كان الفرسان أنفسهم تشكيلة مختلفة من الألوان بدورهم - الكثير منهم ببشرة فاتحة أشبه بالإنجليز الباهتين الذين يقودهم ، ولكن الكثير منهم أيضاً ببشرات بنية ، وهناك عدد قليل ولكن لا يستهان به أسود مثل سواد الجياد التي يجلسون عليها . لم يستطع إدوارد أن يرى تشكيلة الأسلحة التي يحملونها من هذه المسافة ، لكنه تخيلها مصنوعة ومزوقة بدرجة جودة الرجال والحيوانات التي تحملهم . ارتفعت ذقنه تحت شمس ما بعد الظهيرة وسحب نفساً عميقاً من هواء النسيم البارد وهو يقيّم المنظر .لابد من وجود أربعة آلاف منهم على الأقل - وهو العدد الكامل لقوة الفرسان التابعين لبيبرس والذين قيل له عنهم .

من أجل هذا قام هو بعبور المحيط ، وشكر الرب على أنه لم يخب أمله في اختياره للعدو .

قال «ليس لديهم أسلحة حصار» .

«مولاي؟» كان هيوز واقفاً إلى جانبه .

«انظر هناك -» أشار إدوارد إلى خلفية الفرسان وجانبيهم «لا توجد أسلحة ثقيلة . ولا أي مشاة يمكنني رؤيتهم ، إلا إذا كانوا في المؤخرة وهذا كله لمجرد الاستعراض» .

«ربما ينتظر هؤلاء الفرسان وصول المشاة يا صاحب السمو؟» قال مورتيمر .

حدَّق إدوارد في القوة وفكر مرة أخرى ، ثم نفض رأسه «كلا . فرسان بدون مشاة داعمة أمام أسوار مدينة؟ هذا وضع يعمل لصالحنا . هذا بيبرس يرحب بنا في الأرض المقدسة» .

قال هيوز «إن أعداد فرساننا أقل بكثير من أعداد فرسانهم يا صاحب السمو . لا يمكننا أن نضاهي أعدادهم بما لدينا في المدينة» .

ابتسم إدوارد وهزَّ رأسه «تماماً . هو يعرف أننا لن نخرج ونقاتله ، لأنه سيتمكن من مهاجمة خطوطنا قبل أن يتسنى لنا أن نحفر خنادق لمشاتنا . إن خروجنا إليهم أمر مستحيل ، لأن جواسيسه قد أخبروه ولابد بأن مطايانا بحاجة إلى فترة نقاهة لاسترداد قوتها من رحلة البحر الطويلة . انظر اليهم-» أومأ برأسه إلى صف الخيالة الممتد الذي التف حول قسم كبير من أسوار المدينة . «لقد قدموا من ركوب قاسٍ طيلة الليل لكي يفاجئونا هذا اليوم» . دقت أصابعه على الحاجز الخشبي «لن تحصل معركة هنا ، ولكن ربما نستطيع أن نقدم له قتالاً . . .» توقف ليفكر للحظة ثم هزَّ رأسه بعد أن توصل إلى قناعة «هل يحترمون المبعوثين؟» سأل هيوز .

«ماذا يا صاحب السمو؟»

تكلم إدوارد بصوت أعلى ليسمع الرئيس العام المضطرب «إذا أرسلنا رجلاً خارجاً إليهم يحمل رسالة ، هل سيتم قتله أو الاستماع إليه؟» .

«سيتم الاستماع إليه يا صاحب السمو . أما عودتهم من عدمها فسوف تعتمد على مضمون الرسالة» .

«لقد أمر السلطان قطز بتعليق سفراء هولاكو خان من برج في القاهرة قبل معركة عين جالوت» . قال دي تشونسي .

«ذلك عمل بربري لن يمر بدون عقاب» قال تويكنهام «إن شخصيات السفراء غير قابلة للمساس في عرف المغول» .

«كما تقول يا تويكنهام» تلفت إدوارد حوله «دعنا نرسل دعوة إلى بيبرس هذا . إنه يتصرف كرجل لا يحتاج إلى دعوة ، ولكن دعونا نقدم له هذه المجاملة بكل الأحوال» .

«أنا سأرسل له مثل هذه الدعوة» أعلن دي كلير . استدار الجميع لينظروا إليه ، بينما غضب مورتيمر .

«ممتاز يا دي كلير» أدار إدوارد ظهره لجيش الفرسان «لا تظهروا لهم أي خوف» نظر إلى دي تشونسي «ما الذي سيفعله بالنسبة للحاجة إلى مترجم؟ هل سيكون لديهم من يتكلمون اللاتينية؟»

أحسَّ دي تشونسي بنظرات الرئيس العام تقع عليه ، فقال «سوف أصطحب السير توماس يا صاحب السمو» محاولاً أن يخفي انعدام الرغبة والتردد في صوته . «أعتقد أنني قادر على توفير الإمكانية له حتى يكون مفهوماً من قبل مجموعة السلطان» .

أومأ إدوارد رأسه باحترام «هذا موقف يدعو إلى الإعجاب أيها الأخ . إليك ما أريد إيصاله شخصياً –»

أحسَّ دي تشونسي بدفقة من السرور لمخاطبته بكلمة أخ من قبل الأمير ووبخ نفسه فوراً على تصرفه الطفولي . استمع بتركيز مع الآخرين بينما انطلق إدوارد يشرح خطته .

قبل انقضاء الساعة ، كان هو ودي كلير يركبان بدون مرافقين نحو قلب خط الفرسان على السهل المعشب خلف الأسوار . هنالك عثروا على السلطان بيبرس بدون أية صعوبة وبدون الحاجة إلى مخاطبة أي وسطاء أو موظفي بلاط . كان مستحيلاً على المرء أن يغفل عنه . جلس في وسط الصف الأمامي تماماً ، متقدماً بما يعادل طول حصان عن أقرب رجل إليه ، تعادل قامته طول شجرة بلوط في السرج ، أطرافه غليظة إلى درجة أنها تشابه فروع واحدة من تلك الأشجار الهائلة التي تسلقها دي تشونسي في طفولته . ظهر السيف المنحني الهائل الذي يربطه إلى وسطه كأنه يكاد يصل إلى طول رجل عادي ، ولم يغب عن نظر الرجلين الإنجليزيين القوس الصغيرة الشرسة المعلقة إلى جانبه . لدى اقترابهما ، لم يتحرك أي شخص من جماعة الفرسان أو يرحب بهما ، لكن دي تشونسي شاهد العين ذات العلامة للمرة الأولى ، وارتعش ؛ لأن بياضها تناقض تماماً مع سواد العين الأخرى بطريقة مزعجة بعمق .

بات دي كلير سعيداً لأن خوذته المستديرة تقف عند خط التقاء جبينه مع عينيه بحيث اختفى حاجباه ، لأنه لم يتمكن من مغالبة دهشته الهائلة لدى رؤية سلطان العرب المسلمين ببشرة فاتحة ، وحتى إنه يبدو وكأن شعره يميل إلى الشقرة .

جلس خلفه الرجل الذي لا يمكن إلا أن يكون تيكا ، لأن حجمه ربما كان أضخم حتى من بيبرس .

توزع خلفهما وحولهما جمع من الحراس والمستشارين ، دروعهم

ومطاياهم أكثر فخامة وجرأة من دروع ومطايا الفرسان العاديين القريبين منهم .

سحبوا عناني جواديهما ليتوقفا على مسافة قريبة من المجموعة الملكية ، تبادل الطرفان نظرات فاحصة لوهلة . أخيراً تقدم رجل ضخم البدن إلى الأمام وخاطب الرجلين بالعربية .

«انظرا إلى نور الدنيا وحامي الإسلام ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدار ، سلطان مصر وسورية ووالد الفتح - محطم المعبدين والهوسبيتاليين في معركة لافوربي ، الكارثة التي حلت بالفرنجة في المنصورة ودمياط ، والمنتصر على قوات الخان المغولي في عين جالوت - انظرا إليه وقدما احترامكما ، الله أكبر» .

نظر دي كلير الذي لم يفهم كلمة إلى دي تشونسي ، والذي بدوره همز حصانه خطوة إلى الأمام وبدأ تقديمة باللغة العربية أيضاً .

«إنني الأخ جوزيف دي تشونسي من رهبنة فرسان الهوسبيتال ، وهذا هو السير توماس دي كلير ، فارس وسفير للأمير إدوارد من آل پلانتا جينيه ، ابن هنري الثالث الذي يحمل الاسم - ملك إنجلترا ولورد إيرلندا ، دوق نورماندي والاكيتين» .

ترجم مبعوث الفرسان هذا الكلام لبيبرس ، الذي جلس محدقاً في الرجلين مباشرة . عندما أنهى المبعوث كلامه ، بقي بيبرس صامتاً للحظة أخرى ثم بدأ يتكلم ، فجاء صوته بطيئاً هادراً ، مثل دق طبول بواسطة معاول ثقيلة . أصغى المبعوث ورأسه يطأطئ صعوداً ونزولاً ، ثم نقل الرسالة إلى الرجلين الإنجليزيين ، على الرغم من أنه بات واضحاً بأن دي تشونسي قادر على فهم اللغة العربية التي تكلمها بيبرس .

«يقول صاحب الجلالة السلطان إنه إذا كان أميركم ينوي أن يزور

الأماكن المقدسة بالنسبة لدينكم المسيحي ، فهو سوف يسافر بسلام تحت حماية السلطان . ما زالت الهدنة التي تم الاتفاق عليها بين الملك هيو الذي يقيم في قبرص والسلطان السابق قطز سارية ، لأن السلطان بيبرس لن يحنث بقسم تم أداؤه تحت عين الله» .

«أخبر السلطان أن الأمير إدوارد لا يسافر تحت حماية أحد سوى الرب العظيم جل جلاله نفسه . إذا كان يرغب في رؤية المكان الذي مشى عليه المسيح المبارك فهو سيفعل ذلك . إن الإذن الصادر عن الكفار لا يعني شيئاً بالنسبة له» .

أصغى دي تشونسي إلى دي كلير وهو يقول هذا الكلام بنظرة ذاوية . عندما أنهى كلامه ، حدق دي كلير إلى الخلف وأشار إلى الفرسان وقال «هيا ، أخبرهم» .

سحب دي تشونسي نفساً عميقاً ، ونفذ الأمر الصادر إليه .

أصغى بيبرس ورفاقه بصمت زاد ثقله تدريجياً حتى استمر إلى ما بعد انتهاء دي تشونسي من كلامه .

كسر دي كلير الصمت ، حين قال لدي تشونسي «أخبرهم أننا سنتحدث إلى الشخص الذي يدعونه قلاوون» .

انفتل رأس المبعوث عند هذا القول .

أخذ حصان دي تشونسي يستدير ، باحثاً عن عشب يقضمه ، حين قال «إنه يقول برغبته في مقابلة رجل اسمه قلاوون» . وهو يعبث بالأعنة .

قال المبعوث «أنا هو قلاوون» .

فهم دي كلير معنى هذه الكلمات وأطلق ابتسامة أقرب إلى العبوس «إذاً فسوف تعرف أرماند أيضاً ، ألا تعرفه؟»

نظر قلاوون إلى دي تشونسي مستوضحاً «إنه يقول بأنك تعرف رجلاً يدعى أرماند» .

اتسعت عينا قلاوون المغطاتتان واتسعت معهما ابتسامة دي كلير .

«نعم! ها هو هناك . أشكرك يا سيدي» . نظر خلفه إلى أسوار المدينة وأشار ، متحدثاً بصوت عالٍ إلى قلاوون مباشرة . «أرأيت هناك؟ هل ترى رجلك؟»

تابعوا مسار إصبعه حيث يشير ، وهناك ، في مكان مرتفع فوق المتراس ، كان هناك شكل صغير لرجل يقف فوق الحاجز . وقف خلفه شكل رجل طويل القامة متميز بلباسه الأبيض .

«هناك! هناك يوجد تابعك أرماند - هل تراه؟» أشار دي كلير . نظر قلاوون إلى حيث يشير ، عابساً . بدا وكأن فم دي تشونسي ودماغه قد توقفا عن العمل ، لأنه لم يستطيع أن يفكر في الكلمات التي تشرح أقواله بالعربية . ثم أشار إلى الرجل خلفه ، وهو يعقف إصبعه «وذاك الآخر؟ ذلك هو أميري» .

نظر قلاوون خلفه إلى بيبرس الذي ظهرت عليه الحيرة - على الرغم من أنه لم يظهرها - إلا أن كليهما فهم ما يقوله الرجل الإنجليزي بدرجة كافية . «راقب الآن -» لوَّح دي كلير ذراعه في قوس عريضة باتجاه المدينة ، فصعد الرجل الذي يرتدي البياض إلى درجة حاجز المتراس ، أمسك بأرماند الساكن من رقبته ووسط بنطاله ، ثم ألقى به إلى الصخور الكائنة تحت الأسوار .

«ذلك هو ما يعتقده أميري بحمايتكم - وهو يريدك أن تعرف بأن ذلك هو المصير الذي ينتظر جميع الذين يرفضون أن يعترفوا بأن إرادة الرب هي المسيطرة على هذه البلاد وسائر أنحاء الأرض بكاملها . إن

مملكة السماء قادمة ونكاد نلمسها» .

عثر دي تشونسي على صوته وقدم أفضل ما لديه لنقل كل هذا الذي قيل حسب الكلمات التي استخدمها دي كلير .

طرح قلاوون - المنزعج وليس الغاضب - على دي تشونسي سؤالاً عندما أنهى كلامه :

«ماذا إذا هاجم السلطان واستولى على هذه المدينة اليوم؟»

«إنه يسأل عما سيحدث إذا هاجمونا» . بالنسبة لدي تشونسي ، فقد انتهى من محاولة استخلاص أي منطق مما يحدث . فقد أخذ يصلي لنفسه وتقبل مصيراً قصير المهلة .

«إن سيدي يطالب بأن تتوقف عن إرسال الجبناء والجواسيس إليه ، وأن ترسلوا بدلاً من ذلك شخصاً من بينكم قادراً على أن يقاتل» . قال دي كلير . تمت ترجمة هذا المطلب بصوت خالٍ من الحيوية بواسطة دي تشونسي .

«إنه يتحدى سلطانكم لأن يقاتله» .

كان دي تشونسي مستمراً في الحديث إلى الفرسان في الوقت نفسه الذي تكلم فيه دي كلير ، فاستمر في ترجمته هذا التحدي بدون توقف . لم يتوقف ويحدق في دي كلير إلا عندما نطق بكلمة **يقاتله** بالعربية .

انفجر الضجيج بين جماعة السلطان - أشهرت السيوف وصدرت الشتائم واللعنات صارخة . جلس دي كلير إلى الخلف في سرجه وابتسم .

سأله دي تشونسي «هل أنت مجنون؟»

قال دي كلير «هذا هو ما قاله لي الأمير إنه يريده أثناء مغادرتنا .

إن واجبي هو إخبار هؤلاء المتوحشين» . قالها بدون اكتراث .

فحَّ فيه دي تشونسي «سوف تتسبب بمقتلنا!»

لم تهدأ الفوضى في الجانب الآخر ، ولكن في اللحظة التي بدأ فيها الصف الأمامي من مجموعة بيبرس يتحرك قدماً رافعين سيوفهم وأقواسهم ، رفع السلطان ذراعه فتنزل عليهم صمت ذاهل .

تكلم بيبرس بمجموعة سريعة من الكلمات والعبارات ، والتي بذل دي تشونسي أفضل جهوده لفهمها . عندما انتهى ، التفت الهوسبيتالي إلى دي كلير .

«يقول إنه ليس لديه أي خوف من الأمير إدوارد ، وإنه يرضى بمقابلته في أي زمان ومكان من اختياره!»

«الآن!» قال دي كلير «قل له إن إدوارد سوف يقاتله هذا اليوم» .

نظر دي تشونسي إلى بيبرس «هل تعتقد حقيقة أن إدوارد سيتمكن من هزيمته؟ الرجل عملاق» قال لدي كلير .

قال دي كلير «هو في النهاية رجل . وقد استطاع إدوارد أن يطرحك غائباً عن الوعي بدون أي مجهود يذكر . أنت لم تر الأمير عندما تفور دماؤه ويصبح في أفضل حالاته» .

وافقه دي تشونسي «هو بدوره رجل ضخم - وربما يتفوق على بيبرس من ناحية الطول» .

ولكن في كل الأحوال ، فالرجل الأكبر سناً أضخم وأثقل وزناً من إدوارد ، ذلك بات جلياً لهما . معروف عن بيبرس براعته في السرعة والتوقيت ، ولكن هل سيتمكن إدوارد من التفوق عليه في هاتين الميزتين؟ وحده الرب يعرف ، فكر دي تشونسي .

«لقد فكر صاحب الجلالة السلطان في طلبكم» . أنهى قلاوون

مشاوراته مع بيبرس وخاطبهما مرة أخرى «إنه راغب في اختيار بطل من كل من جيشينا للقتال دفاعاً عن شرف سيده» .

أحسَّ دي تشونسي بالارتباك . ألم يكن بيبرس قد قبل التحدي مسبقاً؟ «يا سيدي قلاوون ،» بدأ بالعربية «ألا ينوي سلطانكم مقاتلة الأمير؟»

تدخل دي كلير «ما الذي تقوله له؟»

طرفش قلاوون بعينيه بينما جلس بيبرس في سرجه محدقاً إلى الأمام «لقد سمعت ما قلته أيها الأخ جوزيف» قال قلاوون «سوف نرسل بطلنا إلى الأمام نحو وسط ذلك السهل خلال ساعة ، ونتوقع أن تتم مواجهته من قبل الأفضل في جانبكم . ثم سوف يتقاتلان ويقرران من الذي سيحمل شرف هذا النهار» .

«يقول إنه سيرسل أحد الأبطال ، وليس السلطان» قال دي تشونسي لدي كلير .

«جيد بما يكفي» أجابه دي كلير «لقد توقع الأمير هذا الموقف» . أشار إلى خط صفوف الفرسان خلفهما «هل سمعوا هذا التبادل في الحديث وفهموه كلهم؟»

«نعم يا سير ثوماس» .

«إذاً هم يعرفون أن رجلهم جبان . هيَّا بنا نذهب» .

أدار دي كلير وجهة حصانه بدون كلمة مغادرة وركب مبتعداً نحو بوابة المدينة ، تاركاً دي تشونسي ليخفض رأسه ويلحقه .

عبد

«إنه القرار الصائب الواجب اتخاذه يا صاحب الجلالة» قال قلاوون وهما يراقبان الفرنجيين يركبان مبتعدين «نحن لا يسعنا أن نخاطر بشخصك جراء الخديعة أو حتى احتمالية الوقوع في الأسر» .

«الأسر؟» أبقى بيبرس صوته خفيضاً ، لكن غضبه كان واضحاً «لقد دعاني هذا الأمير المتسلق الجرو إلى القتال ، فهل أبقى وأسمح له بأن ينادي على اسمي وكأنني نكرة؟ يجب أن أقاتله!»

«أرجوك يا مولاي» قال قلاوون «أنا لا أترجى بسهولة . يمكن لهذا أن يكون فخاً أو حيلة من نوع ما . كيف نعرف أنهم لا ينوون أن يستدرجوك إلى الأمام ، ثم يشنوا هجوماً من الجانبين بينما أنت معزول ونحن بلا قائد؟»

«هجوم من الجانبين ، هل أنت مجنون؟» قال بيبرس . كان يعي بألم شديد أن هذه الحادثة تجري أمام المجموعة بكاملها . جاهد لكي يبقى صوته وعواطفه تحت السيطرة . «إنهم لن يقدروا على مهاجمتنا حتى ولو أرادوا . ستنفق جيادهم الناحلة من الإرهاق قبل حتى أن يصلوا إلينا . ستقابلهم عاصفة من السهام . لقد سمع كل رجل موجود هنا ما قاله ذلك الشيطان - لقد تحداني الأمير ، والآن هل أرسل شخصاً آخر ليخوض معاركي عوضاً عني؟»

قال قلاوون «إنما تتصرف كما ينبغي على السلطان أن يفعل . مهمتك هي أن تحكم وتحكم بالعدل . أنت لا تفعل ذلك بخوض

المشاجرات أمام الصفوف . لقد انتهى عصر الأبطال» .

في هذه الأثناء ، وصل الخيالان إلى البوابة الكائنة في قاعدة حصن الهوسبيتاليين وتمت تحيتهم بهتافات هائلة . شد بيبرس على أعنة حصانه أكثر وفحَّ :

«هذا لا يمكن قبوله» .

قبل أن يتمكن قلاوون أو أي شخص آخر من القيام بأي رد فعل ، دفع بيبرس بكاحليه في جنبي حصانه وانطلق يعدو هذاباً في إثر الرجلين الإنجليزيين .

«توقف! مولاي!» صاح قلاوون ، لكن جاء صراخه متأخراً ، وابتعد بيبرس أكثر من ثلاثين خطوة قبل أن يضرب قلاوون وتيكا جواديهما بالأعنة ويطارداه . سرعان ما بدأت بقية المجموعة : مهنا والموت وعبد وأنصار يركبون وراءهما .

«هيَّا انطلقوا وراءنا أيها الحمقى!» صاح قلاوون وراءه على بقية الحرس الشخصيين ، فبدأوا بالطراد عن بكرة أبيهم ، بعد أن استفاقوا من صدمتهم جراء انطلاقة بيبرس .

قطعوا المسافة بثبات وثقة . كانت الأرض منبسطة وبدت خالية من أي نوع من الحفر أو الأخاديد التي يمكن أن تسقط حصاناً وتكسر قائمته ، أو تطرح كلاً من الحيوان وراكبه لتسبب لهما الإصابة أو حتى الموت في بعض الأحيان . أخذت المسافة بينهم وبين بيبرس تضيق ، لكن سرعته وغضبه كانا هائلين إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من مجاراته في سرعته . بقي يتقدمهم لوحده ، وقد طار ذيل عباءته وتلوح من الريح ، ليشكل بريقاً من اللون القرمزي فوق سواد سترته واللون البني الداكن على الأرض .

في اللحظة التي بدأ فيها الحراس فوق أسوار عكا يرفعون أقواسهم ويصوبون نحوه ، سحب بيبرس أعنة جواده بشكل مفاجئ لدرجة أن حصانه تزحلق حتى وقف ، ثم عاود المسير ببطء متعمد . رفع ذراعيه فوق رأسه ونظر إلى الأعلى ، متحدياً أولئك الذين ينظرون إليه في الأسفل . كاد قلاوون وصحبه أن يتجاوزوه في عجالتهم ، وأخطأوا تقدير سرعته ولكنهم بعد أن سيطروا على مطاياهم وجعلوها تمشي ببطء ، بقوا عند كتفيه . رفع الحرس الشركسي أقواسهم على سروجهم ثم شكلوا خطاً مستقيماً ، وسددوا سهامهم نحو أولئك الذين يحملون الأقواس فوق الأسوار .

جاء صوت قلاوون خشناً «مولاي ، أرجوك أن تتراجع . بإمكان أي واحد منهم أن يطلق عليك من هذه المسافة» .

نظر الآخرون إليه وقد اختط القلق وجوههم بكل قوة .

«دعهم يحاولوا» قال بيبرس بصوت عالٍ وصل إلى فوق المتاريس وآذان الفرنجة . «لأنني أنا بيبرس! سلطان كل المؤمنين! الله وحده هو الذي يحميني!» رفع ذراعيه أعلى وأرجع رأسه إلى الوراء «شاهدوا بيبرس!» صاح بهم «أنا المنتصر في حروبنا وسوف أستولي على هذه المدينة أيضاً وأطرد أناسكم إلى داخل البحر خلف أسواركم العظمى! لقد جئت إلى هنا لأعطيكم إنذاراً منصفاً - اقبلوا بالدين الحق أو ادفعوا الجزية ، وإلا فإن البلاء سيحل على كل ما تحبونه ومن تحبونهم - أقول هذا لكم بنية سليمة ، وأنا أعرف أن نواياكم ليست طيبة ، لأننا عانينا كثيراً على أيديكم ، وأنتم مستمرون في مهاجمتنا في هذا الوقت!»

انتفض عبد لدى سماعه هذه الكلمات - ومع ذلك فقد أشعرته

بالراحة أيضاً . خاف مثل قلاوون أن ينطلق سهم فيسكت بيبرس في أي ثانية ، ووقتها سينتهي كل شيء .

راقبه الفرنجة الواقفون على الأسوار ، ومعظمهم يرتدي ملابس ودرع الهوسبيتاليين وآخرون بألوان مختلفة ورايات ورموز مرسومة على صدورهم ، راقبوا الأداء غير العادي في المواجهة والشجاعة ، وتساءل عبد عن عدد أولئك الذين منهم ، فهم ما كان بيبرس يقوله لهم .

«أنا أقول لأميركم - بغض النظر عن مكانه بينكم - أرسل أفضل رجل لديك إلى هذه البقعة التي أقف عليها الآن ، وسوف نرسل أفضل رجل لدينا - وسوف نقرر هذا اليوم من هو الذي يقدر على المشي فوق هذه الأرض المقدسة مرفوع الرأس عالياً!»

عاد دي كلير ودي تشونسي إلى الظهور فوق السور في هذه اللحظة ، وتقدما إلى المقدمة محاطين بعدد من الهوسبيتاليين الأكبر سناً وعدد من الفرسان الأصغر سناً بما يوازي عمريهما . وقف هيوز دي راڤيل بينهم . لكز عبد قلاوون وأشار بيده :

«انظر هناك - هل تعتقد أن أحد هؤلاء الرجال هو الأمير؟»

نظر قلاوون إلى الأعلى ورأى ما يراه عبد ، ولكنه حين لم يشاهد أحداً يرتدي تاجاً ، أصبح من الصعب عليه تمييز أي من الرجال ذوي الوجوه البيضاء حول المبعوثين يمكن أن يكون ملكياً .

أنهى بيبرس كلامه ووقف ينتظر أن تغوص كلماته وتؤتي تأثيرها بين الفرنجة .

«ماذا تقول يا دي تشونسي؟ أو أنت أيها الرئيس العام هيوز؟» صاح قلاوون ، محاولاً أن يسحب نظرة أو لمحة تكشف عن أمير إنجلترا «ألا يزال أميركم راغباً في تحدي أعظم أبطالنا؟»

«سوف أجعل الأمير يتحدث عن نفسه» صاح الرئيس العام إلى أسفل بلغة عربية سليمة . «إنه لا يخافك يا قلاوون ، ولا أنت يا بيبرس» .

قال بيبرس «ولكن أنت لديك سبب وجيه لتخاف مني يا هيوز . سبب وجيه قائم منذ زمن طويل» .

جعل هيوز من انحناءته الواسعة رده الوحيد . راقبوا بينما التفت دي تشونسي الرجل الأطول قامة والأكثر وسامة بين الفرنجة القريبين - شاب لم يكد يخرج من سني مراهقته ، لحيته ما تزال تنقصها كثافة وخشونة الرجال الأكبر سناً . على الرغم من بساطة ملبسه ، فقد جاءت ملامحه وطرازه في منتهى الأناقة ، وعندما وضع يده على مقبض السيف الجميل المطلي بالذهب مع غمده ، عرف قلاوون أن لديهم الخصم المتوقع . نظر إلى بيبرس ورأى أنه قد توصل هو أيضاً إلى الاستنتاج نفسه .

استدار دي تشونسي بعد حديثه مع إدوارد وبدأ يتكلم إلى الفرسان المنتظرين بالعربية .

«يكرر مولاي الأمير إدوارد تحديه لمواجهة السلطان الغاصب بيبرس بشخصه ، ويقول إنه لن يخشى من العبد الذي يقود عصابة كافرة من القتلة قاطعي الرؤوس . الوضع الآن كما سيكون عليه إلى الأبد» .

تبادل بيبرس وإدوارد التحديق في بعضهما بعضاً ، وجاءت الطاقة التي انبثقت عنهما قوية بحيث لو انطلقت منها مجرد شرارة صغيرة لأشعلت جحيماً قادراً على إذابة الجدران نفسها .

«هل تجرؤ على أن تتحداني أيها العديم الأخلاق؟» زأر بيبرس إلى فوق ، فقال إدوارد شيئاً ما لدى تشونسي .

«يأمرني مولاي إدوارد بأن أخبرك أنه أنت الذي تتجرأ لتمشي بقذارتك على الأرض ، التربة نفسها التي قدسها دم المسيح نفسه ، وبينما تتحدث أنت عن الخديعة من جانب شعبنا ، فإن شعبك هو الذي كسر قيود الهدنة والاتفاق عندما أحضرت جيشك إلى هنا اليوم» .

سحب إدوارد سيفه وأشار به إلى فوق ، باتجاه إدوارد الساكن مباشرة . سحب رماة الأقواس في الجهتين أوتارهم مرة أخرى ، وأخذت أكتافهم ترتجف تحت ضغط الأوتار المشدودة . قال قلاوون «أرجوك يا صاحب الجلالة ، تراجع إلى الوراء» .

قال بيبرس «سوف تشعر بنصل سيفي في عروقك قبل أن أنتهي منك» . بغير اكتراث ، «ثم سوف أهدم هذا الجدار الذي تختبئ خلفه لأحيله إلى ذرات تعصى على العد من الغبار حتى أمنع مثل هذا الإلحاد من أن يظهر في هذا المكان مرة أخرى» .

ترجم دي تشونسي هذا الكلام فرد عليه إدوارد :

«يدعوك الأمير إلى مهاجمة هذه الأسوار بمطاياك لترى نار الجحيم التي ستمطر نازلة على رؤوسكم . بعد ذلك ، سوف يركب إلى القدس مباشرة ويقدم الشكر للرب على التطهير الذي أنعم به» .

«سيكون هناك تطهير بالنسبة إليك - تطهير الدموع!» تصاعد غضب بيبرس وهو يرد ، فقوبل رده بموجة من صرخات السخرية من الأسوار . استطاع قلاوون أن يلاحظ بأن الميزة الآنية والانبهار الذي أحدثه حضور بيبرس في البرج قد بدأ يتلاشى ، وأصبحت المواجهة برمتها تتحول إلى مباراة في الشتائم والإهانات المتبادلة .

نادى «مولاي! مولاي!» استمر بيبرس يهز سيفه في وجوه

المدافعين الساخرين . استمر إدوارد ورفاقه في الضحك . «ماذا؟» استدار السلطان .

«قل لهم إنه لدى إدوارد فرصة أخيرة ليواجهك ، وإلا فإنك ستترك بطلنا هنا لينتظر بطلهم» .

كشَّر بيبرس «أنت قلت قبلاً إنه لا يجدر بي أن أقاتله!»

«كان ذلك في حينها - تحداه ، هو لن ينزل» .

استدار بيبرس وانتظر الفرنجة حتى يصمتوا . عندما حدث ذلك ، زأر مثل أسد «هل سيواجهني أميركم؟»

رد عليه إدوارد صارخاً «إنني أواجهك!» نفض بيبرس رأسه بعد أن أنهى دي تشونسي الترجمة . عاد الفرنجة إلى الضحك .

«انزل إلى هنا وواجهني مثل رجل!»

«يقول الأمير انه لا توجد أرض محايدة كما خطط هو» . ترجم دي تشونسي بينما استمر إدوارد في الكلام والإشارة «لقد خنتم الثقة مسبقاً . اسحبوا قواتكم إلى ذلك المكان الذي جئتم منه وسوف نبعث ببطلنا إلى الخارج» .

أدى هذا القول إلى صدور هتاف مدوّ من الفرنجة .

«كما ترغب» صاح قلاوون قبل أن تتاح لبيبرس فرصة الرد . لم يكن قد أحسَّ بمثل هذا القدر من الانفراج قبلاً . فقد فرغ صدره من الهواء ، لدرجة أنه لو تهاوى حصانه تحته لما شعر .

«مولاي ، يجب أن نتراجع . هذا ضرب من الجنون . نحن بدون دفاعات هنا . إنها معجزة لكونهم لم يهاجمونا أو يطلقوا علينا السهام حتى الآن . أرجوك ، تعال إلى الوراء» .

أدار بيبرس مطيته برأس مرفوع وظهر مستقيم وهذب مبتعداً ، بادياً

لكل العيون التي تراقبه أنه ليس لديه أية هموم ، وركب إلى وسط حراسه ومستشاريه .

«من الذي سيقاتل؟» سأل قلاوون عندما وصلوا إلى مدى آمن من السهام .

«كنت سأقوم بذلك» قال البدوي مهنا «لكنني كبرت في السن كثيراً ، وأخاف من عار الهزيمة أكثر من خوفي من الموت» .

قال بيبرس «لقد قدمت خدمتك ، أيها الصديق القديم . ما زلت أقول إنني سأقاتل» .

ندت عن الجميع طقطقات الرفض و«لا!» جماعية على هذا القول ، مال الموت إلى الأمام وقال «لا يمكنك ذلك يا مولاي . فمن الذي سيأخذ العرش لو أنك قتلت نتيجة تحايل؟»

قال قلاوون «ذلك هو ما قلته» ، فأظهر بيبرس قبوله لمنطقهم بيدين مفتوحتين إلى أعلى .

سأل عبد «هل يوجد رجل بين الصفوف؟ أنصار ، أليس لدينا رجل في كتائب المدفع يسميه الشباب (الصخرة) أو (الحجر؟)» .

«اللوح» قال أنصار «قطعة الصخر المستوية . إنه متوفر ، ولكنه بطل مشاجرات أكثر منه مبارز بالسيف - أخشى أن مواجهته لرجل صاحب مهارة عالية سوف تصيبه بالارتباك» .

تراجع كلاهما بينما وضعت يد هائلة الحجم نفسها تحت أنوفهم وقد تكورت لتشكل قبضة فنظر الجميع إلى صاحبها

تيكا .

نظر بيبرس إلى أقدم أصدقائه «هل ستقاتل هذا اليوم؟»

أومأ تيكا برأسه موافقاً . لم يصدر أي اعتراض من أحد على هذا

الترشيح ، لأنهم جميعاً يعرفون أنه بعد بيبرس فإن تيكا هو أعظم مقاتل لديهم . قدم السلطان ذراعه وأمسك كل منهما بذراع الآخر في مصافحة عنيفة .

قال بيبرس «قضي الأمر» .

أدار تيكا حصانه وعاد به باتجاه الأسوار ، مشهراً سيفه المقوس الهائل أثناء ذهابه ورافعاً إياه في الهواء حتى يراه الجميع .

لدى وصوله إلى الأسوار ، بقي خارج مدى السهام بقليل واستمر يذرع الساحة جيئة وذهاباً ، يحدق في الشتائم والهتافات العدوانية والفرنجة الصافرين ، ملوحاً بسيفه في الهواء ، بانتظار خصمه . لو كان الأعداء قد بهتوا من حجمه ، فهم لم يظهروا ذلك . حتى إن بعضهم بدأوا يلقون الزبالة والقاذورات باتجاهه في محاولة لترهيبه . لم يتنازل تيكا حتى لينظر في اتجاههم .

ولم يضطر إلى الانتظار طويلاً للرجل الذي سوف يقاتله . انسحبت البوابة الضخمة التابعة لبرج الهوسبيتاليين وخرج منها فارس يمتطي حصاناً أسود هائلاً . كانت خوذة الرجل مغلقة ، تخفي وجهه ، وهو يحمل رمحاً أبيض طويلاً ، قاعدته في سرج الحصان ويمتد إلى حوالي خمس عشرة قدماً في الهواء .

قال أنصار «سوف يعلقه كما تعلق قطعة اللحم في سيخ الشواء» .

مال قلاوون «قلل من مخاوفك وليكن لديك شيء من الثقة ، أيها الأخ . إن تيكا واسع الحيلة» .

سأل عبد «ولكن كيف سيقاتل رجلاً ما إذا لم يكن قادراً على الوصول إليه؟ لماذا لم يحضر رمحاً؟»

«راقب» أجابه قلاوون . عبرت شفتيه ابتسامة صغيرة . بعد

الخوف الرهيب من أن يقوم شخص ما بإطلاق سهم على بيبرس ، بدأ الآن يعيد اكتشاف روحه العسكرية ويستمتع بالمجريات .

رفع الفرنجي رمحه مستقيماً في الهواء وصرخ بشيء ما .

«ما الذي قاله؟» سأل بيبرس .

«قال بأن اسمه هو مورتيمر - وشيء آخر - أظن أنه لقبه وأسلافه ، وأنه قادم إلى هنا ليقاتل لأجل الرب وابنه» قال عبد .

سأل بيبرس «وهل أنت تتكلم لغتهم؟»

نفض عبد كتفيه «قليل جداً . معظم ما أعرفه هو تخمين من الكلمات القليلة التي أعرفها» .

«يجب عليك أن تدرس أكثر - نحن سوف نستفيد من رجل مثل ذلك المدعو دي تشونسي إلى جانبنا» .

«لدينا الكثير من الرجال الذين يتكلمون باللسان الفرنجي يا مولاي» .

قال بيبرس «ولكن ليس بينهم من أريده ضمن مجموعتي . لاحظ الميزة التي تحظى بها يا عبد . واصنع منها أقصى ما يمكنك» .

عاد عبد بتفكيره إلى كلمات صفية - تساقط صوتها عليه وكأنها موجودة معه - «هناك رجال مستعدون لأن يقتلوا في سبيل الحصول على ما لديك . . .» كانت قد قالت .

قال «سوف أسعى إلى دراسة اللغة بحيث نكون أفضل استعداداً في المرة القادمة يا مولاي» .

طرفش بيبرس بعينيه ليظهر أنه سمع ما قيل والتفت ليراقب المبارزة .

ما زال تيكا ومورتيمر على مسافة حوالي أربعين خطوة عن

بعضهما . بات جلياً من نقطة رؤية بيبرس أن تيكا يتمتع بالحجم الأضخم بين الرجلين ، ولكن لدى مورتيمر الحصان الأكبر والدرع الأقوى . عرف بيبرس أن الدرع أيضاً ثقيل جداً ، وإذا تم إسقاط مورتيمر هذا عن حصانه فسوف يعاني حتى يعاود الوقوف ، الأمر الذي قد يمنح تيكا لحظات حيوية ليوجه ضرباته .

دار الفارسان ، بحيث تحركت مطية مورتيمر إلى الأمام والوراء قليلاً . اتضح أن تيكا قد عثر على فسحة من الأرض وبات راضياً بها ، لأنه اكتفى بالمناورة بواسطة الأعنة بحيث يظل حصانه يواجه حصان مورتيمر ولم يقم بالكثير من الدوران . حمل السيف المقوس الهائل بيده اليمنى ، إلى فوق ، بينما استمر الجانب غير المسنن على كتفه . ضرب حصان مورتيمر الأرض بحافره وصهل ، محاولاً أن يترك ليهجم على خصمه . رفع حصان تيكا قائمتيه الأماميتين وأنزلهما على التوالي ، وكأن الحيوان يتأهب لسباق أو عملية جري لبعد الظهر .

استدارة سريعة ، ثم أخرى ، وبعد أن أدار ظهره نصف دورة لصف الفرسان ، ظهر وكأن مورتيمر قد عثر على الزاوية التي كان يبحث عنها فأرخى الأعنة من يده وتركها لتستقيم ، ثم رفس بكاحليه المهمزين في جنبي الحصان في الوقت نفسه . أثار الحصان كومة من الغبار حين دق الأرض بحوافره ، ليتحرك بسرعة بحيث أن العديد من الشباب الأصغر سناً بين خط الفرسان لم يصدقوا أن مثل هذه السرعة ممكنة من حيوان بهذه الضخامة . أولئك المخضرمون الذين جابهوا الهجمات الجماعية من الفرسان الفرنجة بصحبة بيبرس في لافوربي والمنصورة أدركوا هذه الحقيقة . كذلك أدرك تيكا الذي توقع هذا الاندفاع وأبقى مطيته ثابتة بشد الأعنة بقوة . بينما أخذ مورتيمر يختصر الياردات التي تقف

بينهما بسرعة مذهلة ، ضغط تيكا على أعصابه لثانية ثم اثنتين ، بحيث سمح لمورتيمر أن يصل إلى السرعة القصوى ويتجاوز نقطة اللاعودة ، ثم همز حصانه إلى الأمام وذهب ليجابه الهجمة .

قال عبد «إنه يتحرك ببطء شديد . أسرع! أسرع!»

راقب بيبرس وقلاوون بغير تأثر .

عندما وصل الإنجليزي إلى مسافة ثلاثين ياردة وسرعته تتزايد مع كل طردة ، ألقى تيكا بأعنته من يده ، سيطر على حصانه بين ساقيه القويتين ثم أنزل يده إلى تحت سرجه .

لم يتسن لمعظم أولئك الذين يراقبون الوقت أو حتى سرعة العيون ليروا ما هو الشيء الذي أخرجه ، لأنه ظهر مثل شعاع فضي بارق ، يلتمع تحت شمس الظهيرة ، ثم رأوه يطير ، ملقى بالقوة القصوى لذراع تيكا اليسرى حيث أصاب مورتيمر بضربة جانبية على جبين خوذته . سقط البارون جانباً عن السرج ، بحيث قفز الرمح على الأرض في الجهة الأخرى ، بينما وقعت المطرقة التي أطلقها تيكا في الغبار تحت شجيرة صغيرة .

انطلق الزئير من جانب الفرسان ، بينما زأر الرجال في جانب الهوسبيتاليين يحثون مورتيمر على النهوض . كما توقع بيبرس ، كان ذلك عملاً شاقاً ، ولم يتمكن من النهوض إلا بالاستعانة بكل ذرة من قوته لبناء الزخم ، إذ اضطر إلى دحرجة جسمه من جانب إلى الآخر حتى أصبح راقداً على معدته مثل دودة ، ثم دفع بذراعيه إلى الأعلى وغرز غطائي إصبعي قدميه المعدنيين في التراب . عندما نهض ، وما زال رأسه يطن من صدمة المطرقة الحربية ، حان دور الهوسبيتاليين للتصفيق . ارتفعت القبضات لتتبعها صيحات التشجيع .

في الأثناء، كان تيكا قد أوقف حصانه بعد الهجمة النصفية، وأداره ليجابه مورتيمر الذي ما زال يكافح لينهض. في اللحظة التي وصل فيها الإنجليزي إلى الوقوف على قدميه واحتفل أصدقاؤه، ضرب تيكا حصانه بالسوط وأطلقه في أقصى طراد له وبدأ يتجه نحو المقاتل الواقف.

أمسك مورتيمر بسيفه، لكنه كان قد انحنى مع سقوطه، ولم يقبل النصل أن يغادر غمده. شد على المقبض وخرمشه، لكنه لم يتحرك فرفع عينيه ليرى تيكا قادماً نحوه وهو يلوح بسيفه في حركة قوسية إلى الأعلى. أحنى مورتيمر ركبتيه وقفز جانباً خارج مسار الحصان في الثانية الأخيرة، حيث تدحرج لبضع ياردات، قبل أن يضطر إلى خوض عملية النهوض المؤلمة مرة أخرى. راقب الفرسان والفرنجة على السواء صامتين بينما أوقف تيكا حصانه وأدار وجهة حصانه الذي بدأ الآن يلهث.

عاود مورتيمر الوقوف على قدميه، مع أن الجهد كلفه الكثير من ناحية القوة، فأطبق يده على مقبض سيفه والأخرى على الغمد وسحب بكل قوته. خرج السلاح في يده وزأر الفرنجة هاتفين.

رفع قلاوون رأسه عن المبارزة لينظر إلى قمة البرج. بدا وكأن هناك عدداً أقل من الرجال هناك عما تواجد مسبقاً. «أين هو الأمير وأين هم رجاله؟» سأل بيبرس.

«ماذا؟» نظر بيبرس إلى المتراس ثم عاود النظر إلى الصراع «ربما أنه لا يحتمل رؤية صديقه وهو يذبح». قال وهو يراقب تيكا يهدئ حصانه تمهيداً لهجمة أخرى.

«ومع ذلك فقد كان راغباً في القتال هنا بنفسه هذا اليوم». قال

قلاوون مخاطباً نفسه ، لكن بيبرس لم يعد يصغي إليه .

قام تيكا بالهجوم على مورتيمر ، فوقف الإنجليزي ثابتاً في مكانه هذه المرة ، مشهراً سيفه المعوج إلى أعلى . ركب تيكا متقدماً ، وسيفه المقوس يرسم دوائر أشبه بمنجل عند جنبات الحصان ، غيَّر التلويحة إلى أعلى في وقت مثالي لحظة وصوله إلى مورتيمر . ضرب الإنجليزي إلى أسفل والتقى النصلان ، فطارت الشرارات وانطلق رنين الفولاذ عالياً .

أخذت خطوة مورتيمر الجانبية جسمه خارج مسار ضربة تيكا الخلفية ، واضطر الفارس إلى الدوران مرة أخرى . تسببت هذه الهجمة في خروج صرخات وتصفيق أيدي الجانبين ، وبدأ صبي هوسبيتالي طبّال يقرع دقة العودة الإيقاعية .

بات الجميع يستمتعون بمشهد المقاتلين المتساويين في القوة والمهارة .

مع أن حصان تيكا قد بدأ يزبد من فمه ، إلا أنه قام بالهجمة ، ورفع تيكا سيفه عالياً في هذه المرة ، وهو ينوي أن يطوح بمورتيمر الواقف بلا حصان بضربة جانبية ، والذي هرب حصانه بعد سقوط مورتيمر عنه وتمت مطاردته والقبض عليه من قبل شابين من الفرسان .

ظهر شعور وسط التطبيل والهتافات النمطية بأن هذه الهجمة ستحدد الميل المصيري وهكذا كانت - وقف مورتيمر ينتظر بسيفه المشرع ، وتيكا مندفع قدماً ، وفي اللحظة الأخيرة انحنى مورتيمر إلى درجة أنه كاد يرقد على الأرض ، متجنباً تطويح تيكا وموجهاً ضربته نحو ساقي الحصان العديمي الحظ . زعق الحصان وانقلب ، بحيث سقط بقوة إلى الأرض واحتجز تيكا تحت ثقله . كافح تيكا بيأس لتحرير ساقه ، لكن حركات الحصان الناتجة عن آلامه أبقته محتجزاً تحته .

عملت صعوبة مورتيمر في النهوض هذه المرة لصالح تيكا ، لأنه سنحت له ثوان عزيزة ليلوي ساقه الحرة إلى فوق وخلف ظهر الحصان ثم يستعملها كدعامة ليدفع بنفسه خارجاً من تحته .

بدأ مورتيمر يتقدم نحوه ، مشيراً بالسيف ، فنهض تيكا ليلاحظ للمرة الأولى أن سلاحه ، السيف المقوس العملاق ، ليس بحوزته . تلفت حواليه بيأس ، غير راغب في إدارة ظهره والركض ليبتعد عن مورتيمر الأثقل وزناً بكثير ، لأن شرفه وكبرياؤه يأبيان عليه ذلك بل يفضل الموت على إهانة الفرسان والدين بهذه الطريقة . في اللحظة التي قرر فيها أن يقاتل بيديه العاريتين ، لفتت نظره بارقة تحت شجيرة قرب قدميه .

المطرقة الحربية .

كانت المطرقة قد سقطت بفعل معجزة ما ، حيث قفزت عن رأس مورتيمر واستقرت .

كاد الإنجليزي يصل إلى نقطة قريبة لدرجة تمكنه من توجيه ضربته ، فلم يضيع تيكا أي وقت في الانحناء والتقاط المطرقة . اتضح أن مورتيمر لم يلاحظ فبدأ يحاول الهرولة ببطء والسيف مرفوع فوق رأسه بكلتا يديه . لم يستطع تيكا أن يقاوم الابتسام وهو يطوح بالمطرقة للمرة الثانية ، فاستقرت مباشرة في صدر مورتيمر بصوت مكبوت ، لتصادر كل الزخم من هجمة الإنجليزي وتطرحه جانباً . تنزلت على الفرسان فرحة صادقة فصاحوا بالموافقة . رغم أن خصمه لم يصب بأذى ، انتهز تيكا فرصة فقدان توازن خصمه وهجم مثل ثور . ضرب مورتيمر بكتفه بقوة وانقض عليه أثناء سقوطه ، يمطره بالضربات ويقطع يديه إلى أشلاء . جثم تيكا على صدر خصمه وبعد أن ثبته تحته ،

حاول أن يسحب الخوذة عن رأسه أو يفتح القطعة الأمامية حتى يتمكن من الإجهاز عليه . ارتفعت وتيرة تطبيل الفتى الهوسبيتالي وانضم إليه في هذه اللحظة زعيق بوق طويل .

تحول انتباه بيبرس وقلاوون عن القتال ونظرا إلى البرج خلفه . أصيبا بالدهشة حين شاهدا البوابة تنفتح وبدأ الفرسان المهاجمون يتقاطرون خارجين منها .

صرخ قلاوون «هذا هجوم! إنهم يتحركون خارجين!»

في البداية ، خرج عشرة ، ثم خمسة عشر وبعدها خرج العشرات من الفرسان المدججين بالأسلحة من البوابة ، ممسكين برماحهم مصوبة إلى الأمام وقد غطت الدروع أجسامهم بالكامل . طردوا خيلهم لوهلة إلى جانبي المتقاتلين تيكا ومورتيمر ، مثل موجة تتكسر على صخرتين ، وأحسَّ بيبرس باندفاعة آنية تخبره بأن صديقه سينجو بروحه ويعود إليهم . لكن تفاؤله تحول إلى اليأس حينما وجَّه أحد الفرسان ، يرتدي شعاراً غير مألوف بالنسبة له ، هو عبارة عن ثلاثة حيوانات أشبه بالقطط على درعه ، وطوَّح بضربة من سيفه الطويل عبر ظهر تيكا . أطلق بيبرس زعقة غضب وركل حصانه ، لكن قلاوون وألموت كانا ممسكين بلجام الحيوان وتمكنا من إبقائه في مكانه بمنتهى الصعوبة . أصبح العدو على بعد مئة ياردة ، ينتشر فوق مساحة واسعة من الأرض . لم تكن صفوفهم بدرجة عمق صفوف الفرسان ، لكن بيبرس لاحظ مؤخراً أن صفوفه مضغوطة على بعضها بدرجة خطيرة . بإمكان الفرنجة أن يحاصروهم ويهاجموهم من جميع الجهات إذا وصل هجومهم إلى الخطوط . سمح لقطعاته أن تنسحب إلى ناحية نتيجة التهائه باستفزازات الأمير ، بينما تم شن هجوم من الناحية الأخرى –

مثل لاعب شطرنج سيء تمت خديعة قطعه إلى جهة واحدة من الرقعة، تاركاً طريقاً مفتوحاً للملك من الأخرى.

زأر صارخاً «الأقواس! اسحبوها وعبئوا».

أطاع الرجال، بحيث أخرج كل واحد منهم سلاحه وسحب الوتر استعداداً لإطلاقه.

«أطلقوا!»

انطلقت السهام مثل حبات البَرَدْ، تصفِّر نحو أهدافها، لكن الفرنجة شاهدوا الإطلاق فانحنوا خلف دروعهم، وهكذا حطت السهام بدون التسبب بأي ضرر في المتاريس الخشبية أو انزلقت عن الدروع لتسقط إلى الأرض.

صاح قلاوون «انسحاب! يجب أن ننسحب إلى الوراء!»

صرَّف بيبرس بأسنانه وابيضت براجمه على الأعنة «كلا» قال من خلال العضلات المشدودة في رقبته حتى لتكاد تخنقه.

أصبح الفرنجة الآن على بعد خمسين ياردة. جعلت المقدمات الرفيعة لفتحات الخوذ العديد منهم يبدو أشبه بالحشرات، مناظر مرعبة جرى تكبيرها إلى أحجام عملاقة، وقد جحظت أعين خيولهم من خلف صفائح الدرع. أعاد الفرسان تلقيم أقواسهم والرماية على هواهم بدون انتظار الأوامر، لكن هذه الصلية المبعثرة لم يكن لها تأثير أعمق من الصلية الأولى. فقد استمروا في الهجوم.

«انسحب يا بيبرس، استحلفك باسم الرسول عليه صلوات الله!» قال قلاوون.

قبض عبد على سيفه بيد مرتعشة. أحسَّ بارتخاء في معصمه. نظر إلى بيبرس وقد تملكه الفزع. ضم ألموت ذقنه إلى داخل صدره،

مشهراً سيفه وقد كشر عن أسنانه مثل نمر . انتهى أمر تيكا . بات مفقوداً في مكان ما تحت حوافر الجياد الضخمة - الحيوانات نفسها التي قيل لهم إنها تكاد تهلك جوعاً . تبع بقية الفرسان مثال الموت - سيوف مشهرة ، وجوههم المستعدة للقتال عابسة وتخفي شعورهم بالخوف . ثبتوا في مواقعهم ، منتظرين سقوط المطرقة . رفع قلاوون يده ليمسك بذراع بيبرس بكل قوته وهو يرجوه .

«انسحبوا!» استدارت الرؤوس . صدر الأمر عندما أصبحوا على مسافة أقل من ثلاثين ياردة بين الفريقين ، وقد بدأ الفرسان يتساقطون جراء سهام الأقواس الفرنجية القصيرة .

«انسحبوا إلى الوراء! إلى الوراء!» وصلت الصرخة وأخذت الخيول تستدير - انسحبت المؤخرة وبدأت قوات الوسط المنتشرة تتبعها . أصبح الوضع حصاراً للمقدمة ثم المؤخرة . سحب بيبرس سيفه استعداداً لخوض القتال ، لكن قلاوون وألموت والقسم الأكثر تأثيراً من الحرس الشركسي ، وضعوا أنفسهم بينه وبين أقرب الفرنجة إليه وأخذ عبد وأنصار يطعنان إلى الخلف بينما هم يدفعون جواديهما إلى الأمام .

زعق بيبرس «اتركوني أرجع! اتركوني أرجع لأقتلهم!»

تجاهلوه ، أخرجوه من الحصار بين الرجال الذين نسوا كل ما يتعلق بسلامتهم الشخصية ليشكلوا ممراً ويجعلوا السلطان يمر - إلى الأمام ، حتى وصلوا في النهاية إلى فسحة وبدأوا يركضون هذاباً ، ولم يقبل عبد ولا أنصار بترك حصان بيبرس حتى ابتعدوا أكثر من ميل ، وأصبحت صيحات وأصوات المعركة بعيدة في خلفية المكان وتصلهم مبهمة وكأنها آتية في حلم مزعج . نظر السلطان خلفه واغتبط في قلبه لدى رؤية قلاوون وألموت يركبان خلفه في تصميم ثابت ، لكن كانت

هناك فسحة مكشوفة عند ذراعه الأيمن ، وطعنه الحزن بألم أشبه بنصل جليدي في قلبه ، ثم مال إلى الأمام وكأنه قد أصيب .

«مولاي! هل أنت مصاب؟» صاح عبد .

«ماذا؟» انتفض رافعاً رأسه «كلا» نظر حواليه «اتجهوا إلى ذلك المرتفع فوق الحقل . سوف نتوقف وننتظر المتأخرين» . نظر خلفه «ستواجه جياد الفرنجة الإرهاق قبل أن تصل إلى موقعها الحالي بوقت طويل . لن يتمكنوا من شن هجوم آخر مثل هذا بدون أن يتحملوا خسائر» .

قال ألموت «الأمر كما تقول يا صاحب الجلالة» .

«كما أقول» كرر بيبرس .

أباغا

سفوح جبال البروز ، على مسافة ركوب يوم إلى الغرب من بحر قزوين .

اوقفا التومين لحظة مشاهدتهما قافلة خان كوو ، وركب أرغون ووالده إلى الأمام متجاورين . إن الجيش الذي يقوده خان كوو جحفل هائل ، يزدهي صفار أزياء جنوده الذهبي منعكساً على بحر الخضرة في السهل ، بينما يرفرف اللون الأحمر للبيارق في الريح أمام بياض الجبل خلفهما . جلس الخان كوو يحدق أمامه أثناء اقترابهما ، حيث جاء موقعه إلى يمين اقترابهما من الجنوب ، في رمزية واضحة لأصوله التي قدم منها ، إضافة إلى منصبه بصفته ممثل الخاغان في هذه القمة .

على مسافة مباشرة أمامهم ، توقف تومين مينجو تيمور القادم من الشمال وعمه نوغاي بالأسلوب نفسه ، بينما استمر الرجلان قادمين نحوهما ، بوجهين صارمين وعاقدي العزم . خلال بضع دقائق ، واجه الأربعة بعضهم بعضاً - بينما وقف ابن قبلاي خان وجيشه يراقبان .

«اسمعوا الآن كلمات نوموخان ، ابن ضياء الدنيا ، الخاغان قبلاي -» رفع المبعوث محرقة البخور وطوح بها إلى يمينه ثم إلى يساره ، يطرد الأرواح والشياطين الذين يحتمل أن يسعوا إلى زرع الفتنة في عقول الرجال القادمين للكلام عن السلام ، بأسلوب احتفالي . بعد ذلك رتل صلاة باللغة القديمة ، قبل أن تتحول صلاته إلى نشيد إيقاعي بحيث

عبرت التوترات الراعشة الخارجة من حلقه إلى الحقول البعيدة، وسمعها الجميع.

جلسوا في صمت. راقب أباغا الرجال الماثلين أمامه وبادلوه التحديق. انعقد ذراعا أرغون فوق رقبة حصانه - فهو لا يعجب كثيراً بنواح الرهبان. عندما أنهى الأخ المحترم نشيده آخر الأمر، حرك نومو مطيته خطوة إلى الأمام ونظر إلى كل منهما بدوره.

بدأ كلامه «رجال عظماء» بصوت عميق يتناقض مع وجهه النحيل وجسمه الذي ما زال ناحلاً. «أنتما تعرفان السبب في قدومي إلى هذا المكان. إن والدي، الخاغان المبجل قبلاي يشعر بثقل في قلبه من الأخبار التي تقول بأن أولاده يتقاتلون فيما بينهم. إن حزنه شديد إلى درجة أنه لا يمكن لشيء أن يشفي الألم. ألا تشعران بالعار لأنكما أوصلتما الخاغان إلى مثل هذه الحالة؟»

طأطأ كل من أباغا وأرغون رأسيهما. تبعهما مينجو تيمور ونوغاي.

«لقد أرسلني لأخبركم بأن هذا التقاتل بين شعوب دماء جنكيز خان يجب أن يتوقف. بأن المغولي يجب أن يتوقف عن قتال المغولي وأن يغير على بلاد أخرى». ارتفع صوت نومو قليلاً. «إنه متألم بشكل خاص من الأخبار القائلة بأن أولاده لا يكتفون بالتقاتل فيما بينهم - كما يفعل الأطفال - بل لأنهم يتخذون دور الأجانب ضد إخوتهم الفرسان. لقد تم إعلامنا بأنكم سعيتم إلى تشكيل تحالف مع البرابرة في هذه الأنحاء والبلاد التي تليها، قرب البحر المستدير. لقد قيل لنا إنكم تعهدتم بالقتال ضد أخيكم مع هؤلاء البرابرة. هل هذا صحيح؟»

رفع أباغا رأسه ونظر إلى الرجال قبالته «أنا لم أعقد أية اتفاقيات

مع برابرة البحر المستدير . لقد سعيت كما فعل أبي هولاكو من قبلي ، وقائداه كتبغا وبايجو ، إلى نشر سيطرة الخاغان عبر الدنيا بأكملها . ذلك كان واجبي الوحيد والمهمة التي أنوي أن أنفذها» .

رد عليه مينجو تيمور بعنف «أباغا لا يفعل مثل ذلك الشيء» . فتح ذراعيه على اتساعهما ليخاطب نومو . «إنه يكسر رغبات الخاغان حول حرية الأديان ويضطهد أتباع الرسول ، بدون أي رحمة أو اهتمام . إنه يلوث الأماكن المقدسة في الدين ويمنع الناس من الصلاة كما يأمرهم الله - خمس مرات في اليوم . لقد أقدم هو ووالده وابنه» وأشار إلى أرغون «على قتل الخليفة الأكثر قدسية في الدين الإسلامي ، وأخضع أروع مدينة في العالم ، بغداد ، إلى السيف . كيف أستطيع أن أتعايش بسلام مع رجل على هذا المستوى من الدناءة؟ كيف يمكنني أن أتبع تعاليم الله وأظل آمل في الوصول إلى السماء ، بينما يستمر محطم الأشياء المقدسة في التجول على الأرض؟»

استند أباغا في جلسته وعقد ذراعيه «يا عزيزي خان كوو ، يمكنك الآن أن ترى بأن مينجو قد هجر دين آبائه - وولاء آبائه - ليتبع دين البرابرة . إنه يركع الآن لدينهم - وليس لدين والدك ، خاغاننا المحبوب» .

سأل نومو «هل تعترف بأنك تفضل دينك على خاغانك يا مينجو خان؟»

«أنا لا أعترف بمثل هذا الشيء . إنني أتكلم لأساعد الخان - أنا أقول له بأنه لن يسود السلام في هذه الأنحاء حتى يتم احترام دين الله الواحد الصادق ورسوله» .

ابتسم أباغا «وهذا هو الدليل ، يا نومو العزيز . إن مينجو مهتم في الحصول على منافع من البرابرة أكثر من اهتمامه بجلب المجد إلى

قبلاي . عمه المباشر بالدم . كما هو وضعي أنا - وأنت أيضاً . إن دماء جنكيز تجري في عروقنا جميعاً ، ولكن بالنسبة لمينجو وفرسانه ، فقد فسدت - تلوثت بخرافات الناس الذين دمرناهم كلياً بأنفسنا» .

قال مينجو «ينبغي عليّ أن أقتلك حيث تجلس عقاباً على قلة احترامك . أنا موجود هنا فقط بسبب البركة السامية للخاغان والحضور البهي المضيء لخان كوو» .

«أنت موجود هنا لأننا هزمنا جيوشك واسترددنا ما أخذته منا» . قال أرغون «وبسهولة أيضاً . أحب أن أضيف» .

انتفض مينجو واقفاً لكن أباغا رفع يده «إن أرغون محق . أنت مهزوم . الأمر الوحيد الذي يوقفنا عن مطاردتك عائداً إلى أصقاع الشمال فعلاً هو بركات الخاغان . لأننا نحن وفرساننا مازلنا موالين لجلالته في أبداننا وأرواحنا على السواء» .

راقب تايسون من موقعه على رأس تومين أباغا التطورات وحاول أن يتحزر ما يتم تداوله . لقد صدرت كل الإثارة حتى الآن من الجانب الآخر - مينجو تيمور يشير بيديه ويقفز صعوداً ونزولاً في سرجه . لم يقم عمه نوغاي ولم يأت بأية حركة على الإطلاق .

«يكفي هذا» رغم أن نومو هو الرجل الأصغر سناً في المؤتمر ، إلا أن سلطته كانت قوية إلى درجة أن كل ما يحتاج عمله هو أن يرفع يده ليقف جميع الآخرين في حالة تأهب ، تماماً كما تفعل الكلاب في إطاعة للصفير .

«إن قبلاي العظيم يسأل عن الأمر الذي سيجلب السلام بين أبنائه ، وبعد ذلك فقد أمرني بأن أسعى إلى تحقيق ذلك - بمباركة السماء - لذلك أخبروني ، ما هو ثمن السلام؟»

صاح مينجو تيمور «إنهم يحتلون كل الأراضي! والضرائب والبلدات!»

خفض عمه نوغاي رأسه خجلاً .

عبرت نظرة قناعة صامتة بين أباغا وأرغون «ها هي حقيقة المسألة» قال أباغا بعد توقف قصير «هي ليست الاهتمام برفاهية الضعيف . إنها الطمع» .

«هل هذا صحيح يا نوغاي خان؟» سأل نومو .

رفع نوغاي رأسه لكنه أبقى عينيه مسبلتين . حدق مينجو تيمور في الأرض وقد جحظت عيناه في غضب صامت .

أجاب «هناك قدر من الحقيقة فيما يقوله ابن أخي . رغم أن سلوكه يعيبه ويعيبني . إنني أرجو السماح يا **خان كوو**» .

قال نومو «لقد منحتكما السماح» بصوت ناعم «إن تأثير بلاد المتوحشين على عقل الرجل أكبر بكثير مما يقدر عليه أقوى أنواع حليب الأفراس . أليس الأمر هكذا؟»

«هو كذلك» تحرك نوغاي في سرجه «مع أن إيماننا الجديد بالرسول حقيقي - إلا أن فرساننا تنقصهم الثروة التي كدسها أباغا ووالده هولاكو لتوميناتهم عندما أرسلهم الخاغان إلى الجنوب . لقد تولى آباؤنا مهمتهم القاضية بالركوب شمالاً إلى بلاد أوروبا وإخضاعها لسلطة الخاغان بقلوب سليمة وإخلاص ، لكن جوائزنا وأراضينا تبدو تافهة بالمقارنة مع ما لدى أباغا» .

«إن بلادكم تافهة لأنكم انحزتم إلى جانب تولوي ضد قبلاي» تدخل أرغون مرة أخرى . «يجب أن تشكروا ربكم على أنه ترك لكم أي شيء على الإطلاق» .

رفع نومو يده مرة أخرى «لقد كان ذلك منذ زمن طويل يا أرغون، والخاغان لا يأبه بتجاوزات الماضي».

انحنى أرغون قائلاً «كما في كل الأشياء، يا مولى الرياح الأربعة، كلماتك هي الحقيقة».

«إليكم حكمنا -» رفع نومو رأسه حتى يتمكن المبعوثون والمراتب خلفهم من السماع.

«لن يواجه مينجو تيمور ونوغاي أية عقوبات على غزوهما الأراضي التي تتبع سلطة أباغا وتحت سيطرته بحق. إلا بدفع التعويضات لأهالي الرجال الذين أفقدوهما أرواحهم. سوف يتراجعان إلى ما وراء النهر الذي يصل البحرين ببعضهما، ويبقيان هناك. ما زالت أوروبا والهضاب ملكاً لهما».

بدأ مينجو تيمور يحاول الاعتراض لكن نوغاي أمسك بأعنة حصانه وحدجه بنظرة غاضبة.

«بالأسلوب نفسه، سوف يسمح لهما بالإحتفاظ بنصف الغنيمة التي أخذاها -»

حاول أرغون أن يتدخل هذه المرة لكن أباغا أسكته تماماً كما فعل نوغاي مع مينجو تيمور.

«سيكون هذا اعترافاً بأن يحتل أباغا الأرض الأفضل - أراضي بلاد فارس، النهرين، ومع حلول بركات السماء، مصر وبلاد العرب. إن قرارنا هو أن هذه البلاد تبقى على ما هي».

«أنت حكيم ومبارك، أيها الخان الطيب كوو». قال أباغا.

قال نوغاي «إننا نمنحك شكرنا على حكمتك».

بات واضحاً أن مينجو تيمور لا يشارك في هذه العاطفة.

أكمل نومو «لن يكون هناك المزيد من الحروب بين أبناء الخاغان . إن دورنا هو حكم الأرض من البحر إلى البحر - على هيئة واحدة . إن الخاغان يحزن عندما يعصي أبناؤه ويهملون واجباتهم . ندعو أن لا يحدث هذا الأمر مرة أخرى» .

أعطى نومو إشارة صامتة ليظهر أن مؤتمر القمة قد انتهى ، فأطلق المبعوث أنشودته مرة أخرى . قبل أن يصل إلى نصفها ، أدار مينجو تيمور وجهة حصانه وهمزه مبتعداً ، مديراً ظهره للمجموعة وطارداً مطيته باتجاه النهر الشمالي .

صفية

انفتحت بوابة القديس أنطوني ، ودخلت عكا محمولة على حمالة يرفعها أربعة عبيد أفارقة وقد غطت وجهها بمنديل أحمر من أرقى أنواع الحرير . راقب حراسها على الجهتين بمنتهى الحذر ، ينظرون في وجوه السكان المحليين وكل منهم يحمل هراوة بيد وسوطاً بالأخرى . أحدث دخولها مع حاشيتها وقافلة العربات خلفها تأثيراً عميقاً لدى أهل المدينة لدرجة أنهم تركوا كل ما يفعلونه ، وخرج بعضهم ليشاهد هذه الدفقة من النور والغموض في هذا اليوم الغائم العادي ، لولا حضورها .

كان قلاوون ، كما هي عادته على الدوام محقاً ، وقد منحها وجود الحراس ميزة ربما لم تكن ستقدر على تحقيقها لو أنها دخلت المدينة لوحدها . كانت تختبئ أمام مرأى الجميع ولم يجرؤ أحد ، ولا حتى الحراس الواقفون عند بوابة المدينة الرئيسة على التفكير في سؤال وتحدي المرأة الثرية عن أصولها أو عن نواياها . على الرغم من أنها استمتعت بالإهتمام ، إلا انها تعمدت إظهار حرصها على إبقاء الستائر مغلقة بإحكام عند جهتي الحمالة وكأنها تصد التحديق ، إلا أنها في الواقع استمرت في الحملقة من خلال الفتحة ، مستمتعة بكل ما تراه وتحفظه ذاكرتها .

كانت وجهتها هي بيت أنطونيو بونسوروتي في الحي التابع لجنوا ، وأدركت أنها ستجد هناك كل ما تريده بالضبط .

«أرجوك أن تجلسي يا سيدتي» قال مضيفها بعد أن تم إدخالها عبر الساحة المليئة بالأشجار في مقدمة البيت . «هل ترغبين في بعض المرطبات؟» وقف أمامها مصفقاً بيديه . لم يكن بونسوروتي طويل القامة ، ولكنه مع ذلك لم يكن ضئيل الحجم . هيكله عميق مستدير ويحمل انطباعاً بالقوة ، أشبه بكلاب الصيد التي كان والدها يحتفظ بها حول بيتها أثناء صغرها . لاحظت أن يديه قويتان أيضاً ، بأصابع غليظة ، صلبة من الخارج . هو رجل غني أمضى بعض الوقت على الأقل وهو يعمل كرجل فقير ، وحسب خبرة صفية ، فهذا النوع من الرجال ينبغي على الشخص أن يحذر منه .

«سيدتي ، إنه لشرف أن أرحب بصديقة صديق لي كما أفعل الآن ، وسوف أقيم قداساً يدعو بأن يتم تنفيذ عملنا سوية بما يرضي الأطراف كافة» . دخلت الخادمة ، وهي فتاة تبلغ حوالي العاشرة من عمرها ، ذات ملامح عربية فاتحة اللون ، إلى الغرفة ووضعت قدحين مع أطباق متنوعة ملأى بالفواكه والمكسرات على الطاولة .

قال بونسوروتي «أرجوك يا سيدتي ، تناولي ما تشائين . سوف أنظر بعيداً إذا لم تكوني راغبة في أن أنظر إلى وجهك . هل كانت رحلتك طويلة؟»

«ليست لدي اعتراضات على مسألة نظرك اليَّ» قالت صفية وأنزلت الحجاب عن وجهها .

اتسعت عينا الإيطالي لرؤية جمالها فندت عنه تنهيدة مسموعة وشهقة . مدت يدها إلى القدح وهي تتلفت في أرجاء الغرفة «هل يمكن لأحد سماعنا في هذا المكان؟»

«لن تسمع كلماتنا إلا من قبلنا يا عزيزتي . إن خدمي مخلصون

وحتى أضمن استمرارهم هكذا ، فإنني أجزل لهم العطاء - وأراقب جميع تحركاتهم . هذا البيت آمن ، فلا تكن لديك أية مخاوف» .

«جيد» شربت وهزت رأسها بالرضى عن الطعم .

«فيما يتعلق بالأعمال التي أشرت إليها - ليست لدي أية مصلحة . إملأ سجلاتك وقيودك بكل ما ترغب في بيعه واملأ سفنك بما تريد التخلص منه . أبحر بسفينتك إلى الاسكندرية وسوف يدفع لك من قبل وكلاء ملكيين هناك في الميناء . أنا لن أرى أية أموال ، ولن أبحث مسائل تتعلق بمبادلاتنا . إنني في منتهى الوضوح فيما يتعلق بالغاية من وجودي في هذه المدينة ، وهي لا تتعلق بحركة الخمور والتوابل إلا إذا وجدت على مائدة عشائي - هل هذا مفهوم؟»

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الإيطالي «مفهوم يا سيدتي ، هل تسمحين لي بالقول -؟»

«سوف أقوم بزيارة أرصفة الميناء تحت ذريعة التفتيش على سفينتك في بعض الأحيان ، ربما في عدد من المناسبات ، لذلك يجب عمل ترتيبات لهذا الأمر» . استطردت وكأنه لم يتكلم أبداً . «سوف يسمح لك بالتحدث معي حول البضائع والرحلة المقصودة في هذه الأوقات ولكن فقط كجزء من غطائنا . أنا لن أصغي إليك . فهل هذا أيضاً مفهوم؟»

«نعم يا سيدتي» قال الرجل وقد شعر بقليل من الاستياء .

«الغاية الرئيسة من قضاء وقتي في هذه المدينة هو التعرف على كل ما أقدر عليه حول الأمير إدوارد وجيشه . الأمر الثاني هو التعرف على كل ما يختص بهذه المدينة ودفاعاتها . سوف نبدأ على الفور-»

فتح لويجي فمه ليتكلم ، لكنها قاطعته مرة أخرى «ما هي

المعلومات المتوفرة عن هذا الأمير إدوارد؟»

تلفت لويجي حوله وقد تملكته الحيرة ، منتظراً ما إذا كان الوقت مناسباً لتسمح له صفية بأن يعبر عن نفسه .

«هناك موضوع واحد مهم لغاياتكم توضح منذ آخر مرة زارني فيها عملاء السلطان» قال لويجي .

«وما هو ذاك؟» تناولت صفية حفنة من المكسرات وبدأت تأكل منها .

«لن يقدم على بناء أي شيء في المدينة» .

«ماذا تقصد؟»

«أقصد أنه مفلس . يمكنه أن يساعد في بضعة أعمال قليلة الأهمية ، ولكنه لن يقدم على تقوية التحصينات كما فعل الملك لويس عندما كان موجوداً هنا . لا يمتلك إدوارد مثل هذه القوة . سوف يضطر إلى الإعتماد على قواته المسلحة ليكمل اليمين الذي أقسمه للرب لإتمام حجه» .

«كيف لك أن تعرف هذا؟»

«لقد أعطوه رجلاً هوسبيتالياً ، اسمه دي تشونسي ، وهو يقوم بالإشراف على سجلات الأمير . سأله زميل هوسبيتالي قبل بضعة أيام عما ينوي الأمير أن يفعله طالما هو قابع في المدينة ، ومع أن دي تشونسي رجل عاقل وكتوم ، إلا أنه أخبر أخاه أن الأمير لن يقدم على رعاية أية مشاريع عظيمة إلا إذا وقعت معجزة» .

تراجعت صفية مستندة إلى الوسائد الفخمة وفكرت في الموضوع . قالت «مثير للاهتمام . هذا المدعو دي تشونسي ، هل لديه أية رذائل على الإطلاق؟»

«واحدة فقط . امرأة» .

أعادت صفية شريحة الإجاص إلى الطبق بدون أن تتذوقها «هل هي غانية؟»

«نعم . أرسلت أحد صبيتي ليراقب محيط الحصن وحركات أي شخص من حاشية إدوارد في مجيئهم وذهابهم . شاهد دي تشونسي يغادر بعد الفجر مباشرة أثناء وجود الأمير في حصة تدريبه العسكري ، ويتجه إلى أحد الشوارع في شمال المدينة . هناك ، نقر على باب أحد البيوت وردت عليه امرأة . قال الصبي إنها ذات صدر مكتنز وشعر أجعد - جميلة ، على ما أعتقد» .

«استمر في الكلام» .

«عندما سأل بعض الجيران قالوا إن اسم المرأة ديانا وإنها لا تتمتع بكثير من الاحترام . لديها ابنه ولكن ليس لديها زوج . لا أحد يعلم شيئاً عما حل بوالد البنت . ألمح الجيران أن سمعة ديانا ليست جيدة . لم يطرح المزيد من الأسئلة مخافة أن يثير الشكوك» .

«وهكذا فالراهب لديه امرأة . من غيره موجود في حاشية الأمير؟»

«فرسان إنجليز بشكل أساسي ، وبعضهم من فرنسا . كلهم نورمانديون ، فيما عدا خادمه الشخصي وهو سكسوني . سمعنا كلاماً مؤخراً عن انضمام رجل إنجليزي آخر إلى الحاشية» .

«تلك ليست أخباراً تدفعني إلى الاستعجال لأخبر شخصاً ما عنها . ماذا في ذلك؟»

تناولت صفية شريحة الإجاص وبدأت تأكلها .

«لم يكن هذا الإنجليزي مقيماً في عكا أو بلاد المشرق ، مع أن الرجال الذين أتحدث إليهم في المواخير يقولون إنه تمت مشاهدته في

هذه الأماكن من قبل . إذا كنت تبحثين عن رجل لديه رذائل فهذا هو الشخص . كحول ، قمار . . .»

«ما هو اسمه؟»

«غاي من لندن هو ما ينادونه به . شخص طويل القامة ، وجهه أشبه برأس عصفور . لقد استقبله إدوارد في حصن الهوسبيتاليين لعملية غير معروفة وهو يعيش هناك منذ ذلك الحين . إنه يأتي ويذهب ولكنه لا يكلم أحداً ، حتى عندما يكون مخموراً في المشارب» .

«هل لا زال يقامر؟»

«كلا ، على الرغم من أنه لا تنقصه النقود . لقد وصل إلى هنا بمنظر أشبه بالأمير ، ولكن حسب ما يروي عنه أولئك الذين ما زالوا يتذكرونه ، فقد غادر هذه المدينة بدون حتى خرقة على ظهره» .

مضغت صفية وهي تفكر «احكي لي القصة مرة أخرى . هل وصل إلى حصن الهوسبيتاليين حاملاً أموالاً أم أنه وصل إلى المشارب بعد مقابلته مع الأمير وقد تحسن لباسه؟»

فكر الإيطالي قليلاً «لا أستطيع أن أؤكد . سوف أتشاور مع رجالي ، لكنني أعتقد بأن القصة هي أنه عاد من خلال بوابة المدينة راكباً حصاناً راقياً ويرتدي معطفاً أنيقاً» .

قالت صفية «معنى ذلك أن شخصاً من خارج المدينة قد قدم له التمويل» . وتناولت حفنة من حبات العنب .

«لم تكن هذه عملية إحسان من إدوارد لمواطن إنجليزي مثله . فمن إذاً؟»

رفع لويجي يديه «لا أعرف يا سيدتي» قال معتذراً .

«إذاً هذا الشيء الذي يتحتم علينا اكتشافه . ماذا عن رجال إدوارد الآخرين . . .؟»

«كلهم جديون ومخلصون له حتى الموت . كذلك لديهم أموال من ارتهان أملاكهم في إنجلترا أو السحب من قروض توفرها الأديرة أو الرهبانيات ، أو حتى المصارف . إن عائلاتهم موجودة كلها في إنجلترا . سيكون من المستحيل تهديدهم وترهيبهم أو حتى إفسادهم» .

مسحت صفية يديها بمنديل قماشي وتناولت قدحها . «هذا النبيذ فاخر حقيقة وجيد جداً» .

«أشكرك ، يا سيدتي» .

«أنا بحاجة لمعرفة المزيد . لو أنني اضطررت إلى إخبارك بأنه يحظر عليك التكلم مع أي شخص عن محادثاتنا في هذه الغرفة ، لما عشت إلى هذا الزمن ، أليس هذا صحيحاً؟»

ابتسم وهو يهز رأسه نفياً «كلا يا سيدتي» .

«هل ما زال صبيك يتابع دي تشونسي؟»

«نعم يا سيدتي» .

«إذاً لنتركه لشأنه ونبدأ بموضوع الحصن» .

«الأمر كما تقولين يا سيدتي» .

لم تكن عملية الدخول إلى السور المحيط بالساحة المحاذية للحصن بالسهولة التي تخليت أن تكون عليها . فقد تم توزيع الحراس على كل مدخل بطول السور الخارجي البالغ حوالي الميل ، حتى في الليل عندما غادرت صفية غرف منزل بونسوروتي وسارت في الشوارع لوحدها حتى تتآلف مع معالم المدينة . دارت حول الحصن مرات عديدة ، لكنها لم تتمكن من إيجاد النقاط التي تحتوي عليها المجمعات الضخمة في

العادة . حتى الحراس ظلوا يتغيرون بانتظام بحيث إنهم ظلوا نشيطين ومتنبهين في جميع الأوقات ، يسألون كل شخص وكل مجموعة ترغب في الدخول إلى القصر حيث يقيم أمير انجلترا وجيشه .

يتم توقيف كل المجموعات الكبيرة ويتم سؤالهم بشكل فردي . رأت رجالاً يتم إرجاعهم أو اقتيادهم بعيداً بعد أن تثبت إجاباتهم للحرس أنها غير مقنعة . بعد ليلتين من المراقبة والملاحظة من وسط الظلال ، صممت على أن تعثر على مفتاح آخر يسهل لها عملية الدخول .

أصبح هدفها أحد الحراس العاديين ، والذي افترضت أنه رجل إنجليزي ويشكل جزءاً من جماعة الأمير . لاحظت أنه يغادر الحصن في كل ليلة من الباب الجنوبي نفسه بعد الغروب ويتخذ طريقه إلى مشرب في حي أهل بيزا ، حيث يجلس ويتحادث مع البحارة ، واضح أنه يشعر بالألفة مع لغتهم رغم أن مظهره أكثر منهم حمرة بكثير . كذلك كان يستمتع بصحبة نساء المشرب بدرجة واضحة . راقبته على مدى ليالٍ عديدة ورأته في إحدى الليالي يشرب كمية كبيرة من الخمر قبل أن يحمله صاحب المشرب والبغايا خارجاً وسط الضحكات المتعالية ، وبدون أن يسمح له بالصعود إلى الأسرة في الطابق الثاني ليلقوا به في الزقاق . بات واضحاً لصفية أنه كان يرغب في المزيد مما أثر فيه ، فمشى متعثراً في الطريق المهجور ، يغني لنفسه . سبقته في العتمة وانتظرت عند الزاوية التالية حيث نور القمر يشع ليمكنه من رؤيتها . استمر الحارس في المشي خافضاً رأسه حتى وصل إليها مترنحاً ، يكاد ينام وهو بعد على قدميه . خطت أمامه ووضعت يدها على صدره . أمكنها تحسس الزرد تحت القماش . تنحنح ورفع عينيه

إليها ، لينفتح وجهه ويفتر ثغره عن ابتسامة بأسنان بارزة ، كبرت ابتسامته عندما رفعت إليه إبريقاً مليئاً بالخمر بيدها الأخرى وطلبت منه أن يشرب . سحب جرعة طويلة وهو يرمقها بعينيه ويزدرد ، ثم أحاط خصرها بذراعه وكاد يرفعها نصف رفعة ونصف سحبة معه . ضحكت وأحاطت رقبته بيديها ، سامحة لنفسها أن يتم اقتيادها عبر الأزقة وصعوداً نحو الحصن .

عند مدخل الحصن ، استخدم الحارس الإبريق ليدق به على خشبة الباب ، فحضر رجل آخر يرتدي زياً مطابقاً لزيه ، وفتح له الباب .

أطلقت صفية ابتسامة غبية بينما تحولت عينا الرجل عليها وعلى صديقه الثمل ، ومع أنه بالغ في إظهار دهشته ومعارضته ، إلا أنه سمح لكليهما بالدخول . قال الحارس الأول شيئاً لم تتمكن من فهمه ، فربت السكير الودود على ظهره وأحاطه باليد غير الملتفة على خصر صفية .

ابتعد الحارس الثاني في ممر طويل وهو يهز رأسه ليصل إلى ساحة مغلقة ، بينما قاد صفية رفيقها إلى اليسار ، نازلاً في ممر طويل ينتهي بما ظهر وكأنه غرفة مستودع . في الداخل ، ألقى بها فوق كومة من أكياس العلف التي تملأ المكان ، وبدأ يحل حزامه مع ابتسامة كبيرة . بقيت صفية ساكنة بينما وصلت يدها تحت تنورتها إلى السكين .

لاقى الحارس صعوبة في فك حزامه وبدأ يدمدم لنفسه مشتكياً ، وهو يتأرجح قليلاً . بعد دقيقة من الشد والجذب ، جلس على حافة الأكياس ليلقي نظرة فاحصة . راقبته صفية وهو يحاول ثم يعيد المحاولة ، لكنه لم ينجح وفي نهاية الأمر ، ترك يديه تسقطان إلى جانبيه

وتنهد مع نظرة يائسة . علقت عيناه على الباب المغلق فأخذت تتساءل ما إذا كان قد نسي أنها موجودة معه هناك . مرت دقيقة أخرى فبدأت عيناه تذويان ثم ، وبدون أن ينطق بكلمة ، استدار وأراح رأسه إلى جانب ساقيها وغط في نوم عميق .

لم تتحرك حتى بدأ يشخر ، وشفتاه المغطاتان بشعر لحيته ترتجفان مع كل زفير يطلقه ، وكل شهيق يسحبه من أنفه ، مصحوب بصفير مسالم . لم يصحُ حتى بعد أن قيدت يديه ورجليه وكومت أكياس الجريش فوقه لإخفائه عن الرؤية ، لكنه ناح واشتكى عندما ربطت منديلها حول فمه على شكل كمامة . نظرت من شق الباب إلى الخارج ، فرأت الساحة والممر مهجورين . طوت ركبتيها ورفعت ثوب العاهرة المليء بالكشاكش من فوق رأسها ووقفت ترتدي ثوباً بيتياً عادياً .

صندلها الجلدي البسيط مربوط إلى باطن قدميها مباشرة حتى لا يخرج صوتاً أثناء تحركها . انطلقت لتكتشف خبايا الحصن بدون أية عوائق .

سارت في الطريق الذي أتيا منه وخرجت إلى الساحة التي ذهب إليها الحارس الثاني . لم تخرج من الظلال ، نظرت إلى الأعلى فشاهدت الحراس على المتراس العلوي ، اثنان يتمشيان في دوائر وأربعة واقفون في الزوايا ينظرون إلى المدينة أمامهم . لم يلق أي منهم بمجرد نظرة باتجاهها فخرجت ، مبقية ظهرها إلى الحائط . المباني الرئيسة في المجمع غارقة في الظلام ، فحاولت أن تفتح باب كل مبنى وصلت إليه . أخيراً ، وصلت إلى درج يؤدي إلى ما هو حتماً المدخل الرئيس من الساحة . أقنعتها الخبرة بأن تتسلل صاعدة وتجربه ، فكوفئت حينما

انفتح الباب إلى الداخل وكشف عن ممر يكاد يغرق في ظلام دامس انسلت إليه ، وهي لا تتوقف عن التلفت حواليها . صعدت الدرجات فشاهدت من الشباك المفتوح في الطابق الثاني ، ساحة أخرى ، وهذه مملوءة حتى آخرها بالخيام ومحاطة بالإسطبلات . هم رجال الأمير . بمجرد سماع كلمة تحذير واحدة من الحرس وسوف يسرعون إلى الدفاع عن الأسوار .

مشت مسافة أخرى قصيرة نحو طريق النزول ولم تشاهد أي نور خارجاً من أي واحد من الأبواب هناك ، لذلك قررت أن تصعد إلى الطابق الذي يليه . كانت الأنوار تشع بكثرة من مشاعل مضاءة تزنر جدار النزول بأكمله ، ورأت مجموعة من الفرنجة الخشنين يتجولون خارج أحد الأبواب ، كلهم في أقصى درجات الصحو ولكنهم يتكلمون بأصوات خفيضة . كانوا مسلحين بالأقواس القصيرة والسيوف الطويلة حتى آخرهم ، ناهيك عن الأسلحة المخصصة للاشتباك القريب المعلقة من أحزمتهم ، خناجر طويلة وهراوات حتى قضيب شائك كان ملقى على الطاولة إلى جانب إبريق النبيذ .

جناح الأمير

مثل هذه الجماعة لا يمكن أن تتحدث بصوت خفيض إلا بوجود شخص يخشونه ، ومما قيل لصفية عن إدوارد صاحب الساقين الطويلتين ، فهو يطابق هذا الوصف بدرجة كاملة .

رضيت بالمسح الذي أجرته ، وهمت بالانسحاب ، ولكن في تلك اللحظة أوقفتها زعقة تجمد الدم في العروق بلا حراك ، آتية من الطابق السفلي وجعلت الرجال ينظرون إلى ناحيتها . صرخ بها أحد الرجال كلاماً لم تفهمه فرفعت يديها بطريقة اعتذارية وبدأت تأخذ طريقها

نازلة الدرجات ، ثم انطلقت تجري بأقصى سرعتها لحظة اختفائها عن أنظارهم .

سمعت أصوات أحذية ثقيلة تطرقع على الدرجات في إثرها ، ولمحت بطرف عينها ، أنهم يدورون حول الزاوية أثناء جريها في الطابق الأول .

اندفع الفارسان دي كلير وفيتزهيو عبر فتحة الشباك نازلين إلى المعسكر ، ثم نزولاً إلى الممر المؤدي إلى الساحة الأولى ، لم يكن هناك شيء . اختفت الفتاة . نظر فيتزهيو إلى داخل الساحة ، لكن الحراس كانوا في مواقعهم ويمارسون مهامهم في المراقبة . ما كان بوسعها أن تركض خارجة في ذلك الاتجاه بدون أن تتم ملاحظتها . أصابته الحيرة فعاد إلى الداخل . أخذ فيتزهيو يتفحص الباب في مؤخرة القاعة ، لكنه كان مقفلاً . تبادلا نظرات مرتبكة ثم صعدا الدرجات ، ودي كلير يعلق على جمال الفتاة العربية التي لم يرياها سوى لحظة ثم اختفت في بهيم الليل . لم يلاحظ أي منهما اليدين الراقدتين مفرودتين على القاعدة الحجرية للشباك المفتوح . بدأ كتفاها وذراعاها يصرخان من شدة الألم ، وتلفتت صفية حواليها ثم حمدت الله على أن أحداً من الرجال الذين مازالوا يقظين في المعسكر لم ينظر ناحيتها . رقدت مستقيمة لصق الجدار وركزت على التنفس بمنتهى البطء ، مركزة تفكيرها على بث القوة في يديها وهما تمسكان بهيكل الشباك .

«هل تعتقد أنها كانت ملاكاً؟» قال فيتزهيو بعد أن عادا إلى الآخرين وتسلما إبريق النبيذ .

«ملاك عكا – ماذا أنت مستعد لتعطي مقابل قضاء وقت في الفراش معها؟» سأل فيتزهيو .

«هذه الليلة، سأعطي معظم أملاكي». قال دي كلير.

«هل أنا أعتبر متجاوزاً لمكانتي الاجتماعية إذا قمت بتذكيركما أيها السيدان المحترمان بقسم حجكما؟» كان فووين منهمكاً في تنظيف الشاموا على حذاء إدوارد البيتي.

«لا يحق لك معرفة يد أية امرأة، حتى لو كانت زوجتك، إلا بعد أن تكون قد أتممت قسمك وبررت به».

نظر كلاهما إليه باحتقار ثم استأنفا حوارهما الفكاهي.

في الخارج، بدأت صفية ترفع نفسها عائدة عبر الشباك من الساحة في الخارج، ونظرت لترى ما إذا كانت الدرجات خالية من المارة. لقد وجدت ما جاءت إلى هنا من أجله، ولم تعد بها رغبة لتنزل أبعد مما فعلت لتكتشف مصدر الصرخة الرهيبة التي جذبت انتباه الرجال إليها. بصرف النظر عمن يكونون، سيتعين عليهم أن يعانوا لوحدهم، لأنه لو قبض عليها في الطوابق السفلى من مكان كهذا بدون معرفة بالمخارج، سيكون مصيراً أسوأ من الموت.

انسلت خارجة من الطريق التي جاءت بها بدون المزيد من الإزعاج، ودخلت إلى خزانة غرفة التخزين حيث تركت الرجل الذي يفترض أنه خطيبها ووجدته مستمراً في الشخير، غير منزعج. نظرت إليه راقداً وهي تفكر، ثم ركعت وبدأت تخلع عنه حذاءه ومعطفه والزرد.

كان الحصول على آخر لباس هو الأصعب لأنها اضطرت إلى فك قيد يديه، لكن الحارس كان مخموراً إلى درجة أنه لم يتحرك إلا ليفتح فمه على اتساعه ويخرج شخرات رهيبة من حلقه. تركت له قطع النقود القليلة الباقية بحوزته في كومة صغيرة إلى جانب يده. بعد

إنهاء مهمتها ، عاودت ارتداء ثوب الغانية وحزمت الملابس التي سرقتها تحت ثنيات الثوب . خطت بضع خطوات لتتدرب على أنها قادرة على الحركة بدون أن تقلق على إمكانية سقوط بعضها ، أخرجت نفسها من الحصن .

«أرى أنك قد امتهنت تجارة الملابس يا سيدتي» قال لويجي عندما دخلت ساحته المشجرة صباح اليوم التالي . جلست صفية وقد وضعت أمامها السترة المزدانة بالصليب على الطاولة الخفيضة وتعمل عليها بالإبرة والمقص . «لدي بعض الأزياء التي حصلت على عدد منها قبل سنوات عندما كنت في جمهورية البندقية الأكثر جلالاً ، وأريد أن أطلب منك النظر إليها لو منحتني بضع لحظات . . .»

رفعت عينيها إليه غير مكترثة وهي تعض على الخيط ثم تحاول أن تدخله في عين الإبرة .

قال «إنني أمزح بالطبع . ولكنك تبدين متعبة ويخبرني خدمي أنك لم ترجعي إلا في ساعة متأخرة جداً ليلة الأمس . هل تسمحين لي بتقديم بعض المرطبات إليك؟ بإمكان طباخي أن يحضر لك طبقاً ممتازاً من **الفول المدمس** ، وإذا كان ذلك ثقيلاً جداً على معدتك فربما قليلاً من القشدة مع الفواكه؟»

«سيكون ذلك ممتعاً ، لك امتناني» .

التفت نحو الخادم المختفي خلف الباب وهزَّ رأسه . استمرت صفية في عملها . نظر إليها وقد عادت إلى ارتداء ثوبها الداكن البسيط وسرحت شعرها في عقدة خلف رأسها مربوطة بشريط من المخمل الجلدي . كانت ملامحها متنفخة والسواد يحيط بعينيها ، ولم تكن تضع أياً من مساحيق التجميل التي أكسبت ملامحها حدة جمالية

لدى دخولها المدينة . بدت جميلة مع انسياب ضياء الصباح من خلفها عبر الجدار المفتوح ، لأن لويجي بونسوروتي عازب ويشعر أحياناً بالندم على الفرص المهدرة ، فقد قرر أن يستمتع بهذا التجسيد للفرح طالما هي جالسة في بيته ، وتخيل لوهلة كيف سيكون الوضع لو أنه يحظى بالتحية من وجودها في كل صباح حينما يخرج من غرفة نومه .

ظهر الخدم وعندما وجدوا أن الطاولة المعتادة مغطاة الآن باللباس الخشن لجندي ، فقد أحضروا طاولة أصغر حجماً وقابلة للحمل مغطاة بقماشة . وضعوا عليها أطباقاً من سلطة الفواكه لصفية ، ولحومات باردة مع الخبز لبونسوروتي ، إلى جانب قدح النبيذ الصباحي وعصير الفواكه .

تناول القدح وقطعة لحم ومع بدء تناوله الطعام ، أخذ يدور في أنحاء المكان . «سيبدأ عمال الميناء بتحميل العنابر في هذا الصباح» . قالها بطريقة عرضية ، وهو يستعرض تصاميم الرسومات على الجدران . «لقد أردت أن يبدو الأمر وكأننا قد أجرينا بعض التفاوض قبل المباشرة في التحميل . لا أحد يقر اتفاقية بهذه السرعة أبداً ، ثم هناك خطابات الاعتماد التي يجب تصديقها . . .»

قالت «افعل ما تشعر أنه مناسب للابقاء على المظاهر . فهذا لا يهمني بشيء . أخبر الرجال أنني سأقوم بجولة في حمالتي هذا اليوم وسأقوم بزيارة الميناء ، إلى جانب المرور على الأسوار» .

«الأمر كما تقولين يا سيدتي . أنا أيضاً لدي بعض الأعمال التي يتحتم عليَّ الإشراف عليها . . .»

لم تقل شيئاً فاحتفظ بهدوئه أثناء عملها .

لكن الذي حدث هو أن أياً منهما لم يمضِ نهاره كما خطط له ،

لأنه بينما كان بونسوروتي يتناول إفطاره وصفية تجري التعديلات على زي الحارس ، بدأت أجراس الإنذار والأبواق تدق ونظر أحدهما إلى الآخر .

سألت «ما الذي يجري؟»

وضع بونسوروتي ، صاحب الخبرة الطويلة في شؤون المشرق ، القدح من يده ومدها قائلاً «إنه هجوم» .

«هل قلت هجوم؟ أهو من البر أم البحر؟»

«الاحتمال الأكبر أنه من البر» أجابها . أمسكت بيده ونهضت واقفة . قال لها «سوف آخذك إلى جناحي حيث يمكنك أن تحتمي هناك . سوف أصطحب بعضاً من رجالي لأرى ما يحدث» .

توقفت وحدقت فيه .

«الأمر في منتهى الخطورة يا سيدتي» .

«استدع رجالك بينما أقوم بارتداء زي الأرملة العائد إلي . بعد ذلك سنتجول في المدينة ونتعرف على ما يحدث» .

«كما تقولين أيتها السيدة اللطيفة» .

استطاع بونسوروتي أن يكتشف ما يحدث عند وصولهما إلى الحصن الهائل الذي يشكله معبد البطريركية ، وهو أن جيش السلطان بيبرس قد ظهر أمام الأسوار عند برج الهوسبيتاليين .

«هل كنت تعلمين بهذا الأمر؟» سأل صفية الجالسة في حمالتها عندما عاد إليها يحمل الخبر .

«كلا . لم تكن هناك أية خطط لتحريك الجيش من مصر عندما غادرت . لأنه مازال بحاجة إلى تجديد معداته وهناك العديد من التبديلات في المراكز» .

«حسناً ، إنهم مقتنعون بأن السلطان واقف أمام الأسوار الآن ، فلا بد وأنه غادر بعد مغادرتك بوقت قصير جداً» .

نظرت صفية إلى فوق باتجاه المعبد الهائل المنتفخ ، أبراجه ذات الزوايا المدوَّرة التي تقزم جميع الشوارع الملتفة حولها ورأت البيارق والأسود البرونزية المطروقة إلى داخل الجدران .

سألته «هل تستطيع أن تأخذنا إلى فوق هناك؟»

تابع الإيطالي اتجاه نظرتها ونفض رأسه «إن ذلك سيمنحنا إمكانية رؤية خط الأسوار بكامله ، ولكنني أخشى أنني لا أمتلك ما يكفي من النفوذ لدى سلطات المعبد» . ابتسم لنفسه «إن المطران حذر من ناحيتي» .

«من كان يمكن أن يفكر بذلك؟»

«أستطيع أن أحصل لنا على مكان للنظر من الأسوار - إن ضباط الحرس الموجودين بين البرج الملعون وبرج الكونتيسه بيلوا هم من بيزا . سوف يسمحون لي ولسيدة جميلة أن تصعد لنرى الأنشطة . أنا واثق من ذلك» .

أظهرت أنها راغبة في اللحاق به فأصدر بونسوروتي الأمر بأن يتحرك الطابور الصغير باتجاه الشمال . ثبت أنه كان عند كلمته لدى وصوله إلى السور ، لأنه تم السماح لهم بالصعود من المدخل الخلفي ليقفوا بين صفي الجدار المضاعف ، الخارجي والداخلي ، وكان كل من هذين السورين مزوداً بالأبراج التي أعطيت أسماء رنانة . النقطة التي يقوم مواطنو بونسوروتي بحراستها تقع عند بداية انعطاف في منتهى الأهمية ، وقد تم اختياره بطريقة جيدة لأن اتجاهه الغريب ، والذي يكاد يكون عمودياً ، يعني أنه يمنح المشاهد منظراً رائعاً لقوة السلطان وبرج

الهوسبيتاليين الذي تقف القوة أمامه .

وقفت صفية ، التي تحول منظرها إلى دور الأرملة الثرية الذي لعبته لدى دخولها إلى المدينة ، عند طرف السور الخارجي بين عشرات الإيطاليين - والذين خاطبوها كلهم باحترام بكلمة سنيورا . تعرفت على عبد راكباً حصانه في الصف الثاني خلف كتف بيبرس . امتدت جياد الفرسان على ما يبدو حتى الأفق .

جاء افتراقهما متعجلاً وغاضباً ويائساً بعد أن أخبرها قلاوون بأنه يتعين عليها أن تذهب إلى عكا . قالت له مرة أخرى إنه يتعين عليه أن يذهب إلى بيبرس ويتصالح معه ، وقد فعل ذلك ، لأنه يركب الآن مع الصف الأول لحراس السلطان . على أية حال ، فقد ظل غضبه واضطرابه على مهماتها المستمرة وأسفارها في خدمة قلاوون يؤثر فيه بعمق .

وتمنت لو يتمكن من منحها الوداع الذي تريده ، بدون ومضة المرارة في عينيه وكلماته .

قال بونسوروتي «ذلك هو الأمير إدوارد يا سيدتي» .

كان بيبرس قد ركب متقدماً ويتبادل الإغاظة مع الرجال الواقفين على قمة برج الهوسبيتال ، بينما يتسابق بقية الفرسان للحاق به . برز الأمير بين رجاله لكونه الأطول قامة والأكثر وسامة . ثم استدار بيبرس ومعه عبد والآخرون وتراجعوا إلى المرتفع القريب من المكان الذي قدموا منه .

سألها بونسوروتي «هل أرعبهم الإنجليز بكلماتهم القاسية حتى انسحبوا؟» قال شخص آخر بلغتهم فضحك الجميع . سحبت نفساً عميقاً بينما ركب تيكا إلى الأمام مشهراً سيفه عالياً .

«هذا صراع!» قال بونسوروتي بلهجة مهتاجة سرعان ما انتشرت بين الجميع .

شاهدت صفية إدوارد وأغلبية الرجال الواقفين فوق قمة برج الهوسبيتاليين يختفون في الطابق السفلي .

قالت لبونسوروتي «يجب أن أذهب . الآن» .

قال لها «تفضلي يا سنيورا» أمسكت بذراعه وأخذا ينزلان وسط الحشد .

قال أحد الرجال «إنها خائفة من فكرة الدماء» .

«تلك هي الحقيقة» قال بونسوروتي .

«قل لها إنه يوجد مكان آمن لها هنا ، في أي وقت تشاء يا لويجي» .

تجاهلهم حتى وصلا إلى رأس الدرجات .

«الى أين نحن ذاهبان يا سيدتي؟»

قالت «الى بيتك» .

«أؤكد لك ، أن الوضع آمن جداً هنا . فهو لا يمكنه أن يهاجم الأسوار بمجرد الخيول» .

«أنا لست أفكر بسلامتي الشخصية - ولا بسلامتك إن صح التعبير . ستكون الشوارع في حالة هيجان بسبب ظهور بيبرس . هذه هي فرصتي» .

«فرصتك لعمل ماذا ، يا سيدتي؟»

خلال أقل من ساعة ، عاودت مغادرة بيت بونسوروتي ، لوحدها هذه المرة بينما استمر صوت مضيفها المرتبك ينادي خلفها من الإسطبلات . فقد استعارت حصان المالك نفسه ، وهو حصان

كستنائي مخصي جميل ، بالإضافة إلى خوذة قديمة شاهدتها فوق طاقم دروع قديم في مؤخرة البيت . أغلقت القطعة الأمامية التي تغطي الوجه وارتدت درع الزرد والسترة الملكية العائدة للحارس ، لم يعد هناك مجال لأحد أن يفترض ولو للحظة أنها شيء آخر غير فارس من فرسان القصر . اتخذت طريقها عبر الشوارع حتى وصلت إلى السوق الرئيس ، وهناك استدارت شرقاً باتجاه الحصن الرئيس وتجاوزته متجهة نحو برج الهوسبيتال .

توافق وصولها بدرجة مثالية مع عودة الفرسان الإنجليز الذين اندفعوا عبر بوابة القديس أنطوان لحظة وصولها ، منتشين بنجاحهم في الفوز على الفرسان الذين لم يكن بالإمكان قهرهم سابقاً .

طبيعي أنها لم تفهم شيئاً مما كانوا يقولونه لبعضهم بعضاً ، لكنها قلقت حين رأت مقدار سعادتهم وإثارتهم . رغم ذلك فقد وجهت حصانها بين أغلبيتهم بدون أية صعوبة وسرعان ما اتجهوا سالكين طريقهم عائدين إلى الإسطبلات الملكية .

إلى يسارها ، تميزت مجموعة بدرجة خاصة بطول قامات أفرادها ورقي أشكالهم ، وتأكيداً لما شاهدته ، فقبل حتى أن يغادروا حرم بوابة القديس أنطوان كان الفارس الأول بينهم قد خلع خوذته وأظهر الوجه المبتسم للأمير إدوارد . تحركت لتصبح أقرب إلى هذه المجموعة واندست وسط صف الرجال في المؤخرة . افترضت أن الهوسبيتالي الذي يركب إلى جانب الأمير هو دي تشونسي . بعد مئة ياردة في الشارع وصلوا إلى مجموعة صغيرة – شاهدت رجلاً نحيلاً طويل القامة يتم اقتياده من قبل أربعة من الحرس الإنجليز – ميزتهم خوذاتهم المستديرة ذات الحواف العريضة عن الشكل الأكثر مخروطية لخوذات الحراس الألمان

والإيطاليين - توقف الأمير ليتبادل معهم بضع كلمات . استطاعت صفية أن ترى من شكل وجه الرجل أنه المدعو غاي من لندن الذي كان بونسوروتي قد ذكره - ملامحه الفاتحة الألوان مع أنفه المعقوف منحته حتماً شكل طائر مائي ما ، واتضح أنه لا يقوم بقيادة الحرس ، بل كان الوضع معكوساً . استأنفت المجموعة الملكية سيرها بعد أن تحدث غاي إلى الأمير لبضع لحظات ، تاركين غاي يسير خلفهم مع حراسه . نظرت صفية التي لم يلحظها أحد حتى اللحظة بسبب تخفيها المتقن ، إلى الأمير الخاضع لحراسة مشددة ثم إلى غاي ، أبطأت حصانها حتى أصبحت في مؤخرة الطابور بعد أن كانت في مقدمته . مشى غاي مطأطئاً رأسه ، بحيث بات واضحاً أنه غارق في التفكير أو الدعاء . عند بوابة الحصن ، هتف الناس والخفراء تشجيعاً وفرحاً للفرسان العائدين ولأميرهم ، حيث تلقى كل رجل هتافاً أثناء مروره تحت القوس . بات واضحاً أنهم ينظرون إلى عملهم على أنه نصر - أطلقت صفية دعوات صامتة أثناء سيرها بمحاذاة غاي والرجال الذين تعرفهم ، والرجل الذي تحبه ، الذي لم يصب بأذى في المعركة . التفتت إلى الوراء ، شاهدت عربات تتحرك عجلاتها الخشبية متقدمة ببطء حاملة فرساناً من الفرنجة الجرحى والساكنين . حتى إن بعضهم حمل الأوزان الرهيبة للجياد التي أصيبت في المعركة . لم يكن أي منها يتحرك ، ولا شك أنهم تخلصوا من شقائهم كما رأت الأمر يحدث مرات عديدة . أجالت بصرها في كل اتجاه باحثة عن أي إشارة لتيكا الذي ركب إلى الأمام ليخوض قتالاً منفرداً مع أي من الفرنجة الذين يمكن لأحدهم أن يتحداه ، ولكن لم يكن له أثر هو الآخر .

داخل الحصن ، كان الإنجليز وحلفاؤهم الهوسبيتاليون يتبادلون

الأنخاب على يوم نصرهم وسط الساحة . تبودلت الأقداح وألقيت الأذرع على الأكتاف ، حتى العازفون عزفوا ألحاناً مرحة بالآلات الغريبة التي يستعملها الفرنجة . ترجلت صفية وربطت حصانها إلى العمود الداعم للمتراس السفلي ، وهي تراقب غاي طيلة الوقت . يبدو أنه تم نسيانه وانخرط الأمير وسط رجاله ، يشاركهم القصص والتحيات ويتمازح مع كل الآخرين . في الأثناء ، تم اقتياد غاي إلى ناحية وأدخل عبر أحد الأبواب الذي كانت صفية قد وجدته مقفلاً في الليلة الماضية . لاحقته .

مشوا عبر الباب بصحبة حارسين فقط ، خلال ممر طويل وتوقفوا عند المدخل المفتوح لقاعة حجرية واسعة . دخل غاي بينما وقف الحارسان خارجها . منحاه لحظة ثم استدارا ، قالا له شيئاً ما ، ثم عادا أدراجهما خارجين . قفزت صفية متراجعة خارج طريقهما واختبأت في جانب ، لكن أياً من الحارسين لم يعرها أي اهتمام أثناء خروجهما للإنضمام إلى الاحتفال المرح الدائر . انتظرت صفية ثم تفحصت الممر للمرة الثانية ، فلم تشاهد أحداً أمام غرفة غاي .

تساءلت في نفسها ، أي نوع من السجناء هو هذا؟

اقتنعت أن الحارسين سرعان ما سيعودن ، لذلك مشت باتجاه الغرفة ونظرت إلى غاي اللندني في داخلها . وجدته واقفاً إلى جانب منضدة طويلة مولياً ظهره إلى الباب ، يكتب . لم تكن هناك أسلحة قريبة منه . دخلت إلى الغرفة حيث أجبره صرير درعها على الاستدارة فأجفل قليلاً من وجهها المغطى .

قال شيئاً ما بلسانه الفرنجي ، لكنها نفضت رأسها نفياً ورفعت إصبعها نحو فمها لتأمره بالاحتفاظ بهدوئه ، ثم سحبت سكينتها .

اتسعت عيناه بعض الشيء ، ولكن بات جلياً أنه رغم عدم كونه مقاتلاً صلباً ، إلا أن غاي لم يكن غير معتاد على منظر الأسلحة المجردة ، حتى تلك المشهرة باتجاهه . أشارت صفية إلى الممر وإلى السكين .

«تحرك بذلك الاتجاه ، أيها الكلب - وإلا فإنك ستشعر بهذه!» جاء صوتها خشناً رناناً وأشارت إلى السكين لتتأكد من عدم وجود أي سوء فهم .

تكلم غاي بصوت هادئ ، رافعاً يديه «ليست لدي معرفة بلغتك . فمن أنت؟»

«أنا لا أحد . أحد فرسان الأمير . والآن تحرك!»

أطلق غاي ابتسامة ملؤها التوتر والتندر «أنت لست فارساً يا فتاتي . ولكنك مبعث السرور . لماذا لا تخلعين ذلك الحجاب وترينني وجهك؟ أستطيع القول بأنك جميلة» .

«لقد أمرتك بالتحرك!»

تنهد غاي مع انعدام مبالاة مرح وخفض يديه ثم اتكأ بمرفقه على المنضدة . تناول ريشته وبدأ يلهو بها ، والحبر ينقط على أصابعه ، ثم قال «كلا» .

هجمت عليه ووضعت السكين تحت ذقنه وهزتها هناك ، لكنه نظر إليها بإهمال متعمد مدروس .

«اقتليني إذا أردت ، لكن صرخة موتي سوف تجلب حراسي - على الرغم من سكرهم - ولن تغادري هذه الغرفة . إن دماءهم فائرة بعد أن طاردوا بيبرس الرهيب وأبعدوه عن الأسوار هذا الصباح - المرجح أنهم سوف يمتطونك مثل مهر تدريب حتى فجر الغد ثم

يسلمونك إلى حراس السجن لإطالة حياتك بعد ذلك» .

«ما الذي حدث لبيبرس؟»

«هل تقصدين أنك لا تعرفين؟»

«ما الذي حدث؟»

«لقد جاء ليهدد الأمير الفتي إدوارد ، ولكن رجل إدوارد قاتل رجل بيبرس حتى أشرفا على الموت بأشد ما يمكن ، فاستغل إدوارد التهاء عين بيبرس بالقتال ليهاجمه من ناحية أخرى» .

«هل مات بيبرس؟» شعرت بالإعياء ، وتنزل شعور خفيف بالوهن في ساقيها «ماذا عن رجاله؟»

«كلا - لم يمت الكثير مطلقاً . لقد تفرقت مجموعة بيبرس وهرب أفرادها - للمرة الأولى حسب علمي . لقد حطم إدوارد هالة ذلك الرجل . ثبت أن لدى بيبرس أرجلاً من الفخار مثل كل الآخرين . من كان يعلم ذلك؟»

«وهكذا فهو مازال حياً؟»

«نعم يا عزيزتي» بدأ غاي يمل من أسئلتها ، حتى رغم أن شريانه السباتي كان ينبض على نصل السكين الحاد . «إذا كنت ستصيبيني بالملل ، فإنني أفضل أن تقتليني» .

دفعت بالسكين أقرب قليلاً وفحت فيه «أستطيع أن أفعل ذلك إذا أنت أحببت» .

أطرق بعينيه فاسترخت

«من أنت وما الذي تفعله هنا؟»

«أنا غاي من تويكنهام وقد جئت إلى هنا لأقابل أميري» .

«ما هو شأنك مع الأمير؟ لماذا يحتفظ بك هنا؟»

«لدي مهمة خاصة . إنني موجود هنا لتهيئة تحالف بين سلالتي پلانتا جينيه والخان» .

«ماذا يعني ذلك؟»

«لقد حضرت إلى هنا لأقدم عرضاً بالحلف من النبيل أباغا خان . إنه يرغب في الانتقام لمقتل أبيه على يد بيبرس في معركة عين جالوت ، وهو يرى في إدوارد حليفاً مهماً» . توقف غاي «بالنظر إلى أداء بيبرس في هذا الصباح ، فإنه يبدو وكأن أباغا قد اختار بمنتهى الحكمة» .

«لماذا أنت تخبرني بهذا؟»

«أنت تمسكين بسكين إلى حلقي ، وفي كل الأحوال ، فإن الحلف قد بدأ التحضير له . لقد تم تسليم خطابات من أباغا وقد أرسل إدوارد خيالة يحملون الردود . ليس هناك الآن ما يمكن عمله لإنقاذ بيبرس من الدمار . مع حلول الربيع ، سوف يزحف جحفل لم تشاهد هذه البلاد مثيلاً له نازلاً عبر سورية ، ومع وجود إدوارد ليشغل جيش بيبرس في جهة من فلسطين ، فلن توجد قوة على الأرض قادرة على منعهم من الاستيلاء على هذه البلاد أيضاً . بعد أن تتم هزيمة بيبرس هنا ستتم مطاردته إلى داخل مصر وسوف تسقط القاهرة» .

«من هو الذي كان يزعق من داخل الزنازين في الليلة الفائتة؟»

«جاسوس في خدمة بيبرس . لقد صمم إدوارد على استئصال شأفتهم من جميع أنحاء المدينة . لقد ألقى بهذا الرجل على الصخور هذا الصباح أمام عيني بيبرس كرسالة موجهة» .

فكرت صفية في المسألة . أصبحت الخوذة خانقة في هذه اللحظات . أصبح تنفسها يجيء في شهقات حارة .

«وهكذا لا يبقى لك شيء تفعله هنا الآن ، صح؟»

«كلا ، لقد انتهى عملي هنا . لكن الأمير يحتفظ بي لمجرد ضمان أن تسير العلاقات مع أباغا بسهولة ويسر ؛ لأنني أتكلم لغتهم أيضاً» .

قالت «أنت تتكلم وتقول الكثير جداً» .

«سوف أحصل على جائزتي مقابل الخدمة المخلصة من كل من الأمير والخان عندما يتم تعليق بيبرس وفرسانه من أسوار المدينة هنا» .

تحول إحساسها بالغثيان والدوار إلى غضب بارد «فكر في هذه على أنها دفعة أولى» .

قالت هذا ودفعت بالسكين إلى داخل رقبته . انفتح فم غاي ليتكلم أو يصرخ لكن لم يخرج منه سوى الدماء المتدفقة ، حيث طارت نقاط منه عبر قطعة النظر في خوذتها لتضرب وجهها في الداخل . طرفشت بعينيها ثم دورت السكين ، سحبتها ثم دفعتها إلى داخل بطنه ، مرة تلو الأخرى حتى فقدت يد غاي الموضوعة على كتفها كل قوتها وسقط على الأرض ، وبدأت بحيرة من الدم القرمزي الفاتح تتشكل وتكبر حول جسمه الميت ، من رأسه وحتى ساقيه .

نظرت إلى أسفل لترى أنها مغطاة بالدماء هي الأخرى . نزعت الخوذة بسرعة ثم الزرد والقميص الخارجي ، واستخدمته لتمسح يديها ، ثم السروال ، بحيث سمحت للثوب المنزلي البسيط الذي تلفه حول صدرها وخصرها ولم تصل إليه الدماء ، بأن ينزل إلى قدميها . حاذرت من أن تطأ الدماء بقدميها اللتين أصبحتا حافيتين الآن ، خبأت زي الحارس خلف المنضدة وخرجت ماشية ، وكان آخر عملها أن مسحت السكين ونظفتها ثم خبأتها تحت ثوبها .

خرجت إلى الممر الطويل ، لم يرها أحد ، ثم دخلت إلى الساحة .

نظرت إلى الأعلى فأصابها إحباط جديد سقط عليها بثقل ، لأن حصان بونسوروتي لم يعد موجوداً حيث ربطته . لابد وأن أحد السواس قد أخذه . تلفتت حواليها ، لفت بصرها بريق من شكل بني كميت غامق ورأت الحصان يجري اقتياده نحو الإسطبل من قبل أحد الصبية الصغار . منعت نفسها من الجري بصعوبة لأن ذلك سيلفت انتباهاً غير مطلوب إليها ، ولذلك انطلقت في مشية نشطة مبقية رأسها باتجاه الأرض ، في محاولة تجنب مجرد النظر إلى وجوه الفرنجة المنفرة المحمرة السكارى . لمحت وجود صينية على طاولة خفيضة ، انحنت وتناولتها بدون أن تخفف من سرعة سيرها . أصبح السائس والحصان على بعد خطوات قليلة في هذه اللحظة .

في الناحية الأخرى من الساحة ، انهمك دي كلير وفيتزهيو في سرد حكاية من حكايات الحرب ضد مونتفورت وخونته على مسامع دي تشونسي ، حينما نظر إلى دي كلير ليلفت نظره شكل امرأة . لكز فيتزهيو .

«هل تذكرتها؟»

انزعج فيتزهيو من مقاطعته في وسط روايته ، فتجشأ ولاحق اتجاه نظرة دي كلير .

«عجباً ، إنها الفتاة العربية التي طاردناها في الليلة الفائتة ، أليست هي نفسها يا دي كلير؟»

نظر دي تشونسي بانزعاج إلى الفتاة الخادمة التي تحمل الصينية .

«أعتقد أنها هي نفسها يا فيتزهيو الطيب . ربما يحسن بنا أن نجدد تعارفنا بعد ظهر هذا اليوم؟»

قال دي كلير «أعتقد أنه يتحتم علينا فعل ذلك . هل تعذرنا أيها الأخ دي تشونسي؟»

لوَّح دي تشونسي بموافقته لهما بقدح النبيذ الذي يحمله ، وبدأ الفارسان يسيران بمشية مخمورة متعثرة . لدى اقترابهما شاهدا صفية توقف سائساً صغير السن يقود حصاناً كميتاً وتتبادل معه كلمات حادة . دفعت إليه بالصينية وأمرته بأخذها ، بينما تناولت هي أعنة الحصان .

قال دي كلير «ماذا تظن سبب اهتمامها بذلك الحيوان؟» أسرعا بخطواتهما ، لكن جذب اهتمامهما صراخ مجنون في الزاوية البعيدة من الساحة «جريمة قتل! جريمة قتل!»

«ما هو ذاك؟» قال فيتزهيو وقد توقف . استمر الحارسان في الصراخ بحيث جلب اضطرابهما الرجال الذين تخلوا عن احتفالهم ليركضوا باتجاههما . «المغولي –»

كان هذا هو الاسم الذي بدأ الإنجليز يطلقونه على غاي تويكنهام كنوع من التندر «لقد تم ذبح المغولي!» أخذ إدوارد وجماعته ، ودي تشونسي على مسافة أبعد قليلاً ، ينظرون في ذلك الاتجاه . حدَّق فيتزهيو في الحارسين ، ثم في دي كلير ، وأخيراً نظرا إلى صفية ، والتي رآها على صهوة الحصان الآن ، وقد تدلت قدماها الحافيتان إلى جانبيه . أمسكت بعرف الحصان بقوة .

انفتح فم فيتزهيو على اتساعه «أوقفوها!»

ضربت صفية الحصان بكاحليها وبيدها وانطلقت عبر الساحة المكتظة ، فقفز أولئك الذين حاولوا أن يوقفوها وحتى الذين لم يلاحظوا أن شيئاً ما يحدث ، قفزوا بعيداً عن مسار حصان الحرب الضخم . شبك اثنان من الحراس رمحيهما عند البوابة ، لكن الفتاة لم تكن تنوي التوقف لأي سبب لمعرفتها بما فعلته ، فأحنت رأسها وحثت

الحصان على المزيد من السرعة . راقب الحراس قدومها وثبتا في وقفتهما .

صاح فيتزهيو «العريشة!» وهو يركض في إثر صفية «أسقطوا العريشة!»

شاهدت صفية طرف العريشة المربعة الحديدية يبدأ بالنزول ، لكن ذلك استوجب أن يقوم الحارس الموجود عند المقبض بتدويره يدوياً ، الأمر الذي منح حياتها ثواني إنقاذ قليلة لتهجم على الحارسين وتخرجهما من طريقها وتمر من تحت السنان بمسافة شعرة .

أصبحت في الخارج وتعدو في الشارع ، وهي تسمع أصوات الصرخات ووقع الحوافر خلفها . دفعت بالحصان إلى أحد الأزقة ، تمرره بين المواطنين المذعورين وفوق البسطات الصغيرة التي تعرض الجرار الفخارية والتماثيل التي وضعها التجار هناك . خرجت من الجانب الآخر وتلفتت لترى مجموعة من الفرنجة الذين داروا من الناحية الأخرى للطريق الرئيس على أمل قطع الطريق عليها .

مازالوا على مسافة منها ، لكنهم رأوها ولابد ، ليس من شك في ذلك ، شدت عرف الحصان واتجهت يميناً باتجاه الحي الإيطالي ، قررت أثناء تحركها أنها لن تتمكن من العودة إلى مقر إقامة بونسوروتي إلا إذا تمكنت من الإفلات من ملاحقيها . استمروا في متابعتها على بعد حوالي مئة ياردة . يصرخون بأعلى أصواتهم طالبين منها التوقف . أثناء مرورها بسوق خضار مزدحم ضيق ، أمسكت يد خشنة بفخذها بقوة كادت تسقطها عن ظهر حصانها ، لكنها طوحت بيدها الأخرى وشقت وجه التاجر عديم الأسنان بسكينها .

سقط إلى الوراء ممسكاً بخده المتدلي ، أجبرت صرخاته الخادمات

الفرنجيات المحترمات على الهروب في الإتجاهات كافة ، فأجبرت بقية الباعة أصحاب المظاهر القوية على أن يفسحوا لصفية مساحة عريضة حتى تمر من خلالها .

وصلت إلى مسافة تشاهد منها معبد البطركية ، لكنها عرفت أنها لن تتمكن من الاقتراب من ساحاتها العريضة ، لأن ذهابها إلى مكان مفتوح يعني الاستسلام الحتمي . لن يصعب على مطارديها أن يغلقوا كل شارع فرعي يؤدي إلى خارج المعبد وبعد ذلك أن يحاصروها مثل جرذ . اتجهت بدلاً من ذلك نحو طريق جانبي ضيق آخر ، مستمرة في التوجه جنوباً ، مدركة أنها برغم عدم تآلفها مع تفاصيل مدينة عكا . إلا أنها مع ذلك تقترب من السلامة مع كل خطوة تخطوها .

لم تكن حركة السير كثيفة هنا - ستمر ساعات قبل انعقاد قداس آخر في المعبد ، وقد أتمت غالبية النساء إحضار طعامهن وذهبن إلى بيوتهن لطهي وجبة منتصف النهار .

شاهدت صفية ما كانت تبحث عنه فندت عنها صرخة فرح . شاهدت أمامها عربة محملة حتى ارتفاع قامتي رجل بصناديق مربوطة بشمعات تأخذ طريقها بمنتهى البطء في الطريق ، مع احتمال أن سائقها الذي يقود الثورين يتلفت حواليه مع كل خطوة ، في محاولة للعثور على علامة فارقة بعد المعبد الذي أرشدوه إليه .

مشت بالحصان حول العربة ، الأمر الذي أخفاها عن مطارديها المحتملين بشكل مؤقت ، وعندما أصبحت خارج مدى أبصارهم ، ترجلت وضربت الحصان على مؤخرته بحيث يركض باتجاه البيت بدونها . ثم وضعت يدها على فمها لتأمر سائق العربة بالتزام الصمت ، تسلقت تحت العربة وتمسكت بأقصى قوتها بالمحور الدائر بمنتهى البطء .

بعد انقضاء لحظة ، ركب فيتزهيو وبقية جماعة المطاردة متجاوزين العربة ، غير منتبهين إلى أفعال صفية ولم يعيروا السائق وحمولته المفرطة في العلو أدنى اهتمام .

تجاوزوا المنعطف التالي وعثروا على جواد صفية الذي يتجول بلا صفية وبلا هدف ، وقد غابت عنه فارسته . بحلول هذا الوقت ، قفزت صفية إلى الأرض وتركت العربة تمر من فوقها ، نهضت واقفة وأومأت برأسها شاكرة السائق ثم أقفلت عائدة في زقاق آخر ، ثم آخر ، متعرجة في نمط مائل بحيث يأخذها أبعد عن أولئك الذين يتجولون الآن جيئة وذهاباً على أمل العثور عليها .

عبد

بدأت الاتهامات والاتهامات المضادة قبل وقت طويل من وصولهم إلى مقر قيادتهم القديم في بيسان . بدأت التعليقات والتي كان معظمها موجهاً إلى قلاوون تلقى من قبل الأمراء والقادة ذوي المراكز العليا ، وما لبث أن انفجر جدال واسع بين ألموت وقادة الصف الثاني لدى السلطان حول من الذي كان مسؤولاً عن حماية جانبي المجموعة ، بالإضافة إلى الانتشار فوق المرتفع الصخري .

«لقد حصل الخطأ عندما انفرط التشكيل المكلف بحماية السلطان ، وبعد ذلك لم يقم أي من الضباط ذوي الرتب العالية بتنظيم الرجال في تشكيل حينما انسحبنا إلى خارج المدى» . قال قلاوون . جاء صوته متعباً ومستسلماً - بدا مصمماً على الوصول إلى ملاذ بيسان ثم إعادة التجمع لمعاودة القتال في اليوم التالي حينما يستعيدون قواهم كاملة .

أحسَّ ألموت بالمرارة «إن إلقاءك اللوم على السلطان في هذه الكارثة أمر في منتهى الجبن يا قلاوون» .

«أنا لم أفعل شيئاً كهذا!»

استطرد ألموت «في منتهى الجبن» - مشيراً بسوط ركوبه للتوكيد «إنه أسمى من مثل هذه المسائل ، كما تعرف أنت جيداً - إن مسؤوليتك هي أن تضمن حمايته في كل الأوقات ، وأن يكون جيشه

متخندقاً ، في حال تعرضه لهجوم» .

«متخندقاً؟ لقد كنا نعمل في مجال مفتوح أمام مدينة محصنة – لم تكن هناك فرصة للتخندق! والأهم من ذلك ، لم تكن تلك مسألة دفاعات نمطية – الحقيقة هي كما سبق وقلت لك أيها ألموت ، لم تكن المجموعة منتشرة بالشكل الصحيح بحيث تتمكن من الاستدارة أو المناورة ضد الهجوم الفرنجي كما كان ينبغي عليها أن تفعل . لقد كنا ملتصقين ببعضنا وفي مساحة أضيق مما يستحب – كانت عيوننا مسلطة على الإلهاء الذي أعدوه لنا ، بدلاً من أن تسلط على المكان الذي يتوقع فيه تواجد العدو!»

قال عبد من المؤخرة «لم تكن تلك كارثة . فقد فررنا ونجونا بأكبر نسبة ممكنة من أعدادنا بدون أن تصاب بأذى» .

قال ألموت «إخرس أيها القرد الفيلسوف . إن الإهانة العظمى لشرفنا هي أن رجالنا لم يلمسهم الأعداء – لأنهم هربوا! قد يحتفل رجل مثلك بهروبه من سيوف الكفار الحادة ، ولكنك لا تلاحظ اللطخة الأكبر بكثير التي تلمس روحك الآن . لقد ابتلينا بالعار» .

قال قلاوون «لقد أصاب عبد قلب الحقيقة» وهو ينفض ذبابة عن أذن مطيته . «نحن أحياء لنقاتل في يوم آخر ونسترد شرفنا وكرامتنا . يقول الحق سبحانه وتعالى بضرورة الحفاظ على الحياة ، ألا يقول ذلك؟ ما هو الدليل الأفضل من الاستمرار في الحياة لقتال أعداء الله؟»

«هنالك سنن عديدة تدين الهروب من وجه الأعداء» جاء صوت ألموت حزيناً .

«سوف نعاني من هذا الأمر –» نظر إلى ظهر بيبرس العريض المنحني . «وهو سيكون أكثرنا معاناة» .

لم يكن بيبرس قد نطق بكلمة منذ أن تراجعت آخر مجموعة فرنجية عن مطاردتهم، وهم مازالوا قادرين على رؤية أسوار عكا، وقد ركب على رأسهم منذ ذلك الوقت، محدقاً أمامه ولا يصدر عنه أي صوت. لم يتناول أي طعام ولا حتى جرعة ماء، وكانت أية محاولة للدخول معه في محادثة، سواء كانت من قبل أحد الأمراء أو قلاوون أو عبد تنتهي بصمت جليدي واحتقار عابس.

ظل قلاوون على إصراره «ليس هذا انكساراً، فنحن لم نخسر أي شيء اليوم -»

«نعم - » مال عبد إلى الأمام وتكلم بوجه تعلوه البساطة «إن شجرة الدردار أقوى من شجرة البلوط لأنها تنحني، فلا تنكسر».

«إلا بكل ما نعتز به» تمتم مهنا.

نظر إليه قلاوون بدون أي تعبير «فيلسوف . . .!»

سحب عنان حصانه لاحقاً واستدار، ليركب مع حراسه في المؤخرة، لأنه لم يعد قادراً على أن يصغي أكثر مما فعل. سمح عبد لنفسه أن يبقى في المؤخرة إلى أن تقدم الآخرون مبتعدين ووصل هو إلى البقعة نفسها التي تضم أنصار وكتيبة المدفع التي أحضروها معهم. وجد الجو جنائزياً هناك.

سأل أنصار «هل يتقاتل الأمراء فيما بينهم؟» كان وجهه مضمخاً بالتعرق والتراب، وقد التصق شعره المتناقص برأسه، الذي كان يتحول إلى الحمرة مع كل لحظة يقضيها تحت الشمس.

قال عبد «إنهم يحاولون أن يلقوا باللائمة إلى حيث لا توجد حاجة للملامة». أنزل يده وعرض على أنصار جرعة ماء من قربته. تناولها المحارب المسن الخبير وشرب، أعادها إليه مع طأطأة امتنان.

«يوجد سبب للملامة هنا أيها النقيب - يوجد دائماً سبب في كل هزيمة . لقد خبرت الكثير منها أنا شخصياً . لقد أحسَّ السلطان بالخزي ضد أولئك الذين يحتقرهم أكثر من الآخرين . إن المعبدين والهوسبيتاليين - وكل الفرنجة يضحكون على اسمه حالياً» .

«ولكن الفرسان لم يصابوا بأي أذى يذكر - هذا ما دأبت على قوله . سوف نقاتلهم مرة أخرى وننتصر ، كما فعلنا ضد المغول» .

نفض أنصار رأسه «هذا وضع مختلف . هذه مسألة شخصية . المغول غرباء كلياً في هذه البلاد - وأساليب حياتهم وآلهتهم ، حتى ملامحهم والأمهار الغريبة التي يمتطونها ، كلها غير معروفة لدينا . الفرنجة يختلفون . رغم أن المغول أكثر عدداً بكثير ويحدثون من الدمار أكثر بكثير مما يقدر عليه الفرنجة - وهم يجيئون من بلاد بعيدة إلى درجة أن أي خسارة بالنسبة لهم - حتى لو كانت فادحة بقدر ما كانت خسارتهم لدمشق - لا تؤثر فيهم بعمق . إن الصبي يقاتل ضد أخيه بأكثر أنواع الشراسة ، أليس كذلك؟ نحن نعيش مع الفرنجة جنباً إلى جنب - لقد أمضوا أجيالاً في تواجدهم هنا حتى الآن ، وهكذا فقد أصبحوا قريبين منا إلى حد بعيد ، على الرغم من كونهم أعداءنا اللدودين . هل تستطيع أن تفهم ما أعنيه؟ في القرآن الكريم ، ألا تحتفل قبائل النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بانتصاراتها على منافسيهم المحليين بمقدار احتفالهم نفسه بالنصر على الرومان والفرس؟ إن إهانة مثل هذا اليوم هي مزعجة بالمقدار نفسه» .

هزَّ عبد رأسه ونظر إليه باحترام أعمق . «إنني أفهم هذا يا أنصار . فأنت ترى ما لا يراه الرجال الآخرون» .

«ستكون لهذا اليوم نتائج عميقة يا عبد» خفض أنصار صوته

بحيث لا يمكن أن يسمعه غيرهما فوق صوت النسائم وطرقعة معادن الفرسان . «إن بيبرس مازال في بداية حكمه ، وهذه الواقعة ستلقي بظلالها عليه إلى الأبد إذا لم يعالج الوضع بأسرع وقت ممكن . توقع صدور إعلان هذه الليلة وتوقع أن يكون هائلاً أعظم من أي شيء تم سماعه منذ معركة عين جالوت . يحتاج بيبرس إلى نصر ، وكل ما كان أكثر دموية ، كان أفضل» .

تم تسليم قصر الأمير والمسجد في بيسان إلى القوات البحرية العائدة ، ودخل بيبرس في عزلة بعد المشاركة في صلاة العشاء بصحبة مجلسه وحراسه . رفض أن يتناول أي طعام ، مكتفياً بقليل من الماء .

أشرف عبد على مهاجع أفراد كتيبة المدفع ثم جلس في الساحة الأمامية المشجرة للقصر ليتفحص المراسلات لذلك اليوم ، ويكتب رأيه في الأحداث . كان بيبرس قد باشر العمل على تأسيس مراكز تجميع القوات على مدى الطريق من القاهرة إلى حلب ، حتى يوفر للمراسلين إمكانية الحصول على مطايا مستريحة ، وبذلك يوصلون تقاريرهم ورسائلهم إلى غاياتها في أوقات أقصر ثم أقصر . في ذلك الوقت ، أصبح بإمكان عبد أن يرسل خطاباً من غزة إلى القاهرة جنوباً أو إلى الشمال في دمشق ، ويتوقع أن تتم قراءته خلال ثلاثة أيام . وهذه معجزة . انحنى فوق المخطوطات والكتب وهو يتساءل عن ماهية الإعلان الذي توقع أنصار صدوره .

بعد وهلة شاهد الأميرين أُنس والمعزي يدخلان ، متبوعين بحراسهما ومستشاريهما .

جرى استقبالهما والترحيب بهما من قبل الموت ومهنا وإدخالهما إلى القاعة الرئيسة .

جلس يراقب من مكانه المشرف في الممر، فرآهما عبد واقفين هناك، ينتظران بصمت. ظهر قلاوون خلفه. «سيعقد اجتماع. أتمم ما تفعله حالياً ثم خذ مكانك».

نظر عبد من فوق كتفه. عينا قلاوون جامدتان، صوته مرهق، لكن يده ملتفة بقوة حول مقبض السيف في غمده، وقد ارتسمت على محياه ملامح رجل اتخذ قراراً بإنهاء معركة، بصرف النظر عن العقوبة القادمة، «لقد توفي تيكا - سوف تأخذ مكانه في الترتيب العام بوجود أنصار كمساعد لك».

«وهل يفترض أننا نعلم؟»

لم يحصل عبد على جواب لسؤاله أكثر من نظرة قلاوون.

«لقد تلقيت أيضاً خبراً يفيد بأن جيش الخليفة قد انهزم في طريقه إلى بغداد».

استدار عبد ليواجهه بدرجة كاملة «وماذا عن المستنصر؟»

أدار قلاوون وجهه إلى ناحية «يحتمل أنه قد مات».

حاول عبد أن يفهم الوضع «لا يمكن لهذا أن يحدث».

«الأمر شبه مؤكد يا عبد». استمر قلاوون في النظر إلى الأميرين، بدون أن ينظر إلى وجهه.

«ولكن عندما تبدأ حملة ما، فلا شيء هناك مؤكد. يصبح كل شيء في يد الله عز وجل، وهو الذي يقرر من الذي يستحق النصر ومن لا يستحقه. أليس الأمر هكذا؟»

قال عبد «لم يعد يوجد خليفة، مرة أخرى إذاً؟» وقد بدأت ردود الفعل على بيبرس وبغداد تتوضح في ذهنه.

بقي التعبير على وجه قلاوون غير مبال. «لقد وهب الخليفة

المستنصر بيبرس الشرعية التي يحتاجها قبل وفاته ، وهكذا فإن منصب السلطان آمن . سوف يعثر على خليفة آخر ليستمر عندما يصبح الوقت ملائماً وتمر الأزمة الحالية» .

بالرغم من الصلابة التي اكتسبها عبد أثناء وجوده في بلاط بيبرس ، لم يستطع أن يفهم كيف يستطيع قلاوون أن يتكلم عن أمور في مثل هذه الدرجة من القداسة بهذا القدر القليل من المشاعر . عبس ، بحيث أجبر قلاوون أن يفح فيه رافضاً عبوسه حينما لاحظه .

ضغط قلاوون على كتفه قائلاً «اذهب ، إن السلطان على وشك الخروج الآن» .

فعل عبد ما أمر به ، وسرعان ما احتشد اجتماع البلاط البحري المفاجئ بالقادة قبل أن يدخل بيبرس بدون أية احتفالية ، ولم يكن قد بدل درعه وملابس الركوب التي وصل فيها من رحلته ذهاباً إلى عكا والعودة منها . لم تعزف أية أبواق ولا قرعت أية طبول . وقف أمامهم مولياً ظهره للحائط الخلفي ونظر من فوق رؤوسهم . استقرت يداه إلى جانبيه وقد ضمهما في قبضتين .

«سيقول الكفرة - نتمنى على الله لو أنه يتحول إلى غبار» جاء صوت السلطان محملاً بالألم ، لكنه قوي . ارتفعت أذرع الرجال باستثناء أُنس والمعزي ، واستجابوا بالهتاف باسم بيبرس والإعلان بأن الله أكبر .

«غداً - سوف نغير خارجين ونغزو أرض الفرنجة مرة أخرى - وسوف نجعلهم يدفعون ثمن كفرهم وإلحادهم وإهاناتهم . احصلوا على الراحة الآن يا رجالي وأعدوا أنفسكم للقتال!»

أثار هذا القول هتافاً متردداً واستدار بيبرس ليغادر . همس أنصار

«ليس هذا ما كنت أتوقعه بالضبط . لكنه صمم على القتال - وذلك أمر صحيح وفاضل وطيب» .

«مولاي!»

كان ذلك هو المعزي الذي نادى .

«مولاي!»

استدار كل من عبد وأنصار ليحدقا فيه ؛ لأن مخاطبة السلطان حتى من قبل أمير بدون دعوة من الياور أو المبعوث تعتبر خرقاً لأصول التعامل في البلاط . توقف بيبرس «هل لديك شيء لتقوله ، يا صاحب السعادة المعزي؟»

قال أُنس «لدى كلينا ما نقوله يا صاحب الجلالة» .

لدى رؤيته أنهما مصممان على تقديم التماس ما سوية ، استدار بيبرس ليمنحهما انتباهه الكامل . توقفت مجموعة البلاط لتصغي ، بعد أن كان العديد من القادة قد عبروا الباب مغادرين .

«إننا نلتمس منك أن تؤجل قرارك وتنتظر الشروط التي يعطينا إياها أمير إنجلترا وملك قبرص» . كان أُنس قد قدم الدعم وبقي على علاقة طيبة مع بيبرس ، فأصغى إليه السلطان في هذه اللحظة بتعبير منفتح .

قال بيبرس «نحن نعرف ما ستكون شروطهم يا صاحب السعادة . إنهم يريدون القدس . ونحن لن نعطيها لهم ، ولذلك يجب علينا أن نحسم القضية بالسلاح . الأمر بسيط» .

«أنت بالطبع على حق يا صاحب الجلالة» ضم أُنس يديه أمام خصره . «وإذا لم يكن هناك سبيل آخر غير التصدي للقوة بالقوة ، يصبح ذلك هو ما ينبغي أن تكون عليه الأمور . أنا فقط أسأل ما إذا لم

تكن هناك - ربما - طريقة لمنح قواتنا الوقت لتصل إلى قمة قوتها ولنملأ خزائننا بأموال الزكاة قبل أن نقدم على حملة أخرى؟»

عقد بيبرس ذراعيه الهائلين فوق صدره، رافعاً رأسه «أنت تقترح علينا أن ننتظر حدوث التطورات، يا عزيزي أُنس. وذلك أحياناً هو السبيل الصحيح الذي ينبغي اتباعه، حتى لو كان العدو قد بدأ الزحف. لكن ليس هذا هو الوقت المناسب للتريث. هذا هو الوقت الملائم لتوجيه الضربة..»

«لقد وجهت ضربتك اليوم» قال المعزي «ولم تنتهي تلك الضربة بأي شيء يمكن تسميته النصر. ما هي الاحتمالات التي لدينا في توجيه الضربة مرة أخرى في الغد؟»

نظر بيبرس إلى المعزي غاضباً، وقد تكوم كتفاه حول ذراعيه قائلاً «الأفضل لك أن تنتبه إلى نبرتك حينما تخاطب العرش يا صاحب السعادة. أنت تسألني ما هي احتمالاتي؟ سوف أخبرك - إن الله سبحانه وتعالى يكافئ الشجاع والجريء، وذلك هو ما سيحدث. لن نسمح لنكسة واحدة أن تطردنا عائدين إلى جحورنا مثل الأرانب، لنلعق جراحنا. سنأخذ القتال إلى العدو ونجبرهم على تذوق طعم فولاذنا حتى لا يعودوا قادرين على ابتلاع المزيد. سوف نحطمهم، ونستعبدهم عند وقوعهم بين أيدينا - سوف نحطم صورهم المنحوتة وندمر مذابح كنائسهم ببلطاتنا - سوف يسيل دمهم مثل النبيذ المسموم الذي يشربونه أثناء احتفالاتهم غير الربانية - وبعد أن ننتهي منهم، ستعود الأرض إلى طهارتها وستسود إرادة الله عز وجل».

قال أُنس «يا صاحب الجلالة» بصوت ضعيف بينما ارتفع صوت بيبرس الجهوري ليصبح زئيراً. «أخشى أن هذا المسلك هو نفسه الذي

خشي منه سلفكم - لقد كان قطز ينصح بعدم تفريق قواتنا في معارك عديدة على جبهات كثيرة . ما تدعو الحاجة إليه هو التجمع والتوحيد» .

قال قلاوون «التوحيد موجود يا أُنس - ويجسده السلطان . نحن نستمد وحدتنا من السلطان الذي يتلقى التفويض من الله عز وجل نفسه . فهل أنت تخالف إرادة السلطان؟»

«بالطبع أنا لا أفعل ذلك -!» كانت هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها عبد أُنس اللطيف الدمث يرفع صوته . «إن واجبي هو تقديم نصيحتي للسلطان وذلك هو ما أفعله حالياً» .

«إنني أذكر أن قطز قد أذلكم أنتم الأمراء حين أمركم بمواجهة قوات هولاكو وكتبغا في عين جالوت» . قال قلاوون «فهل بيبرس مضطر لعمل الشيء نفسه؟»

جاء صوت المعزي أشبه بزجاج محترق تحول إلى الرمل «راقب لسانك يا قلاوون ، لأنك تنسى نفسك ومقامك» .

رفع قلاوون كتفيه وثبت في مكانه متحدياً ، لكنه التزم بالصمت .

استدار بيبرس ليعاود الإنصراف «لا يستعمل السلطان القوة أو الإجبار على الأمراء كما فعله سلفه . سوف أمتطي حصاني في الغد وأركب لأجابه عبدة الأصنام أولئك الذين هم أعداء الإسلام . سوف أقوم بهذا الواجب لوحدي إذا اضطررت . فليتخذ كل رجل هنا قراره الخاص به ويتبع ما يمليه عليه ضميره . تصبحون على خير» .

بعد انصرافه ، تجاوبت أصداء الخلافات والتناحر بين مسؤولي البلاط والفرسان في أرجاء القاعات والممرات كافة في القصر . أصغى

عبد حتى لم يعد بوسعه تحمل المزيد ثم ذهب إلى فراشه ، سحب معطفه فوق رأسه وأسلم نفسه لفراغ اللاشيء من النوم حتى يأخذه .

***

ملمس شفتيها على خد عبد جعله يتحرك ، ثم جاء إحساسه بجسدها إلى جانب جسمه ليمنحه الرضى والترحيب - فهذا حلم لم يكن قد طلبه ولكنه حلم صمم على الاستمتاع به لأطول مدة يستطيع فيها أن يجعله يستمر . خرج من معطفه مثل فراشة تخرج من شرنقتها . المعطف ملتف على جذعه وذراعيه وساقيه ، بعدها اكتشف أن الدفء حقيقي . صفية راقدة معه . استدار ليواجهها حيث هي تنظر إليه وقد غلف ظلام الليل جمال وجهها .

«كم أمضيت من الوقت هنا؟»

«ليس كثيراً» . أجابته . ضمتها ذراعاه نحو صدره وشدها بكل قوته .

«أين كنت غائبة؟»

«في عكا» .

لم يستطع أن يخفي دهشته «أنت تتحركين بسرعة» .

«أحياناً تكون السرعة ضرورية . لكنك تغط في النوم منذ زمن طويل . لقد أطل الصباح» .

«ماذا فعلت في عكا؟»

«دخلت إلى قصر الأمير الإنجليزي وقتلت أحد رجاله . اكتشفت أسراراً يحتاج بيبرس إلى معرفتها» .

«وهل أخبرته؟»

«لقد أخبرت قلاوون . لأنه هو الذي أرسلني» .

«هل شاهدت المعركة؟»

«لقد سمعت أنها لم تكن معركة ، إلا بالنسبة لتيكا» .

«وهل رأيته؟ أقصد فيما بعد» .

«لم يتسع لي الوقت . لم أشاهد الإنجليزي الذي قاتله أيضاً» .

«ألن تغادري مرة أخرى؟»

«يفترض فيَّ أن أبقى هنا الآن . ولكنني سأضطر إلى العودة» .

«وهل الوضع آمن بالنسبة لك؟»

«كلا»

«في هذه الحالة لن تعودي» .

«يتحتم علي ذلك» . بدأت تقبل رقبته وكتفيه العاريتين . جذبها إليه أقرب ، أحسَّ بكتفيها الصغيرتين وصدرها الناهد على صدره .

«يجب أن تكوني بأمان . لا يمكنك التواجد في وكر أفاع مثل عكا» .

«لن أكون آمنة في أي مكان . إن قلاوون ينوي أن يغادر المعسكر» .

ابتعد إلى الوراء ودفعها بعيداً عنه من كتفيها ، وقد صحا من نعاسه كلياً . «ما الذي قلته لتوك؟»

«سيغادر قلاوون مع مجموعة صغيرة صباح الغد - أقصد اليوم . ستصبح أنت أقرب المساعدين لبيبرس بمجرد مغادرته . أنا لا أستطيع أن ألتحق بك - وسوف تضطر إلى تخصيص كامل وقتك له - هكذا فماذا تريدني أن أفعل؟»

«اذهبي إلى القاهرة . ابقي هناك وسوف آتي إليك» .

نظرت إليه بمزيج من المحبة والإشفاق «إن أعداء بيبرس أقوياء ، وهو

قد خسر ذراعه الأيمن في اليوم الفائت فقط . وسيفقد ذراعه الأيسر غداً مع ذهاب قلاوون» .

«إلى أين هو ذاهب؟» .

«لا أستطيع القول» .

نهض عن الفراش «ومع ذلك فأنت ستخبرينني بما تريدين مني أن أعرفه» .

«هناك أشياء من الأفضل عدم معرفتها» .

«ليس هذا صحيحاً - إذا كنت تحبين شخصاً ما ، يجب أن تعرفي كل شيء عنه» .

«إن حبنا قصة عجيبة - ليست مثل قصص أولئك الذين يختار لهم آباؤهم أزواجهم أثناء طفولتهم . إن حبنا مخلوق مختلف . ويتحتم علينا أن نطعمه بطريقة مختلفة - كما يطعم الشخص حصاناً وبقرة بعلفين مختلفين» .

انطلقت منه ضحكة نصف مكبوتة - لم يتمكن من كبتها «أنت حتماً لست شاعرة» .

«كلا ، ولكنني ملكك أنت . كل الأشياء التي أقوم بها ، إنما هي لأجلنا كلينا . هل بوسعك أن تقول الشيء نفسه حول عملك لدى بيبرس؟»

قال بشيء من التعالي «أستطيع . لأنه إذا انتصر أعداء بيبرس فسوف يذهب كل شيء نعرفه هباءً منثوراً . سيتم استعبادنا لقاء دورنا في معاركه» .

«هل ذلك هو السبب الوحيد الذي يجعلك تقف معه؟ الخوف من الانتقام؟ الخوف من العدو؟ ليس الخوف طريقة للحياة» .

«أنا لا أقف مع بيبرس بدافع الخوف ، بل لأنه القائد الأعظم على وجه الأرض ، والرجل الوحيد الذي يقدر على جلب النظام حيث يجلب الآخرون الفوضى . ما زلت أتفاجأ لأنني واقف إلى جانبه - رجل مثله قادر على حكم العالم كله . إن مجرد قول هذا يذهلني ، لكنه صحيح» .

«لقد قطعت شوطاً طويلاً يا عبد ، كما قلت لك من قبل وكما عرفت على الدوام أنك ستفعل . أمر طيب أن ترى ذلك وأن تقدره حق تقديره . سيحين الوقت الذي سنتمكن فيه من ممارسة حياتنا سوية . حتى ذلك الحين ، يجب عليك أن تتبع مسارك وأنا أتبع مساري . سنسمح لحبنا أن يحملنا عائدين إلى أحضان أحدنا للآخر كلما كان ذلك ممكناً» .

مدت يدها نحوه «تعال إليَّ . أرقد معي» .

لم يكن هناك من خيار . تحرك عائداً إلى الفراش ولف معطفه حولهما ، ورقد الاثنان هناك ولم ينطق أي منهما بكلمة حتى استولى عليهما النوم مرة أخرى ، بأروع قدر من القناعة والصفاء . آخر فكرة جالت برأسه هي رغم أن العالم يحترق حولهما وتتهاوى أعظم منجزات الحضارة ، ما زال هنا يوجد شيء نقي وطيب ولا يمكن أخذه منهما .

افترقا عندما حضر الخادم مستدعياً عبد ليخبره بأن السلطان يطلب حضوره وأن حصانه جاهز . تعانق هو و صفية وافترقا ، وجاء كل فراق أصعب من الذي قبله . خرج إلى النهار المتألق في هذه الآونة ليرى المجموعة الملكية مصطفة ، بيبرس وقلاوون ، مع وجود أُنس والمعزي خلفهما ، ثم ألموت ومهنا البدوي .

حيَّاه بيبرس وأشار إلى الخلف حيث يقف مساعده أنصار منتظراً، أمام الحرس الشركسي مباشرة. «هل كانت ليلة كبرى يا مساعدي عبد؟» جاءت نبرة السلطان مازحة لكن صوته وأسلوبه بقيا متحفظين. تساءل عبد عن مقدار النوم الذي حظي به في الليلة الفائتة.

«هائلة يا صاحب الجلالة، ولكنها لن تكون مرهقة كما أتوقع أن يكون ركوب هذا اليوم بأي مقدار». أدى انحناءة الطاعة أمام السلطان فضحك بيبرس من كلماته.

قال «لن يكون السرج على مطيتك مريحاً هذا اليوم، يمكنني أن أخبرك بذلك».

عندما نصب قامته، شعر عبد بالسعادة لمرأى قليل من اللون والسرور يدخلان إلى وجه بيبرس، حتى ولو كان على حسابه.

«هل تسمح لي بتقديم خدمة صغيرة يا سيدي السلطان؟»

«فقط امتطِ حصانك واغتسل قبل أن تأكل أو تصلي. وإلا» التفت بيبرس إلى الوراء ليضمن أن كل الرجال يسمعونه «فإننا نتجهز لخوض معركة ضد الكفار، ولن نتوقف حتى نراهم يشربون من ماء البحر!» جاءت الدقات على الدروع مفعمة بالحيوية والرد المرح. دفع بيبرس بكعبيه في جنبي الحصان وانطلق في هذاب سريع، مطلقاً صرخة الحرب المعهودة منه، وتاركاً بقية الجماعة في إثره كما هي عادته. ركض عبد ليمتطي حصانه، والذي كان أنصار يمسكه من أعنته بينما يحاول أن يهدئ من هيجان حصانه وسط الإجفال الذي تبع مغادرة بيبرس، كبادرة على فروسيته المتميزة.

«مونتفورت!» صرخ أنصار بينما قفز عبد إلى ظهر الجواد.

«ما الذي قلته؟» جلس عبد مستقيم الظهر وتناول الأعنة.

«سوف نبدأ بمحاصرة حصن مونتفورت إلى الشمال - وإلى الشرق القريب من عكا . أظن أن بيبرس يأمل بأن يحاول الأمير الشاب أن يرفع الحصار وبذلك يحصل على مفاجأة» .

نظر عبد إلى المجموعة المتباعدة أمامه تدريجياً «هل سيخاطر بأن تتم الإحاطة به؟ ماذا إذا قام إدوارد بمحاصرته ليجد نفسه محصوراً بين الأمير والحصن؟»

«إنها خطة جريئة ، ولا يوجد أي شك حيالها - لكن بيبرس قائد جريء وينبغي عليه أن يظهر بأنه لا يعرف الخوف وليست لديه أية مخاوف . هذه هي الطريقة التي سيتبعها . لقد أخبرتك بأنها ستكون مذهلة» .

«مونتفورت . . .» قلَّب عبد الاسم في داخل رأسه «ذلك هو حصن المعبديين ، أليس كذلك؟»

قال أنصار «هو مقر قيادة المعبديين . أحد أكثر الجوائز ثراء حتى لو لم يطل الأمير الطويل بوجهه المستطيل» .

إدوارد

النصر يولد النصر ، تماماً كما يولد الملوك الحقيقيون المزيد من الملوك ، وقد تحللت المصاعب التي كانت تتوالد بين الفئات المختلفة في مدينة عكا بعد أن تم طرد بيبرس عن الأسوار . أصدر إدوارد دعوته إلى جميع الفئات للالتقاء في اليوم التالي ، بعد أن أقام المطران قداساً احتفالياً في المعبد وأعلن من المنبر أنه سيقود إلى الجدران نفسها التي أمضى فيها **المخلِّص** طفولته : الناصرة . كان يتوقع مقاومة عندما وقف أمامهم وأعلن تصريحه هذا ، لكن الرئيس العام هيوز نهض من مقعده في الصف وأعلن أنه سيقود قوة فرسان الهوسبيتال نحو المغامرة . نهض بعده بودوان ديبيلين وأعلن أنه سينضم مع إخوته إلى مسيرة الحج ، قائداً لجنود الملك هيو . بعده جاء دور توماس بيرارد ، الرئيس العام للفرسان المعبديين ، وأخيراً نهض اننو ڤون سانجرهاوزن ، الرئيس العام للرهبنة التيوتونية ، الذي صاح باللغة الألمانية بينما هو يهز قبضته ، الأمر الذي أدى إلى صدور أصوات الدبك بالأحذية من قبل فرسانه .

فسَّر إدوارد هذا الأمر على أن التيوتون سوف يشاركون بدورهم .

لم يتركوا المجال لهدر أي وقت بل أمضوا بقية النهار في الاستعدادات والصلاة ثم الراحة ، ولدى هبوط الغسق ، غادرت القوة الهائلة المدينة ، تمشي الجياد ببطء وسط العتمة المتزايدة ، بينما ينشد الرجال التراتيل والأوراد أثناء مسيرهم ، هازئين بالأخطار التي يمكن أن

يشكلها عدو يتربص بهم في أودية الريف ، واضعين بدلاً من الحذر ، ثقتهم بالرب وابن هنري بلانتا جينيه ، بأن راحتهم وسلامتهم ستكون مصانة ، وأنهم سوف يصلون إلى المكان المقدس بدون أن يطالهم أذى . إذا أراد الكفار أن يجربوا قوة أسلحتهم ، فإن هذه القوة المتحدة سوف تجابههم بالفولاذ مقابل الفولاذ .

«الشكر للرب يا أميري» قال هيوز دي راڤيل بينما بدأت أنوار عكا تتخافت خلفهم .

«لقد فعلتها»

إن الركوب الليلي معناه أن إدوارد لن يقدر على رؤية شيء من الريف ، إلا بأن يدرك أن الأرض تحت حوافر حصانه تتحول من العشب إلى الأعشاب الجافة ، ثم إلى صخر رملي على مدى الساعات التي ركبوا فيها ، حيث أخذتهم الممرات والآثار لتقودهم باتجاه جنوبي شرقي نحو مدينة الرب . وصلوا إلى التلال المشرفة على الناصرة مع انبلاج الفجر ، الذي جعل المدينة تبدو وكأنها تستحم في لون ذهبي ، ما استجلب دعوات الامتنان من الرجال حوله . أخبره الرئيس العام راڤيل بأن المنحدر الذي يسيرون عليه يسمى طريق النبي صائين من قبل العرب ، والذي قال إنه يعني «طريق الرسول» ، أو شيئاً من هذا القبيل .

نظر إدوارد إلى البلدة ثم إلى الوادي العريض الممتد إلى ما وراءها .

قال هيوز «ذلك هو وادي جرزيل ، حيث هزم بيبرس – ومعه قطز بالطبع – جحافل المغول» . أشار إلى بعض المنحدرات في الناحية البعيدة ، مع أنها بدت غير قابلة للتمييز عن بعضها بالنسبة لعيني إدوارد «تلك هي عين جالوت . لقد تم استدراج المغول إلى ذلك الوادي الضيق هناك من قبل البدو وجنود بيبرس خفاف الحركة ، ثم أغلق

الباب عليهم . خرج قطز من التلال في اللحظة التي ظنوا فيها أنهم قد حشروا بيبرس إلى سفح الجبل وتم ذبحهم» .

قال إدوارد «لن يقترفوا الخطأ نفسه مرة أخرى» .

قال هيوز «لندعُ إلى الرب أن لا يفعلوها . لأن هذه ربما تكون فرصتنا الأخيرة لإنقاذ هذه البلاد» .

تنهد إدوارد وعاد إلى النظر نحو البلدة بشرود ذهن .

«هنالك جزء مني لا يمكنه أن يصدق أنني أنظر إلى هذا المكان» .

وافقه هيوز «إنه من المذهل حقيقة أن تكتحل عيناك بمرأى شيء أخبروك عنه مراراً منذ زمن طفولتك . إنني أقدم الامتنان . إن رجالنا أصبحوا قادرين على القيام برحلة الحج هذه بسببك أنت ، بقلوب عامرة بحب الرب» .

«دعونا نشاهد البلدة ونصلي لخلاص أرواحنا» . همز إدوارد حصانه إلى الأمام ، وتابعه رجاله الذين خرجوا من سهومهم لمشاهدة البلدة ، رافعين رؤوسهم ومطلقين أناشيدهم من شفاههم .

وجدوا البلدة مهجورة من السكان والحراس على السواء . ركب إدوارد عبر الشارع الأوسط وعاد أدراجه ، متوقفاً حين لفت هيوز انتباهه إلى رجل عربي عجوز يرتدي ثوباً طويلاً قد خرج للتحدث إليه .

«يقول هذا الرجل إن الأمير والرجال الذين أوكلت إليهم مهمة حراسة البلدة قد ذهبوا . إنهم رجال قبائل من الجنوب -من الصحراء-»

«أليست هذه هي الصحراء؟» سأل إدوارد وهو يوجه حصانه إلى جانب الرجل لينظر إليه من فوق .

«كلا يا صاحب السمو . الصحراء في الجنوب . إنها حارقة» . أشار هيوز إلى الرجل «لقد قال إنهم تلقوا خبراً في الليلة الماضية يفيد بأننا

قادمون . عندما اكتشفوا أعدادنا ، غادرت الحامية آخذة معها كل ما استطاعت أن تحمله . لقد دخلوا جميع البيوت القريبة ونهبوها ولم يتركوا فيها شيئاً» .

«وأين هم موجودون الآن؟»

أشار هيوز برأسه إلى التلال المحيطة بالبلدة ، تلك التي قدموا منها لتوهم .

«يحتمل أنهم في مكان ما هناك ، أو أنهم يتجهون إلى الشمال نحو جزريل وجبال الجولان بعدها . يمكن أن يضيعوا هناك ولن يتمكن أحد من العثور عليهم حتى يقرروا هم النزول مرة أخرى» .

«اسأل الرجل ما إذا كان يوجد أشخاص ينوون المقاومة هنا» .

«يا مولاي» تفحص هيوز الشارع من أوله إلى آخره - فوجد أن كل بوصة من البلدة مشغولة من قبل فارس . «لقد استولينا على البلدة . لن يقع أي قتال» .

وافق إدوارد على ما يقوله هيوز وابتسم «أمر مؤسف . سيكون من المفيد ، ما دمنا قد ولغنا في الدماء . أن نحتفظ بتفوقنا . حسن جداً . أخبر هذا الرجل أنه لن تقع أية مضايقات أو عمليات نهب من قبل رجالنا . هل يوجد مسيحيون هنا؟»

هز هيوز رأسه إيجاباً .

«جيد . قل لهم أن يرشدوني إلى مغارة سيدتنا حتى أذهب لأصلي . أصدر أوامر عمومية . تقضي بأن لا يمس شيء في المدينة وكل ما يؤخذ أو يستهلك سيتم دفع ثمنه» .

«كما ترغب يا مولاي» . تكلم هيوز بعجالة مع الرجل وبعد أن انتهيا ، انحنى الرجل شاكراً وانصرف ، مختفياً داخل ما يبدو مثل

مخزن للمواد الغذائية . قال إدوارد «ضع حارساً على هذه البناية . واسقِ الجياد . إنها معجزة أنهم تمكنوا من أداء العمل الذي أدوه حتى الآن . لا يوجد مسوغ لأن يحملوا ثقلنا فوق ظهورهم إذا لم يكن هناك قتال . أصدر الأمر للترجل العام» .

«نعم يا صاحب السمو» .

عبد

قرب جبل حرمون ، شمال فلسطين

اختار قلاوون أن يبقى معهم في الركوب حتى مونتفورت ، بدلاً من التوجه شمالاً ، فوصلوا إلى مقدمة الحصن المثبت عميقاً داخل الصخرة ، والجبل الذي يسميه اليهود ناحال كزيف ، وقد استبد بهم العطش جراء رحلتهم من بيسان باتجاه الشمال . قضوا يومين في السرج أمضاهما بيبرس في التحديق أمامه بدون أن ينطق إلا بأقل الكلمات ، واللذين استغلتهما بقية الجماعة لتنقية عقولهم من الاضطراب الذي سببه ركوبهم إلى عكا والمعركة التي تلت ذلك . بات عبد سعيداً بقرار قلاوون في البقاء معهم ، وعمل معه جنباً إلى جنب في بعث الرسائل إلى أمراء الشمال والجنوب ، مؤكداً لهم أن السلطان لم يصب بأي أذى ، وأن الجيش مازال في الميدان ويتجه شمالاً ، وأنه ينبغي جمع الضرائب وإرسالها إلى الخزينة كالعادة ، وأن وجود أية صعوبات أو مشاكل سوف تعني أن الأمير أو الحاكم المسؤول والمعني سيطلب منه أن يقدم نفسه شخصياً أمام البلاط ويشرح وضعه للسلطان .

«هذا حتماً يكفي لأن يدفعهم إلى التحرك والإبقاء على طاعتهم» .

قال قلاوون بينما كان عبد يضع الختم الملكي على مخطوطة أخرى «أرسلا مذكرات مختلفة بعض الشيء إلى أمراء الشمال ، على

ضوء المعلومات التي استقتها صفية من غاي اللندني . كان هؤلاء هم سنجار الحلبي في دمشق ، الأشرف موسى في حمص ، والأفضل محمد في حماة . ثم إخبار سنجار بوجوب توقع هجوم مغولي خلال الأسابيع القادمة ، وأنه سيكون مطلوباً منه أن يضم قواته إلى قوات السلطان حالما يتحرك الجيش الملكي إلى الشمال لمقابلته . صدرت تعليمات إلى موسى ومحمد بتجنيد كل رجل متوفر لإعادة بناء الدفاعات التي سحقها المغول في حملتهم الأخيرة التي احتلت فيها كل من حمص وحماة ، وأنه ينبغي عليهم حفر الخنادق والاستحكامات والمقاومة بكل القوة التي منحها إياهم الله سبحانه وتعالى ، وأن السلطان في طريقه اليهم» .

أطلق عبد نظرة متسائلة باتجاه قلاوون وهو يكتب هذه الجملة «ولكن السلطان ليس في طريقه إليهم . إن احتلال حصن مونتفورت هذا قد يستغرق شهوراً» .

ربت قلاوون على ذراعه ليطمئنه «ضرورات الجلالة يا عبد . ينبغي على الشخص أن يكون باعثاً على الثقة حتى عندما لا يشعر بها بنفسه» .

«ولكن لماذا نحن هنا ، طالما أن التهديد الأعظم موجود إلى جهة الشمال؟»

تلفت قلاوون حواليه ، كانا جالسين إلى جانب نار الطبخ في حقل مفتوح ، والذي أقام فيه عبد طاولة كتابة مؤقتة ، مستخدماً صندوقي تموين . انتشرت رائحة أشجار الدلب التي ما زالت مزهرة لتختلط مع الأدخنة وعطر الشجيرات لتشكل مزيجاً منعشاً ومنشطاً ، ما أعطى الرجال المنهمكين المتيبسين مهلة لنسيان مسألة أنهم يخططون

لمهاجمة إحدى أكثر القلاع تحصيناً ومنعة في البلاد .

تلاشت حماسة الركوب عند وصولهم وترجلهم ، والآن أغفى العديد من الحرس البحري في عتمة المساء ، بينما انهمك رفاقهم في تحريك محتويات القدور من كل ما وصلت إليه أيديهم ليطبخوه . لم يكن أي منهم ينتبه على الرجلين أو ما يقولانه .

اقترب قلاوون ومال حتى لا ينتشر صوته .

«يعتمد الأمر على ما تعتقد أنه يشكل التهديد الأعظم يا عبد . إن الفرنجة مصدر إزعاج دائم بسفنهم المستمرة في الإبحار على الساحل صعوداً ونزولاً ، لكنهم لم يعودوا يشكلون تهديداً في حجم تهديد المغول» . فكر قلاوون للحظة «وهذا هو السبب في أنه لا يمكن رؤية بيبرس وقد خسر أمام إدوارد هذا» .

«لقد قال أنصار الشيء نفسه تقريباً» .

«تماماً . لقد أقدم بيبرس على اتخاذ قرار صعب بعد عكا . كان يعتقد أن لديه بعض الوقت قبل أن يعود المغول ، لكن صفية أخبرتنا بأن ذلك ليس ما سيحدث . إنهم قادمون . يتحتم عليه أن يسجل نصراً على الفرنجة قبل أن يواجه المغول مرة أخرى ، إذا كان ينوي الاحتفاظ بثقة الرجال فيه» .

«وإذا سقطت مدن سورية؟»

اتخذ وجه قلاوون تعبيراً متألماً «أنت تقصد إذا سقطت مرة أخرى؟»

«ذلك صحيح ، إذا سقطت مرة أخرى ، ما هو العمل؟»

«إذاً سوف نستعيدها يا عبد . ولكنها إذا كانت قد سقطت سلفاً ، فماذا يستطيع المغول أن يفعلوا مما لم يفعلوه قبلاً؟»

انفتح فم عبد ولكن الكلمات لم تخرج .

هزَّ قلاوون رأسه «هذه هي حقيقة الوضع . ذلك هو القرار الصعب الذي اضطر بيبرس إلى اتخاذه في هذه الأيام الماضية» .

«هل سيضطر إلى القيام بكل شيء مرة أخرى؟»

«أمر في غاية الاحتمال» .

«والى أي مدة؟»

«الى أن يمنحنا الله بركاته ويغدق علينا بنعمة الاستراحة» .

جمع عبد اللفائف في يديه «سوف أقوم بعمل نسخ» .

استبقاه قلاوون «سوف نتحدث إلى بيبرس أولاً . ابعث بالرسائل إلى سنجار وموسى ومحمد - بدون نسخ - وبعدها اعمل على البقية لاحقاً . يتحتم علينا التحدث إلى بيبرس» .

وجداه على مسافة أمامهما وسط أجمة من الأشجار ، ينظر إلى الأعلى حيث وجه القطع الصخري الهائل خارج حصن مونتفورت يحدق في المقدمة . المنطقة كلها مليئة بالأشجار الحرجية ، فيما عدا حوالي مئة قدم تحت الحصن نفسه خالية من أية نباتات ، لتمنح المدافعين خطاً واضحاً من الرؤية . وقفت مجموعة من الحراس في دائرة على مسافة قليلة إلى الوراء ، وقد تلفعوا بالمعاطف حول أجسادهم ، حيث أخذت الشمس تختفي حول الأشجار . وقف بيبرس بذراعيه العاريين ، غير مبالٍ بالبرودة فيما يظهر .

سأل قلاوون «هل يعرفون أننا موجودون هنا؟» أثناء اقترابهما من خلفه . كان يرتدي اللب الشاموا لخوذته التابعة لزي الفرسان كنوع من قبعة التدفئة وأكمام طويلة ، بينما قلَّد عبد الحراس واستعان بمعطفه لكنه ظل يرتعش جراء البرودة المتعاظمة .

«هم حتماً يعرفون –» قال بيبرس وهو يطأطئ إلى فوق «هل ترى كيف وضعوا المشاعل المضيئة في الأنحاء كافة؟ لا يمكن أن يفعلوا ذلك في أية ليلة عادية إلا إذا كانوا يتوقعون هجوماً» . استدار نصف دورة إلى الوراء . «كل هذه الأشجار هنا – أغلب الظن أنه كان لديهم كشافة مختبئون في كل المكان ليراقبوا قدوم خيالة مثلنا» .

«لأن ذلك هو ما ستفعله أنت» قال قلاوون وأجابه بيبرس بتأييد هادئ .

«لأن ذلك هو ما سأفعله» .

نظر عبد إلى الأعلى وتساءل مستغرباً كيف ينوي بيبرس أن يوجه ضربة إلى قلعة ترتفع مئات الأقدام وتبدو مستحيلة على الاقتراب منها من أي جانب . إن تشكيلة الأسلحة المضادة للحصار مثل الزيت والصخور والسهام التي يمكن للمعبديين أن يلقوا بها إلى تحت ستكون مهلكة . تخيلهم عبد جالسين في أبراج الحصن مع كومة من الصخور ، ينتظرون فقط صعود الفرسان حتى يسقطوها فوق رؤوسهم .

قال «لن تتسلق الجياد هذا الوجه الصخري أبداً . ألا يجدر بنا أن ندور حول الأطراف ونهاجم من ناحية الشمال؟»

مرر بيبرس يده داخل لحيته وهو يغمز بعينه السليمة قائلاً «نحن لا نريد أن نهاجم هذا المكان يا عبد» .

عاود عبد النظر إلى الشكل المتموج الغريب للحصن ، والذي يتآلف شكله مع تعرجات القمة التي بني عليها . «ألن نهاجمه؟»

«كلا» استدار بيبرس خلفه وأومأ إلى مجموعة رجال وصلت إليهم وسط الظلام . كانوا يثبتون قيوداً غريبة حول أكتافهم وحبالاً غليظة من القنب حول وسطهم وتحت ذراعيهم . «سيقوم هؤلاء الرجال بإحراقه» .

تقدم عبد إلى الأمام في الظلام محدقاً واستطاع أن يميز الوجوه ، قال «هؤلاء هم رجالي ، إنهم رجال كتيبة المدفع!»

ضحك بيبرس وقلاوون «ذلك صحيح أيها النقيب» قال بيبرس «أنا لم أوكل المهمة إلى عصابة من الرعاع المجانين الذين يحبون أن ينسفوا الأشياء بمدافعهم - إنهم قواتنا الخاصة ، ولديهم مجموعة من المهارات التي لا يسع معظم الجنود العاديين غير أن يحلموا بها» .

«وإحداها هي القدرة على تسلق الجبال» .

التفت عبد نحو مصدر الصوت ونظر إلى أنصار بقدر من الصدمة ، فقد كان يرتدي العدة الغريبة بمرابطها حول كتفيه وعدداً من الأدوات ذات المظهر المدهش على حزامه .

قال «أقدم اعتذاراتي حضرة النقيب . فقد كنت أنت منشغلاً بكتيبتك حينما جاءنا القائد قلاوون والسلطان شخصياً . . .»

قال بيبرس «ليس هناك من داعٍ للاعتذارات» ، ثم اقترب أكثر ليتفحص معدات أنصار «إن الوقت في غاية الأهمية» .

قال عبد «لا ، لا ، لا داعي للاعتذارات» . وهو ما زال يعاني من الدهشة .

«نحن بحاجة إلى جعل سكان الجبل هؤلاء يفكرون بأننا خائفون من الهجوم وحائرون في كيفية الاستمرار» . شد بيبرس رباط حلقة على كتف أنصار «ولكن عندما تستخدم البارود السحري على أساسات هذا الموقع الدميم ، وتتهاوى كل هذه الأسوار ، فسوف تشعل ناراً يمكن رؤيتها من هنا إلى عكا وأبعد . وقتها سيعرفون أننا لم نفقد اتجاهنا كما اعتقدوا . سوف نظهر بمظهر الأقوياء . أليس ذلك صحيحاً؟»

«نعم يا صاحب الجلالة» قالوا كلهم .

«سوف نرسل دوريات في الطرقات على التلال فوقهم وعند سفح الجبل هنا أثناء قيامكم بالتسلق . سوف يحملون المشاعل ولا يقومون بأية محاولة لإخفاء أنفسهم ، وبهذه الطريقة سوف يستقطبون انتباه الفرسان في القلعة . سوف تكونون أحراراً في القيام بتسلقكم وزرع عبواتكم الناسفة» .

«نعم يا مولاي» قال أنصار .

«لا تبقوا على حياة أحد ولا تأخذوا أسرى . اقضوا على أي شخص يحاول أن يرفع الإنذار» .

«نعم يا مولاي» .

ضرب بيبرس بيديه على ذراعي أنصار ونظر إلى بقية رجاله . «الله أكبر . وسوف يكون معكم أيها الرجال في كل بوصة تخطونها» .

أحنى رجال كتيبة المدفع رؤوسهم ونفض بيبرس إبهامه باتجاه الجبل «انطلقوا الآن - هناك الكثير مما يجب فعله قبل أن ننال هذا النصر» .

لطخ الرجال وجوههم بالطين الذي أخذوه عن الأرض وسط ابتساماتهم ثم تحركوا قدماً وبدأوا يتسللون بين الأشجار إلى العتمة المطبقة خلفها . راقب عبد لحظة وصولهم إلى سفح وجه المرتفع الصخري ، تحت أنوار حصن مونتفورت مباشرة ، سحبوا مطارق صغيرة من صداريهم وأخذوا يدقون مسامير غليظة في الحجر ليستخدموها كأول مرتكز لأقدامهم . تسلقوا فوق أكتاف بعضهم بعضاً من هناك حتى وصلوا إلى قمة الوجه الصخري ، ثم أخذوا يحسبون كم من الوقت سوف يستغرقهم تسلق المرتفع بكامله .

قال بيبرس «سوف يستغرق هذا العمل بعض الوقت» وقد قرأ أفكار عبد «دعونا نحصل على شيء نشربه ونأمر بإخراج أولى دوريات فرق الإلهاء» .

أمر بيبرس خادمه بأن يحضر لهم شراب الكوميس الذي يشعرهم بالدفء أثناء مراقبتهم لأحد الفرسان وهو يضيء مشاعلهم وينصرف راكباً لجولة على المنحدرات السفلية ، تمشي جيادهم خبباً عبر الأشجار وتنير المشاعل خوذاتهم ، حتى جاءت النتيجة الإجمالية لتعطيهم مظهر بعض الخيالة الجهنميين الليليين الذين أرسلوا من قاع الجحيم لاقتناص أرواح الغافلين .

بعد انصراف الجميع ، لم يبق سوى بيبرس وعبد وقلاوون واقفين في العتمة التي حلت ، مع وجود الحرس الشراكسة في حلقة حولهم بين الأشجار بحيث لا يكادون يظهرون .

سأل بيبرس «هل كتبتم الرسائل؟»

هزَّ كلاهما رأسه داخل كوبيهما «لقد فعلنا يا مولاي» . قال قلاوون .

«جيد . لقد كنت أتفقد سجلات الحسابات» .

تصالب كل من قلاوون وعبد عند هذا وتبادلا نظرات قلقة قبل أن يعاودا التلفت إلى السلطان .

«أنا لم أحظ بكثير من النوم خلال هذه الأيام الماضية كما تعلمان . لقد كانت هذه الساعات القليلة التي أعرف أنكم تحصلون فيها على راحتكم مفيدة بالنسبة لي» .

هبطت ذراع قلاوون إلى جانبه «لقد كانت السجلات كلها داخل صندوقي يا صاحب الجلالة» .

«وقد أرسلت رجلاً ليحضرها إليَّ . ليس هناك شيء لا أعرفه حول جيشي ودولتي في هذه الآونة» .

لم يجرؤ أي من الرجلين أن يناقضه .

«لقد قلنا الكثير عن الأبنية ، وتحدثنا مطولاً عن الأموال التي سنحتاج إليها لتمويل هذه المنشآت . لقد تكلم أُنس عن المال عندما عارض في قدومنا إلى هنا . وألاحظ أنه ليس موجوداً هنا الليلة» .

«لقد أقام مخيمه على مسافة صغيرة من هنا يا صاحب الجلالة . هل ينبغي عليَّ أن أستدعيه؟»

«أتركه بحاله . ما يهم هو الولاء وما كان القدماء يسمونه (عصب الحرب) - المال» .

«لدى المغول ثروات لا تحصى - كل ثروات الشرق» شرب قلاوون الكوميس من قدحه . «ويبدو أن الفرنجة قادرين على تمويل حملات لا نهاية لها» . قال عبد ، وقد تاهت عيناه غارقتين في التفكير . «واحد أو الآخر من ملوكهم . . .»

«هل تذكر كيف اشترى لويس حرية كل واحد من جنوده؟»

قال بيبرس «إن مصر هي البلدة الأكثر ثراء في كل المشرق . ولكن حتى نتمكن من استخدام المدى الأقصى لقوتها ، نحن بحاجة إلى رجال مخلصين لنا ، يعملون في الأرض . ابتداء من الآن ، أريد منكما الاثنين أن تحضرا لوائح بأصحاب الأراضي التي تدين بإرثها إلى قطز وزين أو المعزي . وكذلك بكتوت - لقد كدت أنساه . كان يجب علينا أن نفعل هذا قبل زمن طويل ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً حيال الأمر الآن» .

«وهل نستثني أُنس؟» سأل قلاوون .

«ليس بعد . بعد أن تصبح هذه القوائم جاهزة لديكما ، اعثروا لي على عدد مقابل من رجالنا لينتقلوا إلى الأرض - عملاؤك يا قلاوون ، ورجال كتيبة مدفعك يا عبد . يعلم الله أنهم استحقوا هذا . سيجيء دور الموت ومهنا وسنجار وموسى والأفضل محمد بعدهم» .

«أنت تنوي أن تغير نظام الإقطاع بكامله» . جاء تعبير قلاوون جدياً ولكنه مفعم بالإعجاب .

«أنوي ذلك فعلاً» . قال بيبرس . ساد الهدوء والصمت لفترة بينما تفهم المستشاران هذا الخبر ، فاستغل بيبرس هذه الفرصة لينادي على أحد الخدم «أصدر أمراً عاماً بأنه يتحتم على كل رجل أن يشعل ناري معسكر اثنتين - كلا ، ثلاثة - افردوها ووسعوها . دعوهم يعتقدوا أننا ننوي الاستقرار بأعداد كبيرة» .

«ألن يتسبب ذلك في إلقاء الضوء على الغامنا؟»

نظر بيبرس إلى الوجه الصخري والظلال الباهتة للأشكال التي أصبح عليها أنصار وكتيبة المدفع . «لن يصل النور إلى تلك الارتفاعات . سينظر الحراس ولكنهم لن يروا شيئاً»

قال عبد «الأمر كله متعلق بسحب الأنظار ، كما هو بالنسبة للدوريات المزيفة» .

«فعلاً يا عبد» قال بيبرس «عندما يخوض الشخص نزالاً ، فإن المفتاح هو التوجيه الخاطئ . أنت تقنع عدوك بالتفكير بأن هجوماً ما سيقع من اتجاه معين ثم عندما يصبح معتاداً على ذلك ، تضرب ضربتك الحقيقية حيث ترك نفسه بدون حماية وغير قادر على الرد في الوقت المناسب» .

«يبدو هذا مثل خطتك حينما أخذت المغول إلى فكي عين

جالوت . اعتقد كتبغا أنه في حالة هجوم ، في الوقت الذي يتحتم عليه فيه أن يدافع عن نفسه» .

«نعم يا عبد - ولكن ماذا يفعل الشخص الآن ونحن نواجه عدوين مختلفين؟» قال قلاوون وهو يتنهد «يستطيع المبارز بالسيف فقط أن يدافع عن نفسه ويأمل في الهروب إذا واجه رجلين آخرين في قتال» . لم تكن لهجته قاسية ، لكنه تكلم مثل رجل قضى ساعات طويلة يعاني من المحنة .

«أضيف إلى ذلك حقيقة أن خصمينا سيهاجمان من مكانين مختلفين» وافقه عبد .

«بالضبط - نحن لا يمكننا أن نتواجد في مكانين في الوقت نفسه» فكر قلاوون بصوت مسموع «سيكون نصف القوات البحرية أكثر من ندٍ لإدوارد إذا واجهناه في الميدان» نظر إلى بيبرس ليرى ما إذا كان لكلامه تأثير عليه .

«لقد واجهناه في الميدان» قال بيبرس «فكيف كانت نهاية ذلك الاشتباك؟»

كانت معنويات عبد قد ارتفعت من تأثير حالة السلطان النفسية المرحة لحظة إرساله كتيبة المدفع ، لكنه تألم لدى سماعه بيبرس يتكلم بتلك الدرجة من الاكتئاب بهذه السرعة .

«لقد قصدت أنه لو كانت الظروف صحية و -»

«وانتشرنا بالشكل الصحيح» أكمل عنه بيبرس ، وهو يأخذ جرعة من الكوميس ويمد قدحه طالباً المزيد . ظهر خادم آخر وملأ له القدح . «نعم ، إن نصف القوات البحرية سيكون نداً لأعداد إدوارد في معركة متكافئة ، لكن الفتى أكثر فطنة من أن يقاتل بذلك الأسلوب . لقد

تصرف بشيء من الطيش ولكنه لم يكن أحمق متهوراً . دعونا نأمل أنه سيتصرف بالأسلوب نفسه في المستقبل حينما نكون على مقربة منه» .

ألقى بيبرس بنظرة إلى النيران التي بدأت تظهر حوله تلبية للأمر الذي أصدره . أخذ المرتفع الواقع خلف الحرش يضيء بوهج باعث على الدفء .

قال قلاوون «يحسن بنا أن ننتبه حتى لا يقتربوا من الأشجار أكثر مما ينبغي» .

تجاهله بيبرس «لكن نصف مجموعتنا سيتم إغراقها من قبل أي تومان مغولي» . قال وهو يكمل البحث «يوجد عشرة آلاف فارس في كل تومان ، وقد أحضر هولاكو معه ستاً من هذه الفرق للحملة الأخيرة . ما الذي يمكن أن يخبرنا بأنه لن يتوفر لديه العدد نفسه في المرة القادمة؟»

«لا شيء» اعترف قلاوون «لا يمكننا أن نتواجد في مكانين في الوقت نفسه» .

«لا نستطيع ذلك» قال بيبرس ثم كرر نفسه «لا نستطيع . إن تقسيم قواتنا سيعني التضحية بكل شيء مقابل لا شيء» .

سأل عبد «ولكن ماذا عن الجيش الملكي؟»

«إذا كانت معلومة امرأتك من عكا صحيحة -» نظر بيبرس ورأى أن عبد لا يعرف ما الذي يتحدث عنه .

«لقد قالت إنها اكتشفت شيئاً من أحد الجواسيس . معلومات مفيدة»

«حسناً» تنحنح بيبرس ليصفي صوته «لقد اكتشفت أن الجيش

الملكي يحتمل أن لا يكون جاهزاً ليقاتل هذا المدعو أباغا في سورية . لا يوجد غيرنا ، والقوات الموجودة تحت تصرف الأمراء الموجودين هناك» .

في اللحظة التي همَّ فيها عبد بقول شيء يعبر فيه عن صدمته ، رفع قلاوون يده .

«سيكون جاهزاً لمواجهتهم في حال وصولهم إلى سيناء ، ولكن ليس قبل ذلك ، إلا إذا استطعنا أن نبطئ من تقدمهم . هذا هو السبب في ضرورة توجيه ضربة ردية إلى إدوارد بأسرع وقت ممكن ثم التحرك شمالاً . إن أباغا قد بدأ يشق طريقه نحونا . كل واحد من رجاله معه ثلاث مطايا ويحتمل وجود رجال من القش يرتدون لباس المقاتلين لزيادة أعدادهم» .

«رجال من قش . . .» قال بيبرس «ذلك بالإضافة إلى استخدام مسامير لشل حركات جياد العدو هي الأكثر شيطنة في حيل المغول وخططهم . هل فكرت يوماً أنك ستحيا لتشهد مثل هذه الأمور يا قلاوون؟»

«لقد سبق واستخدمنا بعض الخطط المخادعة العائدة لنا في الماضي يا مولاي . ولكن بوجود رجال القش وأكياس المسامير ، بالإضافة إلى المطايا الإضافية ، فإن هذا يعني أن أباغا هو حتماً في الطريق الينا» .

«وكذلك هم الفرنجة» التفت الثلاثة حولهم نحو الصوت الجديد في وسطهم . كان الموت يقترب بوجه عابس .

سأله بيبرس «ما هي الأخبار أيها الأخ؟»

«لقد وصلني الخبر من الناصرة لتوه . لقد ذهب الأمير الفتي في نزهة راكباً ، وقد اصطحبه خيرة رجال الفرنجة المقاتلين» .

«هل هم الهوسبيتاليون؟»

«وكذلك المعبديون والتيوتون . حتى الايبليون» .

«تحت راية من؟»

«تحت راية الأمير . ثلاثة أسود ذهبية على قماشة حمراء . لقد جلبهم كلهم تحتها . ليس مجرد راڤيل ، بل أيضاً بريراد وسانجيرهاوزن» .

تفتح وجه بيبرس على ابتسامة مع تزايد فضوله «ما هي أعدادهم؟»

«كبيرة ، ولكنها حتماً ليست أكبر من أعدادنا . حتى حالياً . لقد أخبر سكان المدينة والمزارعين رجالنا الذين تحدثوا إليهم بأنهم ليس لديهم مشاة» .

قال بيبرس «إذاً فهي مجرد غارة ،» وقد شكلت يده قبضة مشدودة «أنا واثق من ذلك . إنهم في مكان مكشوف ويبقون أنفسهم على أهبة الاستعداد حتى يتمكنوا من الانسحاب إذا دعت الحاجة» .

قال ألموت «لو كنت مكانك لمارست الحذر يا مولاي . إن مهنا يجهز رجاله في الحقل الواقع خلفهم . أرسلهم كقوة متقدمة . يمكن لهذا الأمر أن يكون خدعة من نوع ما لجرنا إلى هجوم متسرع آخر» .

«إذا كان الأمر يتعلق بجيادنا مقابل جيادهم فسوف تكون الريح عند ظهورنا ، إنني أفضل رجالنا على رجالهم في أي يوم ، أيها ألموت» .

سأل قلاوون «وماذا عن الحشوات المتفجرة؟»

رفع بيبرس رأسه ليحاول أن ينظر إلى الجبل «دعهم يستمرون . ليس لدينا طريقة لاستدعائهم ليتوقفوا بكل الأحوال» . التفت إلى الموت «سيكون مهنا جاهزاً للمغادرة قبلنا . قل له أن يذهب ويستكشف

الممرات والتلال المحيطة بالبلدة . سوف نصل بقواتنا بعد فترة وجيزة» .

فرك يديه «ربما يكون الجرو قد أصبح متهوراً بغباء نتيجة الثقة الزائدة بكل الأحوال . سنرى ذلك لاحقاً . لكنني أريد أن أشن عليه هجوماً آخر - لنر كيف يقاتل في التلال التي ركبت عبرها لسنوات بينما كان لا يزال مرتبطاً بأمه» .

قال عبد «لنر ذلك فعلاً يا مولاي . ولكن ألا يجدر بنا أن نرى نتيجة هذا الهجوم قبل أن نسحب أنفسنا إلى العراء؟»

«أنت قلق على رجالك يا عبد ، وذلك أمر طيب . إبقَ هنا إذاً ، مع بقية كتيبتك ، وإذا احتاج رجال المتفجرات إلى المساعدة ، وكنت قادراً على إعطائها ، فافعل ذلك . وإلا فإنه بامكانك أن تقدم الأخبار عن منظر مونتفورت أثناء احتراقه حتى الأرض من مكان قريب . سنكون نحن بعيدين عنه كثيراً بحيث لن نشاهد أكثر من بقعة صفراء» .

«سأفعل ذلك يا مولاي» .

وقف عبد ساكناً بينما اختفى بيبرس وحراسه وسط العتمة ، وتحرك قلاوون والموت وبقية القوات البحريين معهم بصمت . ظلت قدرتهم على الاختفاء حينما يتم استدعاؤهم بسرعة رهيبة أمراً باعثاً على الدهشة . بعد ذهابهم بقي لوحده محاطاً بدفء غابة من نيران المعسكر ، الآلاف منها ترفرف مع نسيم التلال التي كانوا يقفون عليها وباتت الآن خاوية . استدار نحو علي بك ، الشخص الأرفع منصباً بين حوالي ثلاثين من أفراد كتيبة المدفع الذين بقوا معه على الأرض وهزَّ رأسه باتجاهه بحركة ماكرة «هل ترغب في قليل من الكوميس يا علي بك؟»

«أشكرك حضرة النقيب ولكن لا» . رفع الحارس النحيل يده تأدباً

قبل أن يعاود النظر إلى الوجه الصخري . أصبح البحث عن حركة الرجال في الأعلى هناك صعباً بسبب الأشجار التي تحدت الجاذبية لتنمو على الصخر هناك ، تتعلق به فوق الأرض البعيدة .

شرب عبد قدحاً آخر ثم رفع رأسه «هل بوما متسلق بارع؟»

«هو أحد الأفضل في الكتيبة - ليس مجرد كتيبة المدفع ، بل أيضاً بين القوات البحرية كلها» .

حرك علي بك رأسه قليلاً ليحدق لأنه اعتقد أنه رأى شيئاً ما . «ذلك هو السبب في وجوده هناك .» بوما هو رفيق علي بك الدائم - يتشارك الرجلان في وظائف الحراسة والخيول والأسلحة . لم يكن عبد قد اكتشف أصل معنى اسم الرجل الغريب - البومة . تخرج بوما من مدرسة الطباق أولاً ، ولكن بمجرد أن انضم الرجل الثاني إلى الكتيبة في القاهرة ، لم يعد أحد يرى الاثنين وقد افترقا ، وكانت هذه حتماً المرة الأولى التي رأى عبد فيها أحدهما بدون الآخر .

أخرج زفرة طويلة في برودة الليل . «سوف يحرزون لنا نصراً عظيماً هذه الليلة» . تساءل كيف هو وضع أنصار في الأعلى هناك - يعثر على شقوق حادة في الصخر ليستخدمها كمداس لقدمه ثم يدق المسامير للرجال القادمين خلفه ليستعينوا بها في التسلق . لابد وأنهم قد صعدوا مئات الأقدام هناك بحلول هذا الوقت .

«إن شاء الله» قال علي بك . هزَّ عبد رأسه وشرب من قدحه ، سعيداً لكون تواصله مع الرجال العاديين في الكتيبة إلى تحسن . منحه الكوميس شعوراً بالدفء ، مثلما جاءت دهشته من استطاعته أن ينمي إعجابه بمثل هذا الشراب العجيب .

تسببت صيحة بعيدة وصوت سقوط مفرقع من الأعلى في تلفته

مرة أخرى وتمكن علي بك من الصراخ «ليرجع الجميع إلى الوراء!» في اللحظة الأخيرة، قبل أن تسقط صخرة كبيرة، عرضها بقدر كتفي رجل ناضج محدثة صوتاً مخنوقاً لتدفن نفسها في التربة المغطاة بالطحالب على بعد عشرة أقدام أمامه. تمت إطاعة صرخة عامة إلى الرجال ليبتعدوا إلى الوراء من قبل أغلبية رجال كتيبة المدفع على الفور، لكن عبد بقي متسمراً في مكانه، مسحوراً بالظهور الغرائبي للصخرة، فاضطر علي بك إلى سحبه من كتفه ليكاد يجره من مكانه صائحاً به «تحرك!»

احتموا تحت الدروع حيث بدأ المزيد من الصخور يتساقط وأخذوا يسمعون تبادلاً للصرخات فوقهم. لم يستطع عبد أن يميز أصحاب الأصوات، لكنه بات على ثقة من أن أنصار يقود التنبيه على الرجال بالانتباه في تلك الأعالي.

«لقد اكتشفوا وجودهم» قال علي بك بمرارة.

لحظتها سقطت أولى الجثث، وهي لجندي، لم يمكن التعرف عليه حيث وصل إلى الأرض الصلبة محدثاً صوت ارتطام رهيب، تحطم جسمه وتلوى باتجاه سفح الصخرة. انزلقت الصخرة التي قتلته عن الحافة ووصلت إلى الأرض قريباً من الرجال المحتمين في الأسفل. حمل الرجل الثاني في السقوط سهماً في أعلى صدره. وهكذا بدأت الكارثة، استمر عبد والآخرون ينظمون إحصائية رهيبة بينما استمر المعبديون يمطرون الجحيم على جنود كتيبة المدفع العالقين تحتهم. استطاع عبد أن يتعرف على أنصار لدى سقوطه على مسافة إلى يمينه، من الوشاح الأخضر الفاتح الذي يميزه كضابط، والسيف الذي يضمه الوشاح والذي ظل يتحزم به كل يوم منذ تخرجه. ندت عن علي بك

آهة حزن عندما سقط بوما ، أحد أواخر الذين سقطوا .

بعد أن تم التعرف على كل القتلى وإحصاؤهم ، وتوقفت القذائف عن السقوط ، خرج عبد ومشى بين رؤوس السهام نصف المدفونة والصخور ليتفحص الأموات .

«ماذا سنفعل حضرة النقيب؟» سأل علي بك وهو ينظر إلى صديقه على الأرض .

«ادفنوهم . ضعوا علامات مميزة على قبورهم ، ولكن ليس شيئاً يستطيع الفرنجة أن يلاحظوه حينما يجيئون ليتفرجوا في الصباح» . قاوم عبد شعوراً متعاظماً بالاختناق في حلقه «بعد أن ننهي هذا العمل ، سوف نركب وراء بيبرس وندركه» .

أجال نظره في الوجوه العابسة للفرسان حوله والذين لا يعرفهم إلا بدرجة سطحية . لم يكونوا سعداء بهذه النتيجة ، أدرك بالسليقة أنهم سيلقون باللائمة عليه نتيجة الألم والإذلال الذي يشعرون به . لقد أرسلهم السلطان ليتسلقوا تلك الصخرة ، ولكن عبد هو المسؤول عن قيادتهم . إنه مسؤول عن مصائرهم . ثبت في موقعه وهو ينتظر أن تبدأ إطاعة أمره . أول من تحرك هو علي بك ، مصدراً الأوامر أثناء ذهابه وتحرك الآخرون واحداً بعد الآخر مبتعدين وراءه . نظر عبد إلى أنصار المسجى وتذكر الرجل الذي كان عليه - الرجل الذي يحتاج إليه الآن - وصلّى .

لقد ذاق طعم الهزيمة مرات عديدة في صباه ، وحتى في أوائل شبابه . فقد تمت مطاردته وضربه من قبل الفتية الأكبر سناً والأقل ذكاءً الذين يسكنون حوله في بغداد ، وتحمل علقاتهم وإهاناتهم لأنه لم يكن لديه خيار آخر ، أو هكذا كان يعتقد . لقد تعايش مع الإهانات

والتعليقات البذيئة من زملائه الأثرياء والأرستقراطيين في الكلية .

وضع عبد البحريين وبيبرس فوق جميع تلك الاعتبارات لمدة طويلة ، واعتبرهم نوعية خاصة من البشر - والأمر صحيح فهم بشر مختلفون تماماً بالنسبة لكثير من الناس - جياد أصيلة في عالم مملوء بالأمهار والبغال - لكنه أصبح يعتقد بأنه يتعلم تدريجياً أن البحريين هم بشر أيضاً ، فأصبح هذا الاكتشاف مزعجاً لعبد أكثر من العداوة العابرة التي سيتعامل بها من قبل رجاله الباقين على قيد الحياة للأيام المقبلة .

«هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الهزيمة تحل عليهم ، وإن مجرد رؤيتهم يعانون - كما أستطيع أن أعاني - هو أمر باعث على الضيق» . رفع عينيه إلى السماء وأدرك أنه ربما ينظر إلى وجوه الرجال الذين قتلوا صديقه ورفاقه في السلاح . «أولاً تيكا والآن أنصار . فهل أمير إنجلترا هذا مصاب بلعنة؟» أعاد دفن الفكرة المجيبة - التفكير الذي استمر يلح عليه فترة طويلة بإزعاج حتى الآن . هل بيبرس وكل الذين خدموه ملعونون بسبب ذبحهم لقطز؟ لذبح الفتى زين؟ لقد ظل عبد يحتقر الخرافات زمناً طويلاً ، لكنها زحفت من أحلامه إلى ساعات صحوه ، فبدأت أيامه تتحول إلى كوابيس تدريجياً وببطء . «من هو التالي؟» وكما يحدث في مرات متعددة أثناء ساعات غضبه ، تخطر صفية بذهنه فيرتجف لشدة شوقه إلى عناقها - ليأخذها إلى نفسه في مكان آمن ودافئ لا يغادرانه إلى الأبد . أغلق عينيه وتذكر رائحتها لدى قدومها إليه في المرة الأخيرة ، تزحف إلى فراشه وتعانقه - ثم انشق بصره بإحساسه لملمس خدها تحت كفه عندما صفعها - النظرة التي ارتسمت على وجهها فيما بعد . لقد كانت الطريقة التي نظرت بها إليه

في تلك اللحظة هي التي ستظل تطارده . لقد تجلت عن نوع عميق من الحزن تحمله في داخلها ، يأس لدى إدراكها أنه مثل بقية الرجال . حبيبها عبد . وبعد ذلك الاحتقار . تلوى فمه من طعم الذكرى المر فهز رأسه من ناحية إلى الأخرى ليحرره وهو يلعن نفسه .

«ما الذي قلته حضرة النقيب؟»

تلفت حواليه «ماذا؟ لا شيء يا علي بك . هل كل شيء جاهز؟»

«ليس بعد يا سيدي . إن تحضير الحفرة سوف يستغرق وقتاً طويلاً» .

«لن نتركهم في العراء على هذه الشاكلة» .

بانت الموافقة على وجه الرجل الفتى «كلا أيها النقيب . لا يجمل بنا أبداً» .

جاء صوت صفعة حادة وسقط رجل خلف علي بك . فقد اخترق السهم الطويل النقطة ما بين الرقبة والكتف وخرج من بطنه . سقط الرجل بينما تحاول يداه عبثاً أن تحاول الإمساك بالسهم ، ويسحب فمه الأنفاس بلا جدوى بحثاً عن الهواء من قبل رئتين انفجرتا .

«أيها النقيب» أفرد علي بك ذراعه باتجاه عبد «ينبغي عليك أن-» زعق عبد عندما خرج رأس السهم من فك الفارس - وفقدت عيناه نورهما والقدرة على الإبصار بالسرعة التي تنطفئ فيها شمعة قراءة في وقت النوم . قفز عبد إلى الوراء ، وهو يرى ريشات السهم المعلقة في ثناياه تبرز من مؤخرة رأس الرجل المصاب ، وبعدها بدأ يركض مبتعداً عبر الأشجار باتجاه الجياد النائمة في المؤخرة . تبع السهمين الأولين وابل ثم آخر بحيث امتلأت الأرض تحت أقدام رجال كتيبة المدفع بعيدان مقلوبة يكسرونها أو يتعثرون بها بأقدامهم . شعر بالخجل لكونه

قد امتطى حصانه مبتعداً بينما كان رجاله يخرجون من خط الرميات ويحاولون العثور على مطاياهم ، والعديد منهم يرتمي جراء السهام التي تلقاها في ساقه أو تدلت من ذراعه . كان المنظر رهيباً ، لكن عبد انطلق مبتعداً عن أرض الموت ، متبوعاً بأقل من عشرين من الناجين يركبون خلفه ، وهم يسحبون جياد أولئك الذين لن يتمكنوا من اللحاق بهم .



إدوارد

مدينة الناصرة

«هنالك فرسان قادمون من الشمال الغربي يا صاحب السمو ،» اقترب فيتزهيو بينما كان إدوارد راكعاً أمام المغارة الحجرية ، عاقداً يديه . الحصى والغبار يخترقان بنطاله ، لكنه كان قد نسي أي إزعاج منذ وقت طويل ؛ إذ يستحيل وجود أي ازعاج في مكان مثل هذا . فتح إدوارد عينيه ونظر إلى أعلى «فكر في الموضوع يا هيو . هذا هو المكان الذي ستكون العذراء قد مشت فيه حاملة المسيح الطفل . أشعر وكأنني إذا مددت يدي إلى الأمام فهي ستمر عبر روحيهما . هذه هي الناصرة!»

«الأمر يطغى على النفس يا مولاي الأمير . ولكن هناك رجال قادمون وسوف يؤذوننا إذا لم نتحرك على الفور» .

نهض إدوارد واقفاً «هل رجالنا حاضرون في مواقعهم؟»

«نعم يا صاحب السمو . إنهم فقط بانتظار أمرك» .

«لكن وجودي سيكون أفضل . كم يبلغ عدد الأعداء؟»

«بضع مئات . ربما يصلون إلى سبعة أو ثمانية . لقد شاهدهم كشافتنا على بعد بضعة أميال . يقول تقريرهم إنهم يتحركون بقوة . يحتمل أنهم ينوون الاتصال بالبلدة ، وليس مجرد قضية استكشاف بسيطة» .

«إذاً دعونا نسلط عيوننا عليهم» .

منح إدوارد مغارة سيدتنا العذراء نظرة أخيرة قبل أن يتبع فيتزهيو المتوتر نحو خادم يمسك بمطيتيهما . ركبا خارجين نحو البقعة التي اصطف فيها فرسان الإنجليز وتقبل إدوارد هتافهم وهو يخب بحصانه ليأخذ موقعه على رأسهم .

بعد ذلك بدأت القوة ذات الدروع الثقيلة تتحرك إلى الأمام ، رافعين رماحهم الطويلة عالياً ، متجهين نحو الممر الواقع بين الجبال إلى الغرب مباشرة من بساتين الزيتون التي سيضطر الغزاة إلى سلوكها إذا كانوا يريدون الوصول إلى البلدة في ذلك اليوم .

وصل إدوارد إلى الأرض المفتوحة وسحب أعنة جواده ، قام رجاله بتشكيل خطي حراسة جانبية . انتظروا هناك حتى ظهرت لهم سحابة من الغبار في الفسحة الواقعة بين المنحدرات وأخذ حجمها يكبر بينما يقطع البدو الأميال الأربعة الواقعة بين موقعي القوتين . عندما وصلوا إلى مسافة قريبة مكنت إدوارد من تمييز ألوان خيولهم وحتى بعض من راياتهم التي يحملونها ، أصدر الأمر لقوته بخفض رماحها والبدء بالتحرك قدماً مرة أخرى . مشوا في سرعة وئيدة ، وإدوارد ينتظر حلول اللحظة المناسبة لتوقيت هجومهم بحيث يكون له التأثير الأقصى . حمل دي كلير وفيتزهيو من جانبي الأمير درعين هائلين وسيفين عريضين ضخمين ، متأهبين ويراقبان أية بادرة تشكل تهديداً للأمير .

أطلق مهنا صرخة سرور في الأرض المنبسطة أمامه مباشرة على العدد القليل الذي يواجهه .

صاح مخاطباً نائبه «إنهم لا يتجاوزون المئتين عدداً! إلى الأمام! أريد أن أحاصرهم وأبيدهم بسهامنا» .

«هؤلاء سلاح فرسان ثقيل يا شيخي» قال الرئيس فوق ضجيج الحوافر.

«إذا بقينا على مسافة بعيدة بما يكفي، فهم لن يلمسونا أبداً بهذه الرماح».

«إلى الأمام يا رجالي!» صاح مهنا «حماسة، حماسة!»

لدى إطلاقه تعبير الحماسة القديم، دفع البدوي كاحليه في جنبي حصانه وتبعه رجاله في طراد سريع، يطلقون صرخاتهم ويهتفون أثناء انطلاقهم. حافظ الفرسان الإنجليز على مسارهم، ولكن بمجرد أن انتشرت مجموعة مهنا نحو مؤخرتهم في السهل القصير، أصبح جلياً أن الفرسان يمثلون أقلية بنسبة واحد إلى ثلاثة أو أربعة.

صرَّف مهنا أسنانه ورفع قوسه، شبك السهم وبدأ ينتظر مرور الثواني قبل أن يصبح في مدى كاف للإطلاق. لكن ذلك لم يكن مقدراً، لأن الفرسان، حينما رأوا أنهم يحتمل أن تتم محاصرتهم من قبل الفرسان الأسرع تحركاً بكثير، استداروا بشيء من المجهود وأخذوا يفرون ليحتموا خلف بساتين الزيتون، عابرين من أمام خط الأشجار الأمامي أثناء ذهابهم.

«إنهم يهربون!» خفض مهنا قوسه وأمسك بالأعنة بكلتا يديه، واستمر يحث حصانه «لا تسمحوا لهم بالوصول خلف تلك الأشجار!»

صاح نائبه «يمكننا أن نلحق بهم!»

كان الفرسان الفرنجة بدورهم يدفعون أحصنتهم للمزيد من السرعة، لكن قوتهم كانت ثقيلة وتشكيلاتهم فوضوية إلى درجة أنهم لم يتمكنوا من قطع مسافة على الأرض بسرعة البدو. وصلوا إلى الزاوية البعيدة عند طرف البستان. لا يكفي. كاد مهنا أن يصل إلى

ظهورهم ، مثل فهد يهم بالقفز على حمار وحشي هارب . «اطلقوا ، أيها الرجال! أصيبوهم في ظهورهم وهم يفرون!» وصلوا إلى جانب الأشجار الكثيفة في هذه اللحظة ، رفع مهنا قوسه وصوب نحو الصليب المرسوم على ظهر أحد الفرسان ، وقد أغلق عينه اليمنى نصف إغماضة ومتوقعاً خطوات الحصان ليوقِّت الرمية .

جاء تفسير العين المغمضة أن أول ما عرفه عن الكمين هو البوق الوحشي الذي أطلق ليشير إلى بدء الهجوم . قاد هيوز دي راڤيل الهوسبيتاليين من مخبئه خلف أوراق الزيتون في الهجوم ، متبوعاً بالتيوتين والمعبديين وأخيراً الايبيلين ، حيث انتشرت المجموعة الملكية في الجانب البعيد من البستان لتعيق أي محاولة هروب .

لم يتسن الوقت للبدو المنطلقين في هجومهم ، لتعديل اتجاههم ، مع أن كثيرين منهم حاولوا ، فكانت النتيجة تعثر حصان قبل أن يتم دهس راكبه من قبل رفاقه أنفسهم .

اصطدمت خيول اللاتين الأثقل وزناً بكثير ، بخاصرة البدو فطرحتهم إلى الوراء وألقت بالكثير منهم عن سروجهم إلى الأرض وراءها . انسحقت الأرجل والأجساد تحت ثقل الحيوانات المجفلة ، ثم تحركت قوى الرهبنات المتحدة لتتقدم ، تثير الأرض وتترك لجيادها أن تنهي المهمة التي بدأها هجومهم .

هرب أولئك الذين تمكنوا ، بينما لم تتمكن الأغلبية من التحرك خارجين من الورطة التي تحول إليها ميدان المعركة . راقب إدوارد بينما كانت الرماح الطويلة تخترق المقاتلين القلة الذين علقوا وأجبروا على المقاومة ، بينما أخرج أولئك الهوسبيتاليون والمعبديون الذين لم يكونوا في الصف الأمامي أقواسهم وبدأوا يطلقون السهام في الهواء ، آملين أن

تنزل السهام القوسية في مكان الهاربين المختفين نفسه . نجح البعض ، أصابوا بعض الفرسان حتى إنهم طرحوا البعض منهم .

قال إدوارد «أعد الرجال إلى التشكيل ليقوموا باستعراض نصر عبر البلدة . أخبر رؤساء الرهبنات والايبيلين أننا سوف ننسحب خلال ساعة . ستكون خدمة شكرنا في الكنيسة هناك قصيرة» .

«كما تقول يا مولاي» قال فيتزهيو «أمر مؤسف أننا لا نستطيع أن نحتفظ بهذا المكان المقدس» .

«عدد رجالنا قليل جداً» قال إدوارد وهو يسحب الأعنة مبتعداً وهو يفرقع بين أسنانه . «ستهب عاصفة فوق هذه التلال في الساعات التالية . من مصلحتنا أن يكون عملنا هنا هذا اليوم هو الشيء الوحيد عندما تهب العاصفة» .

توقف لينظر إلى قلة من أبناء الناصرة الذين غامروا بالخروج ليراقبوا المذبحة من مسافة قريبة . «اسمحوا لأبناء البلدة أن يحضروا إلى الميدان ليروا ما فعلناه . ستمر أخبار هذا الحدث عبر جميع أركان البلاد المقدسة» .

***

في ضوء الشعلة ، بان الوجه مخضباً بالدماء ، لكنه وجه مهنا حتماً . أزاح السلطان الشعلة جانباً ونهض ، لأنه قد رأى ما يكفي . وزع نظراته على الظلال المعتمة للجثث المطروحة واشتعل غضبه بصمت .

«اذهب من بيت إلى الآخر واكتشف من الذي ساعدهم - لا بد من وجود شخص ما أخبر أبناء آوى عن المكان الذي سيجيء منه مهنا» .

انحنى قلاوون «سيتم عمل ذلك -» ما لم يقله هو أن الهزيمة كانت بسبب طيش مهنا وتهوره بدرجة شبه مؤكدة .

قال بيبرس «عندما تجدهم ، اتخذ الإجراء المناسب» .

انحنى قلاوون مرة ثانية بصمت وانصرف ليقوم بإجراء الترتيبات .

«لقد هرب معظم سكان البلدة إلى التلال يا مولاي» . قال ألموت . أشار إلى نقاط الضوء الصغيرة في الأعلى وعلى المنحدرات . «هل ترى نيرانهم هناك؟ إنهم خائفون جميعهم . لقد اعتقدوا أنه ستنشب معركة عظمى هنا في وسطهم» .

«لو لم يهرب ابن إنجلترا اللعين ، لحصلت معركة فعلاً ، ولقمنا باستعراض رأسه ليراه كل الناس . بدلاً من ذلك ، نحن نقوم بمطاردة ظلال الجبناء الذين يختبئون خلف الدروع والرماح الطويلة» مسح بيبرس الأفق بعينيه ، فقد ذكرته النيران بحيلته التي حاول من خلالها أن يخدع المعبدين في مونتفورت ، ويوهمهم بأن لديه جيشاً أكبر بكثير مرابطاً عند بوابتهم مما لديه فعلياً . كان عبد قد وصل بينما كانوا يبحثون عن مهنا بين القتلى وأخبره بما حدث لمجموعته هناك .

فكر بيبرس «إن الهزيمة تتكوم فوق الهزيمة الأخرى وتتكوم فوق الإذلال» . ضرب قبضته وسط كفه . وقف عبد على مسافة منه ، وهو مازال يرتجف من الرعب الذي عاناه لمرأى رجاله يسقطون من السماء ، والوجل الذي ساد قبل انفجار غضب بيبرس .

فوجئ كل المحيطين بالسلطان لأنه لم يباشر بالهذيان وتوجيه الضربات إلى كل جسم متوفر وموجود على مسافة كافية لأن يلمسه . لكن غضبه بقي ظاهراً للعيان ببساطة .

هبط قلب عبد حينما توقف فارس على مبعدة منهم وترجل ،

سالكاً طريقه عبر القتلى حتى يصل إلى موقع السلطان .

قال الرجل «إنني أحمل رسالة من أمير سنجار يا صاحب الجلالة» .

وجه بيبرس مخطط باللونين الأسود والأحمر تحت نور المشعل «أخبرني» .

«لقد ظهرت قوة يعتقد أنها عائدة للخان المغولي إلى الشمال من مدينتي حمص وحماة . إن قواتنا هناك تستعد للتراجع حتى لا يتم القضاء عليها . لقد أمرني الأمير سنجار أن أخبرك بأنه لن يساهم في الجيش الملكي بأي قوات ، لأنه لا يستطيع أن يستغني عنها لأجل حامياته» .

انتصب بيبرس في وقفته وتفحص الضابط الشاب «هل أنت تخبرني بأن سنجار قد باشر في العصيان؟»

ركع المراسل على ركبته وخفض رأسه «أنا لا أستطيع التكلم عوضاً عن الأمير يا مولاي السلطان . لقد تم استدعائي إلى مقابلته وإخباري بأنه يتحتم علي أن أخبرك بأنه لن تكون هناك قوات من دمشق لتنضم إلى الجيش الملكي إذا زحف شمالاً لمواجهة الغزاة . أقسم بأنني لا أعرف أي شيء آخر يا مولاي» .

بدأت العضلات على جهتي فك بيبرس تتحرك جيئة وذهاباً «ما هي الأوضاع على الطرقات؟»

رفع الفارس رأسه «إنها مزدحمة يا مولاي . إن خوف الناس من عودة المغول رهيب إلى درجة أنهم يهربون حاملين أشياء أقل مما أحضروه في المرة الأخيرة التي جاء فيها البرابرة» .

«ما اسمك أنت؟»

«أنا ماجد يا صاحب الجلالة . إنني من دمشق ، مع أن عائلتي في الأصل من البلاد الواقعة إلى الشرق من هناك» .

«هم في هذه الحالة معرضون للخسارة بقدر أي كان إذا تم السماح للمغول أن يعبروا البلاد بدون أن يتم اعتراضهم . قل لي يا ماجد ، هل ستقف مع سيدك عديم الإيمان سنجار ، أم أنك ستنضم إلى مقاتليَّ المؤمنين الذين سوف يخلصون هذه البلاد من جميع الكفرة؟»

أفرد ماجد يديه ومدَّهما «إنني أقف معك يا مولاي السلطان» .

هزَّ بيبرس رأسه في رضى «إذاً قضي الأمر . قلاوون!»

ألقى عبد نظرة باتجاه ألموت وشاهد في وجهه كل الخوف والذعر الذي يشعر به في داخله . فقد كان الفرساني العجوز يشعر بمقدار الرهبة نفسه لما تعنيه هذه المصيبة الأخيرة والتي يشعر بها الكاتب .

حضر قلاوون جرياً ، بعد أن قام بتوزيع أوامر بيبرس المتعلقة بالتآمر مع العدو على الضباط حتى يتصرفوا حيالها . «يا صاحب الجلالة؟»

أشار بيبرس برأسه باتجاه ماجد المراسل «لقد انقلب سنجار علينا . لن يكون هناك أي جيش قادم من دمشق . لقد عبر أباغا الحدود السورية والناس يهربون» . تناقض وقع الخبر على مسمع بيبرس ورد فعله المتسم بالهدوء المسيطر عليه ، بحدة مع صدمة قلاوون ، لكنه الوزير الأكبر ورئيس الأمراء سرعان ما استعاد السيطرة على أعصابه ودفع بيده في حركة تهدئة .

«في هذه الحالة فإنني أوصي بأن نباشر في الخطة الثالثة ونتقدم كما بحثنا في بيسان» .

طأطأ بيبرس رأسه موافقاً . عبس عبد . فهو لم يسمع أي شيء يتعلق بخطة ثالثة ، ولم يطلع على أي شيء مكتوب في أوراق بيبرس

مما يتعلق بها . ظهر من رد فعل ألموت أنه لم يتم إطلاعه هو الآخر أيضاً .

قال قلاوون «ستكون مسألة عكا صعبة» .

رد بيبرس «لكنها لن تكون مستحيلة . اعمل على تنفيذها» .

أدى قلاوون التحية واستدار الرجلان ليعيدا تفحص ميدان المعركة . أشار بيبرس إلى ماجد «هذا رجل سنجار الذي يرغب في القتال معنا . يقول إن اسمه ماجد . اعمل على أن تتم رعايته» .

«كما تأمرني يا مولاي» استدار قلاوون نحو عبد «أيها المساعد عبد ، لقد خسرت عدداً كبيراً من الرجال الطيبين هذا اليوم . فهلا نظرت في أمر تعيين هذا الرجل؟»

«أنا - أنا لا أعرف» نفض عبد رأسه في محاولة لإدراك بعض مما يجري حوله .

«هل تحسن الكتابة؟»

هز ماجد رأسه بالموافقة «أستطيع أن أكتب يا سيدي . لقد تعلمتها عندما تم تجنيدي كمراسل ملكي» .

«إليك . لقد تم الأمر» قال قلاوون .

«تعال معي» . أمره عبد .

قفز ماجد واقفاً وتبعه مثل رجل أعيدت ولادته ، وهو أمر قريب من الواقع .

***

«لقد توفي والدك يا صاحب السمو» .

كان إدوارد قد عاد إلى مجمع الحصن في عكا وترجل في الساحة ليستقبل بترحيب عارم . بعد أن تلقى مدائح الرجال واستمتع بدفء

مشاعرهم لبضع لحظات ، لوَّح لهم للمرة الأخيرة ثم ارتقى الدرجات إلى جناح مورتيمر ، حيث يرقد البارون المسن وهو مازال يتعافى من صراعه مع تيكا الفارس . لقد ناضلوا كلهم : إدوارد فيتزهيو ودي كلير ، بقوة لإبقائه هناك في فراش مرضه بدلاً من الانضمام إليهم في ركوبهم إلى الناصرة ، لأن جراحه وحالته الذهنية بعد الضربات التي تلقاها في رأسه كانت مصدر قلق ، لكن إدوارد ما كان بوسعه أن يتلقى استقبالاً أسوأ من الذي تلقاه الآن لدى عودته .

«أريد أن اضطرك إلى قول ذلك مرة أخرى يا مورتيمر الطيب ، لأنني ظننت لتوي أنك قلت لي بأن والدي ، الملك ، قد توفي» .

«لقد سمعتني بشكل صحيح يا بني» . أجبر مورتيمر نفسه على الجلوس في السرير ، وهو يتعرق برغم نسائم النهار الخالي من الغيم . «لقد وصل الخبر على سفينة حربية رست في الميناء هذا الصباح . لا بد وأن الخبر قد انتشر عبر المدينة كلها بحلول هذا الوقت» .

«فويون!»

ظهر الخادم وأصدر له إدوارد أمراً بالعثور على فيتزهيو ودي كلير .

«هذه أخبار حزينة لكل المملكة وكل الرعايا ،» قال مورتيمر «إننا نشاركك الحزن عليه» .

«لقد كان رجلاً ضعيفاً» قال إدوارد وهو يحدق في الأرضية الحجرية . «فقد سمح للآخرين أن يستقووا عليه لأن طبيعته كانت تقضي بأن يحسن الظن في الناس . ليس ذلك ضعفاً يمكن السماح به في أي رجل ، وأقل من ذلك بكثير في أي ملك . لكنه والدي ، وكان مليكي ، وقد أمضى السنوات الأخيرة من حياته يستغفر فيها عن خطايا القسم الأول . سوف يميز الرب كل ذلك» .

«سيفعل يا صاحب السمو، وسيعرف أن أية أخطاء اقترفها والدك لم تكن من النوع المهلك. وكما تقول، كان رجلاً فاضلاً خدعه الرجال الأشرار».

حضر فيتزهيو ودي كلير، بعد أن انتهيا لتوهما من إدخال حصانيهما في الإسطبل تحتهم.

«الملك، والدي، لقد توفي».

انحنى الرفيقان على الفور وركعا على ركبتيهما في خضوع كامل. استغرق فهم الخبر لحظة أطول من فويون، لكنه ركع بدوره.

«في هذه الحالة سيتحتم علينا أن نعود إلى إنجلترا» أعلن فيتزهيو «وبسرعة، يا صاحب السمو، لأنه لا يوجد وقت نستغني عنه. من هو الذي يقوم بدور الوصي؟»

نظر إدوارد إلى مورتيمر

«لم يصلنا أي خبر من مراسل السفينة يا صاحب السمو» قال البارون «على الفرد منا أن يفكر بأن تلك المهمة ستذهب إلى شقيقك إدموند».

«سيفكر أحدنا بذلك» قال إدوارد، غارقاً في التفكير «لكن يحتمل أن ادموند قد أبحر مسبقاً قاصداً المشرق».

«إذا كان قد فعل ذلك فإن قلة قليلة قادرة على الإمساك بالسلطة بدلاً منك. ماذا عن شقيقاتك؟» حاول دي كلير أن يبدو متفائلاً، لكن إدوارد سخر.

«ليس لدى أي منهن أي شيء يقارب القوى المطلوبة للسيطرة على البلاد». قال وهو ينظر إلى مورتيمر ليقرأ الإشارات عن وجه الرجل الأكبر سناً.

«يجب عليك أن تعود إلى الوطن يا صاحب السمو» . جاء صوت البارون هادئاً لكنه مفعم بالحزم .

«لا أستطيع» ضرب إدوارد الحائط بقبضته «لقد تفوقنا على العرب المسلمين منذ أن حضرت إلى هنا لأقاتل ، كما تحالفنا مع الخان! إن كل شيء يتحقق ويتجمع كما أراد له الرب . . .» أصبح صوته هادئاً جداً وكأنه يكلم نفسه «لن أعود . ليس بعد . إذا أصبحت مضطراً إلى إعادة فتح إنجلترا بعد أن أسلم القدس للمؤمنين ، فذلك هو سأفعله ، ولكنني لن أتخلى عن بلاد الرب لأن ممتلكاتي الدنيوية وقعت تحت التهديد . إن الرب يمتحن قوة ارادتي» .

«ليست ممتلكاتك المعرضة للخطر ، بل هو تاجك نفسه يا مولاي . إنجلترا نفسها» .

قال مورتيمر «فكر في هذا القرار بمنتهى الجدية ، لأنني بينما أعتقد أننا قادرون دائماً على العودة إلى هذا المكان والتهديف إلى تحرير المدينة المقدسة ، حتى بعض أعظم الملوك قد فقدوا ممالكهم بمجرد غيابهم . فكر في المسألة يا صاحب السمو . إنني أتوسل إليك» .

شاهد إدوارد النظرة المتواضعة في عيني مورتيمر صاحب الكلمات الجريئة في العادة ، وندم .

«سأفكر في المسألة» جاء رده .

***

أخرج سنجار خيالته وصفهم أمام أسوار المدينة ووضع نفسه مع وزيره على رأسهم . تذكر بيبرس أن اسمه كان أورانج ، أو عثمان . فكر أن ذلك سيكون أكثر ملاءمة . ربما يكون هو الأفعى التي همست بالسم في أذن الأمير الذي سيكون مخلصاً لولا ذلك الدس ، وأخبره بأن

قضية السلطان قد انتهت إلى الخسارة . وها هو هنا الآن ، مجبر على الالتقاء مع زعيم العصيان ليحاول أن يحفظ الوحدة فيما تبقى من البلاد بعد أن عاد المغول إلى الظهور . أحسَّ بالطعم في فمه أشبه باليود . لعق السلطان شفتيه وأصبح الطعم أسوأ من ذي قبل ، ما أجبره على العبوس والزمجرة وهو يطأطئ برأسه للسنجاقي حتى يتقدم حاملاً الراية الملكية . اصطف خلفه أقرب مستشاري مجلسه ، وكان الغائب الوحيد هو قلاوون ، لأنه تواجد في المؤخرة ، قائماً بالحراسة لئلا يكون هناك كمين من نوع ما وأصبح البحريون بحاجة إلى قائد .

على الناحية الأخرى ، بدأ سنجار يتحرك بدوره ، وقد مشى عثمان إلى جانبه مع حلقة من الحراس الشخصيين على مسافة خفية خلفهما . عندما أصبحوا على مسافة خمسين خطوة من بعضهما البعض ، استطاع بيبرس أن يرى سنجار مبتسماً ، الرجل الذي أجبر السلطان على القدوم لتقديم تنازلات . يا له من انتشاء ذلك الذي يشعر به حالياً .

«يا صاحب السعادة بيبرس!» انتصب سنجار في سرجه ومد كلتا يديه أمام صدره ، «أنت على أكثر الرحب والسعة في دمشق الخالدة ، وسوف نقدم لحمايتك وراحتك كل ما يلزم . ففي آخر الأمر فإن هذه أوقات رهيبة ، أل –»

قوطعت كلماته بقسوة حينما رفع بيبرس قوسه القصيرة بمنتهى الهدوء ، سدد ، أطلق وراقب السهم يطير مباشرة عبر فم سنجار المفتوح ليخرج من مؤخرة رأسه بكل رضى واقتناع . انفتل الوزير عثمان في السرج وراقب الجثة الهامدة تسقط إلى الأرض ، بينما رفع بيبرس القوس ، أعاد تلقيمها بسهم آخر وأطلق . أصيب عثمان في اللحظة

التي التفت فيها فاتحاً فمه ليطلق اعتراضاً لن يسمع منه أبداً . عندما هرع حراس سنجار ليسحبوا أسلحتهم ، تقدم ألموت بحصانه ليقف إلى جانب حصان بيبرس وأطلق سهماً ليصيب قائدهم في صدره . أطلق السهم القصير من مسافة قريبة كافية لاختراق الدرع الصفيحي الذي يرتديه الرجل ، ونظر رفاقه إليه وهو يختنق ويقذف الدماء للحظة قبل أن يستديروا ليهربوا ويحتموا برفاقهم ، أو هكذا ظنوا .

أسقط بيبرس القوس القصيرة ليعيدها إلى مكانها ثم ضرب حصانه بالسوط ليطلقه في إثرهم ، خافضاً رأسه وماداً ساقيه ، يتماوج شعره المكشوف خلفه . عندما وصل إلى مسافة يسمعه فيها رجال سنجار ، سحب عنان المطية للوراء وبدأ يستعرض أمامهم جيئة وذهاباً ، رافعاً قبضته . ران عليهم الصمت في البداية ، بعدها بدأت قلة منهم تهتف منادية باسمه ، وسرعان ما انطلق الجميع يهتفون ، فقد عاد إليهم بطلهم . انتهى العصيان .

في المؤخرة ، حيث كان يفترض في مؤتمر القمة المشؤوم أن يعقد ، ترجل قلاوون ونظر تحته إلى سنجار . كان قد مات ، لكن نور الحياة استمر في التعلق بعيني الوزير عثمان . «هل تسمع ذلك الهتاف؟» ركع قلاوون وهمس له «هل تسمع الهتاف؟ ذلك هو صوت الرجل الذي فكرتم أنكم ستقدرون على استغبائه ولكنه سحقكم بما يليق بكم أيها الجرذان . اسمع ذلك وأعلم أنك ذاهب إلى الله لترد على جرائمك . ادع لأن يكون رحيماً معك بقدر ما كان السلطان» .

***

النقود والغنائم ، العبيد والمنهوبات ، اندفع تومين المغول عبر شريط من أراضي العدو ومزقها شر ممزق . سارت الأمهار انطلاقاً من جبال

القفقاس وبلاد فارس الشمالية بدون أن تشعر بالتعب ، ولا تتوقف إلا لتعبئة العربات بما ينهبونه مما لم يتمكن السكان من حمله معهم . السلع المأخوذة من منطقة شمال النهر التي يسميها العدو اورونيتس كانت تعاد إلى الوراء ، قبل أن يفرغ الفرسان مثاناتهم ويدفعوا بمطاياهم عبر التيار المتدفق المائج .

«من المذهل وجود كل هذه الأشياء في الوقت الذي اكتسح فيه شعبنا هذه البلاد في الموسم الماضي فقط» . صاح أرغون مخاطباً تايسون أثناء طردهما مطيتيهما في واد عميق باتجاه الحقول الممتدة لقرية جديدة .

«أنا لم أقابل شعباً في مثل قدرة هؤلاء على الاختباء» أجاب تايسون ، ليضيف بكسل «سواء كان ذلك يتعلق ببضائعهم أو بأنفسهم» .

ضحك أرغون على هذا القول كما يضحك على العديد من تعليقات تايسون ثم تصالب حينما قفز مهره من فوق حفرة . تبعه تايسون ، وخلفهما ، أطلق رجال المينغام الألف صرخاتهم وهتافاتهم ، وقد وصلت قناعتهم بأن هذه المستوطنة مهجورة كلياً مثل كل الأخريات إلى قمتها ومعها ثقتهم بأنفسهم .

«هل أخبرتك بأن أصدقاء والدي في مدن السلطان بيبرس يقولون إنه في حالة هروب ولم يعد معه أكثر من نصف لواء؟ لقد انتهى حكم الجبان سلفاً قبل حتى أن يبدأ» .

ابتسم تايسون لنفسه وألقى بحلقة أعنته إلى جانب المهر ليحثه على الجري .

«لقد كنت هناك حينما وصل الخبر» . ذكَّر أرغون «لقد كانت بشائر ممتازة» .

«البشائر جيدة فعلياً» . نظر أرغون ، الذي يؤمن بهذه الظواهر التي يرسلها رب السماء ، إلى الأفق وأشار «هل ترى تلك الطيور التي تحوم فوق الأشجار؟ ذلك هو شعبنا - إنهم يؤسسون الأعشاش ويرعون في هذه الأرض الغريبة مرة أخرى . أما بالنسبة لقوة الفرسان . . أو بالأحرى العبيد - فما هو رأيك بمجموعة الأسود التي فقدت أقوى عناصرها؟ لقد مات السلطان قطز وانسحق عملاق جيشهم أمام أسوار اللاتين - داسته خيول اللاتين تحت حوافرها . والآن سنركب نحن باسم والدي متجهين نحو قلبهم مباشرة» .

«لقد بدأ حذر والدك في الإبقاء على الرجال في الشمال للتحوط ضد مينجو تيمور ، يبدو كمسار حكيم» .

«لقد كانت لديك تحفظاتك ضد ذلك القرار ، أليس كذلك» . حدجه أرغون بنظرة ماكرة .

«ما كنت لأخالف مولاي الخان في خططه الكبرى» .

«ولكن؟»

«ولكنني كنت أعتقد أننا بحاجة إلى قوة أكبر لهذه الحملة وليس قوة أصغر . لقد كان جنكيز المبارك هو الذي وعد جميع إخوانه وحلفائه عندما دخلوا بلاد العرب في المرة الأولى ، فمن هو الذي يجرؤ على التخلي عن استراتيجيته؟ لكن والدك أظهر الآن أن السرعة هي المطلوبة وليست القوة في بعض الأحيان . عدد رجال أقل - كمية أقل من المؤن ، ولذلك تكون السرعة أكثر . لقد تمت مفاجأة العدو وهو غافل تماماً» .

ظهرت أبنية القرية الطينية للعيان في البعد ، بدون أن يظهر شخص واحد . بدت المئذنة التابعة للمسجد والمغرقة في الصغر ،

وكأنها تراقبهم مثل حارس متنبه .

«والعـدد الأقل من الرجـال يعني المزيد من الغنائم» . قـال أرغـون وهو يرفع قـوسـه ويشـيـر به إلى الأمـام : «هجـوم!» . زأر بصـوته فـزعق الرجـال الألف من كـتيـبة المينغام مـثل ذئاب في حـالة جـماع وهمـزوا جيادهم في وضعية هجوم .

صفية

«لقد أخبرت عبد أنك مسافرة لتقابلينا» .

كان قلاوون قد نصب خيمة ضباط لأجل الليلة ، على بقعة صغيرة من الأرض المستوية التي تمكن من الاستيلاء عليها في مكان ما من مجاهل تلال قاسيون المشرفة على دمشق .

وقفت إلى مسافة جانبية ، غير ناظرة اليه ، لأن انتباهها تركز كما يبدو على بعض لفائف الخرائط والبسط المطوية .

سألها «هل تشعرين بالبرد؟»

«كلا» رفعت رأسها نحوه «كلا»

«لقد أخبرته أنك قادمة لتقابلينا هنا» .

«نعم» ردت بسرعة «لقد قلت هذا . الأمر غير مهم» .

لم يقل شيئاً «هل ترغبين بشيء تشربينه؟ بعض الطعام؟ كم استغرقك من الوقت حتى عثرت علينا» .

«لقد عمل الحراس في نوبات للركوب أمامنا والاتصال مع القوة الرئيسة . كانت الرحلة طويلة لكنها لم تكن متعبة» .

«ذلك أمر جيد»

«أليس كل شيء جيداً؟»

تنهد «أفترض أنه كذلك . أنا آسف لأنه ليس موجوداً هنا» .

«لطيف منك أن تقول هذا الكلام» .

«إن عبد رجل فاضل . لقد صدمته هذه الأسابيع الأخيرة ، لكنه بقي على إخلاصه» .

«ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟»

«لا يستطيع كل الرجال أن يتماشوا مع سرعة تحرك البحريين – واولئك الذين يحتلون مناصب عليا قد استحقوها عبر سنوات من الكد في الطباق . لا يتجاوز معظم الفتية الذين يتم اختيارهم مرحلة كونهم كتبية . بدلاً من ذلك ، عندما يتأخرون أو ينهارون يتم إرسالهم إلى عمل أو واجب منزلي . عندما قابلت عبد ، لم أعتقد أنه سيصمد في المسيرة . اعتقدت أنه إذا أراد بيبرس أن يحتفظ بكاتبه قريباً منه ليسجل إنجازاتنا ، فهو سيسجل داخل برج في القاهرة ويظل يخربش على الأوراق . لكن عبد لم يفعل ذلك . لقد خسر بعض الرجال – رجال صالحين – خلال هذه الأيام الماضية بدون أن يحقق أي مكسب في المقابل ، ومع ذلك فهو ما زال يركب ويتحضر للقتال إلى جانبنا» .

«هل أفهم من هذا أنك والآخرين ستتوقفون عن تسميته بالقرد الفيلسوف؟»

انطوت شفتا قلاوون للحظة في ابتسامة «لقد كان مهنا هو الذي بدأ ذلك أولاً . لقد عاش عبد بعده . ربما من الأفضل أن يكون الشخص قرداً حكيماً من أن يكون مقاتلاً متهوراً أحمق» .

«ربما» بدت وكأن لديها قليلاً من الاهتمام فيما لديه ليقوله .

«أنت هنا لأنني أعرف أنك قادرة على أن تكوني كل شيء ما عدا المتهورة» .

رفعت رأسها وسحبت نفساً عميقاً . «وهكذا وصلنا إلى النقطة الأهم . لماذا أنا موجودة هنا؟»

«هناك خدمة لا يستطيع أن يؤديها للسلطان غيرك . افعلي هذا وسوف يمنحك السلطان أنت وعبد أعظم برج في مصر كلها حيث يمكنكما أن تربيا أطفالكما وتعيشا هناك مثل الأمراء لبقية حياتكما . سيكون القلق شيئاً تتذكرانه في الماضي فقط» .

«إنني أصغي إليك» .

***

ما زالت عكا كما كانت عليه عندما دخلت محيطها للمرة الأولى قبل بضعة أسابيع ، فيما عدا أن المدينة وسكانها يشعرون بمعنويات مرتفعة نتيجة الانتصارات التي حققها الأمير الشاب وزعماء المدينة ضد أعداء الدين . عادت إلى بيت لويجي بونسوروتي واستقبلت بكل الحفاوة والترحيب المعروفين عن الرجل ، رغم أن مودته وصداقته الزائدتين عن الحدود تصطدمان مع التقاليد والعادات التي اعتادت عليها ، لكنها كانت حكيمة بما يكفي لأن تتذكر كيف استطاع أن يهربها من المدينة حينما كانت مقتنعة بأن حراس الأمير سيعثرون عليها ويقطعونها إرباً ، ولذلك تحملت مبالغاته طيلة فترة إقامتها .

بعد أن استهلكت المجاملات وجلسا متقابلين فوق الوسائد السميكة الفخمة التي يبدو أن بونسوروتي قد اشتراها بعد فترة إقامتها الأخيرة ، تنهد بعمق وسألها عن السبب في عودتها ، خاصة وأنه بات جلياً بأن عكا خطرة بالنسبة لها .

«لقد أتيت لأنني أتيت» . قالت له «لا يسعني أن أعطيك جواباً أفضل من هذا» .

«بوسع المرء أن يقول بأن هذا ليس جواباً يا سنيورا» .

«بإمكان المرء أن يقول أشياء كثيرة يا دون بونسوروتي ، ولكنني لا

أعـــرف مـــاذا يمكن لتلك الأشـــيـــاء أن تكون . أنا لا أخـــوض في التكهنات» .

اتكأ إلى الوراء في جلسته «كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«أشكرك على ترتيب عملية نقلي إلى الميناء في سفينتك . لقد كانت فكرة محكمة وفي منتهى الأمان» .

«بأكثر ما يمكن أن تكون رحلة البحر آمنة» .

«هل تعتقد أنك ستتمكن من إخراج السفينة نفسها من المدينة خلال الأيام القادمة؟»

عبس «ما مدى سرعة الأيام القادمة؟»

«قريباً . ربما في هذه الليلة نفسها . هل يمكنك أن تجهز السفينة للمغادرة بهذه السرعة؟»

«أنت راغبة في المغادرة مرة أخرى»

«أنا أتمنى لو تغادر أنت . ليست هناك أسرار . هناك العديد من الناس الذين سيعرفون أنه لديك امرأة دخلت بيتك مسبقاً» .

«على شكل خادمة ، عبر جناح الخدم . ليس هناك شيء خارج عن المألوف في ذلك» .

«أي محقق حاذق سيعثر على الصلة . أنا لا أريد أن أراك تتأذى» .

«وأنا أقول إنني لم أتعرض لأي أذى حتى الآن» .

«حتى الآن هي عبارة صغيرة ذات معان كبيرة ، وحتى ذات إمكانية أكبر لأن تنمو لتصبح أمراً أنت لا تتوقعه» .

«أنت أشبه بالحكماء يا سنيورا!»

«إنني أتكلم كشخص قد شاهد وجوه رجال أوصلوا آخرين إلى

حتفهم خلال هذه الأسابيع الماضية . أنا لا أريد أن أتحمل مسؤولية فقدانك لحياتك يا دون بونسوروتي» .

«لقد عشت في عكا لسنوات عديدة يا سنيورا . حتى عقود . لقد أصبحت موطني» .

تصنعت نظرة إشفاق «ولكنني يجب أن أخبرك الآن يا دون بونسوروتي ، عندما يحتل السلطان هذه المدينة - وهو سيحتل عكا في وقت ما - ستتوقف عن كونها موطناً لأي شخص يعيش هنا . لست أقول هذا لإخافتك أو التهويل عليك ، أنا فقط أقول هذا حتى تكون على بينة . إذا استسلمت المدينة ، ربما تحصل على مكان مجاني على سفينة ما ، لكنك سوف تخسر كل ما لديك . إذا قاومت المدينة وأنت داخل أسوارها ، فهناك شبه يقين بأن كل شخص لا يستعبد - الجنود وكبار السن والمرضى - سيتم قتلهم جميعاً» .

نظر إليها كما يمكن أن يقترب الشخص من كفن أحد والديه وقال «لن أشكل عبداً جيداً» .

«هذا صحيح يا دون بونسوروتي . غادر طالما أنت قادر ، قبل أن تكتشف سلطات الملك أنك قدمت لي المساعدة ، أو قبل أن يظهر جيش السلطان عند الأسوار ويدمر الجميع . هذه المدينة على وشك أن يدفع بها إلى الجنون» .

نفَّذ بونسوروتي ما وعد به وحزم مقتنياته ثم صعد إلى السفينة نفسها التي وصلت على ظهرها بحلول ذلك المساء . غادرت السفينة مع المد ، وبقيت صفية في بيت بونسوروتي وتعمل على البدء بتنفيذ خطتها قبل حلول الصباح . ترك لها بونسوروتي ثلاثياً من الخدم الموثوقين وسط الأثاث الذي تمت تغطيته الآن ، والذين كانت مهمتهم

تنحصر في تعبئة محتويات البيت كافة في صناديق وشحنها بواسطة وكلاء يعرفهم سيدهم ويثق بهم . اشتملت القصة التي أخبرهم إياها على مغامرة تجارية جديدة مغرية سمع عنها حول تجارة في بحر الادرياتيك بين سبليت المسيطر عليها من قبل المجريين على الشاطئ الدالماتي ومدينة البندقية الدائمة الاستيلاء .

ستبقى ضيفته السيدة صفية حتى تصل حاشيتها من داخل البر التابع للمدينة ، وتصبح قادرة على السفر داخل قافلتها بأمان . أفهم بونسوروتي خادمه أثناء مغادرته أن هذه أزمنة خطرة ، وهو لن يترك سيدة غير قادرة على الدفاع عن نفسها بدون سقف محترم فوق رأسها ، طالما هو قادر على توفيره . وافق الرجل بكل طيبة قلب على أن يضمن بأن يقوم المشرف على البيت ، وهو أحد الخدم الثلاثة الباقين ، بتلبية جميع احتياجاتها .

أما في الواقع ، فإن صفية لم تتمكن من تناول أو استساغة أي طعام أو حتى الكثير من الشراب الذي تم تقديمه لها . بدلاً من ذلك بقيت في جناح بونسوروتي الخاص حتى هبوط الظلام . وأعملت التفكير الجاد في عقلها حول ما تنوي القيام به ذلك المساء . هناك الكثير مما يحتمل أن يفشل في التنفيذ ، ذلك أمر مؤكد ، ولكن هناك أيضاً القليل مما يمكن أن يسبب الأذى لأي جهة سوى شخصها . فكرت في عبد ، وغيابه عندما زارت قلاوون ، والسرية والخداع اللذين مارستهما عليه . استخدمت نفسها كإلهاء وهي مدركة أن بيبرس وقلاوون يعرفان عنها أشياء لن يعرفها عبد أبداً . لقد آذته بطرق لن يتمكن أبداً من الرد عليها ، فقد جاءت صفعته لها في تلك الليلة بالقاهرة أقل إيلاماً واختلافاً عن ضربة خفيفة على المعصم .

غادرت بيت بونسوروتي وقد غطت وجهها بغطاء رجالي ولفت كتفيها بمعطف داكن اللون في بهيم الليل ، وقطعت الطرقات باتجاه الحصن . كانت البوابة التي استطاعت أن تنجح في الفرار منها ، مطاردة من قبل فيتزهيو ودي كلير ، مغلقة ومقفلة بالأعمدة ، وكل بوصة من المجمع غارقة في ظلام دامس . زحفت في الزوايا وسط العتمة على الجهة البعيدة من الشارع لصق السور حتى وصلت إلى الباب الذي استخدمته للدخول مع الإنجليزي المخمور . أبقت عينيها على الحراس الخافرين فوق السور والذين كانوا ينظرون إلى الشارع تحتهم ، ثم قفزت إلى وسط الشارع لحظة أن رأت أحدهم وقد أدار ظهره ووصلت إلى الباب بدون أن يراها أحد . نقرت بقبضتها على خشب الباب كما تذكرت دقات الرجل . ثلاث دقات عالية ، ثم ثلاث أخريات عندما لم تحدث أية حركة مباشرة على الجهة الأخرى . وقفت ، غير مرئية في الظلام ، حتى سمعت صوتاً يهمس من الجهة الأخرى .

نقرت مرة أخرى وهذه المرة أخذ الصوت يزمجر ويتشاكى رغم أن صفية استطاعت أن تسمع صوت الأقفال والمزلاج يتم سحبها تمهيداً لفتح الباب .

وقف أمامها في هذه اللحظة الحارس نفسه الذي فتح لها في المرة الأولى . تساءلت عما إذا كان هو الذي عثر على زميله مكبلاً في غرفة الخزين الخلفية في الصباح التالي . على أية حال ، لم يكن ذلك الحادث كافياً لمنعه من فتح باب الحصن في وقت متأخر من الليل . مال إلى الأمام ورفع شعلته ليتمكن من رؤية وجهها تحت الغطاء . عندما تعرف على ملامحها ، جحظت عيناه وهجم يريد أن يقبض

عليها . توقعت هجمته الطائشة ، خطت صفية إلى جانب وأخرجت الخنجر الطويل الذي كانت قد خبأته تحت طيات معطفها ورفعته بقوة ، طعن رأسه المدبب ملتقى فخذي الحارس غير المحمي . أخرج زعقة تسببت لها في رجفة ذعر بقوتها وسقط إلى الأرض ، ممسكاً ما بين فخذيه . مالت إلى الأمام بحركة سريعة ومررت حد الخنجر فوق رقبته ، لم تخرسه كلياً ولكنها أنهت زعقاته لتحولها إلى تشنجات هادئة ورهيبة .

لقد تحولت إلى جزار

تلفتت حواليها ، مسحت محيط الحصن الخارجي ثم عاودت النظر إلى منطقة التخزين . لم تكن هناك أية حركة . لم يظهر وكأن أحداً سمع أي شيء . فكرت أنه لو سمحت السلطات للرعاع المعتادين من المشردين والشحاذين أن يناموا في هذه المنطقة ، كما يفعلون في أنحاء أخرى من المدينة وفي الواقع كل مدينة زارتها ، فإن أفعالها كانت ستصبح مستحيلة ، لأنهم كانوا سيصحون ويتنبهون جميعاً . من سخرية القدر أن ارتياب الفرنجة الزائد قد جعلهم في الحقيقة أضعف بدلاً من أن يصبحوا أقوى .

أمسكت بالحارس الذي مازال يتنفس من سترته الجلدية ، واستعانت بكل وزنها لتسحب هيكله الهائل إلى الداخل ، بوصة بعد الأخرى ، خطوة بخطوة . خشيت أن تسمع صوتاً أو سيفاً مسحوباً في كل لحظة ، يأتي من خلفها ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

ظهر لها بدلاً من ذلك أن الحصن كله يغط في نوم عميق . جميع الحراس موزعين في أماكن ليراقبوا احتمال اقتراب قوات كبيرة أو جموع شعبية مشاغبة ، وليس أفراداً وحيدين .

استعادت خطواتها عبر الممر وإلى داخل الساحة ، ثم التصقت بالجدار ووجدت طريقها إلى مقدمة البرج حيث يقع جناح إدوارد . وجدت الباب غير مقفل مرة أخرى وزحفت صاعدة الدرجات الحجرية . لدى سماعها أصواتاً عالية صادرة عن غرفة الأمير ، ركضت إلى الوراء قليلاً وقفزت إلى داخل فتحة الشباك المشرع . نظرت تحتها لتشاهد رجال إدوارد نائمين في خيامهم ، بينما هي جالسة في الظلال ، تنتظر ، مدركة أنه مازالت هناك ساعات عديدة لتقضيها قبل انبلاج الفجر .

عبد

لاحق عبد مطية قلاوون عبر البلاد ، محاطاً ببقية الأحياء من كتيبة المدفع ، غارقاً في التفكير بالمعارك القادمة . من بين جميع الوجهات التي كان يمكنه تخيلها بعد دخول السلطان إلى دمشق ، لم يكن الركوب السريع عودة إلى عكا يشكل معضلة صعبة . ومع ذلك فقد كان هذا ما أمر به بيبرس بمجرد أن تم سحب الوحدات التي يمكن أن تقدم خدمة في أي دور هجومي ، من حامية المدينة ، كما تم تجميع أقرب المناصرين للخائن سنجار وتنفيذ حكم الإعدام فيهم .

لم يكن السلطان يرغب في التساهل والمخاطرة بعد كوارث المرحلة الأولى من الحملة .

بات الوقت قصيراً ، وأعصابه تالفة ، وجاءت التقارير حول الآلاف المؤلفة من اللاجئين المتدفقين من الشمال لتزيد في وجومه . فقد كانت قوات أباغا تهاجم بمطلق الحرية ، وقد دأبوا على الإطاحة بكل الناس الذين لا يتمكنون من الجري بما يكفي من السرعة لينقذوا أنفسهم .

فكر عبد بالملامح المشوهة للأعداء أثناء هجومهم - استعاد في عقله المغول الذين ذبحهم بصاحبة تيكا وأنصار ورجاله من أجل العربتين المحملتين بالذهب - كيف قام رجال الخان بمهاجمة موقع الكتيبة بعد الصلية الأولى ، رغم أن ذلك الهجوم كان يعني الموت المحقق بالنسبة لهم ، وكيف نظر المشرفون على الموت إليه وهو منهمك

في الإجهاز عليهم . بدا له ذلك الموضوع بعيداً جداً في هذه اللحظة . استطاع للحظة رهيبة أن يتذكر وجه أول رجل قتله أكثر من قدرته على تذكر صديقيه . بعد ذلك طاف وجه أنصار المبتسم أمام عينيه ، ثم تخيل نصف ابتسامة تيكا حينما كسر أنف زين أثناء هروبهم من قصر قطز .

«صفية

هل هي موجودة داخل المدينة التي سنهاجمها الآن؟»

هبت شعلة من الغضب داخل أمعائه . كيف يصح أن يخفي أقرب الناس إليه حقائق عنه وكأنه طفل صغير ، ومع ذلك ها هو هنا يلاحق قلاوون ويخاطر بحياته من أجلهم؟ فهل هو بحاجة إلى الحماية من أفكاره الهزلية؟

هو بالطبع يعرف الجواب مسبقاً . لو كان يعرف ما تنوي صفية أن تفعله ، فهو ما كان سيسمح لها بمعاودة الدخول إلى مثل تلك الأمكنة ، المخادعة والخطرة بالمقدار نفسه ، أكثر مما كان سيسمح لها بالإمساك بحية سامة . تراجع غضبه وتلاشى ثم ذاب ليتحول إلى نوع من البلادة مع إدراكه بأن أحاسيسه مصدرها انعدام القدرة - إنه بالرغم من كل شيء فهو غير قادر على تغيير الظروف التي تجعله يمتلئ بالمرارة ، وأنه بصرف النظر عن النتيجة فهو لن - ولن يتمكن الآن من الانسحاب من موقعه كمساعد بيبرس الرئيس . تذكر تواصل بيبرس معه ، عرضه الصادق - أو هكذا فكر عبد - بالمصالحة ، فشعر بقدر من التحسن . ابتلع كل ما تبقى من هواجس وشكوك لديه ونظر إلى قلاوون أمامه .

لم يظهر وجود مثل هذه التحفظات من جانب الوزير الأعظم في

الخلافة . فهو يركب إلى يمين السلطان ويستمتع بالسلطة التي تنعكس عليه منذ ذلك الوقت . لقد عرف قلاوون إلى أين هو ذاهب . دائماً .

ركب مليكهم في ذلك اليوم منتصب الظهر مرفوع الرأس . لن يتستروا أو يتكتموا بالنسبة إلى وجهتهم حينما غادروا دمشق قبل حوالي الساعة ، يثيرون الضجيج عبر الشوارع ويهزون البوابات ، والآن ، على الرغم من أنهم عملوا على الإبقاء على مسافات كافية عن المستوطنات والتجمعات الكبيرة ، إلا أن الحراس المتخصصين كانوا يلقون القبض على أولئك الذين يقتربون منهم أكثر مما يجب . كان هناك مقدار من الاندفاع في هذه القوة ورحلتها أجبر عبد على الشعور بالانبهار الكلي .

بعد عبور التلال ، بدأ الهبوط باتجاه الساحل ، وهناك ظهرت عكا ، تبرز في البحر المتلألئ مثل صدفة حملتها الأمواج إلى الشاطئ الرملي .

اتخذوا مواقعهم على مسافة من أسوار المدينة كما كان ينبغي عليهم أن يفعلوا عندما تقاتل تيكا ومورتيمر ، وبدأت الأشكال المتواجدة على أبراج أسوار المدينة تتراكض جيئة وذهاباً عند مرأى الجيش العائد . صوب قلاوون إبهامه باتجاه السنجاقي ليرفع راية السلطان أعلى درجة ، بينما لم يتحرك السلطان نفسه ، لكنه تأكد من مشاهدة المدافعين لمعطفه الملكي ولمعان الذهب على الخوذة المتوجة التي ارتداها تحت ضوء الفجر .

«عبد ، أحضر رجالك وابدأ بتقديم عروضك» . نظر إليه قلاوون خلفه «لا نريد أن نمنحهم الوقت ليفكروا» .

استدار عبد ونادى على كتيبة المدفع ، والتي أعيد ترقيعها

بالمستبدلين مثل ماجد ليمسكوا المدفع بينما يقوم المتمرسون بالأعمال الفنية المتعلقة بتلقيم الأسلحة وإطلاقها ، وأخذوا يتقدمون حتى وصلوا إلى المدى الفعال . وقفوا في مكان مكشوف ، خارج الأقواس الطويلة التي يستطيع مدافعو المدينة أن يستخدموها ، ولكن قريبين إلى درجة أن صوت قذائفهم سيكون عالياً إلى درجة أن يتم سماعه عبر المدينة كلها ، وأعطى عبد الأمر بالإطلاق بكل حرية . نفذت الكتيبة أمره ، مطلقة القذائف على الأسوار والأبراج ، بحيث يرشون المدافعين بالكرات والشظايا - لم يصب أحد بجراح خطيرة فيما عدا بعض الشخوط والجروح والندوب ، لم يكن بوسعهم عمل أي شيء في المقابل .

شعر عبد بسرور مفعم بالسعادة للتنفيس عن غضبه وإحباطه فصاح برجال المدفع المتراكضين أن يطلقوا صلية أخرى .

***

«ما هي الأخبار التي يأتينا بها أصدقاؤنا؟» قال أرغون وهو جالس على جذع شجرة مقلوب عند سفوح جبال السارقية ، على مبعدة حوالي ركوب يوم من دمشق ، ويقضم بأسنانه أجزاء من فخذ طائر . عكس وجهه السعيد العريض وجوه أولئك الرجال الذين يحيطون به ، لأن هذا اليوم أثبت أنه طيب ، فبات على ثقة من أن تايسون يقترب حالياً حاملاً بشائر أفضل حتى من الحالية .

«يرسل لنا والدك أخباراً مفادها أن بيبرس قد أعاد الاستيلاء على مدينة دمشق ليتخلى عنها مرة أخرى» . رأى أرغون أن أخبار صديقه مفرحة فعلاً ، لكن وجهه تحول إلى الجدية . رفع تايسون قربة من ايراغ عن الأرض وسحب منها جرعة طويلة . مزَّق أرغون عظمة الفخذ عن تلك التي يحملها .

«هل تقصد أنه انسحب؟ يحتمل أنه نهب كل حلية تافهة من المدينة قبل أن يغادر . ومع ذلك ، فنحن سنحرق كل شيء بقي واقفاً قبل أن نكمل طريقنا هذه المرة» .

«الأمر غريب» كان تايسون ينظر إلى المدى المتوسط ساهماً ، وعقله يعمل بحدة .

«يقول المراسل إنه تركت قوات في المدينة على الرغم من مغادرة قوة ضخمة خلال الليل» .

أمسك أرغون بالعظمتين ، كل واحدة في يد . «وهكذا فقد فرق قواته ليحاول أن يقاتلنا ويقاتل الأمير!» قضم من إحدى القطع ثم من الأخرى ، وتكلم وفمه مملوء .

«وسوف يتم مضغه من قبل كلينا أيضاً» . أطلق رجاله ضحكة مجلجلة مرافقين ضحكته .

«نعم يا مولاي ، هكذا يبدو الوضع ، أليس كذلك؟»

عبس أرغون ونظر إلى وراء تايسون ، بحيث استطالت رقبته ليرى الفارس الذي أحضر الرسالة .

«هل هذا ما أرسلت لتقوله أيها الفتى؟ أن السلطان قد هرب مرة أخرى؟»

«ذلك هو ما يقوله والدك يا مولاي» .

الشاب طويل القامة أرستوقراطي الهيئة ، ولا يمتلك أياً من الأوصاف الخشنة التي يتحلى بها أرغون . في العادة يتم اختيار المراسلين لسرعتهم وشجاعتهم وذاكرتهم النفاذة . ورغم ذلك ، فقد كان هذا يرتجف في حضرة الرجل العنيف ، إبن أباغا نفسه «لقد غادرت قوة كبيرة تحت جنح الظلام» استطرد يقول «ولكن رغم ذلك فقد رأى

رجالنا أن السلطان ركب على رأسهم . قالوا إن الطابور استمر لبعض الوقت ، على الأقل منغانين» .

«ألفي فارس» قال أرغون وهو يرفع نظره باتجاه تايسون «نصف قوته . فإما أنه يهرب أو أنه سيحاول أن يقضي على تهديد الأمير قبل أن نصل . سوف نحطم هذه القوة الهيكلية التي تركها في دمشق بطريقة أو بأخرى . أين هو والدي أيها الفتى؟»

«على مسافة نزولاً في النهر يا مولاي . إنه يطلب منك أن تنضم إليه في أسرع وقت ممكن» .

نهض أرغون واقفاً ، ألقى بالعظمتين أرضاً وتبعه رفاق السلاح . «ذلك الوقت هو الآن . دعونا نذهب ونحتل دمشق» .

هتفوا له أثناء توجهه نحو مهره ، لحق به تايسون حاملاً قربة الأيراغ ، وهو ما زال متكدراً من أمر غير مريح لأفكاره ، ولكنه لا يستطيع أن يحدده . بدون ذلك الوضوح ، فإن مهمته هي اتباع خانه وقتل أعدائه ، بدون تساؤل ولا تردد .

إدوارد
ميناء عكا

أمضى فيتزهيو ساعات وهو يجوس في دوائر ، ورغم ذلك لم يتمكنا من التوصل إلى أي اتفاق . فقد انبلج الفجر واستمر إدوارد في المجادلة تحت ضوئه الذهبي . قال «إذا غادرت الآن ، فإن منطقة البحر الخارجي برمتها مقضي عليها . لقد رأيت أنت هذا المكان . لم يعثر هؤلاء على الجرأة لمجرد التخلي عن أسوار المدينة إلا بعد أن أثبتنا لهم كيفية التعامل مع العدو» .

«هذا صحيح يا صاحب السمو ، لكن إنجلترا يجب أن تكون لها الأولوية على كل شيء آخر» .

«هل يجب أن تكون لها الأولوية على الرب؟»

توقف فيتزهيو . بات منهكاً ، وكذلك إدوارد وبقية المجموعة . «لا شيء يجي قبل الرب يا صاحب السمو ، ولكن يتحتم عليك أن تحمي ما وهبك إياه الرب . أنت الملك الآن . سيكون مصير إنجلترا الخراب بدون مليكها وسوف يعود أعداء والدك إلى الظهور والعصيان» .

«وإذا لم أنه عملي هنا في التفوق على بيبرس هذا ، فإن بلاد الرب نفسها سوف تسقط . كيف سأعيش مع تلك الفاجعة؟ كيف سأشرح ذلك للمؤمنين في الوطن؟»

«أنت ملك شاب يا مولاي . سيكون لديك الوقت لتثبيت الدولة وتأكيد سلطتك ، وبعد ذلك ، سوف نعود هنا إلى الأرض المقدسة ونفي بنذورنا وإيماننا» .

«كل الملوك يقولون ذلك يا فيتزهيو ، ولكن قلة منهم يفعلون ذلك على الإطلاق» .

جاء صوت انفجار أشبه بإلقاء صندوق فارغ فوق أرضية صلبة ليجبرهم جميعاً على الاستدارة باتجاه الأسوار .

«ما هذا؟» هب إدوارد متجهاً إلى الشباك .

«يا صاحب السمو!» أفرد فيتزهيو ذراعه ليسد طريق الرجل «ابق بعيداً» .

نظر إدوارد إلى الذراع الممتدة أمام معدته ثم رفع عينيه نحو فيتزهيو .

«أقدم اعتذاراتي يا مولاي» تراجع الفارس وسحب ذراعه . «ولكنني أرجوك أن لا تذهب إلى شباك مفتوح» .

شخر إدوارد ساخراً ودفعه بعيداً عنه ، ثم وقف إزاء الشباك لينظر إلى الخارج فوق المدينة والأسوار خلفها . استمر صوت الانفجارات .

«إنه هجوم آخر!» كان دي كلير ينظر من فوق كتف إدوارد . بات من السهل رؤية فرسان العدو بكل وضوح في الحقول الواقعة بعد الأسوار .

همَّ مورتيمر بالنهوض من فراشه على الفور ، رغم أن إدوارد أمره بالبقاء فيه أثناء جدالهما ، لكن بقية الرجال لوحوا إليه بالعودة إلى الفراش ، وهم يرجونه أن يستريح .

مال دي كلير إلى الأمام ، يبذل أقصى جهده للتعرف على

التفاصيل «تلك هي راية السلطان . أنا واثق من أنها هي» .

«أحضروا الأسلحة . احشدوا الرجال في تشكيل عسكري عند البوابة» . ضم إدوارد كفيه لقبضتين وهو يتقافز على قدميه .

نفض فيتزهيو رأسه «الأفضل يا صاحب السمو ، هو أن نذهب إلى هناك ونكتشف طبيعة هذا الهجوم . عندما نتأكد من أن المنطقة آمنة . . .»

«إن فيتزهيو على حق يا صاحب السمو ،» تكلم في هذه الآونة دي تشونسي ، وهو الذي بقي صامتاً طيلة المؤتمر الذي استمر الليلة بكاملها .

«عليكما دم الرب ، أنتما الاثنان» طوَّح إدوارد بذراعيه «هذه هي اللحظة الحاسمة . سوف نسحقه هنا والآن - لا تسمحوا بوجود إمكانية للهروب . سوف أقتل بيبرس بنفسي أمام أسوار عكا ثم أركب إلى القدس حاملاً رأسه بين يدي» .

***

التزم بيبرس ورجاله الصمت وهم ينظرون أمامهم وينتظرون ظهور العدو .

تشنج كل عصب في جسمه نتيجة البرودة وبدا كأن الهواء حوله يتقصف . التمع المعدن على سيفه والغمد للمرة الأولى منذ أمر بتصنيع أسلحته ، توضحت الأشكال المحفورة في الذهب والفولاذ وبرقت أمام عينيه . ساقاه صلبتان ودرعه مشدود وثابت قوي . قبض على الأعنة بقوة بين يديه وشعر بعضلات ساعديه وكتفيه تتقلص ، وانتصب ظهره العريض باستقامة واضحة . تنفس من أنفه بعمق ، تنشق عبير الأشجار والأزهار القريبة . رائحة صيفية . وكان دائماً يقرنها بالدماء . بالموت .

الموت قادم هذا اليوم . الموت لأعدائه وللأحلام التي يهددونها لتدميره . لن يتم إظهار الرحمة من أي جانب . لا عفو . لا رهائن مقابل الفدية . لقد أجبر في مرة سابقة على الفرار في هذه الحرب ، ولكن لن تكون هناك مرة ثانية . أدرك السلطان أنه يقاتل في هذا اليوم من أجل كل شيء أو لا شيء مطلقاً . إذا انهزم فسيخسر كل الدعم والسلطة التي شيدها وطورها . لن يكون هناك شيء غير الهروب لبقية أيامه ، وذلك أمر يستحيل التفكير فيه ، خاصة بعد أن جلس على العرش ونودي به ضياء الدنيا .

عندما كان صغيراً وقام آيبك بتعليمه عن العالم في مدرسة الطباق ، قرأ عن الجحيم ، وفكر كيف أن مثل ذلك المكان لا يمكن أن يوجد إلا في العالم الآخر .

بعد أن تم إلقاء القبض عليه من قبل النهابين وتم وضعه في جحيم سفينة العبيد ، تيقن أن الجحيم يمكن أن توجد على الأرض بإمكانية وجودها نفسه في العوالم الأخرى .

سيوضح اليوم لأولئك الذين يسعون إلى إيذائه كيف يمكن أن يكون الجحيم على الأرض .

***

لم يؤثر شروق الشمس وانتشار الضياء على كوة النافذة المطلة على الجنوب كما كانت صفية تتخوف ، وهكذا بقيت في نصف العتمة عندما تجاوبت أصداء الانفجار الأول عبر المدينة التي بدأت تصحو . بدأ المعسكر تحتها يتذبذب بالصرخات والرجال الذين يتراكضون جيئة وذهاباً ، كما سمعت النقاشات الغاضبة تشتعل في الطابق الكائن فوقها . بعد توقف قصير ، انفتح الباب المؤدي إلى جناح إدوارد بقوة

وركضت جماعة الأمير نازلة الدرجات الفسيحة ، بدون أن يفطن أي منهم إلى النظر فوقه أثناء مروره ، مع أن صفية كانت قد غادرت بكل الأحوال ، حيث أمسكت أصابعها الثمانية بقوة حافة الشباك وهي متعلقة فوق الساحة إلى خارج البرج . عندما أصبحت الطريق خالية مرة أخرى ، رفعت نفسها وعادت لتدخل . نزلت إلى الدرجات بدون أن تصدر أي صوت ، وركضت نحو الطابق الأخير ، الذي لم يعد محروساً وفتحت الباب المؤدي إلى غرفة الأمير .

أباغا

محيط مدينة دمشق

جاء اجتماع الشمل بين الأب والابن مختصراً . قدم أرغون تقريره وهنأ والده على نجاح الحملة .

«يبقى الكثير لعمله يا ولدي . ولكنك استحققت الپاتيزه وسددت قيمة إيماني فيك» .

الپاتيزه هي الصفيحة الذهبية التي تمنح للضباط الذين يخدمون في جيوش الخان ويقدرون على قيادة مينغانات الرجال الألف . هذه هي الحملة الأولى التي يمنح فيها أرغون مثل هذا الشرف ويسمح له أن يقود الرجال بقراره الخاص ، بدلاً من أن يتصرف على أساس مساعد والده . والآن فقد تجمعت كل قوات تومين أباغا للركوب نحو دمشق ومن هناك نحو فلسطين التي ليس فيها أية دفاعات . تلقى أباغا أخبار الصعوبة التي يعاني منها بيبرس بقدر من عدم الاهتمام حد البرود ، تماماً مثلما تلقاها تايسون .

قال «يبدو أن إيماننا بالأمير قد أعطى ثماره . ويقول جميع مخبرينا في الجنوب إن الجيش الملكي لا يزال في مصر . فرقة بيبرس مقسومة بين جهتي هجومنا . كل الظروف مؤاتية لقيامنا بالهجوم» .

سأله أرغون «إذاً ، هل نتقدم يا والدي؟»

«سنفعل» أجابه أباغا .

تحرك التومين جنوباً مثل نصل يقص القش في الريف ، ووصل إلى خارج أسوار دمشق خلال اليوم نفسه . هناك قام أرغون وتايسون بتفحص أبراج الأبنية الضخمة والقلعة بينما قام أباغا بوضع الجاغونات في مواقعها . هذه هي المدينة الأولى التي يحتمل أن يتم الدفاع عنها بأعداد كبيرة ، لأن قوات الأشرف موسى والأفضل محمد التي كان يفترض فيها حماية حمص وحماة قد اختفت إلى الشرق قبل حتى أن يتم أي اتصال بين القوات المتقدمة الكشافة . انتقد أباغا في حينها الجبناء وأخبر القلة من سكان البلدات الذين بقوا وهددهم بأنهم سيموتون ميتة خائن إذا أظهروا وجوههم قريباً من أراضيه بعد ذلك اليوم .

قال لهم «لقد تخلى جميع أمراء سلطانكم عنكم حالياً . لقد ذهب الأمل . اخضعوا للخان وعيشوا تحت رحمته المجردة» .

بينما هو يصدر أوامره الأخيرة خارج دمشق ويتهيأ لإصدار التوجيهات لخبراء الألغام للبحث والعثور على نقاط الضعف ، انفتحت البوابة القوسية الضخمة أمامهم وبدأ الخيالة يمتطون جيادهم ويخرجون ليقفوا في تشكيل منظم . أدرك أباغا على الفور أن الرايات الخفاقة عائدة لقوة الفرسان ، البيارق اللعينة نفسها التي كانت آخر شيء رآه قبل أن يجبر على الفرار من ميدان القتال في عين جالوت ، بدون أن يعرف مصير والده .

«إنه هو» قال أباغا وهو يلفت انتباه أرغون وتايسون بصوته المبهور الأنفاس .

«إنه بيبرس»

قال أرغون» لقد قال الكشافة إن السلطان غادر المدينة واتجه إلى

الجنوب يا أبي . يحتمل أن هؤلاء رجال من فرقته ، ولكنه لن يجرؤ على مجابهتنا بهذا العدد القليل» .

«إنه هو . أنا أعرف» . قال أباغا . سحب سيفه رافعاً النصل المعقوف إلى ناحية وجهه . قال «سوف أحقق انتقامي في هذا اليوم . التزموا اليقظة» .

التفت إلى بقية ضباطه ذوي الرتب العالية . «كل واحد منكم . التزموا اليقظة!»

«لدينا عشرة أضعاف أعدادهم يا والدي ، ومن المؤكد أن قائدهم فعلاً ليس موجوداً هنا . اسمح لي أن أركب متقدماً لأتقبل استسلامهم» .

«إبقَ حيث أنت» أخذت عينا أباغا تتقافزان من ناحية إلى الأخرى وتمسحان التلال على بعد قرابة الميل منهم .

انفصلت سرية صغيرة من الخيالة عن تشكيل الفرسان الذي مازال في طور الاكتمال ، عند الطرف القصي وبدأت تقترب من قلب الخط المغولي ، تماماً باتجاه موقع الخان في قلب الطابور .

«ما الذي يفعلونه؟» احتار أرغون في أمرهم .

قال تايسون «إنهم أكثر من أن يكونوا مجموعة استسلام» .

أجابه أرغون «ولكنهم أصغر بكثير من أن يشكلوا قوة هجومية . لا يمكن أن يكون هناك أكثر من مئتين منهم» .

عندما أصبحوا على بعد قرابة مئتي ياردة من الخط المغولي ، رفع الفرسان ذوو العمامات أقواسهم وأطلقوا في الهواء ، موجهين صليتهم إلى مجموعة أباغا ، المتميزة براياتها العالية وبيارق المعركة بكل وضوح .

تحولت حيرة أرغون إلى غضب عارم «إنهم يجرؤون على الإطلاق عليك!»

سقطت السهام على مسافة أقل بكثير من حيث يقفون، إذ دفنت نفسها في التراب أمامهم، لكن الإهانة جاءت بمنتهى الوضوح. استدار رماة السهام بدقة مثيرة للإعجاب وركضوا بمطاياهم خبباً عائدين إلى الخط. لدى وصولهم إلى رفاقهم وبدون صدور أي رد فعل من المغول، انطلقت سرية أخرى في المسار نفسه. استمرت صفوف الفرسان في المؤخرة بالتزايد مع خروج المزيد من الوحدات عبر الباب ذي القوس.

بدت السرية الثانية وكأنها مصممة على أداء عمل الأولى نفسه.

«أبتاه، اسمح لي بأن أشتبك معهم. إذا تركناهم ينظمون التشكيل، فسوف يصبح تدميرهم مسألة أكثر صعوبة بكثير».

استدار أباغا نحو أرغون «وما هو الأمل الذي سيبقى لتدميرهم إذا لم نتركهم يخرجون من البوابة؟ نحن لسنا هنا لنقوم بعملية حصار. نحن موجودون هنا لإخضاعهم ثم المضي في سبيلنا». انتظر صدور جواب لكن لم يكن لدى أرغون ما يقدمه. عاود أباغا الاستدارة مع زفرة ضيق ليراقب عدوه.

كانت الموجة الثانية من الفرسان قد وصلت البقعة نفسها التي وصلها سابقوهم، وكما فعل الآخرون، رفعوا أقواسهم وأطلقوا السهام على موقع الخان. رغم أنهم اقتربوا أكثر قليلاً من رفاقهم، إلا أنهم ظلوا يسعون إلى الاحتفاظ بمسافة أبعد مما يستطيع المغول أن يطلقوا عليهم منها بدقة، وهكذا سقطت سهامهم في الأرض أمام الخان وأضافت نفسها إلى تلك الموجودة مسبقاً.

صاح أرغون «أطلقوا صلية! ردوا على صليتهم!»

أطاع بعض الرجال أمره وأطلقوا لكن الفرسان كانوا قد استداروا وعادوا مبتعدين خبباً ، غير مبالين بالغضب الذي تسبب هجومهم في تصاعده .

بحلول هذا الوقت ، بدأت أعداد الفرسان الخيالة والخارجين من البوابة تتناقص ، وأصبحت هناك قوة تقارب الألف رجل في مواجهة تومين أباغا .

«اضبط تحركات رجالك وإلا فسوف أجبرهم على الانضباط بنفسي!» أمر أباغا ابنه . نظر أرغون إليه مغضباً ثم عاود الالتفات إلى الجيش الذي يواجههم . كانت سرية ثالثة من رماة السهام قد انطلقت خبباً باتجاههم ، أقواسهم مشرعة .

أشار أرغون «انظر اليهم يا أبي! هذا هو كل ما لديهم ليقاتلونا به! لقد هرب السلطان . اسمح لي أن أدمرهم - بقواتي - وسوف أجلب لك الشرف في هذا اليوم!»

تلوى فم أباغا مع انطلاق المجموعة الثالثة المطلقة للسهام ، وكل رجل منهم يحدق في عينيه مباشرة ، ثم أطلقوا سهامهم باتجاهه . نظر باتجاه قادته الأعلى رتبة ، الرجال الأقرب منه والذين يحتاج إلى احترامهم وطاعتهم للإبقاء على قيادته وحكم أراضيه . كانوا قد سمعوا كل ما قاله أرغون . شاهدوا الاحتقار الذي أظهره له العدو الأضعف بكثير .

هو يعرف هذا الرجل بيبرس ، وهو يعرف أن والده قد تم التغرير به للتصرف بطيش وتهور من قبله ، وتم تدميره ، وعليه فقد أقسم على أنه لن يرتكب الغلطة نفسها أبداً . ومع ذلك فهو لا يمتلك أي خيار في

هذه اللحظة غير أن يسمح لابنه بقيادة الهجوم لإظهار الاحترام للعدو ، وإلا فإن كليهما سيشعر بالخزي أمام رجال المغول الذين ينقضون مثل الفهود على أي مظهر للضعف .

تلفت حواليه مستعرضاً السهل والتلال ولم يستطع أن يرى أي شيء . لم نكن هناك أية تحركات على الأسوار . لقد أخبرته قوة كشافته البالغة حوالي مئتي فارس . بأنه لا توجد أية قوات كبيرة ضمن مسيرة يوم ، وأن جميع قوات السلطان موجودة داخل المدينة نفسها حتماً . نظر أباغا الآن إلى القوة التي تنتظر منه أي رد فعل ثم إلى صفوفه . إن كتيبة حرسه الخاص وحدها تساويهم في العدد رجلاً لرجل ، ثم إنه لديه تسعة مينغانات إضافية ليلقي بها في أتون المعركة إذا احتاج الأمر . لا يمكن أن يخسر ، وذلك هو العامل الذي جعله يتردد .

قال «نفذ الهجوم» وهو يوبخ نفسه على جبنه . «اشتبك معهم ، ولكن لا تقف وتقاتل» .

نظر إلى ابنه «إنهم ينوون أن يسفحوا دماءنا عند السور ويخفضوا أعدادنا المتفوقة ، حافظ على خفة حركتك ولا تشتبك . احصل على انتقامك منهم» .

شعر أرغون بسعادة غامرة وانفتل في سرجه «كما تقول يا أبي» . رفع سيفه باتجاه كتيبته «إلى الأمام!»

بدت القوة مهيبة عظيمة لحظة انطلاقها ، بحيث تقزمت أمامها مجموعة مطلقي السهام الفرسان الذين زادوا من سرعتهم بشدة حينما شاهدوا المطاردة التي أطلقها رجال الخان في إثرهم . وصلوا إلى خطهم واستداروا ليواجهوا موجة الخيالة القادمة . كان أرغون وبضعة من أمهر رجاله قد أطلقوا أوائل سهامهم ، فأصيب أولئك الذين لم يكونوا

سريعين جداً من جانب الفرسان ، ما أدى إلى صدور صرخة رعب من جانب المينغام المهاجم . أطلق أرغون مرة أخرى وتلفت ليجد تايسون إلى جانبه مشهراً سيفه . انطلق كلاهما في زعيق حاد هذه اللحظة ، يلهبون جوانب مطاياهم بالسياط ليحثوها على الطراد ، وتحضيرهم للهجمة والصدام الذي سيأتي لحظة الاتصال بالعدو .

حدثت حركة في جانب الفرسان ، أقرب إلى الوميض الواهن .

كان كل من أرغون وتايسون ينظران أمامهما مباشرة لكنهما رأياها ، وباتت لديهما فكرة مبهمة أن الخيالة الواقفين أمام سور المدينة يتحركون جيئة وذهاباً ، يبدلون المراتب . شاهد الحركة أباغا هو الآخر ، حركة بين الصفوف ، صرخ «إنهم ينهارون!»

وقد انتصب في سرجه بأقصى ارتفاع يقدر عليه ، ويمط رقبته ليشاهد كل شيء .

«لقد تمكن ابني منهم!»

في تلك اللحظة بالذات التي رفع أباغا فيها ذراعه بإشارة انتصار وابتسم أرغون لتوقعه القتل المحتوم القادم ، ضربت السماء ضربتها . كأن رب السماء نفسه قد لمس ميدان المعركة ، تحول ألف من مدافعي الفرسان أمام أسوار دمشق إلى أربعة آلاف .

سقطت ذراع أباغا في ذعر وتعلق فمه مفتوحاً حينما تواجد صف يليه صف من الفرسان البحريين إلى جانب رفاقهم في السلاح ليندفعوا إلى الأمام ، وكأنه فعل سحري!

انتشرت في هذه اللحظة أعدادهم الأكبر بكثير فوق الساحات أمام المغول المهاجمين ليحيطوا بمنغام أرغون ، مثل لاقط ذباب يغلق فكيه حول ضحيته .

ستار من قماش القنب الخفيف ، المطلي بالرمادي المطابق للون سور المدينة والمرفوع بهياكل من صنع النجارين ، هو الذي جعل هذه الكتائب الشبحية غير مرئية حتى تحت ضوء النهار بالنسبة لقوات المغول وقادتهم . لقد انتظرت طوابير ثلاثة آلاف من الفرسان ومطاياهم بصبر خلف الستار طيلة الليل وهم ينتظرون جيش أباغا .

ركب الآن بيبرس قدماً على رأس رجاله ، مثل قط بري أطلق سراجه ، يزعق منادياً باسم الله ، يفتش عن أبرز المقاتلين بين القوات المعادية ليوجه إليهم ضرباته الأولى .طوَّح بسيفه المعقوف الهائل ، وقد استثير غضبه الجنوني إلى درجة أن الرجال الذين يقاتلون إلى جانبه ابتعدوا عنه . أطاح بأحد المغول عن سرجه ، فاتحاً جانب بطنه بتطويحة ثم لوَّح إلى الناحية الأخرى ، حيث التقطت عينه حركة من زاويتها فأسقط مغولياً آخر يتقدم نحوه بقوسه القصيرة . شاهد الشراكسة من حرسه أعماله فهدروا بموافقتهم ، واكتسبوا مزيداً من الجرأة بسبب إقدام قائدهم وهم ينشدون صرختهم القديمة «من أجل بيبرس! بيبرس! بيبرس!» انفتحت بوابة المدينة مرة أخرى وبدأت أفواج من المشاة تخرج منها ، حاملين رماحاً طويلة في أيديهم ، يكاد طولها يصل إلى ارتفاع أسوار المدينة نفسها ، يركضون ويتوزعون حول محيط المعركة ، أولاً لاعتراض أي محاولة فرار من مينغان أرغون ، وثانياً لتشكيل خط أول للدفاع ضد الكتلة الرئيسة من القوة المغولية .

بحث أباغا عن راية أرغون في الفوضى التي عمت ، فابتسمت عيناه للحظة حين رأى الفتى يقاتل بضراوة وسط الأعداء الذين يحاصرونه ، بينما تواجد تايسون على مقربة خلفه .

ثم سقط أرغون عن سرجه ، سواء بواسطة جريد أو سهم ، لم

يستطع أباغا أن يعرف أبداً ، وهرب حصانه الخالي من راكبه خارج العراك عائداً إلى الطابور المغولي .

رفع أباغا سيفه عالياً فوق رأسه وأطلق الأمر بهجوم شامل عام ، بينما تبادل قادته نظرات الاستنكار فيما بينهم ولكنهم تبعوه ، غير قادرين على التفوه بأي اعتراض في وسط المعركة ، خاصة حين رأوا سيدهم الخان وقد غمره اليأس على مصير ولده .

تحرك رجال التومين الباقين ، لكن أصبح جلياً الآن بأن الريح تهب من وراء ظهر بيبرس . أجهز رجاله البحريون على آخر المغول الذين وقعوا ضحية الهجوم الابتدائي ، ورغم أن هجوم أباغا المضاد وصل إلى خطهم قبل أن تتاح الفرصة للكتائب لكي تعيد تجمعها ، فقد تمكن حملة الرماح الواقفين في صفوف متعرجة في المقدمة من كسر هجوم أباغا ، حين أصابوا كلاً من الخيالة والجياد في المقدمة برؤوس رماحهم الفولاذية المدببة وخلقت جثث أمواتهم حاجزاً إضافياً ليصد التومين المتحرك قدماً . لدى رؤيتهم حراس بيبرس يتجهون نحوهم ، حاول المغول الموجودون في مقدمة صفوفهم أن يستديروا ويعيدوا تجميع صفوفهم ، بعيداً عن جثث رفاقهم ومطاياهم . هنا وجدوا طريقهم مسدودة من قبل الصفوف الخلفية للتومين المستمرة في القدوم ، غير مدركين أن الهجمة قد تم إيقافها . وهكذا وجد الخيالة عديمو الحظ أنفسهم وأمهارهم وقد وقعوا في الفخ .

أوقف بيبرس حصانه على الفور وصوب قوسه القصير ، منادياً على الفرسان ليفعلوا الشيء نفسه . أطلقت الكتائب سهامها وسط كتلة أباغا المضطربة بعد أن شكلت الصف الأول المتعالي قبل لحظات . حاول المغول أن يردوا الإطلاق من أقواسهم ، لكن نتيجة كونهم

محصورين في نقطة واحدة بينما يتم الضغط عليهم من قبل الفرسان المستمرين في الهجوم ، فقد جاءت محاولة ضعيفة وسرعان ما توقفت . بدا أن بعضاً من الذين حاصرتهم السهام والرماح الطاعنة من قبل المشاة أخذوا يتقبلون مصيرهم وماتوا وهم يهجمون على الفولاذ ، ميتة مشرفة وتعد بالكثير في الحياة التالية .

أصبح أباغا نفسه واحداً من أولئك الذين سقطوا عن سروجهم ومات وهو يحاول أن يرفع نفسه من خلف حصانه الميت وقد اخترقه رمح ، ومازال يبحث عن ابنه .

تلطخ وجه بيبرس بالدماء وعندما شاهد أن المؤخرة المغولية قد اكتشفت في النهاية أن كل شيء قد ضاع في المقدمة وأن الصفوف تتمزق ، أصدروا الأمر بمعاودة الهجوم ، فهمز الفرسان البحريون مطاياهم من فوق كومة القتلى وقفزت إلى وسط أعدائهم المذهولين وجددوا الطعان .

أصبح الجيش المغولي الذي ظهر وكأنه يستحيل القضاء عليه قبل لحظات ، في حالة تفكك وفوضى ، تركض سراياه المقسمة إلى شظايا راكبة باتجاه الشمال والشرق ، يتمسحون بالأرض للابتعاد عن غضب بيبرس العارم . لم يتوقف معظمهم قبل وصولهم إلى نهر أورونيتس مرة أخرى وسباحتهم إلى ضفته البعيدة .

إدوارد

برج الهوسبيتاليين على أسوار عكا

«هل تعتقد أنه سيحضر ليتكلم معنا من تحت السور مرة أخرى؟» وجه إدوارد سؤاله إلى دي تشونسي بينما هما ينظران من فوق إلى قوات السلطان . طأطأوا كلهم بينما قامت كتيبة المدفع بالرماية على برج المعبديين ، حيث ما زالت الضجة تجبر بعض الرجال وكل الخيول تقريباً على الإجفال .

«لا أعرف يا صاحب السمو . إن عودته إلى عكا بهذه السرعة أمر مثير للإعجاب» قال دي تشونسي وهو يهم بالنهوض . نظر إلى صفوف الفرسان . هناك قلة منهم يتحركون في الاتجاهين ، بالتوازي مع أسوار عكا ، لكن الأغلبية الساحقة استمرت في جلوسها ثابتة في السروج . كانوا أبعد بكثير من قدرة دي تشونسي على رؤية أية تفاصيل أخرى . كان هناك شيء ما في مظهرهم يقلقه ويضايقه .

«إذا تجرأ بيبرس فعلاً ، فإنني سأطلق بنفسي سهماً يخترقه ، وستنتهي هذه القضية برمتها» . قال إدوارد . في الأسفل ، استمرت كتيبة المدفع في إطلاق قذائفها . وكذلك بدا على السلطان أنه لم يتحرك .

«هل نقوم بهجمة يا صاحب السمو؟» سأل فيتزهيو مضيفاً «بإمكاننا أن نطردهم» .

«كلا»

رأى دي تشونسي أنه على الرغم من تشوقه إلى معركة فاصلة إلا أن إدوارد أدرك بأن هذا العدوان على عكا يختلف بطريقة ما عن السابق .

«سنبقى هنا ونتركهم يطلقون أدواتهم الجهنمية . وهي لا تشكل أي خطر بكل الأحوال» .

عقد إدوارد ذراعيه ووقف مع بقية القوات في المدينة ، يراقبون العرض الذي كان عبد وكتيبته يقدمونه .

على الأرض تحت الأسوار ، في السهل الممتد أمام برج الهوسبيتاليين ، أمر عبد أن يزيد الرجال في عدد الصليات ، قبل أن يشاهد قلاوون أن أسوار المدينة وأبراجها قد احتشدت بالمدافعين عن عكا ، وأن الأمير إدوارد موجود حتماً بين أعدادهم . نظر باتجاه عبد «هل نغادر ونترك لهم هديتنا الوداعية ، أيها المساعد الرئيس؟»

كان عبد لحظتها منحنياً ، يراقب رجاله أثناء عملهم ، فانتصب لدى سماعه كلمات قلاوون ، وهو يمسح جبينه نتيجة الحرارة المتزايدة . «أعتقد أنه يتحتم علينا ذلك يا حضرة الوزير الأكبر» . هكذا قال . مشيا هو وقلاوون إلى الحصان الرائع الذي يجلس عليه السلطان ورفعاه لينزلاه إلى الأرض . أسند عبد ظهر الملك بصخرة كبيرة ، بحيث ظهر وكأنه جالس في التراب يستمتع بشمس الصباح والعرض القائم على أسوار المدينة .

«لنوفر له بعض الصحبة» قال قلاوون وقاما بإنزال حارسين ووضعهما إلى جانبي الملك . مسحا يديهما ، مسرورين بعملهما . أصدر كلاهما الأمر بالركوب ، وأمرا الرجال بإحضار الجياد الثلاثة

والمغادرة . تركوا الثلاثي يبدو سعيداً جالسين أمام الأمير وكأنه ليس لديهم أي همّ في الدنيا .

أصيب إدوارد وبقية القادة بالحيرة . فقد كانت القوة تغادر بالسرعة نفسها التي وصلت فيها ، بعد إطلاق بضع قذائف أشبه باستعراض مغني مستزنج عابر .

«هل ينبغي علينا أن نطاردهم يا صاحب السمو؟» أراد دي كلير أن يعرف .

«يحتمل أن يكون هذا كميناً» قال هيو دي راڤيل .

حدّق إدوارد بأن زمّ عينيه ، جاهداً ليرى ما إذا كان ذلك هو شكل السلطان ، جالساً ينتظر في التراب هناك قدومهم ، وحده فيما عدا الحارسين الساكنين . أصيب دي تشونسي بالفضول حول عدد الفرسان الذين تناولوا أعنة مطايا رفاقهم أثناء انصرافهم ، بقدر ما استغرب حركات الخيالة أنفسهم . بعدها ، فهم المسألة وكأن الروح المقدسة قد تنفست داخل أذنه .

«مولاي» قال لإدوارد «من بعد اذنك ، إنني أرغب أن أقترب من هؤلاء (الرجال)»

رفع إدوارد أحد حاجبيه مستغرباً اللهجة «ليست لدي مشكلة في هذا الأمر أيها الأخ . اصطحب بعض الرجال معك . أيها الرئيس العام؟» طلب الإذن من رئيسه الاسمي .

رفع دي راڤيل يده في إشارة مباركة «اذهب يصطحبك الرب ، يا ولدي» .

ركب دي تشونسي خارجاً بصحبة مجموعة صغيرة من الرجال خلفه ، حتى وصل إلى حيث جلست الأشكال الثلاثة أمام المدينة

وترجل وهو غير قادر على أن يخفي استغرابه الباعث على الضحك من المجهود الذي بذله العرب المسلمون في كسوة الرجل القش على شكل السلطان . حتى إنهم وصلوا تبناً باللون الأصفر حول التاج التنك للتندر بلون بيبرس الفاتح . ثبت أنها لعبة متقنة حد الكمال تقليداً للسلطان نفسه .

احتار الفرسان والجنود من الرتب كافة الذين راقبوا بينما حمل رجالهم الفزاعات عالياً وحملوها إلى داخل المدينة . باتت القيادة العليا في حيرة مثل الآخرين . لماذا قد يلجأ الكفرة إلى كل هذا المجهود للخداع والقيام بهذا الاستعراض كما فعلوا ، لمجرد أن يركبوا بعدها مبتعدين ويتركوا سلطانهم الدمية مثل حصان طروادة احتفالي عجيب؟

«يحتمل أنهم قصدوا أن نخرج إليهم راكبين ونقع في كمين آخر أكبر؟» طرح دي تشونسي اقتراحه وهو يصطحب إدوارد عائدين إلى جناحه مع الآخرين . «لقد ركبوا مبتعدين عندما لم نبتلع الطعم» .

«بجيش من القش المحشو؟» أجابه الأمير وهو يرقى الدرجات متبوعاً بفيتزهيو ودي كلير خلفه . «لقد بقي منهم عدد قليل جداً ممن خرجوا بحيث يحتمل أنه كان بوسعنا نحن الأربعة أن نتفوق عليهم» . كانوا قد أرسلوا فويون ليعثر على شيء من شراب الميد الطيب واللحم ليدعم وجودهم بعد تلك الليلة الطويلة . «لقد كان أولئك الشياطين الحاملين العصي النارية حقيقيين بما يكفي وحصلوا على انتباهنا» .

صعدوا زاوية الطابق الأول «ولكن لماذا اكتفوا بالمغادرة راكبين لمجرد أنهم شاهدونا؟»

«الأمر في منتهى الغرابة يا مولاي» قال فيتزهيو .

وصلوا إلى الفسحة الرئيسة حيث يوجد جناح إدوارد ، ونفض الأمير رأسه «ربما يستطيع مورتيمر أن يلقي بعض الضوء من خلال هذه المعضلة ، لأنني لم أر أو أسمع أي شيء مماثل لها طيلة حياتي» .

«لقد هدفوا إلى صرف انتباهنا عن شيء ما» . قال دي تشونسي مفكراً «ولكن عن ماذا؟»

أنهى كلامه في اللحظة التي فتح فيها إدوارد الباب إلى جناحه وتراجع لمرأى المشهد الذي كان ينتظره هناك .

رقد مورتيمر ميتاً ، وقد التف جسده العاري بملاءات مغرقة في اللون الخمري القرمزي الذي شكلته دماؤه .

«يا يسوع الذي في السماء!»

اندفع إدوارد إلى الأمام .

ركض الرجال الآخرون خلفه لكن لم يتسع لهم الوقت لايقاف القاتل : امرأة جميلة في ثوب وغطاء رأس داكنين ، قفزت إلى الأمام من الزاوية البعيدة وغرزت السكين الطويلة في جانب الأمير قبل أن تسحبها لضربة أخرى . شاهد دي تشونسي النصل يختفي فصاح بالآخرين «أوقفوها!» لم يكن هناك متسع من الوقت لأي عمل آخر .

تمكن إدوارد من الاستدارة بصعوبة وضربها على صدغها بقبضته المكورة . اصطدم فيتزهيو ودي كلير بها في اللحظة التالية وبرغم صيحات دي تشونسي وإدوارد المصاب بدرجة مريعة عليهما بايقاف سلاحيهما ، إلا أنهما سحبا خنجريهما وقتلاها ، يرفعان ويدفعان بسلاحيهما حتى توقفت عن الحركة كلياً .

بقي دي تشونسي يتذكر أنها لم تصرخ أو يصدر عنها أي صوت .

ظل إدوارد يتمتم وهو ينسحب نحو الذهول تدريجياً ، المرة تلو

الأخرى «امرأة ، يجب أن لا يعرفوا أنني قتلت من قبل امرأة . . .»
جمع دي تشونسي ملاءات في محاولة لإيقاف نزيف الجرح ، صائحاً في الآخرين أن يحضروا الطبيب ويغطوا جثة مورتيمر . بعد أن أنهى مهمته ، نظر إلى الفتاة الملقاة على الأرضية الحجرية المرة تلو الأخرى ، وهو يصلي ويدعو للأمير الذي مازال يتنفس ، خائفاً من أن تعاود النهوض ، حتى بعد أن بدأت دماؤها المتدفقة تعبر الأرضية وتختلط بدماء الأمير .

لدى عودته من استدعاء الجراح ، سأل فيتزهيو «كيف هو الوضع؟»

«لقد انتهى الأمر» . أجاب دي تشونسي .

عبد

القاهرة ، عام ١٢٩٣ ميلادية

وهكذا حدث أن عاد بيبرس إلى دمشق ونودي به بطلاً ، أعظم حتى مما تسمح به شهرته السابقة . . فقد أصبح الآن السلطان الذي خاض غمار معركتين في مكانين مختلفين في يوم واحد - الرجل الذي أسال دماء كل من إدوارد أمير إنجلترا داخل قلعة عكا ، وسحق أباغا ، عم الخان العظيم نفسه في ميدان المعركة المفتوح . انفتحت بلدان المشرق كلها أمامه وستظل كذلك حتى سنوات عمره الباقية . الاسم الذي أطلقوه على حملتي الصغيرة بصحبة قلاوون هو معركة الفزاعات ، مع أنكم لن تقرأوا أي شيء عنها في كتب التاريخ .

كذلك لن تقرأوا عن صفية ، مع أن كتابة هذه الكلمات توجع قلبي وكذلك استذكار ملامحها من المكان الذي جمعتها فيه مجرد الأمس ، واليوم الذي سبقه . لم يمر بي شروق للشمس إلا وفكرت فيها ووبخت نفسي حول الكيفية التي كان يمكن أن أحقق فيها الأمور بطريقة مختلفة . لقد انقضى وقت طويل قبل أن أتمكن حتى من إجبار روحي المعذبة على التفكير بأبعد مما حدث في تلك الأيام المحمومة .

لقد انقضى وقت طويل آخر قبل حتى أن أدرك بأنها قد ذهبت فعلياً والى الأبد ، فقد كانت عادتها في الاختفاء ثم العودة إلى الظهور مثل ملاك عند كتفي في الليل .

بعد أن تثبت الأمن في المناطق الواقعة شمال حمص ، سبحت البقايا المنهزمة من قوة أباغا عابرة النهر في طريقها إلى الأناضول ، وأصبح واضحاً عدم وجود المزيد من التهديد ليأتي من ذلك المكان في المستقبل القريب ، فأصدر بيبرس أمره بأنه ينبغي علينا صياغة هدنة مع القوات الفرنجية في عكا وإدوارد . جرى تنفيذ ذلك ، ورأيت الأمير الذي مازال مضمداً ويعاني من إصابات بليغة ، من مكان قريب للمرة الأولى . فهو لم ينج من هجوم صفية إلا بنعمة الرب وبنيته المفرطة في القوة . بدا أشبه بصورة انعكاس مرآة عن بيبرس بسبب ملامحه الداكنة ، طوله الفارع وعينه المغطاة . لم أستطع أن أوقف نفسي عن التحديق فيه . تولى مترجمه الأخ دي تشونسي معظم الكلام عن جانبهم ، وبدون تشاور إلا مع الرئيس العام هيوز ، وهكذا تم التوصل إلى شروط الاتفاقية بمنتهى السرعة . تصرف قلاوون الذي أرسله بيبرس ممثلاً عنه كرجل دولة طيلة الوقت ، ثم وقع وانصرف بطريقة ملفتة .

بات من المقرر أن يغادر إدوارد عكا ليشرف على ادارة مملكته ، وأصبح من المفروض احترام هدنة مدتها عشر سنوات ويوم من قبل رهبنة الفرسان والملك هيو والايبيليين ، وقوات السلطان . يمنع على أي جانب أن يساعد أعداء الجانب الآخر ، وتكون العقوبة على مخالفة هذه الشروط هي الاستئناف الفوري للأعمال العدوانية .

كان بيبرس بحاجة إلى التركيز على جبهة واحدة بدون موانع في مؤخرته ، لأنه مازال حذراً من قوة الخانات في الشمال . وهكذا فقد وقَّع .

كان الفرنجة بحاجة إلى مجرد البقاء أحياء ، ولكنهم لم يتمكنوا حتى من ضمان ذلك ، وعندما هاجم بعض من فرسانهم إحدى

القوافل بعد وفاة بيبرس ببضع سنوات ، قام خليل ابن قلاوون - والذي أصبح نفسه سلطاناً الآن - بهزيمتهم ودفعهم إلى داخل البحر .

لقد كنت هناك بالطبع ، ولكنني أصبحت أكبر سناً بكثير من أن أستطيع أن أقاتل ، فراقبنا بينما قامت فيضانات من شبابنا - الأولاد الذين تربوا ونشأوا على إنجازاتنا مع بيبرس - نصف - الإله - وهجموا على أسوار عكا فهدموها . احتفظت بالسجلات ولفائف الخشب . راودني شعور غريب لمعرفتي أنهم يندفعون إلى المعركة وهم يحفظون كلمات كنت قد كتبتها عن حياة بيبرس في قلوبهم . بينما كنت أراقب الوحشية تتحقق ، والفرنجة يقاتلون دفاعاً عن مدينتهم الأخيرة مثل العفاريت ، تساءلت عما إذا كان أي من الرجال الذين راقبوني ، وأنا أطلق النار على المدينة قبل عشرين سنة بصحبة كتيبة المدفع ، موجوداً هناك . لكنني واثق من أنهم الآن في عداد الأموات .

مضى قلاوون هو الآخر . أصبح سلطاناً في إثر بيبرس كما خطط للأمر على الدوام ، ومع أنه يفترض في هذا المقال أن يكون رواية حقيقية لما حصل ، إلا أنني أحس بأنني مجبر على القول بأن الأمور كانت ستتطور على نحو مختلف لو أن بيبرس قدم المزيد من الاهتمام لأولاده وتعليمهم في فنون السلطة .

طبعاً ، فإن السلطان الجديد حاكم عظيم ، كما كان قائداً عظيماً ، وقد أضاف إلى الإرث المثير للإعجاب الذي خلفه بيبرس لدى وفاته . لم يكن أحد يصدق أن الفرسان ، الذين سماهم أعداؤهم «المماليك» ، سيحتفظون بالسلطة لوقت طويل ، ولكنهم فعلوا ، من آيبك وقطز إلى بيبرس وقلاوون ، والآن الجيل الجديد . أتوقع أن تستمر سلالتهم إلى أجيال قادمة .

بحلول وقت وفاة بيبرس وصعود قلاوون ، كنت قد توصلت إلى مسامحة بيبرس على إرسال صفية إلى ذلك المكان لتقدم على عمل بهذه الدرجة من العظمة والرهبة والخطورة .

صحيح أنني عندما أفكر فيه الآن فأنا أتذكره واقفاً على تلة عين جالوت ، يدفع بالأعداء ليسقطهم على الصخور تحتها ، وهو ينشد الأغاني في الأثناء ، ولكن حتى لو كانت تلك المعركة هي نصره الأعظم ، فهو لم يصبح سلطاناً بحق وحقيق إلا في السنوات التالية .

ما يبقى الآن لنا هو أن نتذكر الطريقة التي أنقذ فيها نصف العالم من الإبادة على يدي جحافل كانت قد دمرت نصف آسيا سلفاً ، وكيف تفوق على أعظم جيش تمكن الفرنجة من تجميعه في لافوربي ، ومرة أخرى كيف أوقف جيش لويس التاسع من الاستيلاء على مصر كلها . كانت هناك انتصارات أخرى بالطبع – أنطاكية ، المعركة الطاحنة الفظيعة والمذبحة التي تحولت إليها – لكنني أكبر سناً من القدرة على الكتابة عنها .

إن الرجال الذين يغيرون مسار التاريخ هم قلة فعلياً ضمن أعداد الإنسانية الغفيرة ، وليس الذين يعرفونهم كثيرين بكل الأحوال . هي أعجوبة بالنسبة لي أن أنظر إلى شوارع القاهرة أو أتسلم مراسلات من زملائي في مدن أخرى ، وأعرف أن كل حيواتهم وحيوات الناس الذين يتجولون في الأنحاء كانت ستكون مختلفة لولا جهود الرجل الذي عرفته يوماً . ربما يكون ذلك هو أعظم رثاء أكتبه في حق بيبرس البندقداري .



THE SULTAN

NOVEL

محي الدين قندور



الكتاب الثالث من ثلاثية بيبرس

"السلطان" هو استمرار قصه بيبرس ونهايتها.
في أعقاب حملته الناجحة ضد المغول، وصلت شعبية بيبرس إلى ذروتها، مما جعله منافسا جديا للسلطان قطز. تبدأ الاحتكاكات والخلافات بين المحاربين القديمين وتخلق انقسامات خطيرة داخل صفوف الفرسان المعروفين فيما بعد بالمماليك.

يحاول قطز عزل بيبرس، وفي آن واحد، يعزل مساعديه المخلصين. ولكن صفية الماكرة التي كانت موجودة في وقت مضى كجاسوسة موالية لقلاوون، تناور بذكاء لإعطاء بيبرس ميزة في لعبة الشطرنج السياسية.

وهناك خاتمة غير متوقعة تماما بعد بعض مغامرات خطره على عرش السلطنة.
و بيبرس يحتاج إلى استخدام مهاراته الأكثر دهاء وأساليب لا ترحم للفوز بها.

نهايه مثيرة لثلاثية المغامرة التاريخية.













ISBN 978-614-419-847-6
9 786144 198476


49 عاماً في خدمة الثقافة العربية
BASRA 2018
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
http://www.airpbooks.com